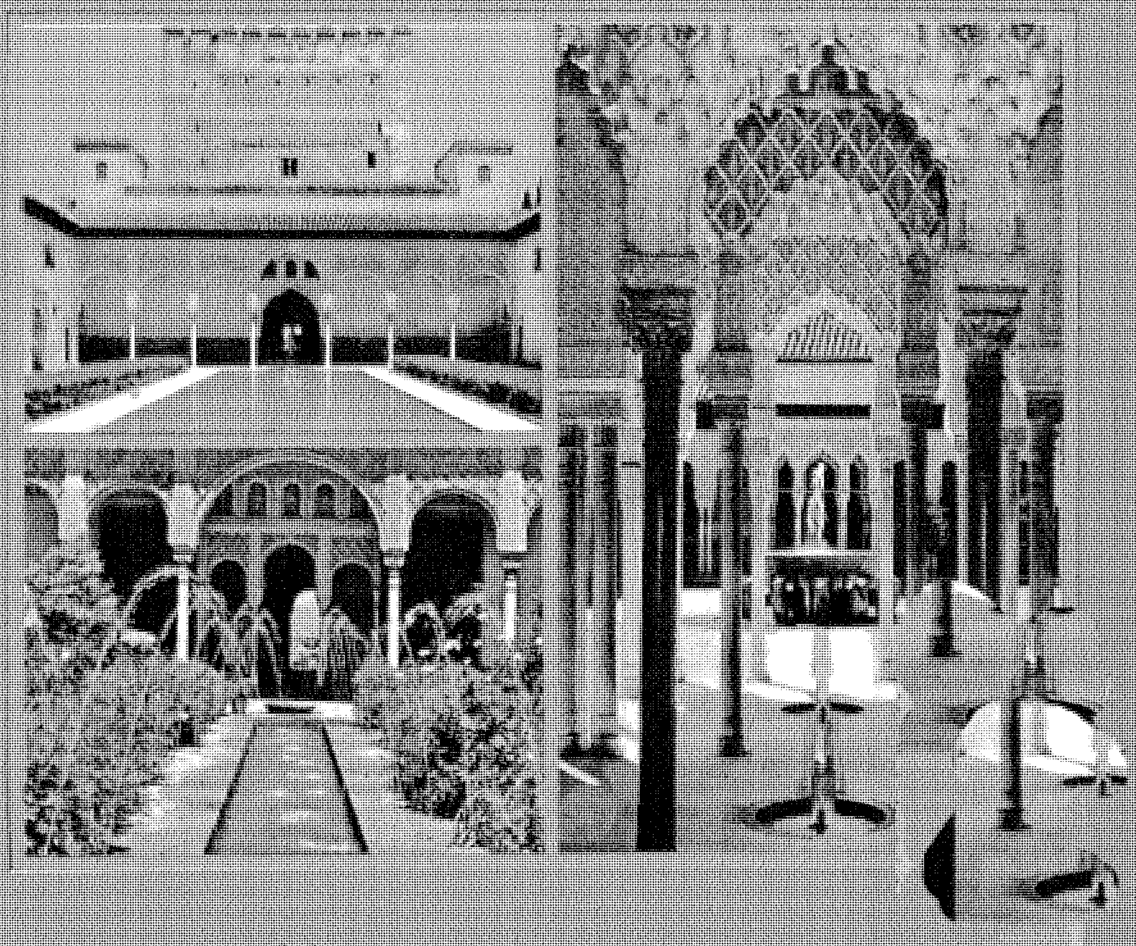
الدكتورة مريم قاسم طويل

مملكة غرناطة

في عهد بني زيري البربر

٤٠٣ - ٤٨٣هـ / ١٠١٢ - ١٠٩٠م



دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

مملكة غرناطة

في عهد بني زيري البربر

٤٠٣ - ٤٨٣هـ / ١٠١٢ - ١٠٩٠م

تأليف :

الدكتورة مريم قاسم طويل

دكتوراه دولة في التاريخ الاندلسي
أستاذة اللغة الاسبانية بالجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

مكتبة الوحدة العربية
الدار البيضاء

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٣ ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٠٠/٩٦١١/٦٠٢١٣٣ - ٠٠/١٢١٢/٤٧٨١٣٧٣



إهـــــداء

إلى أمي التي علَّمَتْني

أنَّ الأمَّ عالم قائم بذاته

مريم قاسم طويل

غــرنــاطــةٌ مــا لــهــا نــظيــرُ
ما مصرُ، ما الشامُ، ما العراقْ؟
مــا هــي إلَّا العــروسُ تُـجْلَىٰ
وتــلك مــن جــملة الــصَّـداقْ

مقدمة

ليس غريباً أن يندفع الباحثون منذ عقود إلى دراسة التاريخ الأندلسي، والاغتراف من مَعِيْنه، ولكن ما حظي به من دراسات، لا يزال ضئيلاً أمام شموخ التراث الأندلسي وسعته. ففي بداية هذا القرن، صَبَّ الباحثون اهتماماتهم على نشر بحوث علمية جادّة، فشكَّل ذلك خطوة مهمة، ولكنها ظلت غير مكتملة؛ لأنها تناولت في معظمها عصر الخلافة الأموية، وقليلٌ منها تناول عصر ملوك الطوائف، وتطرق إلى ماضي بني زيري البربر بغرناطة.

وإذا نحن أقررنا بأنّ عصر ملوك الطوائف من أخصب الفترات وأغناها في تاريخ الأندلس، فإنَّ موضوعنا يأخذ قيمته وأهميته. وإذا نحن عَرَفْنا أن بني زيري قَدِموا من بلاد المغرب إلى الأندلس في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وتمكّنوا بعد وقت قصير لا يتجاوز عشرين عاماً من مكوثهم في الأندلس، من بناء مدينة غرناطة وإقامة حكم لهم فيها وفي نواحيها امتدَّ زهاء ثمانين حَوْلاً، تكون دراستنا محاولة رائدة في تناول تلك الفترة الغنية بالأحداث.

ولهذا عَقَدْتُ العزم على أن تكون غرناطة موضوع دراسة مستقلّة أقدّمها للقارىء العربي، وأضيفها عملاً جديداً إلى المكتبات العربية، ولا سيما الأندلسية منها؛ لأنَّ تلك المدينة، منذ أن استحدثها بنو زيري في في بداية حكمهم في مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي، صارت عاصمة لواحدة من ممالك الأندلس، تزخر بمنجزات حضارية هامة في ميادين الثقافة والاقتصاد والعمران، فشدَّني ذلك إليها باستمرار، ورأيت أن أبحث فيها، ولو كلّفني ذلك مشقة للوصول إلى مبتغاي.

ومن جهة ثانية، لا نعلم أحداً كتب في موضوع مستقل، عن ملوك بني زيري بغرناطة، في اللغة العربية وغير العربية. لذا قمْتُ بهذا البحث، وانتدبْتُ فيه

للتأليف، ورَجَوْتُ، على اتساع الموضوع وصعوبته، أنْ أضطلع من هـذا القصد بالعبء، والمجتهدُ في هذا الغرض مقصِّر. وإلى جانب ذلك، فإن السنوات الست التي أمضيْتُها في ربوع الأندلس من العام ١٩٧٣ إلى العـام ١٩٧٩، ومنها سنتـان بغرناطة، أكبر باعث حفزني للاطلاع على تاريخ الأندلس، وبخاصة تاريخ غرناطة في ظل بني زيري، حيث تجلَّتْ لي إنجازات هؤلاء القوم الضخمة، خلال مشاهداتي لغرناطة واطّلاعي عن كثب على ما تبقّى فيها من آثارهم.

والترتيب الذي انتهتْ إليه حيلتي هو أني ذكرت غرنـاطة، فنبَّهْتُ منهـا على قديمها، ومناحها ومَنْ تولاّها وسكنها، وأحوال أناسها، وقدَّمْتُ صورتها على ما كانت عليه، وذكرْتُ ملوكها وأعيانها، ووزراءها، وأدباءها، وعلماءها وقضاتها، ومُحَدِّثيها، وفقهاءها، وكُتّابها، وشعراءها، وتحدَّثْتُ عن طبقات مجتمعها. **وكانت طريقة عملي واضحة، قسَّمْتُ البحث بموجبها إلى ثلاثة أبواب**، باب جغرافي، وباب تاريخي، وباب حضاري. فالباب الأول يشتمل على ثلاثة فصول، ففي الفصل الأول تحـدَّثْتُ عن تعمير غرناطة وتسميتها وموقعها وأوصافها. وفي الفصل الثاني بحثْتُ في مَرْجها وجبالها وأنهارها. وفي الفصل الثالث عَرَضْتُ لأعمالها من مدن وقرى.

أما الباب الثاني، فإنه يشتمل على أربعة فصول؛ ففي الفصل الأول تحدَّثْتُ عن غرناطة في عهد زاوي بن زيري، فَقَدَّمْتُ نبذة موجزة عن أوّليّة بني زيري، ثم بَيَّنْتُ كيف أقام زاوي مملكة غرناطة وتركها وارتحل إلى القيروان. وفي الفصل الثاني بَحَثْتُ في شأن غرناطة في عهد حبوس بن ماكسن بن زيري، وأَوْضَحْتُ كيف تولّى مقاليد الحكم، وكيف كانت علاقته بمن حوله من حكام الأندلس وإسبانيا النصرانية، وما هي أعماله الإدارية والمعمارية، ومن هم وزراؤه وكُتّابه، وما هي صفاته، وكيف كانت نهايته. وفي الفصل الثالث رسمْتُ صورة واضحة لغرناطة في عهد باديس بن حبوس، فأوضحْتُ كيف تولّى مقاليد السلطة، وكيف كانت عـلاقته بنـظرائه أمـراء الطوائف وحكام إسبانيا المسيحية، وتناولْتُ أعماله الإدارية والعمرانية، وتحدَّثْتُ عن وزرائه وكُتّابه وقضاته، ثم أنهيْتُ الفصل بالحديث عن أولاده، وصفاته، ونهايته. وفي الفصل الرابع تناولْتُ غرناطـة في عهد عبـد الله بن بلقين، آخر أمـراء بني زيري، فاطَّلَعْتُ على مشاكل غرناطة الداخلية في عهده، وعلى علاقته بمن حوله من ملوك الأندلس، وعلاقته بالملك الإسباني ألفونسو السادس، وسردْتُ لطائفـة من وزرائه

وكُتّابه وقضاته، وخلصْتُ إلى الحديث عن صفاته، ونهايته على يدي أمير المرابطين يوسف بن تاشفين.

أما الباب الثالث، فإنه عبارة عن دراسة اجتماعية واقتصادية وعمرانية وثقافية لمملكة غرناطة في عهد بني زيري مجتمعين، ويشتمل على أربعة فصول. ففي الفصل الأول تحدّثْتُ عن المظاهر الاجتماعية لمملكة غرناطة بهدف إلقاء أضواء ساطعة على حياة الناس فيها، فبحثْتُ في العناصر والطبقات التي يتكون منها مجتمع غرناطة، وعرضْتُ لأوصاف أهل غرناطة وعوائدهم وسِيَرِهم، وتحدَّثْتُ عن دور المرأة في المجتمع الغرناطي سواء كانت حرّة أو أَمَة. وفي الفصل الثاني قدَّمْتُ صورة جليّة عن وضع غرناطة الثقافي في عهود بني زيري، فتناولْتُ الحياة الأدبية واللغوية والعلمية، وسردْتُ لطائفة من شعراء غرناطة ولغوييها وعلمائها. وفي الفصل الثالث درسْتُ أوضاع غرناطة الاقتصادية، فتحدّثْتُ عن العملة المعتمدة فيها، ثم تناولْتُ ثلاثة جوانب هي الزراعة والصناعة والتجارة، فتحدَّثْتُ عن إنتاج غرناطة الزراعي، وعن محاصيل أعمالها الزراعية، وتناولْتُ أهمَّ الصناعات فيها كصناعة النسيج، وصناعة الرخام، وصناعة المعادن، وصناعة الزيوت، وصناعة الزجاج، وصناعة الفخار، وصناعة السفن، وصناعة الخمور والأنبذة، وصناعة السكر. ثم بحثْتُ في العوامل التي ساعدتْ على ازدهار التجارة ونشاط حركة التصدير والاستيراد. وفي الفصل الرابع بحثت في المنشآت الحربية والمدنية والدينية التي أقيمت في غرناطة، فتناولْتُ أبوابها الخارجية والداخلية، وقصبتها، وسُوْرها، وقصرها، ومساجدها، وقَيْساريتها، ومبانيها، وميادينها، ورباطاتها، وزواياها، ومقابرها، وانتهى البحث بخاتمة شملت أهم النتائج التي توصّلْتُ إليها، وأعْقَبْتُه بقائمة المصادر والمراجع التي اعتمدْتُ عليها في إنجاز العمل وتطويره، وتنوف على المئة والسبعين كتاباً.

وأكثر اعتمادي على مؤلَّفات ابن حزم، وابن حيان، وابن بلقين، وابن بسام، وابن الكَرْدَبُوْس، وابن سعيد، وابن عِذاري، وابن أبي زرع، وابن الخطيب، وابن خلدون، والمقري. فابن حزم القرطبي الذي يتحدر من أسرة إسبانية الأصل، أديب ومؤرخ وفقيه، ولهذا تُصَوِّرُ مؤلَّفاته حياتَهُ في تقلّباتها المختلفة. وأهمُّ كتبه التي اعتمدْتُها رسائله التي جمعها الدكتور إحسان عباس في أربعة أجزاء، يتناول الجزء الأول أربع رسائل، وهي رسالة طوق الحمامة في الألفة والآلاف، وهي رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه. وقد ألّفها في مدينة شاطبة عام ٤١٧ هـ/

١٠٢٦ م أو ٤١٨ هـ/ ١٠٢٧ م، نزولاً عند رغبة صديق ودود له، بهدف تقديم تجربة أندلسية خالصة يصوّر فيها كيف يعيش الحب في الواقع الأندلسي. ورسالة في مداواة النفوس وتدور حول الفلسفة الذاتية وفيها كثير من حكم ابن حزم. ورسالة في الغناء الملهي، وفيها يعرض المؤلف لمواقف العلماء من الغناء. ورسالة في معرفة النفس بغيرها، وتدور حول الحوار الذاتي.

ويتناول الجزء الثاني ست رسائل؛ رسالة في نَقْط العروس في تواريخ الخلفاء، ورسالة في أُمّهات الخلفاء، ورسالة في جُمَل فتوح الإسلام، ورسالة في أسماء الخلفاء، ورسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، ورسالة في ذكر أوقات الأمراء وأيامها بالأندلس. ويتناول الجزء الثالث تسع رسائل؛ رسالة في الردّ على ابن نغرالة اليهودي، ورسالتان أجاب فيهما عن رسالتين سُئِل فيهما سؤال تعنيف، ورسالة في الرد على الهاتف من بعد، ورسالة التوقيف على شارع النجاة، ورسالة التلخيص لوجوه التخليص، ورسالة البيان عن حقيقة الإيمان، ورسالة في الإمامة، ورسالة في حكم من قال إن أرواح أهل الشقاء معذبة إلى يوم الدين. ويتناول الجزء الرابع خمس رسائل؛ رسالة مراتب العلوم، ورسالة التقريب لحد المنطق، ورسالة في ألم الموت وإبطاله، ورسالة الرد على الكندي الفيلسوف، ورسالة تفسير ألفاظ تجري بين المتكلمين في الأصول. وإلى جانب هذه الرسائل اعتمدت على كتابه «جمهرة أنساب العرب» ويتحدث عن العرب والبربر والإسبان الذين عاشوا في الأندلس.

وابن حيان القرطبي من أعظم مؤرخي الأندلس، وقد امتازت رواياته بالدقة والنظرة التحليلية. وأهم مؤلفاته التي استقيْتُ منها المعلومات كتاب «المقتبس»، ويتناول تاريخ الأندلس من الفتح العربي حتى أواخر القرن الرابع الهجري، أي حتى قبيل عصر ابن حيان. وقد وصلنا من هذا الكتاب ثلاث قطع منفصلة ومحققة؛ تتناول القطعة الأولى عصر الحكم الربضي وجزءاً من عهد عبد الرحمن الثاني، وقد حققها الدكتور محمود علي مكي. والقطعة الثانية تتناول عهد عبد الله بن محمد الأموي، وحققها الراهب الإسباني ملتشور أنطونيا Melchor Antuna. والقطعة الثالثة تتناول عصر الحكم المستنصر، ونشرها الدكتور عبد الرحمن الحجي. وهناك قطعة رابعة تتناول معظم عهد عبد الرحمن الناصر، وهي غير منشورة حتى اليوم حسب ظننا.

وابن بلقين عبد الله بن زيري الصنهاجي هو آخر ملوك غرناطة من بني زيري، وقد

قضى عليه المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين عام ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م، ونفوه إلى أغمات في جنوب المغرب. وفي أغمات كتب عبد الله مذكراته الخاصة وأسماها «التبيان». وتتضمن معلومات تاريخية هامة عن عصر ملوك الطوائف بصفة عامة، وعن أسرة بني زيري منذ تسلّمهم الحكم بغرناطة وحتى الإطاحة بعرشه. ولذلك يعدُّ هذا الكتاب مادة رئيسية في بحثي

واعتمدت كثيراً على كتاب ابن بسام الشَّنْتَرِيْني، نسبة إلى مدينة شنترين Santaren في البرتغال التي كانت تابعة للأندلس. وهذا الكتاب موسوعة أدبية وتاريخية تتضمن تراث القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وهي الفترة التي تخصّ دراستنا. وكون ابن بسام أديباً، فقد اعتمد في مادته التاريخية على روايات ابن حيان. وينقسم هذا الكتاب إلى أربعة أقسام في ثمانية مجلدات، على حسب الأقاليم الأندلسية، بحيث يتحدث في كل إقليم على ملوكه وأمرائه وأدبائه وعلمائه... ويتناول القسم الأول قرطبة وما يجاورها، ويتناول القسم الثاني إشبيلية ومنطقة غرب الأندلس. والقسم الثالث يتناول بلنسية وشرق الأندلس. والقسم الرابع والأخير يتحدث عن الغرباء الذين قدموا إلى الأندلس من المشرق أو المغرب. وقد نشر هذا الكتاب الدكتور إحسان عباس.

ولا يقل كتاب ابن الكَرْدَبُوْس أهمية عن غيره من الكتب، بحيث يتناول حيزاً كبيراً من تاريخ الأندلس في عصر ملوك الطوائف، وهو كتاب «الاكتفاء في أخبار الخلفاء»، وقد نشره الدكتور أحمد مختار العبادي تحت عنوان «تاريخ الأندلس» ويقع في جزء واحد صغير الحجم، ولكنه كثير الفائدة العلمية.

وابن سعيد ينتمي إلى أسرة من المؤرخين حكمت قلعة يَحْصِب أو قلعة بني سعيد من أعمال غرناطة في القرنين السادس والسابع من الهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد. وقد تضافر أفراد هذه الأسرة على كتابة تاريخ شامل للأندلس في مدة استغرقت ما ينوف على القرن، وانتهى على يدي ابن سعيد، وهو كتاب «المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب». وقد ضاع معظم هذا الكتاب، وما تبقّى منه حققه الدكتور شوقي ضيف في جزءين، ويتضمن تراجم لبعض الشخصيات البارزة في الأندلس من العصر الأموي حتى نهاية عصر الموحدين. وقد عدْتُ إليه في كثير من الأمور.

كذلك كان معتمدي في كثير من الأحيان كتاب «البيان المُغْرِب في أخبار

الأندلس والمَغْرب» لابن عِذاري المراكشي. ويتناول تاريخ المغرب والأندلس من لَدُنْ الفتح حتى أواخر القرن السابع الهجري. ويقع في أربعة أجزاء محققة، فالجزءان الأول والثاني، يتناولان تأريخ المغرب والأندلس من الفتح إلى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، أي إلى سقوط الخلافة الأموية، وقد نشرهما الأستاذان كولان وليڤي ـ بروڤنسال. ويتناول الجزء الثالث أخبار الأندلس والمغرب في عصر ملوك الطوائف، أي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وقد نشره الأستاذ ليڤي ـ بروڤنسال. والجزء الرابع قطعة من تاريخ المرابطين، وقد نشرها الدكتور إحسان عباس.

كما أن كتاب «الأنيس المُطْرب بروض القِرْطاس في أخبار ملوك المَغْرب وتاريخ مدينة فاس» لابن أبي زَرْع، مصدرٌ أساسي في جمع المادة، ولا سيما ما يتعلق بمعركة الزَّلَّاقة الشهيرة التي وقعت بين المسلمين من جهة وبين الإسبان من جهة ثانية، وكان النصر فيها حاسماً لصالح المسلمين، وذلك في عام ٤٧٩ هـ /١٠٨٦ م. ويتناول هذا الكتاب تاريخ المغرب من سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م، إلى سنة ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٥م، أي أنه يشمل تاريخ الدول الخمس التي حكمت المغرب، وهي دولة الأدارسة، ودولة زناتة، ودولتا المرابطين والموحدين، ودولة بني مرين.

وأخذْتُ الكثير من كتب لسان الدين ابن الخطيب، ولا سيما كتاب الإحاطة، وهو عبارة عن تراجم لملوك غرناطة وعلمائها وجميع الذين وفدوا عليها من المغرب والمشرق. وقد ذكر ابن الخطيب أن الدافع الرئيسي لتأليف هذا الكتاب هو حبه لوطنه غرناطة. ويقع في أربعة أجزاء بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان. كذلك أخذْتُ من كتابه الموسوم بـ «أعمال الأعلام فيمن بُويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام»، وهو عبارة عن تاريخ عام للعالم الإسلامي، وينقسم إلى ثلاثة أقسام؛ القسم الأول يتناول تاريخ المشرق الإسلامي من السيرة النبوية حتى عصر المماليك، وما يزال مخطوطاً، والقسم الثاني عبارة عن تاريخ عام للأندلس من لَدُن الفتح حتى عصر ابن الخطيب، أي القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وقد حققه الأستاد ليڤي ـ بروڤنسال. والقسم الثالث يتناول تاريح المغرب حتى بداية عصر الموحدين وقد حقّقه الدكتور أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني.

أما ابن خلدون، فكنْتُ أرجع إلى مؤلَّفه في أحايين كثيرة، وهو كتاب العِبَر

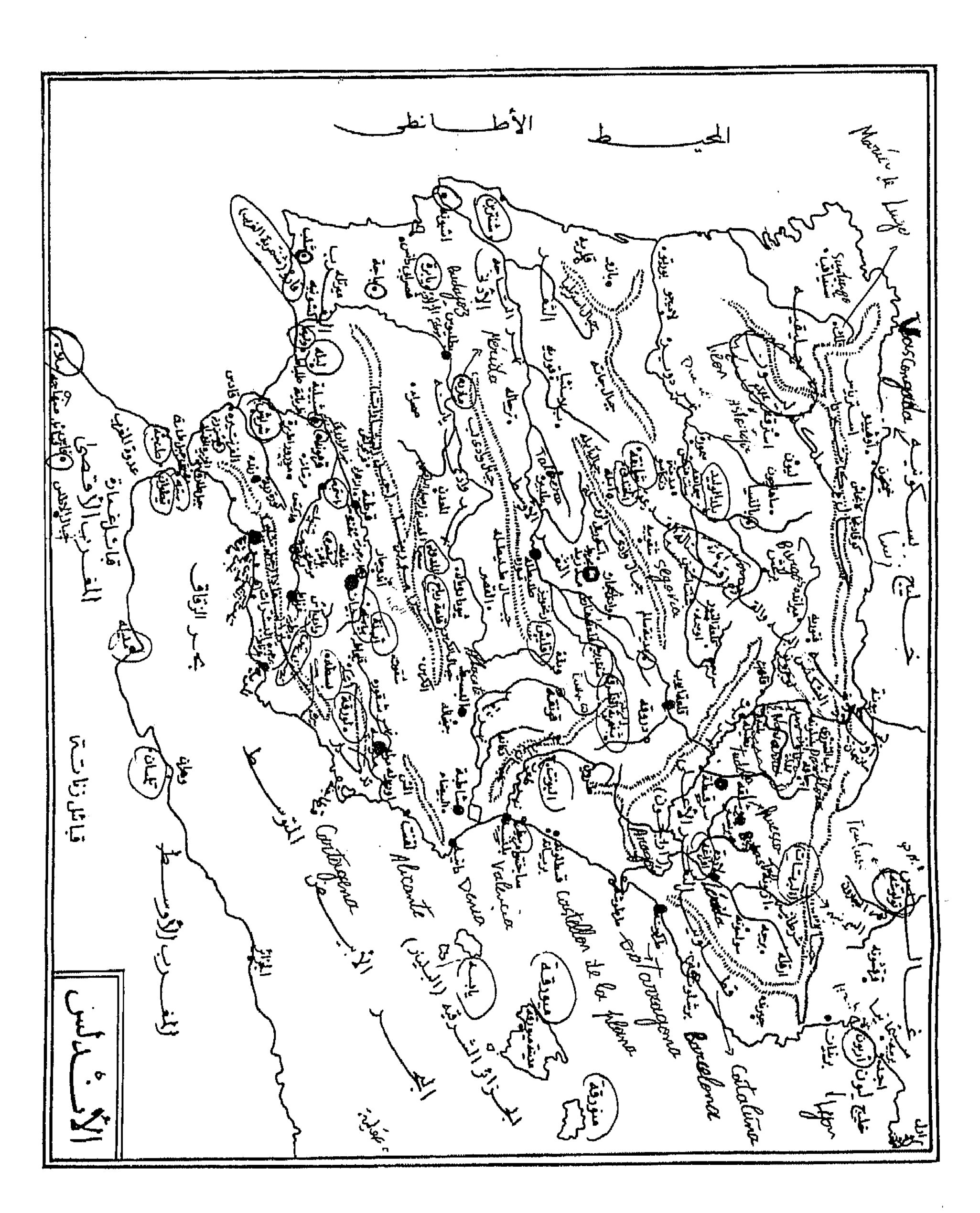
وديوان المبتدإ والخبر، ويعرف بتاريخ ابن خلدون، ويقع في ثمانية مجلدات، والمجلد الأول هو المقدمة المشهورة التي يرى فيها أن التاريخ فرع من الفلسفة. وفيها معلومات هامة عن حضارة المغرب والأندلس وأنظمة الحكم فيهما. أما المجلدات الباقية، فإنها تتناول أخبار العرب منذ بدء الخليقة إلى عصره، وأخبار البربر ودولهم بديار المغرب والأندلس.

وأخيراً وليس آخراً، فقد كان كتاب «نفح الطيب» للمَقَّري من أهم الكتب التي اعتمدْتُ عليها، وقد ألَّفه المقري بعيداً عن وطنه المغرب، ولذا جاء غير منتظم في سرد معلوماته. وبرغم ذلك، فإنه يُعَدُّ مصدراً أساسياً لجميع الباحثين في الدراسات الأندلسية. وقد اعتمدْتُ على النسخة التي حققها الدكتور إحسان عباس، وتقع في ثمانية أجزاء.

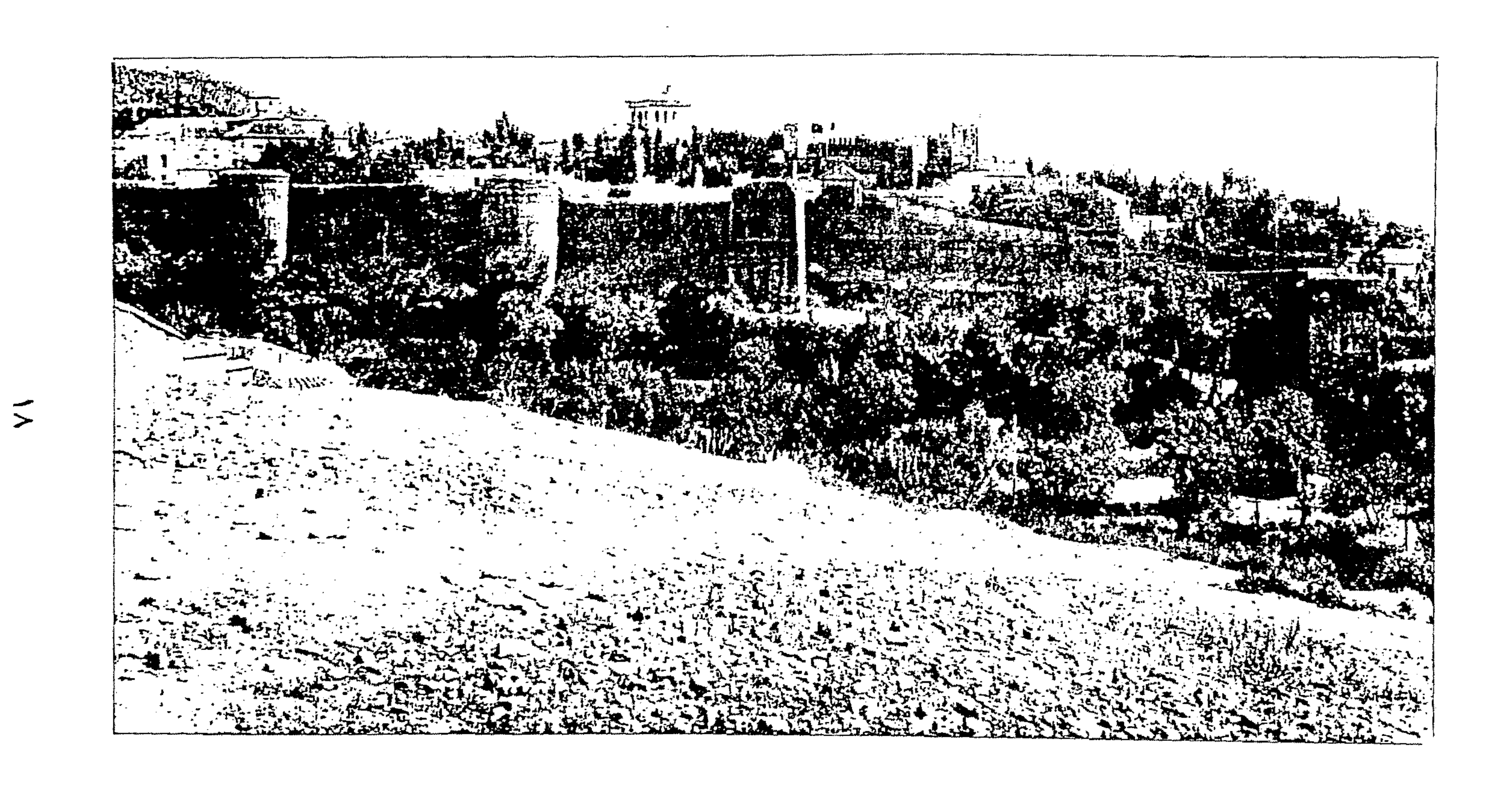
وأخيراًوأسأل الله تعالى العفو عما طغى به القلم أو سَهَا، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير. فإن كنت قد أَصَبْتُ الغرض أو قاربْتُ، فقد بلغْتُ من عملي المراد، وإن كان سهمي قد طاش، فقد يشفع لي الاجتهاد. ولم يغب عن ذهني قول العماد الأصفهاني صاحب كتاب الخريدة: «إني رأيت أنه لا يكتبُ إنسان كتاباً في يومه إلّا قال في غده: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زِيْدَ كذا لكان يُسْتحسن، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

الباب الأول

الوضع الجغرافي لغرناطة مذ كانت بلدة إلى أنْ أصبحت عاصمة في عهد بني زيري



خريطة الأندلس، مستخرجة من كتاب «تاريخ الأدب الأندلسي ـ عصر سيادة قرطبة
للدكتور إحسـان عباس



رســـم غرناطة في عهد بني زيري، مأخوذة من:

Encyclopédie de l'Islam Nouvelle édition, Tome II, (P. 1040).

تعميرها، تسميتها، موقعها، أوصافها

تعميرها: اختلف المؤرخون في تحديد ما كانت عليه غرناطة أثناء الفتح العربي للأندلس، فرأى فريق أنها كانت آنذاك عاصمة كورة إلبيرة، ورأى فريق ثان أنها كانت مدينة صغيرة من مدن إلبيرة، ورأى فريق ثالث أنها كانت قرية من قرى إلبيرة أو ربضاً من أرباضها. فصاحب كتاب «أخبار مجموعة» يرى أنها كانت أثناء فتح الأندلس عاصمة كورة إلبيرة؛ ويروي أن طارق بن زياد فرّق جيوشه عند الفتح، فبعث مغيثاً الرومي إلى قرطبة، وبعث جيشاً آخر إلى مدينة رَيُّه، وجيشاً ثالثاً إلى غرناطة مدينة إلبيرة، وسار هو يريد طليطلة، ولحق الجيش الذي افتتح ريُّه بالجيش المتوجّه إلى إلبيرة، فحاصروا مدينتها غرناطة وفتحوها، وأَلْفَوا بها يهوداً فضمّوهم إلى المدينة، وصار لهم ذلك سُنَّة مُتَّبعة، متى فتحوا بلدة ووجدوا فيها يهوداً ضمّوهم إلى المدينة، وتركوا معهم طائفة من المسلمين، ليقوموا جميعاً بحمايتها[1]، وابن الخطيب الذي خصَّ غرناطة بكتاب ضخم هو «الإحاطة في أخبار غرناطة» يرى أن غرناطة من أقدم مدن كورة إلبيرة[2]. ثم روى ما جاء به صاحب أخبار مجموعة مع تغيير طفيف، فذكر مالقة بدل رَيُّه، وقال إن فتح غرناطة تمَّ عام ٩٢ هـ/ ٧١٢ م[3]. واعتمد المقّري على رواية صاحب أخبار مجموعة وذهب مذهبه في أن غرناطة كانت

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس، وذكر أمرائها، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨١ (ص ١٩ - ٢٢).

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٧٣ - ١٩٧٧ (ج١ ص ٩٣).

(٣) المصدر نفسه (ص ١٠١) واللمحة البدرية في الدولة النصرية، دار الآفاق الحديدة، بيروت ١٩٨٠ (ص ٢٥ - ٢٦)

عند الفتح حاضرة إلبيرة[١]. ثم ناقض نفسه في قوله: «وكانت إلبيرة هي المدينة قبل غرناطة»[٢]. وقال ابن سعيد إن البيرة كانت القاعدة منذ زمن بعيد: «إلبيرة كانت قاعدة المملكة في القديم»[٣]. ورأى الحميري أنّ غرناطة من مدن إلبيرة وأن إلبيرة ظلت المدينة المقصودة حتى بداية عصر ملوك الطوائف حيث استحدثت مدينة غرناطة وأخذت تحلّ محلّ إلبيرة[٤]. وذكر دوزي أن غرناطة كانت عندما افتتحها المسلمون مدينة كورة إلبيرة، وكذلك كانت في عام١٣٩ هـ/ ٧٥٦م، أي بعد مرور سنة على تولّي عبد الرحمن الداخل مقاليد السلطة بالأندلس، وقد لجأ إليها يوسف الفِهْري آخر ولاة الأندلس، هرباً من بطش عبد الرحمن[٥]. ثم ناقض نفسه فذكر أن إلبيرة كانت عاصمة كورة إلبيرة، ثم أصبحت غرناطة العاصمة مكانها في عهد زاوي بن زيري[٦].

وكان ابن الخطيب قد أشار إلى أن يوسف الفهري لحق بإلبيرة عام ١٣٩ هـ/ ٧٥٦ م وامتنع بحصن غرناطة، فحاصره عبد الرحمن الداخل وأجبره على عقد صلح معه: «ولمّا انهزم الأمير يوسف بن عبد الرحمن الفهري لحق بإلبيرة، فامتنع بحصن غرناطة، وحاصره الأمير عبد الرحمن بن معاوية، وأحاط به، فنزل على صُلْح، وانعقد بينهما عَقْد. . . بتاريخ يوم الأربعاء لليلتين خَلَتا من ربيع الأول سنة تسع وثلاثين ومائة»[٧].

وقد علّق المستشرق الإسباني **سيمونيت** على هذا النصّ بقوله: «بعد احتلال غرناطة بخمسين سنة يتحدّث ابن الخطيب عن **حروب عبد الرحمن الداخل مع يوسف الفهري**، فيقول: إن غرناطة كانت آنذاك حِصْناً رئيسياً لإلبيرة، وان عبد الرحمن هزم

---

(١) المَقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٦٨ (ج١ ص ٢٦٣).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٥٠)

(٣) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤ (ج٢ص ٩٣).

(٤) الحميري: الروض المعطار في حبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٨٠ (ص ٤٥).

(٥) Dozy. Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge, 3— édition, Amsterdam, Oriental Press, 1956, (T.I, P 337 - 338).

(٦) Dozy Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almor--avides, Leyde 1932 (T. 3, P3)

(٧) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج٣ ص ٤٦٩)

الفِهْري الذي كان قد تحصّن في حِصْن غرناطة عام ١٣٨ هـ/ ٧٥٥ م»[١].

واكتفى ياقوت والقزويني وابن عبد الحق بالإشارة إلى أن غرناطة من أقدم مدن كورة إلبيرة[٢].

وذهب محمد عبد الله عنان إلى أن غرناطة كانت عندما افتتحوها مدينة صغيرة من أعمال إلبيرة، على مقربة من مدينة إلبيرة عاصمة كورة إلبيرة، من الناحية الجنوبية[٣]. وقيل: كانت غرناطة في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي بلدة كبيرة محاطة بأسوار ممتدّة على الجهة اليمنى لنهر حَدَرُّه Darro، ومن لدن القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وحتى بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، لم تكن غرناطة المدينة المهمّة، بل كانت إلبيرة حاضرة كورة إلبيرة[٤].

وذكر سيمونيت أنَّ إلبيرة كانت في عهد القوط حاضرة كورة إلبيرة، وظلت كذلك منذ احتلالها من قبل العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري حيث انتقل الناس إلى غرناطة في عام ٤٠٠ هـ/ ١٠١٠ م إثر الفتنة البربرية بقرطبة، كونها حِصْناً يَحْميهم[٥] وأضاف: كانت غرناطة أثناء افتتاحها ضيعة أو ربضاً من أرباض إلبيرة مجاورة لها، ثم حصّنها العرب فيما بعد وجهزوها بما تحتاجه الحصون والمعاقل[٦]. وأضاف: إن المؤرخين العرب، عند حديثهم عن احتلال الأندلس، قد خلطوا بين إلبيرة وغرناطة، وفي مقدمتهم ابن الخطيب في روايته لدخول طارق بن زياد الأندلس[٧].

وذهب محققا أعمال الأعلام لابن الخطيب أحمد مختار العبادي ومحمد

---

(١) Simonet: Descripción del reino de Granada bajo la dominación de los Nasaritas, Granada, 1872 (P 28)

(٢) ياقوت الحموي. معجم البلدان، دار صادر، دار بيروت ١٩٨٤ (ج٤ ص ١٩٥)؛ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت (ص ٥٤٧)؛ ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق الاستاذ علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ (ص ٩٩٠)

(٣) عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصّرين، مطبعة مصر، القاهرة ١٩٥٨ (ص ١٧).

(٤) Huici Miranda. Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, Leiden, 1960 - 1986 (T. 2, p. 1036)

(٥) Simonet. Descripción (P 26, 32 - 33)

(٦) Ibidem (P 27, 40)

(٧) Ibidem (P. 28)

إبراهيم الكتّاني إلى أن غرناطة كانت عند الفتح قرية من قرى إلبيرة[1]. ونحن بدورنا نقول إن إلبيرة ظلت حتى استيلاء بني زيري عليها في بداية القرن الخامس الهجري حاضرة كورة إلبيرة، وانّ غرناطة كانت آنذاك عبارة عن بلدة كبيرة، أي مدينة صغيرة، وإن بعض المؤرخين، عند حديثهم عن فتح إلبيرة، خلطوا بينها وبين غرناطة.

وهكذا فإن غرناطة مدينةٌ مُحْدَثَةٌ، استحدثها بنو زيري في بداية حكمهم، فهي «محدثة من أيّام الثوّار بالأندلس»[2]. وقد بدأ ببنائها زاوي بن زيري، وجعلها قاعدة لسلطانه وعاصمة لملكه[3]. وقبل رحيل زاوي إلى العُدْوة المغربيّة بسنة، أي في عام ٤٠٩ هـ/ ١٠١٨ م، لم يكن قد استكمل بناؤها بعد[4]، فأكمل حبوس بن ماكسن بناءها وبناء قصبتها وتحصين أسوارها، ثم زاد في عمارتها ابنه باديس بن حبوس بعده، وكملت في أيامه[5]، وأصبحت مع الوقت مدينة كبيرة مستديرة[6].

وبقيام مدينة غرناطة أخذ الخراب يدبُّ بمدينة إلبيرة. وقد رأى ابن سعيد أن أصحاب زاوي هم الذين أقدموا على تخريبها[7]. وكان قد ذكر أن خرابها بدأ في أواخر القرن الثالث الهجري/ العاشر الميلادي، في عهد الأمير عبد الله بن محمد المرواني (٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ/٨٨٨ ـ ٩١٢ م). يقول: «فيها كانت ولاة المملكة تتواتر إلى أن وقع بين العرب والمولَّدين من العجم قتال، فاتصل القتال، وانحاز العرب إلى

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام أو تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب الدار البيضاء ١٩٦٤ (القسم الثالث ص ٢٤١، حاشية ١).

(٢) الحميري: الروص المعطار (ص ٤٥) ويقصد بالثوّار هنا أمراء الأندلس الدين ثاروا على الحلفاء الأمويين بقرطبة في بداية القرن الحامس الهحري/ الحادي عشر الميلادي، واستقلّ كلُّ واحدٍ منهم بمدينته التي يحكمها، وأعلن نفسه ملكاً عليها. وسُمُّوا بملوك الطوائف

(٣) ابن سعيد: المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب (ج٢ ص ١٠٦)

(٤) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله المسمّاة: بكتاب التبيان، تحقيق إ ليڤي بروفنسال، دار المعارف بمصر ١٩٥٥ (ص ٢٢)

(٥) الحميري. الروص المعطار (ص ٤٥). المقري: نفح الطيب (ج ١ ص ١٥٠).

(٦) ابن فضل الله العمري: وصف إفريقية والمغرب والأندلس (مقتطف من كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري نفسه)، تحقيق الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، مطبعة النهضة بتونس، ١٣٣٩ هـ (ص ٣٤).

(٧) ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص ١٠٦).

غرناطة، وكان الظفر للعرب، فخربت إلبيرة من حينئذ»[1]. ويضيف: «كانت قاعدة المملكة إلبيرةً، فلما وقع ما بين العرب والعجم في مدة عبد الله المرواني سلطان الأندلس، انحاز العرب إلى غرناطة، وقام بملكهم سوار بن أحمد المحاربي، فقتله أهل إلبيرة، فقام بهم بعده سعيد بن سليمان بن جُوْدي السَّعْدي»[2]. ويذكر الحميري أن إلبيرة خربت في الفتنة[3]. ويروي أبو الفداء والقلقشندي أن إلبيرة كانت القاعدة، فخربت في زمان الإسلام، وصارت غرناطة القاعدة[4]. وقيل: بدأت إلبيرة تضمحلُّ منذ عام ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ ـ ١٠١٠ م، عقب ثورة البربر بقرطبة، مما أدّى إلى هجرة سكانها إلى غرناطة المجاروة[5]. ويذكر سيمونيت أن مدينة إلبيرة انهدمت أيام حبوس بن ماكسن[6].

وهكذا شمل إلبيرةَ الخرابُ، وطُمِسَ رَسْمُها، ولم يبق منها إلّا بضع أثر، واختفى اسمها كقاعدة من قواعد الأندلس، وانتقل أهلها إلى مدينة غرناطة التي عظمت ونمت وصارت كرسيَّ الحكم في عهد بني زيري[7]. وقد بدأ أهل إلبيرة ينتقلون إلى مدينة غرناطة منذ سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م[8]، وقيل: منذ سنة ٤٠١ هـ/ ١٠١٠ م[9]. وقد انتقل منهم أعداد كبيرة في عهد زاوي بن زيري، ثم تحقّق انتقالهم

---

(١) ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب (ج ٢ ص ٩٣)

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٥. والجدير ذكره أن سعيداً هذا قُتِلَ في سنة ٢٨٤هـ ٨٩٧ م.

(٣) الحميري: الروض المعطار (ص ٢٨). وأغلب الظن أنه يقصد بالفتنة تلك الفتنة البربرية التي وقعت بقرطبة عام ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٨ م

(٤) أبو الفداء· تقويم البلدان، تحقيق رينود وماك كوكين ديسلان، باريس، ١٨٥٠ (ص ١٢٤)؛ القَلْقَشَنْدي: صُبْح الأعْشى في صناعة الإنشا، تحقيق وشرح الأستاد محمد حسين شمس الدين والدكتور يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧ (ج٥ ص ٢١٠)

(٥) دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشنتاوي وإبراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس، دار المعرفة، بيروت (ج١١ ص ٢٤): ليڤي بروڤنسال.

(٦) Simonet· Descripción (P 33)

(٧) ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص٩٣)؛ الحميري: الروض المعطار (ص ٤٥)؛ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص٩٣)

(٨) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ٩٣)، Simonet· Descripción (P. 33, 43), Lafuente y Alcántara Inscripciones arabes de Granada - Madrid, 1859 (P. 15,16),Dozy: Recher--che sur L'histoire et la littérature de l'Espagne (T I, App LXIX)

(٩) Dozy: Histoire des musulmans d'Espagne (T 3 P 3), Doxy: Recherches (T I, P 329), Simonet: Descripción (P 38)

الكامل خلال حكم خليفته حبوس بن ماكسن(١)، وقيل بعد وقت قصير من انتقال زاوي وجماعته إلى إلبيرة حلت غرناطة محل إلبيرة(٢). ويخبر المقري أنه لما بنى حبوس مدينة غرناطة انتقل الناس إليها(٣). ويكتفي هنري بيريس بالإشارة إلى أن غرناطة حلّت محلّ إلبيرة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي(٤).

ويرجَّحُ أن تكون مدينة غرناطة الحديثة قد أقيمت مكان مدينة إلبيرة وربضها غرناطة(٥). وكان معظمها يقع إلى يمين نهر حَدَرُّه(٦). وقد جلب الماء إلى داخلها من عين عذبة تجاورها(٧).

وهكذا اكتمل بناء مدينة غرناطة في عهد بني زيري، واتّسعت بسكّانها، فعمرت نواحيها بالمباني، وتكوّنت خارِجَها أرباض (أحياء) تنوف على العشرة وهي :

١ ـ **ربض البيّازين**: بالإسبانية Albaicin، وقد حدّد ابن الخطيب موقعه جوفيّ مدينة غرناطة(٨). **وحدَّده القلقشندي بناحية باب الدفّاف، أي شرقيّ غرناطة**(٩). واكتفى **المقري** بالقول: ربض البيّازين تابع لمدينة غرناطة(١٠). وحدّده**محمد عبد الله عنان شمال شرقي غرناطة** قبالة هضبة الحمراء، إلى يمين نهر حدره الذي يفصل الربض عن المدينة(١١). ثم ناقض نفسه فحدّده شمال غربي غرناطة(١٢). وقد وصفه

---

(١) Lafuente y Alcántara· Inscripciones árabes de Granada (P 19), Simonet. Descripción del reino de Granada (P 33).

(٢) Huici Miranda· Encyclopédie de l'Islam (T 2 P 1035).

(٣) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٥٠).

(٤) Pérès: La poésie Andalouse en arabe classique au XI· siècle, Paris, 1953 (P. 146).

(٥) دائرة المعارف الإسلامية (ج٢ ص ٥٠٦): سيبولد.

(٦) ابن الخطيب: كُنَاسَةُ الدُّكّان بعد انتقال السكان، تحقيق الدكتور محمد كمال شبانة، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٦ (ص ٥٩، حاشية ٢)

(٧) الحميري: الروض المعطار (ص ٤٥).

(٨) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ٤٥٩) والجَوْفُ في اصطلاح المغاربة الجهة المقابلة للقبلة، أي الشمال ابن الخطيب: اللمحة البدرية (ص ٢٢، حاشية ٣)

(٩) القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٧، ٢٠٩).

(١٠) المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٥١٧).

(١١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ٣٨٧، حاشية ١)؛ عنان. الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، مؤسسة الخانجي بالقاهرة ١٩٦١ (ص ١٦١، ١٦٧)

(١٢) عنان· نهاية الأندلس (ص ٢١).

القلقشندي بكثرة العمارة وبأنه كان يخرج منه نحو خمسة عشر ألف مقاتل، وأنه كان مستقلاً بحكامه وقضاته[١]. وجعله عنان في جملة أرباض تؤلف النصف الشمالي لغرناطة، وعدَّه من أكبر أحياء غرناطة وأهمها، ومن أكثرها احتفاظاً حتى اليوم بالطابع الأندلسي، حيث لم يزل يحتفظ بسائر خططه الأندلسية ودروبه الضيّقة، التي لم يطرأ عليها سوى تحول ضئيل[٢]. وأضاف كان في حي البيازين ثلاثة أبواب ما تزال قائمة بعقودها العربية، وهي باب البيازين، وباب فحص اللوز، وباب الزيادة، وكان به ثلاثة مساجد، هي، مسجد المرابطين، والمسجد الجامع، ومسجد التائبين الموحدين، وقد حولت هذه المساجد إلى كنائس بعد سقوط غرناطة في أيدي الإسبان، فمسجد المرابطين حوِّل إلى كنيسة سان خوسيه San José، والمسجد الجامع حوّل إلى كنيسة سان سلفادور San Salvador، ومسجد التائبين حوّل إلى كنيسة خوان دي لوس ريِّس Juan de los Reyes، وما تزال تحتفظُ بمنارة الجامع كما كانت، وترجِعُ هذه المنارة إلى فترة الموحدين. وكان هذا الحي شعبياً، وهو اليوم مقرّ الطبقات المتوسطة والمتواضعة[٣]. وذكر محمد كمال شبانة أن حيَّ البيازين من المعالم الأثرية الأندلسية الباقية[٤].

٢ ـ **ربض البيضاء**: كان من جملة أرباض تشغل نصف غرناطة الشمالي [٥].

٣ ـ **ربض المرابطين**: كذلك كان من جملة الأرباض التي كانت تشغل النصف الشمالي لمدينة غرناطة، وهي ربض البيازين، وربض البيضاء، وبضعة أرباض أخرى[٦].

٤ ـ **ربض الفخارين**: ذكره القلقشندي دون أن يتحدث عنه[٧]. ويقع هذا

---

(١) القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٧).

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ٣٨٧، حاشية ١)؛ عنان الآثار الأندلسية (ص ١٦٢، ١٦٧، ١٦٩).

(٣) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٦٨ ـ ١٧٠) وفيه أن هذا الحي كان مقر عدد كبير من الأسر الغنية

(٤) ابن الخطيب: كناسة الدكان (ص ٥٩، حاشية ٢).

(٥) عنان. الآثار الأندلسية (ص ١٦٢)

(٦) المرجع نفسه.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٧)

الـربض جنوبيّ غـرناطـة، وكان واحـداً من ثلاثـة أربـاض تؤلف نصف غـرنـاطـة الجنوبي [1].

٥ ـ **ربض قمارش**. كذلك كان أحـد ثلاثـة أرباض تؤلف النصف الجنـوبي لمدينة غرناطة [2].

٦ ـ **ربض المنصـور**: يؤلف هـو وربض الفخـارين وربض قمـارش النصف الجنوبي لمدينة غرناطة [3].

٧ ـ **ربض الأجل**: كان هذا الربض كثير القصور والبساتين [4].

٨ ـ **ربض الرَّمْلة**: ذكره العمري دون أن يتحدث عنه [5].

٩ ـ **حي غرناطة**: يقع هذا الحي في الشمال الغربي من مدينة غرناطة [6].

١٠ ـ **الحي المعروف بغرناطة اليهود**: يقال إنه أصل مدينة غرناطة [7].

١١ ـ **ربض النجد**: يقع خارج غرناطة، ويتصل بجبل السبيكة [8].

تسميتها: غرناطة بفتح الغين المعجمة، وسكون الراء المهملة، وفتح النون، وألف وطاء مهملة وهاء [9] ويقال أغرناطة، بهمزة في أولها [10]. ويقال إن الصواب

---

(١) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٦٢).

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٧)

(٥) المصدر نفسه، حاشية ١

(٦) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٦٢).

(٧) المرجع نفسه

(٨) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المُسَمّاة، تُحْفَة النُّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار بيروت، بيروت ١٩٨٠، (ص ٦٧٢).

(٩) ياقوت: معجم البلدان (ج٤ ص ١٩٥)؛ ابن خَلِّكان: وَفَيَاتُ الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ (ج٣ص ٤٨٥)؛ أبو الفداء. تقويم البلدان (ص ١٧٦)؛ ابن عبد الحق مراصد الاطلاع (ص ٩٩٠)؛ القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٧)؛ Dozy Recherches: (T I, App LXVIII)

(١٠) ياقوت معجم البلدان (ج٤ ص ١٩٥)، الحميري: الروض المعطار (ص ٤٥)، ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع (ص ٩٩٠)؛ القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٧)، Dozy recherches; (T, I, App LXVIII)

«أعـرناطـة» بالهـمـزة[١]. وكيفما كـان الأمـر، فـإن كـلا الاسمين أعجمي[٢]، أي Granada باللسان الإسباني، ومعناه «رمانة» بلسان هؤلاء الإسبان عجم الأندلس[٣].

وقد اختلفت آراء الباحثين في أصل هذه التسمية؛ فرأى ياقوت أنها سميت بهذا الاسم، لأن الرمان كان يزيّنها بكثرته[٤]. وذكر المستشرق الإسباني سيمونيت أن اسم عرناطة لا يرجع إلى أيام العرب الفاتحين، بل يعود إلى عهـد القوط، وقـد يكون العرب أضافوا المقطع «غار» الذي بمعنى «مُغار» إلى المقـطع «ناطة» الذي كان اسم ربض واقع بجانب مدينة إلبيرة، فصارت غرناطة، وقد يكون البربر سمّوها كذلـك عندما سكنوها، تيمّناً بإحدى قبائلهم[٥]. ورأى محمد عبد الله عنان أن اسم غرناطة قديم يرجع إلى عهد الرومان والقوط، وأن البعض يرى أنه مشتق من الكلمة الرومانيّة granata، أي الرمانة، وأنها سميت كذلك لجمالها وكثرة حدائق الرمان التي تحيط بها، أو لأنها أنشئت على البقعة التي زرع فيها الرمـان لأول مرة عند نقله إليها من إفريقية، أو لأنها، بموقعها وانقسامهـا على التَّلَّيْن، تشبه بمنـازلها الكثيفـة الرمـانة المشقوقة[٦]. وأضاف: كانت لفظة «رمانة» شعار المسلمين التاريخي، وما يزال هذا **الشعار ماثلاً على باب قصر الحمراء الـرئيسي في شكل ثـلاث رمّانـاتٍ صخريّـةٍ كبيرة**[٧].

ولوقوع غرناطة في مكان مرتفع، سميت في عهد الروم، على حد قول ابن الخطيب، سَنَام الأندلس[٨]. وقد ضبطها لافـونت «شام الأنـدلس»[٩]. ورأى ابن

---

(١) المقري. نفح الطيب (ج١ ص١٤٧).

(٢) ابن الخطيب. الإحاطـة في أخبار غـرناطـة (ج١ ص٩١) واللمحة البـدريه (ص ٢١)؛ Lafuente y Alcántara Inscripciones árabes de Granada (P 15), Dozy· Recherches, (T I, App LXVIII)

(٣) ياقوت: معجم البلدان (ج٤ ص١٩٥)؛ القزويني آثار البـلاد (ص٥٤٧)؛ المقري: نفـح الطيب (ج١ ص١٤٧)

(٤) ياقوت: معجم البلدان (ج٤ ص١٩٥).

(٥) Simonet Descripción del reino de Granada (P. 41).

(٦) عنان: نهاية الأندلس (ص ١٧ ـ ١٨).

(٧) نفسه: الآثار الأندلسية (ص ١٦٠)

(٨) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص٩١، ١٠٩) واللمحة البـدرية (ص ٢١)؛ Dozy Recherches; (T. I, App LXVIII P 330)

(٩) Lafuente y Alcántara Inscripciones árabes de Granada (P. 15)

الخطيب أيضاً أنها كانت تدعى في القديم قَسْطيلية، وأن قسطيلية كانت قبل فتح الأندلس حاضرة كورة إلبيرة[١]. وأغلب الظن أن قسطيلية كانت تطلق على مدينة إلبيرة، وليس على غرناطة، وهذا ما ذهب إليه سيمونيت في قوله: «ونحن نرى أن إلبيرة وقسطلة كانتا في بعض الأوقات تعنيان تقريباً الشيء نفسه، ولكن قسطلة، ذلك الاسم المشتقّ من اللاتيني Castellum، كانت عبارة عن حصن أو قلعة تقع على مقربة من إلبيرة ويسكنها حاكم الإقليم، ولذلك أطلق عليها اسم الحاضرة أو العاصمة»[٢]. وذكر المستشرق الإسباني مورينو أن غرناطة كانت تسمى قديماً Iliberri، وأنها كان حاضرة رومانية ومركزاً أسقفياً قديماً[٣]. وقال عنان: «والواقع أن إلبيرة وغرناطة تعتبران في معظم الأحيان، ولا سيما في المراحل الأولى لتاريخ الأندلس، اسمين لمكان واحد، وقد جرى كثير من المؤرخين والجغرافيين على المزج بينهما»[٤]. ويظن دوزي أن إلبيرة هي في الواقع غرناطة، وأن غرناطة وإلبيرة كلاهما مدينة واحدة[٥].

وقد سميت غرناطة اليهود، لأن أهلها كانوا من اليهود على حَدِّ قول الحميري: «وتعرف بأغرناطة اليهود؛ لأن نازلتها كانوا يهوداً»[٦]. وقال سيمونيت: «دعيت غرناطة اليهود لكثرة اليهود فيها»[٧]. وذكر محققا كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني أنه كان يقال لغرناطة عند الفتح غرناطة اليهود[٨]. وكان عددهم آنذاك كبيراً[٩]. وفي القرن الثالث الهجري/ التاسع

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ٩١، ٩٨)؛ Dozy Recherches (T. I, App. LXVIII 335)

(٢) Simonet: Descripción del reino de Granada (P. 31)

(٣) مورينو: الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع والدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم، الدار المصرية للتأليف والترجمة (ص ٢٠١)

(٤) عنان: نهاية الأندلس (ص ١٧).

(٥) Dozy Recherches; (T. I, P 336 - 337)

(٦) الحميري: الروض المعطار (ص ٤٥)

(٧) Simonet Descripción (P 27 - 28, 40), Maeso: Garnata al-Yahud, Universidad de Granada, 1963 (P 38 - 39)

(٨) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤١، حاشية ١).

(٩) Lafuente y Alcántara Inscripciones árabes de Granada (P. 15); Dozy Recherches, (T I, p. 339); Ibiden Histoire des Musulmans d'Espange (T 3 P. 19); Encyclopédie de l'Islam (T 2 P. 1035).

الميلادي فاق عددهم عدد المسلمين والنصارى معاً[1] وأشار عبد العزيز سالم إلى أن غرناطة كانت تزخر بعدد هائل من اليهود والنصارى، وأن سكانها المسلمين كانوا قلة إذا ما قيسوا بعدد سكانها، ولذلك سميت غرناطة اليهود[2]. وقد غلب هذا الاسم عليها منذ بداية الفتح، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك بقوله: فتح عبد الأعلى بن موسى بن نصير إلبيرة، وضمّها إلى غرناطة اليهود[3].

كذلك سميت غرناطةُ شامَ الأندلس أو دمشقَ الأندلس، فقد أطلق جند دمشق على كورة إلبيرة التي منها غرناطة اسم دمشق عندما سكنوها؛ لشبهها بدمشق في غوطتها الفيحاء، وعزازة أنهارها، وكثرة أشجارها[4]. وقيل. لما كثر العرب بقرطبة عام ١٢٥ هـ/ ٧٤٢ م أقدم والي الأندلس أبو الخطار حسام بن ضِرَار الكَلْبي على تفريقهم في البلاد، فأنزل جند دمشق، الذين قدموا إلى الأندلس مع بلج بن بِشْر القُشَيْري الذي ولي الأندلس سنة ١٢٣ هـ/ ٧٤٠ م، كورة إلبيرة لشبهها بدمشق، فأوقعوا عليها اسم دمشق[5]. هاكم ابن جبير صاحب الرحلة، وهو يحاطب غرناطة[6].

يا دمشقَ الغربِ هاتيـ ... ـكَ لقد زِدْتِ عليها
تحتكِ الأنهارُ تجري ... وهي تَنْصَبُّ إليها

موقعها: غرناطة من مَوْسِطَةِ الأندلس؛ لأن الأندلس كانت مشتملة على موسطة وشرق وغرب[7]. وتتبع للإقليم الرابع من أقاليم الدنيا السبعة، وهي وإشبيلية ومالقة

---

(١) Encyclopédia de l'Islam (T 2, p 1036)

(٢) سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٨ (ص ٢٦٥).

(٣) ابن الخطيب الإحاطة في أخبار غرناطة (ج٣ ص ٥٢٩)

(٤) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١١٧، ١٤٨، ١٧٧) و(ج٢ ص ٣٩٢) وانظر أيضاً Simonet. Descripción (P 45)

(٥) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص ١٠٢)؛ ابن الخطيب الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ١٠٢) واللمحة البدرية (ص ٢٦)

(٦) المقري نفح الطيب (ج٢ ص ٣٩٢)

(٧) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٦٥).

وقرطبة وألمرية ومرسية؛ لأن معظم بلاد الأندلس في الإقليم الخامس[1]. وقد جعلها القزويني وابن سعيد وابن الخطيب من معمور الإقليم الخامس[2]. ثم عدّها ابن سعيد ضمن الإقليم الرابع المعتدل[3]. ورأى عبد الواحد المراكشي أن هذه المدن التي في الإقليم الرابع أعدل هواءً، وأطيب أرضاً، وأعذب مياهاً من البلاد التي في الإقليم الخامس، وأهلها أحسن ألواناً، وأجمل صوراً، وأفصح لغةً من أولئك الذين في الإقليم الخامس[4].

ويحدّ غرناطة من الجنوب جبل شُلَيْر، ومن الشرق جبل شلير وألمرية، ومن الشمال جَيّان، ومن الغرب لوشة ونهر شنيل. وتتمتع بموقع في غاية الحسن، فهي على وادٍ عميق يمتد من المنحدر الشمالي الغربي لجبل شلير، وتظللها الآكام العالية من الشمال والجنوب[5]. ويبلغ طول هذا الوادي ثلاثة عشر ميلاً، وبه مُنْية (بستان) من أجمل مُنى الأندلس[6] ولهذا الوادي رَبْوَتَانِ كبيرتان يخترقهما نهر حدره، تقام عليهما مدينة غرناطة؛ ربوة في الجهة الجنوبية وهي ربوة الحمراء، وربوة في الجهة الشمالية وهي ربوة البيازين والقصبة[7]. وقيل: إحداهما تسمى ربوة Churro أو مورور Mawror، والأخرى ربوة القصبة القديمة[8]. وهكذا تشرف غرناطة من تِيْنك

---

(١) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٣٢ (ص ٩٩)؛ ابن الكردبوس. تاريخ الأندلس، المسمّى كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، ١٩٧١ (ص ١٢٩)؛ الحميري. الروض المعطار (ص ٣٢)؛ القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٧).

(٢) القزويني. آثار البلاد (ص ٤٩١، ٥٤٧)؛ ابن سعيد كتاب الجغرافيا، تحقيق الأستاذ إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٠ (ص ١٦٦ - ١٦٧)؛ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ٩٣) واللمحة البدرية (ص ٢١).

(٣) ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص ١٠٢).

(٤) عبد الواحد المراكشي: المُعْجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق الأستاذين محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩ (ص ٧)

(٥) ابن الخطيب. كناسة الدكان (ص ٥٩، حاشية ٢)؛ عنان. نهاية الأندلس (ص ١٨) والآثار الأندلسية (ص ١٦١).

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع ليدن بمطبعة بريل، سنة ١٩٠٦ (ص ٢٣٥).

(٧) Simonet Descripcion (P 46)

(٨) Torres Balbás Contornos de las ciudades hispanomusulmanas, Al- Andalus, Vol XV, fasc 2, Madrid - Granada, 1950 (P. 470).

الربوتين على غوطتها التي تجري فيها الأنهار[1].

وطول غرناطة إحدى عشرة درجة وأربعون دقيقة[2]. وعرضها سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة[3]. وقيل طولها سبع وعشرون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وعشر دقائق[4]. وقيل طولها عشرة أيام، وعرضها ثلاثة أيام[5].

وتبعد غرناطة عن إلبيرة حوالي فرسخ وثلث فرسخ[6]، وقيل: بينهما فرسخان وثلثا فرسخ[7]، وقيل: أربعة فراسخ[8]، وقيل: ستة أميال[9]، وقيل ميل وربع الميل[10] وقال سيمونيت: «زار ابن بطوطة غرناطة وأكّد أن المسافة بينها وبين آثار مدينة إلبيرة ثمانية أميال»[11] والحقيقة أن ما جاء به ابن بطوطة هو قوله: بين غرناطة وجبل العُقاب المجاور لمدينة التيرة الخربة ثمانية أميال[12]. واكتفى القزويني بالقول.

---

(١) المقري. نفح الطيب (ج٢ ص ٣٩٢ - ٣٩٣).

(٢) الدرجة عند ياقوت خمسة وعشرون فرسخاً، أي خمسة وسبعين ميلاً، وتنقسم إلى ستين دقيقة. ياقوت. معجم البلدان (ج١ ص ١٩، ٣٦، ٣٩). ويقول ابن سعيد: إن كل درجة ونصف مائة ميل، أي إن الدرجة تساوي حوالي ستة وستين ميلاً وثُلُثَيْ ميل. ابن سعيد: كتاب الجغرافيا (ص ٧٩). ويقول أبو الفداء. الدرجة عند القدماء ستة وستون ميلاً وثلثا ميل، وعند المحدثين ستة وخمسون ميلاً وثلثا ميل. أبو الفداء: تقويم البلدان (ص ١٤).

(٣) ابن سعيد: كتاب الجغرافيا (١٦٧)، القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٧).

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ٩٤)

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢١٠) وقد حدد عبد الواحد المراكشي مسيرة اليوم التام بأربعين ميلاً، ومسيرة اليوم برفق بعشرين ميلاً. عبد الواحد المراكشي المعجب (ص ٣٧١)

(٦) ابن الخطيب: اللمحة البدرية (ص ٢١) والفرسخ.. مسافة تُقَدَّرُ بثلاثة أميال. ياقوت: معجم البلدان (ج١ ص ٣٦)، أبو الفداء. تقويم البلدان (ص ١٥)

(٧) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ٩١)، Dozy Recherches, (T I, App LXVIII)

(٨) ياقوت. معجم البلدان (ج ٤ ص ١٩٥)؛ ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع (ص ٩٩٠)

(٩) الحميري: الروض المعطار (ص ٢٨، ٤٥)

(١٠) دائرة المعارف الإسلامية (ج٢ ص ٥٠٥) سيبولد

(١١) Simonet Descripción (p 34)

(١٢) ابن بطوطة رحلة ابن بطوطة (ص٦٧٢). وأغلب الظن أن المقصود: «إلبيرة» وليس «التيرة»، وقد يكون ذلك خطأ من الناسخ أو من المحقق

«غرناطة مدينة قديمة بقرب إلبيرة»[1]. وبينها وبين لَوْشة عشرة فراسخ[2]، وقيل إن المسافة بينهما مرحلة بين البساتين والرياض[3]. وتبعد عن مدينة وادي آش مسافة ٥٣ كلم. وقيل: مسيرة يوم[4]. وبين غرناطة وجيان ٩٩ كلم. وقيل: خمسون ميلاً[5]. وبينها وبين ألمرية ١٦٦ كلم، وقيل: مسيرة ثلاثة أيام[6]، وحدّد أرسلان المسافة بينهما بستة أميال[7]، وهذا ما لا نؤيده. وبينها وبين قرطبة ٢٧٨ كلم. وقيل: تسعون ميلاً[8]، وقيل: خمسة أيام[9]، وقيل أربع مراحل [10]، وقيل ثلاثة وثلاثون فرسخاً[11]. وبينها وبين طليطلة ٣٩٧ كلم، وقيل نحو سبعة أيام[12]. ومنها إلى مرسية ٢٧٨ كلم. وقيل: سبع مراحل[13]. وتبعد عن البحر المتوسط نحو أربعين ميلا[14]. ومنها إلى المُنَكَّب أربعون ميلاً[15]. ومنها إلى مالقة ١٢٩ كلم.

وهكذا فإن موقع غرناطة الحسن جعلها قريبة من الاعتدال، شامية في أكثر الأحوال[16]. وقد خصّها الله تعالى بطيب الهواء وغزارة الماء[17]. ولصحة هوائها فإن

---

(١) القزويني: آثار البلاد (ص ٥٤٧).

(٢) ياقوت: معجم البلدان (ج٥ ص ٢٦)

(٣) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون، المُسَمَّى كتاب العِبَرْ وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨١ (م٧ص ٦٨٩)؛ المقري: نفح الطيب (ج٥ ص ٨)؛ القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢١٤) وقد حدّد الإدريسي المرحلة بخمسة وعشرين ميلاً. الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩ (ص ٥٨١)

(٤) المراكشي المعجب (ص ٣٧٠)؛ الحميري الروض المعطار (ص ٤٥)

(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق (ص ٥٨١)؛ المراكشي: المعجب (ص ٣٧١).

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢١٠ - ٢١١)

(٧) أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، دار مكتبة الحياة بيروت (ج ١ ص ١٢٤)

(٨) ابن الخطيب. الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ٩٤) واللمحة البدرية (ص ٢٢)

(٩) أبو الفداء: تقويم البلدان (ص ١٧٧)؛ القلقشندي. صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٧).

(١٠) الإدريسي: نزهة المشتاق (ص ٥٨١).

(١١) ياقوت: معجم البلدان (ج٤ ص ١٩٥).

(١٢) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص ٨)؛ أبو الفداء. تقويم البلدان (ص ١٤٨)

(١٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ٣٧٠)

(١٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ٣٧١).

(١٥) الحميري: الروض المعطار (ص ٥٤٩).

(١٦) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ٩٤) واللمحة البدرية (ص ٢٢).

(١٧) نفسه: الإحاطة (ج١ ص ٩٣).

جسوم أهلها صُلْبة وسِحانهم خشنة[١].

وهي مكشوفة للهواء من جهة الشمال[٢]، ولكنها قليلة مهب الريح، لا تجري بها الريح إلا نادراً؛ لاكتناف الجبال إياها[٣].

أوصافها: افتخر المؤرخون والجغرافيون، والشعراء والأدباء، قدماءَ ومعاصرين، بجمال مدينة غرناطة وفضائلها، وأشادوا بذكر محاسنها؛ فجعلها ياقوت الحموي من أعظم مدن كورة إلبيرة وأحسنها[٤]. وجعلها القزويني من أحسن بلاد الأندلس[٥]. ووصفها الحجاري بقوله: «غرناطة، وما أدراكَ ما غرناطةُ، حيث أدارتِ الجوزاءُ وشِاحَها، وعلَّق النجمُ أقراطه، عُقابُ الجزيرة وغُرَّةُ وجهها المنيرة»[٦]. وقال ابن سعيد: «إنها وإنْ سُمِّيت دمشق الأندلس، أحسنُ من دمشق؛ لأنَّ مدينتها مُطِلَّةٌ على بسيطها، متمكّنة في الإقليم الرابع المعتدل»[٧]. وردد اللاحقون قوله فقال أبو الفداء: «وغرناطة في نهاية النزاهة، وتشبه دمشق وتُفَضَّلُ عليها بأن مدينتها مشرفة على غوطتها»[٨]. وقال القلقشندي: وغرناطة في نهاية الحصانة، وغاية النزاهة، تشبه دمشق من الشام، وتُفَضَّل عليها بأنَّ مدينتها مشرفة على غوطتها»[٩]. وجعلها الشقندي «دمشق بلاد الأندلس، ومَسْرح الأبصار، ومطمح الأنفس»[١٠]. ووصفها ابن فضل الله العمري بقوله: «مدينة غرناطة مدينة كبيرة مستديرة، رائقة المنظر، كثيرة الأمطار والأنهار والبساتين والشجر والفواكه... وبها عيونٌ كثيرة وأشجار مختلفةٌ

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ٩٦ ـ ٩٧).

(٢) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص ١٠٢)؛ أبو الفداء. تقويم البلدان (ص ١٧٧)؛ القلقشندي. صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٧)

(٣) ابن فضل الله العمري: وصف إفريقية والمغرب والأندلس (ص ٣٤)؛ القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٨).

(٤) ياقوت: معجم البلدان (ج٤ ص ١٩٥).

(٥) القزويني: آثار البلاد (ص ٥٤٧).

(٦) ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص ١٠٢).

(٧) المصدر نفسه.

(٨) أبو الفداء. تقويم البلدان (ص ١٧٧).

(٩) القلقشندي. صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٧).

(١٠) ابن حزم وابن سعيد والشُّقُنْدي فضائل الأندلس وأهلها (ثلاث رسائل لابن حزم وابن سعيد والشقندي) نشر الدكتور صلاح الدين المنجد، بيروت ١٩٦٨ (ص ٥٦)؛ المقري. نفح الطيب (ج١ ص ١٤٧، ١٤٨، ١٧٦) و (ج٣ ص ٢١٧)

ألوانُها»(١). وعدَّها ابن الخطيب من أعظم مـدن إلبيرة(٢). وزارها ابن بطوطة، فهاله منظرها البهيج، فقال يصفها: «غرناطة قاعدة الأندلس، وعروس مدنها، وخارجُها لا نظير له في بلاد الدنيا، وهو مسيرة أربعين ميلاً، يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الأنهار الكثيرة، والبساتين والجنان والرياض. والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة»(٣). وقال فيها المقري: «ومن أشهر بلاد الأندلس غرناطة»(٤). وأضاف: لما دخل علي بن يوسف بـن تاشفين المرابطي بلاد الأندلس وأمعن النظر فيهـا وتأمـل وصفها، شبّهها بعُقابٍ مِنْقاره غرناطة، ومخالبه طليطلة، وصدره قلعة رباح، ورأسه جيان(٥). ووصفها سيد أسير علي بقـوله: «مـدينة غـرناطـة كالبـرج الشامـخ وسط الغوطة»(٦). وافتخر محمد عبد الله عنان بجمالها الـطبيعي فقال يصفهـا: «وكانت غرناطة أيام الدولة الإسلامية جنة من جنات الدنيا، تغص بالغياض والبساتين اليانعة التي كانت لوفرة خصبها وروعة نضرتها تعرف بالجنات»(٧). ووصفها Stanley Lane - Poole بقوله: إن غرناطة تفضل كل مدينة بالأندلس في جمال منظرها واعتدال جوّها، فالنسيم الذي يهب عليها من جبال نيقاد الثلجية يجعل أشد أيام القيظ فيها من أجمل الأيام وألطفها. وتربتها منقطعة النظير في الخصوبة وقوة الإنبات(٨). وقال بلباس إن الرحالة المصري عبد البسيط بن حليل بن ساهون الملطي زار غرناطة عام ٨٧٠ هـ/ ١٤٦٦ م، فبهرته حدائقها وجناتها وكثرة كرومها وتينها(٩). وأضاف: ووصفها نباخيرو

---

(١) ابن فضل الله العمري: وصف إفريقية والمغرب والأندلس (ص ٣٤ ـ ٣٥)

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ٩٣)

(٣) ابن بطوطة رحلة ابن بطوطة (ص ٦٧٠) وقد ورد النصّ في. المقري. نفح الطيب (ج١ ص ١٧٦) باختلاف يسير عما هنا. كما ترجمه المستشـرق الإسباني بلبـاس في مقالـه: -Torres Balbás Con- Tornos de las ciudades hispanomusulmanas, Al- Andalus, Vol. XV, fasc 2, (P 471).

(٤) المقري. نفح الطيب (ج١ ص ١٤٧).

(٥) المصدر نفسه (ص ١٩٠).

(٦) علي: مختصر تاريخ العرب، نقله إلى العربية الأستاذ عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧ (ص ٤٦٤).

(٧) عنان: نهاية الأندلس (ص ١٩).

(٨) شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضـة المصريـة بالقـاهرة، ١٩٧٨ (ج٤ ص ١٠٥).

(٩) Torres Balbás: Contornos de las ciudades hispanomusulmanas, Al- Andalus, Vol XV, fasc 2, (P 471)

Navajero بقوله: «كل شيء في غرناطة ساحر جميل؛ فالماء غزير، والشجر كثير مثمر، أغصانه مترامية حتى عنان السماء، كالخوخ والدراق والتين والرمان، ناهيك عن العنب بمختلف أصنافه، والزيتون الذي يمتد غاباتٍ على مَدِّ البصر»[١]. وقال أحد شعرائها يصفها[٢]:

غــرنــاطــةٌ مــا لـهــا نــظـيــرٌ ... ما مصرُ، ما الشامُ، ما العراقْ؟
مــا هــي إلَّا العــروسُ تُـجْـلَى ... وتـلـك مـن جـمـلـة الـصَّــدَاقْ

وفي رسالة وجّهها أديب الأندلس أبو بحر صفوان بن إدريس إلى الأمير عبد الرحمن بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الموحدي، يقول بلسان غرناطة ردّاً على قرطبة: لي المعقل الممتنع، والبطاح الواسعة، والمياه المنسابة، والنسيم البارد الذي ينعش العليل[٣].

وما دمنا بصدد الحديث عن جمال غرناطة وحسن موقعها يجدر بنا أن نشير إلى أهم المتنزهات التي كانت تزيد من محاسنها، والتي كان أهل غرناطة يرتادونها ليريحوا فيها أنفسهم من عناء التعب، وهي:

١ ـ حور مُؤَمِّل: كان من أجمل متنزهات غرناطة وأشرفها وأظرفها[٤]. سمي بذلك نسبة إلى مؤمل أحد خدام ملك غرناطة باديس بن حبوس، ولاحتوائه على سطر من شجر الحور[٥]. وهذا الشجر هو الذي زرعه مؤمل نفسه، وسمي المكان أيضاً حوز مؤمل، بحرف الزاي[٦]. ولم يشتهر هذا المكان إلا في بداية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، عندما كبرت فيه شجرات الحور، وأصبحت تظلل العاشقين وترعاهم بفيئها[٧]. ويقع هذا المتنزه على الضفة اليمنى لنهر شنيل[٨]،

---

(١) Torres Balbás: Contornos de las Ciudades hispanomusulmanas (P. 473 - 474).

(٢) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٤٨)

(٣) المصدر نفسه (ص ١٧٢).

(٤) ابن سعيد المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص ١٠٣)؛ المقري نفح الطيب (ج١ ص ٤٧٥) و (ج٣ ص ٣١٥).

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ١١٧)

(٦) المصدر نفسه.

(٧) Pérès: La poésie Andalouse (P 146, 188)

(٨) Torres Balbás Contornos de las ciudades hispanomusulmanas, (P 476)

جنوب غربي الحمراء وجنوب ربض البيازين، ومكانه اليوم الحي الغرناطي المسمى Campo del Principe[1].

وقد أكثر الشعراء من ذكره في أشعارهم، كقول أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد، صاحب كتاب «المغرب»، يتذكره وهو بمصر[2]:

وإلى الحَوْر حنيني دائماً وعلى شَنِّيْلَ دَمْعِي صَيِّبُ

وقول أبي جعفر بن أبي مروان بن سعيد[3]:

عَرِّجْ على الحَوْر وخَيِّمْ به حيث الأماني ضافياتُ الجَنَاحِ

وقوله أيضاً، وقد حان الانفصال بعد مبيته وحفصة بنت الحاج الركوني في جنة له في ذلك المكان، على ما يبيت عليه أهل الظرف والأدب[4]:

رعى الله لَيْلاً لم يُرَعْ بِمُذَمَّمِ عَشِيَّةَ وارَانَا بِحَوْرٍ مُؤَمَّلِ

٢ ـ **نجد**: كان من أشرف متنزهات غرناطة وأظرفها[5]. هو مكان مطل على بسيط غرناطة[6]، على إحدى روابي ضواحيها، ولم يعرفه الشعراء في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[7]. وأصبح في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي ربضاً من أرباض غرناطة، يتصل بجبل السبيكة[8].

يروي المقري أن محمد بن غالب الرصافي، ومحمد بن عبد الرحمن الكتندي، وغيرهما من رؤساء غرناطة وفضلائها، اتفقوا على أن يخرجوا إلى «حور

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ٤٤١، حاشية ٦، ص ٤٩١ حاشية ٤)؛ عنان: نهاية الأندلس (ص ٢٠، حاشية ٢).

(٢) المقري. نفح الطيب (ج٢ ص ٢٨٢). وشنيل هو نهر غرناطة، وسنتحدّث عنه فيما بعد.

(٣) المقري: نفح الطيب (ج٣ ص ٥١٧).

(٤) ابن حزم وابن سعيد والشقندي: فضائل الأندلس وأهلها (ص ٥٦)؛ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ٤٩١)؛ المقري. نفح الطيب (ج٣ ص ٢١٨) و (ج٤ ص ١٧٧).

(٥) المقري. نفح الطيب (ج٣ ص ٥١٣).

(٦) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص١٠٥)

(٧) Pérès: La poésie Andalouse (P. 146, 147)

(٨) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (ص ٦٧٢)

مؤمل» أو «نجد»، فبعثوا إلى أبي جعفر بن أبي مروان بن سعيد بهذا الشعر[١]:

بَعَثْنَا إلى ربِّ السماحة والمَجْدِ ... ومَنْ ما له في مِلَّةِ الظَّرْف مِنْ نَدِّ
لِيُسْعِدَنا عند الصبيحة في غدٍ ... لِنَسْعَى إلى الحَوْر المُؤَمَّلِ أو نَجْدِ

وقال أبو جعفر المذكور يصفه[٢]:

وقد خَفَقَتْ مِنْ نَحْوِ نَجْدٍ أَرِيْجَةٌ ... إذا نَفَحَتْ هَبَّتْ بريَّا القَرَنْفُلِ

وفي حديثه عن غرناطة يصف الشقندي هذين الموضعين «نجد» و «حور مؤمل» بقوله: «ولنسيم نَجْدِها وبهجة منظر حَوْرها في القلوب والأبصار استلطافُ يروق الطباع، ويحدث فيها ما شاءه الإحسان من الاختراع والابتداع»[٣].

٣ ـ **السبيكة**: هو موضع خارج غرناطة[٤]. وقد ذكره أبو جعفر الإلبيري الرُّعَيْني عند رحيله من غرناطة، فقال[٥]:

ولمَّا وَقَفْنا لِلوَدَاعِ وقد بَدَتْ ... قِبابٌ بِنَجْدٍ قد عَلَتْ ذلك الوادي
نَظَرْتُ فألفيْتُ السبيكةَ فِضَّةً ... لِحُسْنِ بياضِ الزَّهْرِ في ذلك النادي

وقال ابن زَمْرَك يصف «نجد» و «السبيكة»[٦]:

يا مَنْ يَحِنُّ إلى نَجْدٍ ونادِيْها ... غرناطةٌ قد ثَوَتْ نَجْدٌ بِوَادِيْها
قِفْ بالسبيكةِ وآنظرْ ما بساحتها ... عَقِيْلَةً والكَثِيْبُ الفَرْدُ جالِيْها

وقال أبو الحجاج يوسف بن سعيد بن حسّان يتغنّى بهذه المواضع الثلاثة؛ حور مؤمل، ونجد، والسبيكة[٧]:

---

(١) المقري. نفح الطيب (ج٣ ص ٥١٣).

(٢) ابن حزم وابن سعيد والشقندي: فضائل الأندلس وأهلها (ص ٥٦)؛ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ٤٩١)؛ المقري: نفح الطيب (ج٣ ص ٢١٨) و (ج٤ ص ١٧٧).

(٣) ابن حزم وابن سعيد والشقندي. فضائل الأندلس وأهلها (ص ٥٦)؛ المقري: نفح الطيب (ج٣ ص ٢١٨).

(٤) المقري. نفح الطيب (ج٢ ص ٦٧٨)

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه (ج٧ ص ١٧١)

(٧) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ١١٧).

تَـأَمَّـلْ إذا أَمَّـلْتَ حَـوْزَ مُـؤَمَّـلٍ ... ومُـدَّ مـن الحَـمْـرَا عليـكَ شـقـيْـقُ
وأعـلامُ نَجْـدٍ والسبيكـةِ قـد علتْ ... ولـلـشَّـفَـقِ الأعـلـى تـلوحُ بُـرُوْقُ

٤ ـ **عين الدمع**: كان من عجيب مواضع غرناطة، وهو عبارة عن جبل فيه الرياض والبساتين[1]، ويتصل بجبل الفخار[2].

وقد وصفه المستشرق الإسباني سيمونيت بقوله: «عين الدمع بقعة من ضواحي غرناطة، قريبة من سفح جبل الفخار، كان يشغل موقعها سطح تلال البيازين التي تطل على المرج، وكانت متنزهاً بديعاً يغصّ بالمروج والحدائق الغناء، وقد استمرت بعد سقوط غرناطة تحتفظ ببقية من سحرها القديم، ويطلق عليها اليوم بالإسبانية Dinamar و Aindamar»[3]. ووصفه Navajero بقوله: «إنه أجمل مواضع الدنيا، كثير الماء والريحان، شديد الخضرة»[4].

ولهذه البقعة ذكر يجري على ألسنة الشعراء من ساكنيها وزوّارها؛ فمن أحسن ما مرّ من ذلك قول ابن الخطيب من قصيدة[5]:

يـا عَهْـدَ عَيْنِ الـدَّمْـعِ، كم من لؤلؤٍ ... لـلدَّمْـعِ جـادَ بـه، عَسـاكَ تـعـودُ

وقوله الفقيه أبي القاسم بن قُطْبة من قصيدة[6]:

ولَيْـلاً بِعَيْنِ الـدَّمْـعِ وَصْـلاً قـطَعْتُهُ ... وأَنْـجُـمُـهُ بـيـن الـنُّـجُـوْمِ سُـعُـوْدُ
فَبِتْـنَـا ومِنْ روضِ الـخـدودِ أزاهـرٌ ... لَـدَيْنـا ومن وَرْدِ الـريـاضِ خـدودُ

وقوله أيضاً[7]:

ومِـلْ بنـا نحـو عَيْنِ الـدَّمـعِ نَشْـرَبُهـا ... حيث الـسـرورُ بكـأسِ الأنْـسِ يسقيني
حيث الـمُنَـى وفنـونُ اللهـوِ رائعـةٌ ... والـطيـرُ من طَـرَبٍ فيهـا تنـاجيني

---

(١) ابن بطوطة. رحلة ابن بطوطة (ص ٦٧٠)؛ المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٧٦).
(٢) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ١٢١).
(٣) Simonet: Descripción (P. 69)
(٤) Torres Balbás Contornos (P 478)
(٥) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ١٢٢).
(٦) المصدر نفسه (ص ١٢٣)
(٧) المصدر نفسه

٥ ـ **لَعْلَع**: كان أحد مواضع غرناطة الصالحة للنزهة، وقد تغنّى به الشعراء كقول أبي الأزرق الغرناطي[١]:

مَشُوْقٌ بِخَيْماتِ الأحِبَّةِ مُولَعُ   تُذَكِّرُهُ نَجْدٌ وتُغْرِيْهِ لَعْلَعُ

وقول أبي الحسن علي بن عبد الله النميري الشُّشْتري الوادي آشي[٢]:

ما السِّرْبُ والبانُ وما لَعْلَعُ   ما الخيفُ، ما ظَبْيُ بني عامر؟

٦ ـ **جَوْرُ الوَدَاع**: كان بظاهر غرناطة، وكانت عادةُ مَنْ سافرَ أنْ يُوَدِّعَ هناك. وقد وصفه أبو جعفر الإلبيري بقوله[٣]:

بِجَوْرِ الوداعِ لنا مَوْقِفٌ   أذابَ الفؤادَ لأجلِ الوَدَاعِ
فَمَا أنا أَنْسَى غَدَاةَ النَّوَى   وحادي الركائبِ للبَيْنِ داعي

ومن متنزهات غرناطة المشهورة أيضاً عين القِبْلة[٤]، واللَّشْتَة، والزاوية، والمشايخ[٥].

(١) المقري. نفح الطيب (ج٢ ص ٧٠٤).
(٢) المصدر نفسه (ص ٢٠٦).
(٣) المصدر نفسه (ج٧ ص ٢٧٤).
(٤) ابن الخطيب الأحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ١٢١).
(٥) ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص١٠٣).

مرجها، جبالها، أنهارها

مرجها: مرج غرناطة الشهير عبارة عن سهل أفيح، وبسيط شاسع أخضر خصب، وغوطة فيحاء، وفحص مترامي الأطراف[1]. يطلق عليه بالإسبانية اسم La Vega de Granada. يقع غربيّ غرناطة[2]، ويمتدّ غرباً حتى مدينة لوشة[3]، طوله أربعون ميلاً أو نحوها[4]، وعرضه ثمانية فراسخ، ومحيطه سبعة وعشرون فرسخاً، وهو عبارة عن حدائق وأشجار زيتون وعنب وغيرها من سائر أنواع النبات[5]. وقد شُبِّه بغوطة دمشق لكثرة ما فيه من مياه وأشجار وحدائق[6]. كما شُبِّه بساحة فيوم[7]. وتسقيه عدة أقنية وسواقٍ وأنهار، من بينها نهرا غرناطة المشهوران سنجل وحدره[8].

وقد افتخروا بجماله وحسنه، فقال ابن سعيد: «وبسيطها يمتدّ فيه البصرُ مسيرة يومين بين أنهار وأشجار وميادين مخضرّة، فسبحانَ مُبْدِيْها في أحسن حُلَّة، لا يأخذها

---

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون (م٧ ص ٦٨٩)؛ المقري. نفح الطيب (ج٥ ص ٨)؛
Péres La poésie Andalouse (P 147), Dozy Recherches; (T I, App LXXII)
وقد عرَّف ياقوت الفحص بقوله الفحص بمفهوم أهل الأندلس هو كل موضع يُسْكَنُ ويُزْرَعُ، سواء كان سهلاً أو جبلاً، ومع الزمن صار الفحص عَلَماً لعدة مواضع ياقوت. معجم البلدان (ج٥ ص ٢٣٦)

(٢) القلقشندي. صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٨).

(٣) عنان: نهاية الأندلس (ص ١٨ - ١٩).

(٤) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٩٩) واللمحة البدرية (ص ٢٣)

(٥) Simonet Descripción (P 45)

(٦) الحميري: الروض المعطار (ص ٤٦)، ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص٩٩) واللمحة البدرية (ص ٢٣).

(٧) الحميري: الروض المعطار (ص ٤٦).

(٨) Simonet Descripción (P 45)

وصف، ولا يُنْصِفُ في ذكرها إلاّ الرؤية»[1]. وقال الشقندي: «وزانها الله تعالى بأنْ جعلها مرتَّبةً على بسيطها الممتدّ الذي تفرَّعت فيه سبائك الأنهار بين زَبَرْجَدِ الأشجار»[2] . وقال ابن الخطيب: «فَحْصُها الأفيحُ المُشَبَّهُ بالغوطة الدمشقية حديثُ الرِّكاب، وسَمَرُ الليالي، قد دَحَاهُ الله تعالى في بسيط سهل تخترقه الأنهار، وتنساب فيه الجداول، وتتزاحم فيه القرى والجنّات في أحسن حال، وهو فسيح الساحة، بعيد الأقطار، متراكب العمارة، لا يتخلّله خراب»[3]. وقال المقّري: «ولو لم يكن لها إلاّ ما خَصَّها الله تعالى به من المَرْج الطويل العريض، ونهر سنيل، لَكَفَاهَا»[4].

ووصفه الحميري بقوله: «وفحص إلبيرة أزيد من مسافة يوم في مثله، يصرفون فيه مياه الأنهار كيف شاءوا كلَّ أوان من جميع الأزمان، وهو أطيب البقاع بقعة، وأكرم الأرضين تربة، لا يعدل به مكان غير غوطة دمشق وساحة الفيوم، ولا يُعْلَمُ شجرةٌ تُسْتَعْمَلُ وتُسْتَغَلُّ إلاَّ وهي أنجب شيء في هذا الفحص، وما من فاكهة توصف وتستطرف إلاّ وما هناك من الفاكهة تفوقها، ويجود فيها من ذلك ما لا يجود إلاَّ بالساحل من اللوز وقصب السكر وما أشبهها. وحرير فحص إلبيرة هو الذي ينتشر في البلاد ويعمُّ الآفاق وكتّان هذا الفحص يُرْبي جَيِّدُه على كتان النيل، ويكثر حتى يصل إلى أقاصي بلاد المسلمين»[5]. ووصفه محمد عبد الله عنان بقوله: كان هذا الفحص أيام المسلمين أحضر، وافر الخصب، من أنضر بقاع الأندلس الخضراء وأبدعها. وكان الناس يقصدونه للتنزه، يهرعون إليه في أيام الربيع وليالي الصيف، فيغدو مسرح السمر والأنس. أما اليوم، فقد زالت معالمه ومغانيه اليانعة، وقَلَّتْ خضرته، وتخلّلته الرقاع الجرداء[6].

ومن خلال زياراتي لغرناطة، كنت أختلف إلى الحمراء، وكنت أقف كل مرة على إحدى شرفات القصبة لأسرِّح نظري في فضاء ذلك المرج الأفيح الذي كانت

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص١٠٢ ـ ١٠٣)

(٢) ابن حزم وابن سعيد والشقندي: فضائل الأندلس وأهلها (ص ٥٦)؛ المقري: نفح الطيب (ج٣ ص ٢١٧ ـ ٢١).

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ٩٩) واللمحة البدرية (ص ٢٣)

(٤) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٤٨)

(٥) الحميري: الروض المعطار (ص ٤٦)

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٩٩، حاشية ١)؛ عنان: نهاية الأندلس (ص ١٩) والآثار الأندلسية (ص ١٦٤)

تغطيه الكروم والبساتين وتسقيه مياه الجداول المنسابة برفق، فكان ذلك المنظر يملأ نفسي سروراً وبهجة على الدوام.

جبالها: وَهَبَتِ الطبيعةُ غرناطةَ جبالاً شامخةً وظَلَّلَتْها بالآكام العالية، وهي:

أ ـ **جبل شُلَيْر**: هو أحد مشاهير جبال الأرض[1]. وقد أسموه بجبل الثلج؛ لأنَّ الثلج لا يفارقه شتاء ولا صيفاً، فيجمد عليه حتى يصير كالحجر الصَّلْد[2]. وسمي أيضاً جبل إلبيرة[3]. وأسماه القلقشندي «شُكَيْر» بالكاف عوضاً عن اللام[4]. ويسمى بالإسبانية Sierra Nevada، أي سلسلة الجبال الثلجية، واللفظ العربي «شلير» مأخوذ من اللاتينية Solarius أو Solarus، أي المشمِس؛ لانعكاس الشمس على ثلوجه الناصعة التي تغطّيه[5]. يقع جنوب شرقي غرناطة[6]، ويبعد عنها فرسخين[7]، ويقال عشرة أميال[8]. وهو لاصق بالجزيرة الخضراء مع البحر المتوسط[9]. ويُطِلُّ على

---

(١) ابن الحطيب الإحاطة (ج١ ص٩٦).

(٢) البكري جغرافية الأندلس وأوروبا (من كتاب المسالك والممالك للبكري)، تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي، دار الإرشاد، بيروت ١٩٦٨ (ص ٨٥)؛ الإدريسي نزهة المشتاق (ص ٥٦٩)؛ ياقوت معجم البلدان (ج٣ ص ٣٦٠)، القزويني آثار البلاد (ص ٥٠٥، ٥٤٧)، ابن سعيد: كتاب الجغرافيا (ص ١٦٧)، الحميري. الروض المعطار (ص ٣٤٣)، شيخ الربوة: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع بمدينة بطرسبورغ في مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، سنة ١٨٦٥ (ص ٢٤٢)، العمري وصف إفريقية والمغرب والأندلس (ص ٣٥)؛ ابن الحطيب: اللمحة البدرية (ص ٢٢). والإحاطة (ج١ ص ٩٦)؛ القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٨)، المقري. نفح الطيب (ج١ ص ١٤٨، ١٧٧).

(٣) البكري جغرافية الأندلس وأوروبا (ص ٤٨)؛ الحميري. الروض المعطار (ص ٣٤٣).

(٤) القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٨)

(٥) الحميري. الروض المعطار (ص ٣٤٣، حاشية ٢)؛ ابن الحطيب الإحاطة (ج١ ص ٩٦، حاشية ٦) و(ج٣ ص ٤٢٥، حاشية ١)؛ المقري نفح الطيب (ج١ ص ١٤٨، حاشية ٣)؛ إرسلان. الحلل السندسية (ج١ ص ٣٦، ٣٧)؛ عنان: نهاية الأندلس (ص ١٩، حاشية ١)

(٦) ابن سعيد: كتاب الجغرافيا (ص ١٦٧)، الحميري. الروض المعطار (ص ٣٤٣)؛ شيخ الربوة نخبة الدهر (ص ٢٤٢)؛ أبو الفداء: تقويم البلدان (ص ١٧٧)؛ العمري وصف إفريقية والمغرب والأندلس (ص ٣٥)، ابن الحطيب الإحاطة (ج١ ص ٩٦)؛ القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٧)؛ المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٤٨).

(٧) ابن الحطيب: الإحاطة (ج١ ص ٩٦)

(٨) القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٨).

(٩) البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا (ص ٨٤)، الحميري. الروض المعطار (ص ٣٤٣)

غرناطة[1]، ووجهه الجنوبي يطلّ على البحر[2]. وطوله مسيرة يومين[3]. وهو طَوْدٌ شامخ في غاية الارتفاع[4]، ولذا يرى من أكثر بلاد الأندلس[5]. ويبلغ ارتفاع قمته ١١٦٧٨ قدماً[6]، وقيل: ٣٤٨١ م[7]. وتسمى قمته حتى الآن «مولاي أبي الحسن Cerro de Mulhacen»، وهو اسم أحد ملوك بني نصر المتأخري العهد[8].

ينبع منه أكثر من عشرين نهراً[9]. وقيل: ينساب منه ستة وثلاثون نهراً، وتنبجس من سفوحه العيون[10]. وهو شديد البرد، يؤثّر برده بغرناطة في الشتاء لقربها منه[11]. وتجمد بسببه الأدهان والمائعات، ويتراكم بساحاتها الثلج في بعض السنين[12]. وللدلالة على شدة برده، يروي المقري أن أثير الدين أبا حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي، إمام النحاة في وقته، دخل عليه بعض الأصحاب، وهو يتوضّأ بمصر، وقد استقرَّ على إحدى رجليه لغسل الأخرى، كونه شيخاً مسنّاً، فقال له أبو حيان: لو كنتُ اليوم جارَ شُلَيْر لما تركني لهذا العمل في هذا السن[13].

---

(١) القزويني: آثار البلاد (ص ٥٤٧)؛ المقري· نفح الطيب (ج١ ص ١٧٧) و(ح٢ ص ٣٩٢)

(٢) ابن جبير: رحلة ابن جبير دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٩ (ص ٧)، الحميري· الروض المعطار (ص ٣٤٣).

(٣) الحميري الروض المعطار (ص ٣٤٣)

(٤) الإدريسي: نزهة المشتاق (ص ٥٦٩)، ياقوت معجم البلدان (ج٣ ص ٣٦٠)؛ الحميري الروض المعطار (ص ٣٤٣)؛ العمري. وصف إفريقية والمغرب والأندلس (ص ٣٥)؛ القلقشندي· صبح الأعشى (ح٥ ص ٢٠٨)

(٥) البكري. جغرافية الأندلس وأوروبا (ص ٨٥)؛ القزويني. آثار البلاد (ص ٥٠٥)؛ الحميري· الروض المعطار (ص ٣٤٣)

(٦) بطرس البستاني: دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت (م٤ ص ٤٧٢).

(٧) العمري: وصف إفريقية والمغرب والأندلس (ص ٣٥، حاشية ١)

(٨) المصدر نفسه.

(٩) ابن سعيد: كتاب الجغرافيا (ص ١٦٧).

(١٠) ابن الخطيب· الإحاطة (ج١ ص ٩٦)

(١١) الإدريسي: نزهة المشتاق (ص ٥٦٩)؛ ياقوت معجم البلدان (ج٣ ص ٣٦٠)، القزويني. آثار البلاد (ص ٥٠٥)؛ العمري: وصف إفريقية والمغرب والأندلس (ص ٣٥)؛ القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٨)

(١٢) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٩٦)

(١٣) المقري نفح الطيب (ج٢ ص ٥٨٠)

ورآه عبد الله بن إبراهيم الأزدي وقد تردَّى بالثلج وتَعَمَّمَ، فأعجبه ذلك المنظر، فقال يصفه[1]:

وذاك شُلَيْـرٌ شيـخُ غـرنـاطـةَ التي　　　لِبَهْجَتِها في الأرض ذِكْـرٌ قـد اشتهرْ

وفي ذلك الجبل أصناف الفواكه العجيبة من التفاح والعنب والتوت والجوز والبندق وغير ذلك[2]. وعلى ذروته أيام الصيف الأزاهير الكثيرة، وصنوف الرياحين، والرياض المونقة، وأجناس الأفاويه الرفيعة، وضروب العقاقير ولا سيما تلك التي تشبه عقاقير الهند[3]. وبه سائر النبات الهندي والشامي[4]، وأعشاب تستعمل في الأدوية، ولا توجد في الهند أو في غيره من البلاد[5]. وفيه سُنْبُلٌ فائق الطِّيْب[6]. أضف إلى ذلك الجنطيانا وهو عقير رفيع يُحْمَلُ منه إلى جميع الآفاق، والمَرْقشينة على اختلافها، واللاَّزَوَرْد[7]. وفي قـراهُ المتصلة به يكون أفضل الحرير والكتان[8].

وبفضل هذا الجبل كثرت المياه بغرناطة، وصَحَّ الهواء، وتعـدّدت البساتين والجنّات، والتفَّ الدَّوْح، وكثرت الأعشاب الطُّبِّيّة، والعقاقير الدوائية[9].

وقد صوَّر الشعراءُ شدة برده، فقال ابن صدرة وقد اجتازه مرة فوجد ألم برده[10]:

---

(١) المقري: نفح الطيب (ج٦ ص ١٠٥)

(٢) البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا (ص ٨٥)؛ القزويني. آثار البلاد (ص ٥٠٥)، الحميري الروض المعطار (ص ٣٤٣).

(٣) القزويني: آثار البلاد (ص ٥٤٧)؛ العمري. وصف إفريقية والمغرب والأندلس (ص ٣٥)، المقري نفح الطيب (ج١ ص ١٧٧)

(٤) شيخ الربوة. نخبة الدهر (ص ٢٤٢)، المقري. نفح الطيب (ج١ ص ١٤٨)

(٥) العمري. وصف إفريقية والمغرب والأندلس (ص ٣٥).

(٦) البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا (ص ١٢٦) والسُّنْبُل نبات طيب الرائحة يُتداوى به

(٧) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٩٨)

(٨) البكري جغرافية الأندلس وأوروبا (ص ٨٥)، الحميري: الروض المعطار (ص ٣٤٣)

(٩) ابن الخطيب: اللمحة البدرية (ص ٢٢).

(١٠) الشريشي شرح مقامات الحريري، القاهرة، ١٣٠٦ هـ (ج٢ ص ٢٤)؛ ياقوت معجم البلدان (ج٣ ص ٣٦٠)؛ القزويني: آثار البلاد (ص ٥٠٥)، الحميري: الروض المعطار (ص ٣٤٣)، العمري: وصف إفريقية والمغرب والأندلس (ص ٣٥)، القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٨) وجاء فيه: «شُكَيْر» بدل «شُلَيْر». وقد نسبها الشريشي والحميري إلى أبي محمد عبد الله بن صارة البكري المتوفى سنة ٥٠٧ هـ/ ١١١٣ م.

أَحِلَّ لنا تَرْكُ الصلاة بأرضكمْ ... وشُرْبُ الحُمَيَّا وهو شيء مُحَرَّمُ
فِراراً إلى نار الجحيم لأنها ... أَرَقُّ علينا من شُلَيْرٍ وأَرْحَمُ
لَئِنْ كان رَبِّي مُدْخلي في جَهَنَّمٍ ... ففي مثلِ هذا اليومِ طابتْ جَهَنَّمُ

وقال فيه ابن الخطيب وقد خَبُرَ برده ورأى بياض ثلجه[1]:

شُلَيْرُ، لَعَمْري، أساءَ الجِوَارَ ... وسَدَّ عليَّ رحيبَ الفَضَا
هو الشيخُ أَبْرَدُ شيءٍ يُرَى ... إذا لَبِسَ البُرْنُسَ الأبْيَضَا

ووصف قاضي غرناطة أبو بكر محمد بن أحمد الجذامي، المعروف بابن شَبْرِين السبتي، شدة برد غرناطة بعد أن افتخر بها[2]:

رَعَى اللهُ مِنْ غرناطةٍ مُتَبَوَّأً ... يَسُرُّ كَئِيباً أو يُجِيرُ طَرِيدَا
تَبَرَّمَ منها صاحبي بَعْدما رأى ... مَسَارِحَها بالبَرْدِ عُدْنَ جَلِيدَا

٢ - **البُشُرّات**: بالإسبانية Alpujarras، وهي المنطقة الجبلية الواقعة جنوب سفوح جبل شلير، على مقربة من البحر المتوسط، وتشتهر برقاعها الخصيبة، وحدائقها اليانعة[3] ذكر المقري أن الطريق بينها وبين غرناطة متصلة بالمرافق والطعام من ناحية جبل شلير[4]. وأضاف: بشرة غرناطة شجرة من شجر القَسْطَل (الشاه بلوط)، وهي عظيمة جداً، في جوفها حائك ينسج الثياب[5].

٣ - جبل العُقَاب: انفرد بذكره ابن بطوطة، فقال يُطِلُّ جبل العُقاب على خارج غرناطة، ويبعد عنها نحو ثمانية أميال، وهو مجاور لمدينة التيرة الخربة[6].

---

(١) المقري: نفح الطيب (ج٦ ص ٤٩٩)

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص٩٧)؛ ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (ص ٦٧٠ - ٦٧١)؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس أو المَرْقَبَة العُلْيَا فيمن يستحقُّ القضاء والفُتْيَا، تحقيق الأستاذ إ. ليفي - بروفنسال، دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٨ (ص ١٥٣)؛ المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٧٧) وقد وردت الأبيات عند ابن بطوطة والمقري باختلاف في بعض الكلمات عما هنا، كما ورد اسم قائلها في رحلة ابن بطوطة هكذا: ابن شيرين السبتي

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة (ج٣ ص ١٦٨، حاشية ٢)

(٤) المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٥٢٤ - ٥٢٥).

(٥) المصدر نفسه (ج١ ص ١٥٠)

(٦) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (ص ٦٧٢) وأغلب الظن أن المقصود «إلبيرة» بدل «التيرة» وأن الخطأ من الناسخ أو المحقق

٤ ـ **جبل الفخار**: انفرد بذكره ابن الخطيب في كتاب الإحاطة دون أن يتحدث عنه[١]. وعلق عليه محقق الإحاطة محمد عبد الله عنان بقوله: هو إحدى شعب جبل سييرا نڤادا المشرفة على غرناطة، ويسمى اليوم Monte Alfacar[٢].

٥ ـ **جبل السبيكة**: هو عبارة عن هضبة في أسفل الحمراء[٣]، تتصل بربض نَجْد خارج غرناطة[٤]، وتشغلها الآن غابة رائعة تسحرك بأشجارها الباسقة وبخرير الماء المتدفق في جوانبها، وهذه الغابة من عمل الإسبان[٥].

وهناك جبلان آخران يشقّان وسط غرناطة على حَدِّ قول القلقشندي: «وبالمدينة جبلان يشقان وَسَطَها، يُعْرَفُ أحدهما بالخزة ومَوْزُوْر، والثاني بالقصبة القديمة وبالز. وبهما دُوْرٌ حِسانٌ، وعلاليٌّ مشرفةٌ على فحصها، فيَرى منهما منظراً بديعاً من فروع الأنهار والمزْدَرَعات، وغير ذلك ممّا يقصر عنه التخييل والتشبيه»[٦].

أنهارها: تشتهر غرناطة بكثرة الأنهار والعيون[٧]. وتنصبُّ أنهارها من جبل شلير وتنحرف فيها[٨]. وأصل انهارها نهران عظيمان هما شنيل وحَدَرُّه[٩].

١ ـ **نهر شنيل**: هكذا أورد اسمه ابن سعيد وابن خلدون والمقري[١٠]. ثم أسماهُ ابن سعيد: مسيل[١١]. وأسماه ابن عبد ربه الشُّنَّيل[١٢]. وأسموه أيضاً

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٢١)

(٢) المصدر نفسه، حاشية ٥

(٣) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٨٤)؛ Torres Balbas Contornos de las ciudades hispanomusulmanas, (P 480)

(٤) ابن بطوطة رحلة ابن بطوطة (ص ٦٧٢).

(٥) عنان الآثار الأندلسية (ص ١٨٤، ١٨٦)

(٦) القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٩)

(٧) ابن الخطيب الإحاطة (ج١ ص ١٠٩)

(٨) أبو الفداء تقويم البلدان (ص ١٧٧)؛ القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٧)

(٩) العمري وصف إفريقية والمغرب والأندلس (ص ٣٥)، القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٨)

(١٠) ابن سعيد. المغرب (ج٢ ص ١٠٣)، ابن خلدون تاريخ ابن خلدون (م٧ ص ٦٨٩)، المقري نفح الطيب (ج٥ ص ٨)

(١١) ابن سعيد. كتاب الجغرافيا (ص ١٦٧)

(١٢) ابن عبد ربه العقد الفريد (ج٤ ص ٥٠٣)، شرح الأساتذة أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٩ ـ ١٩٦٥.

شنجيل[1]، وشنجل[2] وسنجل[3] . وأسماه عنان سنجيل، وذكر أنه مشتقٌّ من اسمه اللاتيني Singilıs [4] . واسمه بالإسبانية اليوم Genıl . وهو نهر غرناطة الكبير [5] . وينبع من جبل شلير[6] . وذكر ابن الكردبوس أنه ينبعث من ذوب الثلج[7] . ويأتي من قِبْلِيِّ غرناطة إلى غربها[8]، فيمرّ مع سورها[9]، فتتفرّع منه جداول تدور بها أرحاء[10]، ويُقْتَطَعُ لغرناطة منه ساقية تخترقها فتعمُّها مع كثير من الأرباض[11]. ثم يخترق مَرْجَها وهو مسيرة أربعين ميلاً بين بساتين وقرى وضياع كثيرة البيوت والغلال وأبراج الحمام وغير ذلك[12] . ثم يمرّ بلوشة وإستجه، ويصل إلى إشبيلية [13] ، فيصب في نهرها الشهير بالوادي الكبير، الذي يعدُّ نهر إشبيلية وقرطبة معاً، وأعظم أنهار الأندلس على الإطلاق [14] . وقد فضّلوا نهر شنيل على نهر النيل بزيادة حرف الشين، فالشين عندهم عددها ألف، فيصبح شنيل مساوياً لألف نيل[15] . وقد أشار ابن

---

(1) ابن الخطيب. الإحاطة (ج3 ص 211)؛ ابن خلدون تاريخ ابن خلدون (م7 ص 689)؛ المقري. نفح الطيب (ج5 ص 8).

(2) ابن الخطيب اللمحة البدرية (ص 23).

(3) ابن الكردبوس. تاريخ الأندلس (ص 141)، ياقوت. معجم البلدان (ج4 ص 195) و(ج5 ص 26)؛ ابن عبد الحق. مراصد الاطلاع (ص 990).

(4) ابن الخطيب: الإحاطة (ج1 ص 118، حاشية 1)، عنان نهاية الأندلس (ص 18، حاشية 3)

(5) ابن سعيد المغرب في حلى المغرب (ج2 ص 103)، أبو الفداء تقويم البلدان (ص 177)

(6) ابن سعيد: كتاب الجعرافيا (ص 167)، ابن فضل الله العمري وصف إفريقية والمغرب والأندلس (ص 35)؛ القلقشندي صبح الأعشى (ج5 ص 208) وفيه «شكير» بدل «شلير».

(7) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس (ص 141).

(8) ابن الخطيب: الإحاطة (ج1 ص 117) واللمحة البدرية (ص 23)؛ القلقشندي صبح الأعشى (ج5 ص 208).

(9) ابن سعيد كتاب الجغرافيا (ص 167).

(10) ابن الخطيب: الإحاطة (ج1 ص 119).

(11) ياقوت معجم البلدان (ج4 ص 195).

(12) ابن بطوطة رحلة ابن بطوطة (ص 670)؛ ابن خلدون تاريخ ابن خلدون (م7 ص 689)، القلقشندي صبح الأعشى (ج5 ص 208)؛ المقري. نفح الطيب (ج1 ص 176) و (ج5 ص8).

(13) ياقوت معجم البلدان (ج5 ص 26)، ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق الأستاذين ج س كولان وإ. ليفي بروفنسال والدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت (ج2 ص 288)، المقري نفح الطيب (ج1 ص 409).

(14) ابن الكردبوس. تاريخ الأندلس (ص 141)؛ القلقشندي صبح الأعشى (ج5 ص 226).

(15) ابن الخطيب. الإحاطة (ج1 ص 118)، المقري. نفح الطيب (ج1 ص 148)

الخطيب إلى ذلك بقوله: «وما لِمِصْرَ تفخرُ بنيلها وألفُ منه في شنيلها؟»[1]. كما أشار إلى الأمر نفسه في إحدى موشحاته فقال[2]:

شنيْلُها مُدَّ منها نِيْلُ والشَّيْنُ أَلْفُ لِمُسْتَنِيل

وأشار أبو الحسن بن الجياب إلى الموضوع نفسه بقوله[3]:

ما آسْمٌ إذا زِدْتَهُ أَلِفاً من العَدَدِ أفادَ معناه، لم يَنْقُصْ ولم يَزِدِ
وإنما آئتلفا مِنْ بَعْدِ ما آخْتَلَفا مَعْنَىً بِشِيْنٍ ومِنْ نَزْرٍ ومِنْ بَلَدِ

وولعوا بوصفه، وأكثروا من ذكره في نثرهم وشعرهم؛هاكم ابن الخطيب قائلاً: «وهذا الوادي من محاسن هذه الخضرة، ماؤه رقراق من ذوب الثلج ومُجَاجَةِ الجليد، ومَمره على حصىً جوهرية، بالنبات والظلال محفوفة...»[4]. ويقول المقري: «ولو لم يكن لها إلاّ ما خَصَّها الله تعالى به من المرج الطويل العريض ونهر شنيل لكفاها»[5].

ويقول ابن سعيد وهو بقرمونة متشوّقاً إلى غرناطة[6]:

على نهرِ شنِّيْلٍ ولِلْقُضْبِ حَوْلَنا منابِرُ ما زالتْ بها الطيرُ تَخْطُبُ

ويقول أبو الحجاج يوسف بن سعيد بن حسان[7]:

وقد سَلَّ شَنِّيْلُ فِرِنْداً مُهَنَّداً نَضَى فَوْقَ دُرِّ دُرَّ فيه عَقِيْقُ

وكان هذا النهر أيام المسلمين يفيض بالماء، وخاصة في الصيف حين تذوب الثلوج، وكانت ضفافة خضراء يانعة تغصّ بالحدائق الغنّاء. أما اليوم، فقد جفَّ مجراه، وغلب عليه الجفاف، وأقفرت ضفافه، وقلّما يجري فيه الماء حتى في أيام الشتاء[8].

---

(١) المقري نفح الطيب (ج١ ص ١٤٨)

(٢) المصدر نفسه (ج٧ ص ٢٤٤)

(٣) ابن الخطيب الإحاطة (ج١ ص ١١٨)

(٤) المصدر نفسه (ص ١١٧).

(٥) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٤٨)

(٦) المقري: نفح الطيب (ج٢ ص ٢٨٤).

(٧) ابن الخطيب الإحاطة (ج١ ص ١١٨).

(٨) عنان: نهاية الأندلس (ص ١٨) والآثار الأندلسية (ص ١٦١)

٣ ـ نهر حَدَرُّه: بفتح الحاء والدال وضم الراء المشدّدة، وهكذا أورد اسمه ياقوت والحميري والمقري[١]. ثم ذكره ياقوت باسم حَدَارُّه بزيادة ألف بعد الدال[٢]. وأسماه ابن الخطيب هداره[٣]. وكان اسمه في القديم قُلْزُم، بضم القاف والزاي، وسكون اللام[٤]. وقيل قَلُوْم بفتح القاف وضم اللام وسكون الواو[٥]، وقيل فَلُوْم بالفاء[٦]. وأسماه ابن سعيد نهر الذهب [٧]، وقد سمي بهذا الاسم، لأنه كان يلفظ من مجراه برادة الذهب الخالص[٨]. واسمه بالإسبانية اليوم Darro. وهو نهر مشهور بالأندلس[٩]. وينحدر من جبل بناحية وادي آش[١٠]. وقال الحميري: «ومخرجه من جبل هناك»[١١]. ولم يحدّد ابن الخطيب منبعه، فاكتفى بالإشارة إلى أنه يأتي من جهة الشرق[١٢]. ثم يمرّ بين بساتين وكروم إلى أن ينتهي إلى غرناطة، فيدخلها على باب الدّفافّ بشرقيّها[١٣]، ويشقّها نصفين عند سفح التل الذي تقع عليه الحمراء، بحيث يكون حي البيازين إلى يمين النهر، وتكون قصبة الحمراء في الناحية الأخرى[١٤].

---

(١) ياقوت معجم البلدان (ج٤ ص ١٩٥)؛ الحميري: الروض المعطار (ص ٤٥)؛ المقري نفح الطيب (ج١ ص ١٧٧)

(٢) ياقوت. معجم البلدان (ج٤ ص ١٩٥)

(٣) ابن الخطيب. اللمحة البدرية (ص ٢٣)

(٤) ياقوت معجم البلدان (ج٤ ص ١٩٥)، ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع (ص ٩٩٠).

(٥) القزويني آثار البلاد (ص ٥٤٧)

(٦) ابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس، نشرها الدكتور لطفي عبد البديع في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثاني، مطبعة مصر، ١٩٥٥ (ص ٢٨٣)؛ الحميري. الروض المعطار (ص ٤٥).

(٧) ابن سعيد كتاب الجغرافيا (ص ١٦٧).

(٨) ياقوت معجم البلدان (ج٤ ص ١٩٥)؛ القزويني آثار البلاد (ص ٥٤٧)؛ الحميري: الروض المعطار (ص ٤٥)، ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع (ص ٩٩٠).

(٩) القزويني آثار البلاد (ص ٥٤٧)؛ ابن الخطيب. اللمحة البدرية (ص ٢٣)

(١٠) القلقشندي. صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٨)

(١١) الحميري الروض المعطار (ص ٤٥)

(١٢) ابن الخطيب اللمحة البدرية (ص ٢٣)

(١٣) القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٩)

(١٤) ياقوت معجم البلدان (ج٤ ص ١٩٥)؛ ابن سعيد: كتاب الجغرافيا (ص ١٦٧)، الحميري. الروض المعطار (ص ٤٥)، شيخ الربوة نخبة الدهر (ص ١١٢، ٢٤٢)؛ ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع (ص ٩٩٠)، ابن الخطيب اللمحة البدرية (ص ٢٣)، القلقشندي. صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٩)، المقري. نفح الطيب (ج١ ص ١٤٨، ١٧٧)

وذكر ابن غالب أن مخرجه من جبل شُلَير، ويلتقط منه سُحَالة الذهب[1]. وعليه أرحاء كثرة طاحنة داخل المدينة[2]. وقدّرها ابن الخطيب بما ينوف على مائة وثلاثين رحى[3] وقد اقْتُطِعَ لغرناطة منه ساقية كبيرة تخترق نصف المدينة فتعمّ حماماتها، وسقاياتها، وأسواقها وقاعاتها، ومساجدها، وكثيراً من دُورْ سُراة القوم[4]. وروى القلقشندي أن الماء يجري منه في جميع غرناطة، فيبرز في أماكن على وجه الأرض، وتخفى جداوله تحتها في الأكثر، وحيث طُلِبَ الماءُ بغرناطة وُجِد. وعلى هذا النهر بداخل غرناطة خمس قناطر هي؛ قنطرة ابن رشيق، وقنطرة القاضي، وقنطرة حمام جاس، والقنطرة الجديدة، وقنطرة الفود، وعلى هذه القناطر سواقٍ ومبانٍ محكمة[5]. واكتفى شيخ الربوة والمقري بالقول: على هذا النهر قناطر عجيبة البناء، يُجَازُ عليها[6]. ثم يجتمع خارج غرباطة من الجهة الجنوبية بنهر شنيل، عند القنطرة القديمة المعروفة بقنطرة شنيل[7]. وهذه القنطرة من أشهر القناطر الأندلسية، وقد بنيت فوق خمسة عقود على نمط القناطر الرومانية، وبقيت على أصلها الأندلسي حتى أضّر بها الفيضان العَرِمُ في أوائل القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، فجدّدها الإسبان، ولكن على طرازها الأصلي[8]. وروى المقري أنه في سنة ٨٨٢ هـ/ ١٤٧٧ م بعث الله على نهر حدره سَيْلاً عَرِماً، فاحتمل من المدينة الحوانيت والدُّوْر والمعاصر والفنادق والأسواق والقناطر والحدائق، وبلغ تيار السيل إلى رحبة الجامع الأعظم[9]. وما تزال هذه القنطرة قائمة على نهر شنيل عند ملتقاه بفرعه حدره في نهاية الشارع الكبير المسمّى طريق حَدَرُه Aceral de Darro، وما

---

(١) ابن غالب قطعة من كتاب فرحة الأنفس (ص ٢٨٣).

(٢) ياقوت معجم البلدان (ج٤ ص ١٩٥)، الحميري الروض المعطار (ص ٤٥)، ابن عبد الحق. مراصد الاطلاع (ص ٩٩٠)، القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٩)

(٣) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ١٣٣) واللمحة البدرية (ص ٢٥)

(٤) ابن حزم وابن سعيد والشقندي. فضائل الأندلس وأهلها (ص ٥٦)، ياقوت. معجم البلدان (ج٤ ص ١٩٥)؛ الحميري. الروض المعطار (ص ٤٥)، ابن عبد الحق. مراصد الاطلاع (ص ٩٩٠)؛ القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص٢٠٩)؛ المقري. نفح الطيب (ج٣ ص ٢١٧)

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٩)

(٦) شيخ الربوة نخبة الدهر (ص ١١٢، ٢٤٢)؛ المقري. نفح الطيب (ج١ ص ١٤٨)

(٧) ابن الخطيب: اللمحة البدرية (ص ٢٣).

(٨) عنان. الآثار الأندلسية (ص ١٧٨)

(٩) المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٥١١).

تزال تحمل إلى اليوم آسمها وهو Puente de Genil[1]. وبعد أن يلتقي بنهر شنيل يتابع جريانه، فيشقّ مرج غرناطة ويعطيه الحياة والخصب[2] ولا يزال يعظم مَدُّهُ بما ينصاف إليه من فضول السقي ومواقع الأنهار بأحواز غرناطة إلى أنْ يمرّ بإشبيلية وقد صار نيلاً عظيماً[3]. وهكذا كان نهر حَدَرُّه أيام المسلمين يفيض بالماء وحاصة في فصل الصيف، وكانت ضفافه خضراء يانعة، تزخر بالحدائق، أما اليوم فقد جفّ مجراه وكاد يختفي، ولم يبق منه داخل مدينة غرناطة سوى الحرء الصعير المجاور لتل الحمراء[4].

٣ ـ **نهر أندرش**: وهو نهر صغير يخترق مملكة غرناطة[5].

٤ ـ **نهر المنصورة**: هو نهر صغير يخترق مملكة غرناطة من الشرق[6].

٥ ـ **نهر جراندي**: بالإسبانية Grande، وهو نهر صغير يروي غرناطة[7].

(١) عنان الآثار الأندلسية (ص ١٧٦، ١٧٨) ونهاية الأندلس (ص ٢١)

(٢) ابن الخطيب اللمحة البدرية (ص ٢٣)

(٣) ابن الخطيب: اللمحة البدرية (ص ٢٣)

(٤) عنان الآثار الأندلسية (ص ١٦١ ـ ١٦٢) ونهاية الأندلس (ص ١٨)

(٥) عنان. نهاية الأندلس (ص ٤٧)

(٦) ابن الخطيب كناسة الدكان (ص ١٧ من مقدمة المحقق)؛ عنان نهاية الأندلس (ص ٤٧)

(٧) عنان الآثار الأندلسيه (ص ١٦١)

أعمالها

مدن غرناطة. أحصينا لغرناطة سبعاً وعشرين مدينة، هي:

١ ـ **أجيجر**: انفرد بذكرها محمد عبد الله عنان، فقال إنها من مدن غرناطة[١]

٢ ـ **أُرْجُبة**. ذكرها ابن الخطيب دون أن يتحدّث عنها[٢] وعلّق عليها محقق كتاب الإحاطة محمد عبد الله عنان بقوله: أرجبة بالإسبانية Orjiva، وهي بلدة صغيرة من أعمال غرناطة، وتقع جنوب شرقي غرناطة[٣] ثم عاد وقال أرجبة مدينة من مدن غرناطة[٤].

٣ ـ إستجه: كانت إستجه مدينة تابعة لمملكة غرناطة في عهد باديس بن حبوس[٥]. وقد عدّها شيخ الربوة من أعمال قرطبة[٦] وهي بالإسبانية Ecija، وهي مدينة أندلسية قديمة[٧]، ومن مشاهير مدن الأندلس[٨]. وتقع على نهر غرناطة المسمّى شنيل[٩] ومنها إلى مالقة سبعة أيام، ومنها إلى بجانة أربع مراحل، ومنها

(١) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٦١)

(٢) ابن الخطيب الإحاطة (ج٤ ص ٤٢٥)

(٣) المصدر نفسه (ج٤ ص ٤٢٥ حاشية ٢)

(٤) عنان. الآثار الأندلسية (ص ١٦١).

(٥) ابن عذاري البيان المغرب (ج٣ ص ٢٣)، ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بُوْيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية، القسم الثاني، تحقيق الأستاذ إ ليفي بروفنسال، دار المكشوف، لبنان، ١٩٥٦ (ص ٢٣٠) والاحاطة (ج١ ص ٤٣٥)

(٦) شيخ الربوة نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (ص ٢٤٢)

(٧) الحميري: الروض المعطار (ص٥٣)

(٨) الإصطخري المسالك والممالك، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٦١ (ص ٣٥)

(٩) الإدريسي نزهة المشتاق (ص ٢ ص ٥٧٢).

إلى مرسية سبعة أيام، ومنها إلى بلنسية عشرون يوماً[١]. وتبعد عن إشبيلية نحو ثمانين كيلو متراً[٢]، وعن قرطبة نحو ستين كيلو متراً[٣]. ومن إستجه إلى قرمونة خمسة وأربعون ميلاً[٤]. وهي مدينة كبيرة حسنة، على رأس جبل حصين منيع، وعلى فحص ممتدّ جيدّ الزراعات كثير الإصابة في الحنطة والشعير. ولها بساتين وجنّات ملتفة، وحدائق زاهية، وتمتاز بكثرة الثمار ونضارة الفواكه والزروع، وبها أسواق عامرة، ومتاجر قائمة، وفنادق جمة، ولها قنطرة عجيبة البناء من الصخر المنجور[٥].

٤ ـ **أشكر**: انفرد بذكرها محمد عبد الله عنان، وعدّها من مدن غرناطة[٦].

٥ ـ **إلبيرة**: يقال إن اسمها أيضاً لَبيرة، ويلبيرة، وبليرة[٧]. وهي مدينة رومانية قديمة، كانت تسمى أيام الرومان Iliboris، وكانت آنذاك عاصمة كورة إلبيرة. وكانت أيام الفتح الإسلامي للأندلس مدينة كبيرة عامرة[٨]. وقيل: إن قسطيلية كانت عاصمة كورة إلبيرة في عهد الدولة الأموية[٩] وعدّ ياقوت قسطيلية من مدن إلبيرة[١٠]. وإلبيرة في آن معاً كورة كبيرة ومدينة متصلة بأراضي كورة قبرة[١١]. وهي من أكرم المدن وأطيبها[١٢]، ومن حواضر الأندلس الجليلة[١٣] وعدّها ابن الخطيب من أعظم كور الأندلس[١٤] وقد انهدمت في بداية حكم بني زيري، وأصبحت قرية في القرن الثامن

---

(١) المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ص ٢٤٨)
(٢) عنان. الآثار الأندلسية (ص ٧٦)
(٣) عنان الآثار الأندلسية (ص ٧٦)؛ أرسلان الحلل السندسية (ج١ ص ١٣٢).
(٤) الإدريسي. نزهة المشتاق (ص ٥٧٢)
(٥) المصدر نفسه؛ الحميري. الروض المعطار (ص ٥٣)
(٦) عنان. الآثار الأندلسية (ص ١٦١).
(٧) ياقوت. معجم البلدان (ج١ ص ٢٢٤).
(٨) عنان نهاية الأندلس (ص ١٧، حاشية ١)
(٩) دائرة المعارف الإسلامية (ج٢ ص ٥٠٥)، سالم. تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٩ (ص ٧٧).
(١٠) ياقوت معجم البلدان (ج١ ص ٢٤٤)
(١١) المصدر نفسه
(١٢) القزويني آثار البلاد (ص ٥٠٢)
(١٣) الحميري: الروض المعطار (ص ٢٨)
(١٤) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٩١).

الهجري/ الرابع عشر الميلادي[1]. وتقع بقرب قرطبة[2]، في موسطة الأندلس[3]، وبين إلبيرة وغرناطة ستة أميال[4]، وبينها وبين قرطبة تسعون ميلاً[5]. وقد خربت إلبيرة في الفتنة البربرية وانفصل أهلها إلى مدينة غرناطة، وحلّت غرناطة محلها كعاصمة لكورة إلبيرة[6]. ويُرَجَّحُ أن تكون إلبيرة في المكان الذي تقوم عليه غرناطة الحديثة[7]. وقد سُمِّيَتْ دمشقَ لشبهها بدمشق بكثرة الأنهار والتفاف الأشجار وكثرة الثمار[8]. وقيل سميت بذلك لأن جُنْد دمشق نزلوها عند الفتح[9].

وهكذا كانت أرض إلبيرة كثيرة الأنهار والأشجار وما يطول ذكره من صنوف الخيرات[10]. وبها حرير كثير فائق يفضل ويُقَدَّمُ على غيره[11]. واشتهرت بالعصفر والزيت[12]. وفي جميع نواحيها يعمل الكتّان بكثرة[13]. وفي ساحلها شجر الموز، وَيَحْسُنُ بها نبت قصب السكر[14]. وبها معادن الفضة[15]، والذهب والحديد والنحاس[16]، والرصاص، والصفرة، والتوتيا ومقطع الرخام[17]. وتُحْمَلُ هذه

(١) Dozy. Recherches, (T I, P. 329 - 330)

(٢) القزويني: آثار البلاد (ص ٥٠٢)

(٣) شيخ الربوة. نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (ص ٢٤٢).

(٤) الحميري. الروص المعطار (ص ٢٨).

(٥) ياقوت: معجم البلدان (ج١ ص ٢٤٤).

(٦) الحميري. الروص المعطار (ص ٢٨)؛ شيخ الربوة: نخبة الدهر (ص ٢٤٢).

(٧) دائرة المعارف الإسلامية (ج٢ ص ٥٠٦)؛ سيبولد.

(٨) القزويني. آثار البلاد (ص ٥٢)؛ شيخ الربوة. نخبة الدهر (ص ٢٤٢).

(٩) الحميري: الروض المعطار (ص ٢٨)، ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٩٨).

(١٠) ياقوت. معجم البلدان (ج١ ص ٢٤٤)، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص ٩١).

(١١) الإصْطخْري. المسالك والممالك (ص ٣٦)؛ ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، ١٩٥٦، (ص ٩٣)؛ ياقوت. معجم البلدان (ج١ ص ٢٤٤).

(١٢) ابن الدلائي. نصوص عن الأندلس (ص ٩٣).

(١٣) ياقوت. معجم البلدان (ج١ ص ٢٤٤)؛ اس سعيد المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص٩١).

(١٤) القزويني. آثار البلاد (ص ٥٠٢)

(١٥) الإصطخري. المسالك والممالك (ص٣٦)، ياقوت. معجم البلدان (ج١ ص ٢٤٤)؛ القزويني: آثار البلاد (ص ٥٠٢)

(١٦) ياقوت. معجم البلدان (ج١ ص ٢٤٤)؛ القزويني: آثار البلاد (ص ٥٠٢)

(١٧) القزويني: آثار البلاد (ص ٥٠٢).

المعادن إلى سائر مدن الأندلس [1] . ويجود فيها الزعفران [2] .

٦ ـ **باغُه**: تلفظها العامة بِيْغُه [3]. ويذكرها الحميري بيغو بدل باغـه [4]. وهي بالإسبانية Priego. وقد عدّها أبو الفداء بلدة [5]. وجعلها ابن الدلائي قرية [6]، ونحن نأخذ برأيه؛ لأنه كان معاصراً لبني زيري. وجعلها الحميري وابن الخطيب مدينة [7]. وقال المقري: «ومن أعمال غرناطة الكبار عمل باغُه» [8]. وتقع باغه شمالي لوشة على مقربة من قلعة يحصب، في ولاية جيان [9]، وتبعد عن إلبيرة أربعين ميلاً [10]. وهي غزيرة المياه، ولمائها خاصيّة أنه ينعقد حجراً [11]. وبقربها عين ماء، إذا شرب منه مَنْ به الحصى فَتّتَ ذلك الحصى [12]. وباغه طيبة الـزرع، كثيرة الثمار [13]، ويجود فيها الـزعفران [14]. وهي كثيـرة الأعناب، وخمـرتها مشهـورة [15]. وعليها الأرحـاء لكثرة مياهها، وهي في نهاية الخصب [16].

---

(١) القزويني: آثار البلاد (ص ٥٠٢)

(٢) ابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس (ص ٢٨٣).

(٣) المقري. نفح الطيب (ج١ ص ١٤٩).

(٤) الحميري الروض المعطار (ص ١٢٢، ٤٤٨، ٥١٣)

(٥) أبو الفداء: تقويم البلدان (ص ١٧٧)

(٦) ابن الدلائي· نصوص عن الأندلس (ص ٩٣)

(٧) الحميري: الروض المعطار (ص ١٢٢)؛ اس الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٥٠٩)

(٨) المقري. نفح الطيب (ج١ ص ١٤٩)

(٩) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٥٠٩، حاشيـة ٦) و(ج٣ ص ٥٢٧، حاشيـة ٢)؛ المقري. نفـح الطيب (ج١ ص ١٤٩، حاشية ٢).

(١٠) ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس (٨٩)

(١١) ابن سعيـد: المغرب في حلى المغـرب (ج١ ص ١٦٤)؛ أبو الفداء: تقويم البلدان (ص ١٧٧)؛ المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٤٩).

(١٢) ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس (ص ٩٣).

(١٣) ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص١٥٤)، المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٤٩).

(١٤) اس سعيـد: المعرب في حلى المغرب (ج٢ ص ١٥٤)؛ أبو المداء تقـويم البلدان (ص ١٧٧)؛ المقري. نفح الطيب (ج١ ص ١٤٩)

(١٥) ابن سعيد المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص ١٥٤)؛ أبو الفداء. تقويم البلدان (ص ١٧٧).

(١٦) الإدريسي. نزهة المشتاق (ص ٥٧١).

٧ ـ **البراجلة**: عدّها ابن الأبار من أعمال غرناطة[١]. ثم عاد وجعلها ناحية من نواحي كورة إلبيرة[٢]. وهي بالإسبانية Parcella.

٨ ـ **بسطة**: بالإسبانية Baza، وكان باديس بن حبوس قد امتدَّ سلطانُهُ عليها[٣]، ثم تنازل عنها لابن ذي النون، صاحب طليطلة، مقابل إنجاد هذا الأخير له في استرجاع وادي آش من أيدي المعتصم بن صمادح، صاحب ألمرية[٤]. وهي من كورة جيان، وتقع بقرب وادي آش[٥]. وهي مدينة متوسطة المقدار، حسنة الموضع، ولها أسوار حصينة وسوق نظيفة[٦]. وأرضها طيبة كثيرة الرَّيْع، وهي مشهورة بالمياه والبساتين، حيث تتخلّلها الجداول المتدفّقة، وشجر التوت فيها كثير، وعلى قدر ذلك غلة الحرير والزيتون وسائر الثمار بها على مثل ذلك من الكثرة، وبها كانت طرز الوِطاء (الوِطاء خلاف الغِطاء) البَسْطي من الديباج الذي لا يُعْلَم له نظير، وبها جبل يعرف بجبل الكحل، ولا يزال ينشر منه كحل أسود[٧]. وكان يصنع بها من ثياب اللباس المحررة الصنف الذي يعرف بالملبد المختم، وكان له ألوان عجيبة[٨]. وقد سقطت في شهر محرم عام ٨٩٥ هـ/ كانون الأول ١٤٨٩ م[٩]. وقد بلغ سكانها في عهد بني الأحمر زهاء خمسين ألف نفس. أما اليوم، فإنها مدينة صغيرة، لا يعدو سكانها عشرين ألفاً، وما يزال الطابع الأندلسي يبدو في مظاهرها، وما تزالُ تُوجَدُ فيها بقيةٌ من أسوارها الأندلسية القديمة، كما يوجد بها حمامان عربيان، أحدهما قديم، والآخر، وهو ذو أربعة عقود، يرجع إلى أواخر أيام بني الأحمر[١٠].

---

(١) ابن الأبّار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق الأستاذ السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي والمثنى ببغداد، ١٩٥٦ (ص ٢٥٤).

(٢) نفسه. الحلة السيراء، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣ (ج١ ص ١٤٧).

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠) والإحاطة (ج١ ص ٤٣٥).

(٤) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٥٧)

(٥) الحميري: الروض المعطار (ص ١١٣).

(٦) الإدريسي. نزهة المشتاق (ص ٥٦٨).

(٧) الحميري: الروض المعطار (ص ١١٣).

(٨) المقري. نفح الطيب (ج١ ص ٢٠١)

(٩) المصدر نفسه (ج٣ ص ٥٢٢).

(١٠) عنان. الآثار الأندلسية (ص ٢٣٤).

٩ ـ **بيّاسة**: بالإسبانيـة Baeza. وقد استقـلّ بها وبجيـان الأمير عـبد الله بن بلقين[١]. وهي مدينة كبيرة من أعمال جيان[٢]. وتبعد عنها عشرين ميلاً[٣]. وتقع على كُدْية من تراب مطلّة على نهر الوادي الكبير المُفْضي إلى قرطبة وإشبيلية[٤]. وهي طيبة الأرض، كثيرة الزرع والأشجار والـزعفران[٥]. وهي مـدينة ذات أسـوار وأسواق ومتاجر[٦]. وقد دخلها الإسبان سنة ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م، وأُخْرِجوا عنها سنة ٥٥٢ هـ/ ١١٥٧ م[٧]. وفي عـام ٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦ م ملكها الإسبـان نهـائيـاً[٨]. وليست بها اليوم أية آثار أندلسية[٩].

١٠ ـ **جِلْيانة**: ضبطها ياقوت بكسـر الجيم وسكون الـلام وياء سـاكن وألف ونون، وقال إنها حصن حصين بالأندلس من أعمال وادي آش[١٠]. وعدّها ابن الدلائي معاصر بني زيري قرية[١١]. ووافقه المقري هذا الرأي فقال: جليانة قرية من أعمال غرناطة، والنسبة إليها جلياني[١٢]. ثم عدل المقري عن ذلك فقال: حصن جليانة من أعمال وادي آش، وهو حصن كبير يضاهي المدن[١٣]. وذهب شيخ الـربوة إلى أن جليانة من أعمال جيان[١٤]. وأغلب الظن أن جليانة كانت في عهد بني زيري بلدة

---

(١) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان، مؤسسة الخانجي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٨ (ص ٣٣).

(٢) ياقوت: معجم البلدان (ج١ ص ٥١٨)؛ شيخ الربوة. نخبة الدهر (ص ٤٢٣).

(٣) الإدريسي. نزهة المشتاق (ص ٥٦٨)؛ الحميري. الروض المعطار (ص ١٢١).

(٤) الحميري: الروض المعطار (ص ١٢١).

(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق (ص ٥٦٩)؛ ياقوت: معجم البلدان (ج١ ص ٥١٨)؛ ابن سعيد: المغرب (ج٢ ص ٧١)؛ الحميـري: الروض المعـطار (ص ١٢١)؛ القلقشنـدي: صبـح الأعشى (ج٥ ص ٢٢١)

(٦) الإدريسي: نزهة المشتاق (ص ٥٦٩)؛ الحميري: الروض المعطار (ص ١٢١).

(٧) ياقوت. معجم البلدان (ج١ ص ٥١٨).

(٨) الحميري. الروض المعطار (ص ١٢١)

(٩) عنان. الآثار الأندلسية (ص ٢٢٨).

(١٠) ياقوت: معجم البلدان (ج٢ ص ١٥٧)

(١١) ابن الدلائي نصوص عن الأندلس (ص ٩٠).

(١٢) المقري نفح الطيب (ج٢ ص ٦٣٥)

(١٣) المصدر نفسه (ج١ ص ١٤٩)

(١٤) شيخ الربوة نخبة الدهر (ص ٢٤٣).

كبيرة، وكان لها حصن منيع. والمسافة بينها وبين وادي آش اثنا عشر ميلاً[1]. وقدَّر المقَّري المسافة بين جليانة وغرناطة مثل ما بين بيت المقدس وبيسان[2]. وهي كثيرة الفواكه، وقد خصّها الله بالتفاح الذي يُضْرَبُ به المثل في الأندلس، إذ كان يجمع عِظَمَ الحجم وحلاوة الطعم وذكاء الرائحة، وقيل: إذا أُكل وُجِد فيه طعم السكر والمسك، ولجلالته وطيبه وريحه قيل لها جليانة التفاح[3].

١١ - **جيان**: اسمها بالإسبانية Jaén. وتسمَّى قِنَّسْرين لشبهها بها[4]. وقد غلب عليها حبوس بن ماكسن وتملّكها[5]. وظلت في عهد باديس إلى وقت ما من أعمال غرناطة، وكان قد ولّى عليها أحد أبنائه[6]. وكانت جيان في مدة ملوك الطوائف أحياناً لبني زيري، وتارة لبني عباد بإشبيلية[7]. وهي من مشاهير مدن الأندلس[8].

وجيان مدينة على جبل، وهي مدينة منيعة[9]. وتبعد عن غرناطة خمسين ميلاً[10]. وبينها وبين قرطبة خمسون ميلاً[11]. وحدّد ابن الدلائي المسافة بينها وبين قرطبة بعشرين ميلاً[12]. ثم قال: من حاضرة جيان إلى قرطبة خمسة وعشرون ميلاً[13]. والمسافة بينها وبين قرطبة اليوم ١٠٤ كلم، وبينها وبين مالقة ٢٠٩ كلم.

---

(١) المقري· نفح الطيب (ح١ ص ١٤٩ - ١٥٠).
(٢) المقري. نفح الطيب (ج٢ ص ٦٣٦).
(٣) ياقوت. معجم البلدان (ج٢ ص ١٥٧)، اس سعيد· المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص ١٤٨)، المقري. نفح الطيب (ح١ ص ١٤٩)
(٤) شيخ الربوة: نخبة الدهر (ص ٢٤٣)؛ ابن الخطيب أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠) والإحاطة (ح١ ص ٤٣٥).
(٥) اس عذاري· البيان المعرب (ج٣ ص ٢٦٤)- ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٣٢٩) والاحاطة (ج١ ص ٤٣٢).
(٦) ابن الخطيب· أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠، ٣٣٣ - ٢٣٤). والإحاطة (ج/١ ص ٤٣٥)
(٧) ابن سعيد المغرب (ج٢ ص ٥١).
(٨) الإصطخري: المسالك والممالك (ص ٣٥).
(٩) المقدسي أحسن التقاسيم (ص ٢٣٤)
(١٠) الإدريسي: نزهة المشتاق (ص ٥٨١).
(١١) المقدسي· أحسن التقاسيم (ص ٢٣٤)؛ ابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس (ص ٢٨٤).
(١٢) اس الدلائي. نصوص عن الأندلس (ص ٣)
(١٣) المصدر نفسه (ص ٨٩)

وتقع في سفح جبل عال جداً، ولها قصبة موصوفة بالحصانة[1]. وفي داخلها عيون وينابيع مطردة، وماؤها غزير، وعليها سقي كثير[1]. وقد أحصى فيها المقدسي اثنتي عشرة عَيْناً، ثلاث عليها أرحية[3]. وهي مدينة حسنة، كثيرة الخصب، بها جنات وبساتين ومزارع، وهي كثيرة اللحوم والعسل، ولها ما ينوف على ثلاثة آلاف قرية، كلُّها يُرَبَّى فيها دود الحرير، وحريرها يفوق حرير إلبيرة طِيْباً، وبها غلات القمح والشعير والباقِلِّي (الفول) وسائر الحبوب[4]. وفيهامعدن الفضة والزئبق[5]. وما تزال مدينة جيان تحتفظ بطابعها الأندلسي القديم، ويتجلَّى ذلك بوضوح في شوارعها وطراز منازلها.

١٢ ـ **الحامة**: بالإسبانية Alhama، وتقع غربيَّ غرناطة إلى الجنوب من مدينة لوشة. وقد استولى عليها الإسبان سنة ٨٨٧ هـ/ ١٤٨٢ م[6]، أي قبل سقوط غرناطة بعشر سنين.

١٣ ـ **حصن اللوز**: بالإسبانية Isnalloz. وقد استولى عليه الإسبان في عام ٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥ م[7].

١٤ ـ **ريُّه**: بالإسبانية Reyo وهي كورة من كور الأندلس، مَلَكَها باديسُ بن حبوس[8]. وتقع قِبْليَّ قرطبة، وقد نَزَلَهَا جُنْد الأردن من العرب عند الفتح، وهي كثيرة الخيرات[9]. وكانت مدينة أرشذونة Archidona قاعدتَها، وكانت هذه المدينة كثيرة العيون، غزيرة المياه[10].

١٥ ـ **شلوبينية**: بالإسبانية Salobrena، وقد اختلفوا في رسم اسمها وفي ما إذا كانت مدينة أم بلدة أم قرية أم حصناً؛ فعدها ابن الدلائي، وهو الأكثر حجة من

---

(١) الحميري: الروض المعطار (ص ١٨٣)

(٢) الحميري: الروض المعطار (ص ١٨٣)ـ شيخ الربوة: نخبة الدهر (ص ٢٤٣)

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم (ص ٢٣٤).

(٤) الحميري: الروض المعطار (ص ١٨٣)

(٥) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢ هـ (ص ٨٧)

(٦) المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٥١٢)

(٧) المصدر نفسه (ص ٥١٥ ـ ٥١٦)

(٨) ابن الخطيب. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠) والإحاطة (ج١ ص ٤٣٥).

(٩) الحميري: الروض المعطار (ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠)

(١٠) المصدر نفسه (ص ٢٥)

غيره، كونه عاش في عصر بني زيري، من أقاليم إلبيرة[1]. وقال شيخ الربوة: مدينة سلبانيّة من أعمال غرناطة[2]. وقال الحميري إنّ شلوبينية قرية مسكونة على ضفة البحر[3]. وقال عنان: شلوبانية من مدن غرناطة[4]. وأضاف: هي من الثغور الصغيرة على البحر المتوسط، وتقع جنوبي غرناطة[5]. وقال سالم: شلوبين بلدة تلي ألمرية من البلاد البحرية من جهة الغرب[6]. وقال ابن سعيد وأبو الفداء: حصن شَلَوْبِينية من أعمال غرناطة، وهو من حصون غرناطة البحرية على بحر الزقاق[7] وقال المقري: حصن شلوبينية على ساحل غرناطة[8]، ثم عاد وذكر قلعة شلوبانية[9]. ونحن بدورنا نقول: نظراً لأهمية حصن شلوبينية، فقد غلب اسمه على البلدة حتى أصبحت تعرف به. وقد حدَّد عنان موقع هذا الحصن في وسط البلدة على منحدر صخري وعر مشرف على البحر، وقال إن بعض أطلاله ما يزال قائماً، ممّا يدلّ على أنه من أهم الآثار الأندلسية المتبقية في الأندلس[10]. وبين شلوبينية والمُنَكَّب عشرة أميال[11]. ويجود فيها الموز وقصب السكر[12]. وبناحيتها الرخام الأبيض الملكي الناصع[13]. وفيها معدن حجر التوتيا[14]. وقد سقطت في أيدي الإسبان عام ٨٩٥ هـ/ ١٤٨٩ م[15].

---

(١) ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس (ص ٩٠) والإقليم عند خواصّ أهل الأندلس هو كل قرية كبيرة جامعة ياقوت: معجم البلدان (ج ١ ص ٢٦).

(٢) شيخ الربوة. نخبة الدهر (ص ٢٤٣).

(٣) الحميري· الروض المعطار (ص ٤٢٣)

(٤) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٦١).

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١١٢، حاشية ١).

(٦) سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٩ (ص ٣٠٣)

(٧) ابن سعيد: المعرب في حلى المغرب (ج٢ ص ١٢٩)؛ أبو الفداء: تقويم البلدان (ص ١٧٧).

(٨) المقري: نفح الطيب (ج٣ ص ٤٩١).

(٩) المصدر نفسه (ح٤ ص ٥٢٤).

(١٠) عنان: الآثار الأندلسية (ص ٢٦٢).

(١١) الحميري· الروض المعطار (ص ٣٤٣).

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) شيخ الربوة: نخبة الدهر (ص ٢٤٣).

(١٤) ياقوت· معجم البلدان (ج١ ص ٢٤٤).

(١٥) المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٥٢٤).

١٦ ـ **فِنْيانة**: بالإسبانية Finana، وهي قرية بقرب وادي آش، تطّرد المياه في جميع جنباتها، وهي كثيرة الكروم والتوت والبساتين وضروب الثمار، وكان بها طرز الديباج، وأهلها عجم ذوو يسار[١]. واكتفى ابن الدلائي بالقول: فنيانة جزء من أجزاء إلبيرة[٢]. وذكرها ابن بلقين في مذكراته وتحدث عن فتنتها في عهد جده باديس بن حبوس[٣]. وكان لها حصن هام ذكره الإدريسي دون أن يتحدث عنه[٤].

١٧ ـ **قبرة**: بالإسبانية Cabra. وتتصل بأعمال قرطبة من قِبْلِيِّها[٥]. وبينها وبين قرطبة ثلاثون ميلاً[٦]. وقد تملّكها الأمير حبوس بن ماكسن وضمّها إلى مملكته غرناطة[٧]. ولها حصن كبير حصين وثيق البنيان، يبعد عن قرطبة أربعين ميلاً[٨]. وهي ذات مياه سائحة من عيون شتّى، وبها سوق جامعة يوم الخميس، وتحسن بها ضروب الشجر وأنواع الثمر[٩]. ويكثر فيها شجر الزيتون[١٠].

١٨ ـ **قلعة يَحْصِب**: بالإسبانية Alcalá la Real، أي القلعة الملكية، وتنسب إلى قبيلة يَحْصِب، وتعرف أيضاً بقلعة يعقوب، أو القلعة السعدية، أي قلعة بني سعيد، نسبة إلى بني سعيد الأدباء والمؤرخين أصحاب كتاب «المغرب في حلى المغرب»؛ لأنهم كانوا قد نزلوها وسكنوها. وجعلها ابن الدلائي والنباهي جزءاً من أجزاء إلبيرة[١١]. وعدّها ابن الأبار وأبو الفداء من أعمال غرناطة[١٢]. ومنها إلى إلبيرة ثلاثون ميلاً[١٣].

---

(١) الحميري. الروض المعطار (ص ٤٤١)

(٢) ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس (ص ٩٢).

(٣) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (٥٩ ـ ٦٠).

(٤) الإدريسي: نزهة المشتاق (ص ٥٦٧).

(٥) ياقوت: معجم البلدان (ج٤ ص ٣٠٥)

(٦) الحميري: الروض المعطار (ص ٤٥٣).

(٧) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢٦٤)؛ ابن الخطيب أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٩) والإحاطة (ج١ ص ٤٣٢).

(٨) الإدريسي: نزهة المشتاق (ص ٥٧١)

(٩) الحميري. الروض المعطار (ص ٤٥٣)

(١٠) ياقوت معجم البلدان (ج٤ ص ٣٠٥)؛ الحميري: الروض المعطار (ص ٤٥٣)

(١١) ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس (ص ٩٢)؛ النباهي: المرقبة العليا (ص ١٢٥)

(١٢) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة (ص ٣١٥، ٨٥٥)، أبو الفداء تقويم البلدان (ص ١٧٧)

(١٣) ابن الدلائي نصوص عن الأندلس (ص ٨٩)

١٩ ـ قيسانة: انفرد بذكرها المقري وعدّها من عمل غرناطة دون أن يتحدث عنها [١].

٢٠ ـ اليُسّانة أو اللُّسّانة: بالإسبانية Lucena، وهي مدينة اليهود، واليهود يسكنون بجوفها، ولا يداخلهم فيها مسلم البتة، ولها ربض يسكنه المسلمون وبعض اليهود، وأهلها أغنياء مياسير. وهي محصّنة بسور حصين. ومنها إلى قرطبة أربعون ميلاً [٢]. وعدّها ابن الأبار من أعمال قرطبة [٣]. وقد ثار فيها اليهود على الأمير عبد الله بن بلقين، بقيادة ابن ميمون اليهودي، عندما فرض عليهم عبد الله ذهباً كثيراً باسم التقوية [٤]. وكان أهلها أول من أطاعوا ليوسف بن تاشفين عندما أرسل لهم كُتُباً يدعوهم فيها لعدم المقاومة أثناء حصاره لمملكة غرناطة عام ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م [٥].

٢١ ـ لوشة: بالإسبانية Loja، وقد ضبطها ابن الدلائي بفتح اللام وسكون الواو وفتح الشين [٦]. وهي مدينة ضخمة ينضاف إليها من الحصون والقرى كثير [٧]. وقد أسماها ابن الخطيب فَتِيّة غرناطة أو بِنْت غرناطة، اعتزازاً بها كونه منها [٨]. وهي في سفح جبل على نهر شنيل المعروف أيضاً بِسَنْجَل، وهو نهر غرناطة [٩]. ويخترق هذا النهر بسيط لوشة أي مرجها من الجنوب إلى الشمال [١٠].

وتقع تلك المدينة غربي غرناطة [١١]. وبينها وبين غرناطة عشرة فراسخ، أي ما يعادل ثلاثين ميلاً [١٢]. وقيل بينهما مرحلة بين أنهار وظلال أشجار، وبساتين

---

(١) المقري· نفح الطيب (ج٢ ص ٦٣٩)

(٢) الإدريسي· نزهة المشتاق (ص ٥٧١ ـ ٥٧٢).

(٣) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة (ص ١١٤، ٥٨٥، ٦٥٧).

(٤) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٣٠ ـ ١٣١)

(٥) المصدر نفسه (ص ١٤٨).

(٦) ابن الدلائي· نصوص عن الأندلس (ص ٨٩).

(٧) المقري. نفح الطيب (ج١ ص ١٤٨ ـ ١٤٩).

(٨) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٤١٩)؛ المقري: نفح الطيب (ج٥ ص ٥٠ ـ ٥١).

(٩) ياقوت: معجم البلدان (ج٥ ص ٢٦) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص ١٥٧)؛ ابن الخطيب· اللمحة البدرية (ص ٢٨)؛ المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٤٩).

(١٠) ابن خلدون· تاريخ ابن خلدون (م٧ ص ٦٨٩)؛ المقري: نفح الطيب (ج٥ ص ٨).

(١١) ابن الخطيب: اللمحة البدرية (ص ٢٨).

(١٢) ابن الدلائي. نصوص عن الأندلس (ص ٨٩)؛ ياقوت. معجم البلدان (ج٥ ص ٢٦)؛ الحميري· الروض المعطار (ص ٥١٣).

ورياض[1]. وبينها وبين قرطبة عشرون فرسخا[2]. وهي مدينة جليلة، كثيرة الخصب، متدفقة المياه[3]. وبها معدن للفضة جيد[4].

وكانت قد بنيت عام ٢٨٠ هـ/ ٨٩٣ م في عهد الأمير عبد الله بن محمد[5]. وأصبحت قرية في فترة المرابطين، وبالتحديد في عام ٥٠٤ هـ/ ١١١٠ م [6]. وقد سقطت في أيدي الإسبان عام ٨٩١ هـ/ ١٤٨٦ م، وما تزال تحتفظ حتى اليوم ببقايا آثار العرب، وهي عبارة عن أطلال القصبة القديمة أو القلعة [7].

٢٢ ـ **مالقة**: بالإسبانية Malaga. وقد انتزعها باديس بن حبوس من بني حمود سنة ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م، وأضافها إلى عمله غرناطة[8]. وحصّنها وجدّد تشييد قصبتها ووسّع منشآتها، بحيث لم يقدر على مثل ذلك البنيان أحد في زمانه[9]. وولّى عليها حفيده تميم بن بلقين بن باديس[10]. وتقع هذه القصبة شرقيَّ مدينة مالقة[11]، وما تزال تحتفظ ببعض أسوارها وأبراجها القديمة التي رأيناها بأم العين غير مرة. وتقع مدينة مالقة على شاطىء البحر المتوسط[12]. وتبعد عن غرناطة ثمانين ميلاً، ومنها إلى الجزيرة الخضراء مائة ميل، وإلى قرطبة مائة ميل أيضاً. وهي مدينة حسنة عامرة وحصينة، ولها قصبة منيعة، وأسواقها عامرة فيها حركة ونشاط[13].

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص١٥٧)، أبو الفداء: تقويم البلدان (ص ١٤٨)؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون (م٧ ص ٦٨٠)، المقري. نفح الطيب (ج١ ص ١٤٩). و(ج٥ ص ٨).

(٢) ياقوت: معجم البلدان (ج٥ ص ٢٦).

(٣) ابن الخطيب: اللمحة البدرية (ص ٢٨)

(٤) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٤٨).

(٥) ابن الخطيب: اللمحة البدرية (ص ٢٨)

(٦) الحميري. الروض المعطار (ص ٢٧١).

(٧) عنان: الآثار الأندلسية (ص ٣٣٥)؛ أرسلان: الحلل السندسية (ج١ ص ١٢٩).

(٨) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب (ج١ ص ٤٢٥)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢١٨، ٢٦٦)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٤٢)؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٦٩)؛ المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٤٣٥).

(٩) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ٤٣).

(١٠) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٤، ٢٣٦).

(١١) الحميري: الروض المعطار (ص ٥١٨)

(١٢) شيخ الربوة: نخبة الدهر (ص ٢٤٤)؛ الحميري: الروض المعطار (ص ٥١٧)

(١٣) الإدريسي: نزهة المشتاق (ص ٥٦٥، ٥٧٠، ٥٨٠)

وهي كثيرة الخيرات والفواكه[1]. وقد استدار بها من جميع جهاتها شجر التين المنسوب إليها، وهو من أحسن التين طِيْباً وعذوبةً، وكان يضرب المثل بحسنه، وكان يحمل إلى المغرب ومصر والشام والعراق، وربما إلى الهند[2]. ولكثرة العنب فيها، فقد كان يباع في أسواقها كلُّ ثمانية أرطال بدرهم صغير، وكان يصدّر إلى الخارج[3]. وكانوا يستخرجون منه الخمور والأنبذة، وكانت خمرة مالقة مشهورة بالأندلس، مفضلة على غيرها، وكانت تصدّر إلى الخارج[4]. كذلك اشتهرت مالقة برمانها الياقوتي الذي ليس له نظير في الدنيا[5]. وكثر فيها شجر اللوز، وكان يحمل منها ومن أحوازها إلى بلاد المغرب والمشرق[6]. وكانت أيضاً كثيرة شجر الزيتون، وكان يصدر والزيت إلى الخارج[7]. وكان يصنع فيها الفخار المزجج المذهب، وكان يحمل إلى أقاصي البلاد[8]. كما صنع فيها الزجاج الغريب العجيب[9]. وآختصَّتْ بالوَشْي المذهب الذي يَتَعَجَّبُ من حُسْنِ صنعته أهل المشرق إذا رأوا منه شيئاً[10]. ويقول الشقندي: تأتي مالقة في صناعة الحلل الموشية (هي نوع من المنسوجات الحريرية) في المرتبة الثالثة بعد مرسية وألمرية، وإن هذه الحلل تجاوز أثمانها الآلاف، وهي ذات صور عجيبة برسم الخلفاء ومن دونهم[11]. وذكر ابن سعيد أنه كان يصنع في مالقة ثياب الحرير المُوَشّاة بالذهب ذات الصنائع الغريبة[12]. واشتهرت

(١) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (ص ٦٦٩).
(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق (ص ٥٦٤)؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب (ج١ ص ٤٢٢)؛ الحميري: الروض المعطار (ص ٥١٧)؛ شيخ الربوة. نخبة الدهر (ص ٢٤٤)، ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (ص ٦٦٩).
(٣) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (ص ٦٦٩).
(٤) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب (ج١ ص ٤٢٤).
(٥) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (ص ٦٦٩)
(٦) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب (ج١ ص ٤٢٢)؛ ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (ص ٦٦٩).
(٧) شيخ الربوة. نخبة الدهر (ص ٢٤٤).
(٨) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٢٠٢).
(٩) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٢٠٢).
(١٠) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٢٠٩).
(١١) المصدر نفسه (ص ٢١٩ ـ ٢٢١)
(١٢) ابن سعيد: كتاب الجغرافيا (ص ١٤٠).

بصناعة الجلود الغليظة المسمّاة بالسَّفَن، وكانوا يتخذون منها مقابض للسيوف[1].

وتحدّث ليفي ـ بروفنسال عن نشاط مدينة مالقة التجاري، فقال: أما من جهة العلاقات الاقتصادية في القرن الحادي عشر الميلادي، أي القرن الخامس الهجري، فإنها أخذت ترتقي ارتقاء مُدْهشاً؛ ذلك أن أساطيل الموانىء الأندلسية التجارية في مالقة وبلنسية وألمرية وغيرها كانت في جميع طرق البحر المتوسط تنقل المنتجات القادمة من مختلف أنحاء إسبانيا أو من المعامل الصناعية في المدن الإسلامية الأندلسية، وكانت تلك العلاقات دائمة على وجه الخصوص مع مصر التي أخذ تأثيرها على إسبانيا يزداد منذ القرن المذكور[2].

٢٣ ـ متريل أو مطريل: بالإسبانية Motril، وقد ذكرها محمد عبد الله عنان مكتفياً بالقول: موتريل من مدن غرناطة[3]. كما ذكرها إحسان عباس وقال: مطريل اليوم في مديرية غرناطة[4].

٢٤ ـ المُنَكَّب: بالإسبانية Almunecar، وقد ضبطها أبو الفداء بالتاء «المكتب» وقال: المكتب هي ما بين ألمرية ومالقة[5]. ووافقه ابن الوردي في تعيين الموقع وخالفه في ضبط الاسم، فقال: المنكب هي بين ألمريّة ومالقة[6]. وهي مدينة حسنة متوسطة[7]. وقال عبد الواحد المراكشي: المنكب بليدة صغيرة[8]. واكتفى ابن الدلائي بالقول: المنكب جزء من أجزاء إلبيرة، وفيه حصن قديم منبع جداً[9]. وكان حصنها كبيراً لا يرام[10]، وقد ذكره عبد الواحد المراكشي مكتفياً بالقول: حصن منكب على

---

(١) الإصطخري: المسالك والممالك (ص ٣٥).

(٢) بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، ترجمة الأستاذ ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة بيروت (ص ٥٣ ـ ٥٤).

(٣) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٦١).

(٤) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٦٥، حاشية ٤).

(٥) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ١٤٥).

(٦) ابن الوَرْدي: تتمة المختصر في أخبار البشر، ويعرف بتاريخ ابن الوردي، تحقيق الأستاذ أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٠ (ج ١ ص ٤٩٥).

(٧) الإدريسي: نزهة المشتاق (ص ٥٦٤)؛ الحميري: الروض المعطار (ص ٥٤٨).

(٨) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ٣٧١).

(٩) ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس (ص ٩٠).

(١٠) الحميري: الروض المعطار (ص ٥٤٨).

ساحل البحر الرومي[١]. وما تزال أطلال هذا الحصن قائمة حتى اليوم[٢]. وتقع مدينة المنكب على ساحل البحر المتوسط بين ألمرية ومالقة، ويضرب البحر في سورها[٣] وبينها وبين شلوبينية عشرة أميال [٤] وبينها وبين ألمرية أربع مراحل وهي ما تعادل مائة ميل، وبينها وبين مدينة مالقة ثلاث مراحل وهي ما تعادل خسمة وسبعين ميلاً أو ثمانين [٥]. ومنها إلى غرناطة أربعين ميلاً[٦]. وتبعد عن مطريل ثلاثة وعشرين كيلومتراً، وهي كثيرة مصايد السمك، ولها مَرْسًى صيفي، تقلع منه السفن وتحطّ فيه[٧]. وبها فواكه جمّة[٨]. وقد سقطت المنكب في أيدي الإسبان في عام ٨٩٥ هـ/ ١٤٨٩ م[٩].

٢٥ ـ **مونت فريّو**: بالإسبانية Monte Frio أي الجبل البارد. وتقع غربيّ غرناطة بين قبرة ونهر شنيل. وذكرها محمد عبد الله عنان وعدّها من مدن غرناطة[١٠].

٢٦ ـ **النوالش**: انفرد بذكره ابن الأبار، واكتفى بالقول: النوالش من أعمال غرناطة[١١]. وأضاف: حصن نوالش عمل باغة من غرناطة[١٢].

٢٧ ـ **وادي آش**: يقال أيضاً وادي الأشى[١٣]، ووادِيَشْ[١٤] ووادي الأشات[١٥].

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ٣٧١)
(٢) عنان. الآثار الأندلسية (ص ٢٦٠).
(٣) عبد الواحد المراكشي. المعجب (ص ٢٧١)؛ ابن سعيد: كتاب الجغرافيا (ص ١٤٠)
(٤) الحميري: الروض المعطار (ص ٣٤٣).
(٥) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ٣٧١).
(٦) الإدريسي: نزهة المشتاق (ص ٥٦٤).
(٧) الحميري الروض المعطار (ص ٥٤٨ ـ ٥٤٩).
(٨) الإدريسي: نزهة المشتاق (ص ٥٦٤)، الحميري: الروض المعطار (ص ٥٤٨)
(٩) المقري. نفح الطيب (ج٤ ص ٥٢٢)
(١٠) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٦١).
(١١) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة (ص ٤٣٥)
(١٢) المصدر نفسه (ص ٦١٢).
(١٣) عبد الواحد المراكشي. المعجب (ص ٣٧٠).
(١٤) شيخ الربوة: نخبة الدهر (ص ٢٤٣).
(١٥) المقري. نفح الطيب (ج١ ص ١٤٩)

وبالإسبانية Guadix. وهي مدينة كبيرة[1]. واكتفى شيخ الربوة بالقول. واديش من أعمال غرناطة[2]. وقال المقري: وادي آش مدينة جليلة[3]. وقال الإدريسي: مدينة وادي آش متوسطة المقدار[4]. وعدّها عبد الواحد المراكشي بليدة وقال: هي بين غرناطة ومرسية[5]. وتقع هذه المدينة فوق منحدر ربوة صخرية عالية شمال شرقي غرناطة، وتشرف على واديها الأخضر، وتمتدّ على ضفة نهر وادي آش من جهة الغرب، وينحدر هذا النهر من جبل شلير، وهو فرع صغير من نهر الوادي الكبير[6]. وهي على مسيرة يوم من غرناطة [7]، وقيل: تبعد عنها ثمانية أميال [8]. وهي مدينة كثيرة الجداول، مخضّرة الجوانب، قد أحدقت بها البساتين، واطّردت حولها المياه[9]. وماؤها شديد البرودة كأنه مُجاج الجليد، وهواؤها عليل يُذْكي طبع البليد[10]. ونهرها الصغير دائم الجري، عليه أرحاء لاصقة بسورها، وهذا السور من حجارة وهو ركنها الذي بين القبلة والغرب، وبقربها قرية بها عين تجري سبعة أعوام وتغور سبعة أعوام[11]. واديها دائم الخضرة، وقد تغنّى به الشعراء، وخصوصاً الشاعرات[12]. وكان لها بابان؛ باب شرقي على النهر، وآخر غربي على خندق، وبها حمامات، وقصبتها مشرفة عليها[13]. وتقع تلك القصبة غربي المدينة في أعلى مكان

---

(١) الحميري: الروض المعطار (ص ٦٠٤).

(٢) شيخ الربوة: نخبة الدهر (ص ٢٤٣).

(٣) المقري. نفح الطيب (ج١ ص ١٤٩).

(٤) الإدريسي: نزهة المشتاق (ص ٥٦٧).

(٥) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ٣٧٠)

(٦) عنان: الآثار الأندلسية (ص ٢١٥)

(٧) عبد الواحد المراكشي. المعحب (ص ٣٧٠).

(٨) الإدريسي: نزهة المشتاق (ص ٥٦٧).

(٩) الحميري: الروض المعطار (ص ٦٠٤)؛ ابن الخطيب: مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (محموعة من رسائله)، نشر وتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨ (ص ٨٨)؛ المقري. نفح الطيب (ج١ ص ١٤٩).

(١٠) ابن الخطيب. مشاهدات لسان الدين (ص ٨٨).

(١١) الحميري: الروض المعطار (ص ٦٠٤).

(١٢) Pérès: La poésie Andalouse (P. 146).

(١٣) الحميري: الروض المعطار (ص ٦٠٤).

في الربوة، وتشرف أبراجها على المدينة كلها، وما تزال أبراجها تدلي بما كانت عليه من قوة وحصانة، ولا يوجد بهذه الأطلال أية نقوش عربية، والظاهر أنها اختفت عندما قام الإسبان بترميمها[1]. وقد خصَّ الله أهل هذه المدينة بالأدب وحب الشعر، وفيها يقول أبو الحسن بن نزار[2]:

وادي الأشات، يهيج وجدي كُلَّما ... أَذْكَرْتُ ما قَضَّتْ بك النَّعْماءُ
لله ظِلُّك والهجيْرُ مسلَّطٌ ... قد بَرَّدَتْ لَفَحَاتِهِ الأنداءُ

وهي كثيرة الأعناب[3]، والتوت والزيتون، وغيرها من أصناف الثمار، والقطن بها أيضاً كثير[4]. وبسندها شجرة من شجر القسطل، عظيمة جداً، في جوفها حائك ينسج الثياب[5]. وبقربها حجر الكحل الأسود، ويسمى الإثْمد، وهو من حجارة الرصاص، ترابيٌّ غلبت عليه الكبريتية[6]. وقد سقطت في أيدي الإسبان في شهر صفر سنة ٨٩٥ هـ/ كانون الثاني ١٤٩٠ م[7].

قرى غرناطة: تنوف قرى غرناطة على ثلاثماية قرية، وفي كثير منها الأرحاء والمساجد[8]. وقد أورد منها ابن الخطيب أسماء نحو مائة وأربعين قرية ومحلة[9]. وقال المقري إن قرى غرناطة مائتان وسبعون قرية[10]. والآن نتحدث عن بعض القرى التي اشتهرت أكثر من غيرها، والتي استطعنا أن نجمع عنها بعض المعلومات، وهي:

١ ـ ألفنت: بالإسبانية Daifontes. وقد ذكرها ابن الخطيب ضمن قرى

(١) عنان: الآثار الأندلسية (ص ٢١٥ ـ ٢١٦).
(٢) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٤٩)
(٣) الحميري: الروض المعطار (ص ٦٠٤)؛ ابن الخطيب: مشاهدات لسان الدين (ص ٨٨)
(٤) الحميري: الروض المعطار (ص ٦٠٤).
(٥) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٥٠). والسند هو ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح. والقسطل هو الشاه بلوط.
(٦) شيخ الربوة: نخبة الدهر (ص ٨٤).
(٧) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ١٠٩، حاشية ٨)؛ عنان. الآثار الأندلسية (ص ٢١٥).
(٨) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٢٦)
(٩) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٢٥ ـ ١٣٢).
(١٠) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٧٧).

غرناطة[١]. وتقع شماليَّ غرناطة على نحو عشرين كيلومتراً منها [٢]. وهي اليوم بلدة صغيرة [٣].

٢ ـ طُرُّش: بالإسبانية Turrox. وقد ذكرها ابن الدلائي، مكتفياً بالقول: طرش جزء من أجزاء إلبيرة[٤]. وقال المقري: قرية طرش من كورة إلبيرة[٥]. وخالفهما الرأي أبو الفداء، فقال: طرش قرية من أعمال الجزيرة الخضراء[٦] وتقع هذه القرية على ضفة البحر بين المنكب وبلش مالقة.

٣ ـ عَبْلة: ذكرها ابن سعيد،[٧] واكتفى بالقول: ينسب إليها الشاعر عبد الله العَبْلي[٨].

٤ ـ العطشاء: هي قرية من مرج غرناطة[٨].

٥ ـ قولجر: بالإسبانية Cuejar. وقد ذكرها ابن بلقين في مذكراته، وقال: قولجر قرية من عمل السطح[٩]. وتقع على مقربة من غرناطة إلى الجنوب الشرقي منها في اتجاه باب إلبيرة، وهي اليوم بلدة صغيرة[١٠].

٦ ـ مُكْلين: بالإسبانية Moclin. وتقع إلى الشمال الغربي من غرناطة، في أسفل هضبة جبلية وعرة، وتشتهر بالزيتون، وتبعد عن غرناطة نحو اثنين وثلاثين كيلومتراً، ولها حصن يقع على ربوة هرمية عالية جداً، وما تزال تحتفظ حتى اليوم ببقايا آثار العرب، وهي عبارة عن أطلال أسوار الحصن وأبراجه[١١].

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٣٠).

(٢) عنان: دول الطوائف (ص ١٢٦)

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٥٢٠، حاشية ٢)

(٤) ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس (ص ٩٣).

(٥) المقري: نفح الطيب (ج٣ ص ٥٠).

(٦) أبو الفداء: المختصر(في أخبار البشر (ج٢ ص ١١٨).

(٧) ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص ١٢٥).

(٨) ابن الخطيب: اللمحة البدرية (ص ٨٢)

(٩) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٢).

(١٠) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٠٧، حاشية ٥، ص ١٢٩، حاشية ٣)

(١١) عنان: الآثار الأندلسية (ص ٢١٩ ـ ٢٢٠)

٧ ـ **المَلاّحة**: بالإسبانية Malá [١]. وتقـع جنوب غربي غرناطة على مقربة من قرية همدان[٢]. وهي على بريد من غرناطة[٣]. وينسب إليها الشاعر الأديب المؤرخ أبو القاسم محمد بن عبد الواحد الملاّحي[٤]. وذكرها الذهبي فقال: الملاّحة قرية من عمل غرناطة، والنسبة إليها الملاّحي[٥].

٨ ـ **هَمْدان**: بالإسبانية Alhedin. وقد عدّها ابن الدلائي إقليماً من أقاليم إلبيرة[٦]. وقال ابن سعيد: همدان قرية كبيرة في نطاق غرناطة، سميت بذلك نسبة إلى قبيلة همدان لأنها نزلت بها[٧]. واكتفى المقري بالقول: همدان قرية بغرناطة[٨]. وقال ابن حزم: دار همـدان بإلبيـرة[٩]. وورد اسمها في نص بـالعربيـة في كتاب لدوزي[١٠].

وخلاصة ما توصلت إليه في هذا الباب هي أن غرناطة كانت بلدة كبيرة عندما استولى عليها بنـو زيري، وأن بعض المؤرخين قـد خلطوا بينها وبين إلبيـرة، عند حديثهم عن فتح إلبيرة ضمن فتح الأندلس. وغرناطة كمدينة، فقـد استحدثهـا بنو زيري في بداية حكمهم، وقد بدأ ببنائها زاوي بن زيري، وجعلها عاصمة لملكه. وأكمل حبوس بن ماكسن بناءها، ثم زاد في عمارتها ابنه باديس بن حبوس وكملت في أيامه، وأصبحت مع الوقت مدينة كبيرة مستديرة. وبقيام مدينة غرناطة، أخذ الخراب يدبُّ بمدينة إلبيرة، وطمس رسمها ولم يبق منها إلاّ بعضُ أثر، واختفى اسمها كقاعدة من قواعد الأندلس، وانتقل أهلها إلى مدينة غرنـاطة التي عـظمت ونمت وصارت كرسيَّ الحكم في عهد بني زيري. ويُرَجَّحُ أن تكون مدينة غرناطة قد أقيمت مكان

---

(١) Simonet Descripción (P 27)

(٢) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٨٥ حاشية ٢، ص ١٢٩ حاشية ١).

(٣) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة (ص ٦٠٨).

(٤) ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص ١٢٦).

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من الأساتذة، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١ ـ ١٩٨٥، (ج٢٢ ص ١٦٢)

(٦) ابن الدلائي نصوص عن الأندلس (ص ٩٠).

(٧) ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص ١٢٧)

(٨) المقري. نفح الطيب (ج٤ ص ٥٢٣)

(٩) جمهرة أنساب العرب (ص ٣٩٧)

(١٠) Dozy Recherches; (T. I, App LXXVII).

مدينة إلبيرة. ولمّا اكتمل بناؤها، اتسعت بسكانها، فعمرت نواحيها بالمباني، وتَكَوَّنَ خارجَها أحد عشر ربضاً، وهي ربض البيازين، وربض البيضاء، وربض المرابطين، وربض الفخارين، وربض قمارش، وربض المنصور، وربض الأجل، وربض الرملة، وحي غرناطة، والحي المعروف بغرناطة اليهود، وربض نجد. واسم غرناطة أعجمي، أي Granada باللسان الإسباني، ومعناه «رمانة» بلسان هؤلاء الإسبان الذين كان يُطْلق عليهم اسم عجم الأندلس. وقد سميت غرناطة اليهود؛ لأن أهلها كانوا من اليهود، وقد غلب عليها هذا الاسم منذ بداية فتح الأندلس. ثم سميت شام الأندلس أو دمشق الأندلس؛ لشبهها بدمشق في غوطتها الفيحاء وغزارة أنهارها وكثرة أشجارها. وغرناطة من مَوْسطة الأندلس، وتتبع للإقليم الرابع من أقاليم الدنيا السبعة، ويحدّها من الجنوب جبل شُلَيْر، ومن الشرق جبل شُلَيْر وألمرية، ومن الشمال جيان، ومن الغرب لوشة ونهر شنيل. وتتمتع بموقع في غاية الحسن؛ فهي على وادٍ عميق يمتدُّ من المنحدر الشمالي الغربي لجبل شُلَيْر، وتظللّها الآكام العالية من الشمال والجنوب. وقد خصَّها الله بطيب الهواء وغزارة الماء. وقد افتخر المؤرخون والجغرافيون والشعراء والأدباء، قدماء ومعاصرين، بجمالها، وأشادوا بذكر محاسنها. وكان بها مُتَنَزَّهات تزيد من محاسنها، وكان أهلها يرتادونها ليريحوا فيها أنفسهم من عناء التعب، وهي؛ حور مؤمَّل، ونجد، والسبيكة، وعين الدمع، ولَعْلَعْ، وجَوْر الوَدَاع. وكان لها مرج شهير يقع غربيًّا، وهو عبارة عن سهل أفيح، وبسيط شاسع أخضر خصب، وغوطة فيحاء، وفحص مترامي الأطراف، وقد شُبِّه بغوطة دمشق لكثرة ما فيه من مياه وأشجار وحدائق. وقد وهبت الطبيعة غرناطة سبعة جبال هي: جبل شُلَيْر المعروف بجبل الثلج، والبُشُرّات، وجبل العُقاب، وجبل الفخار، وجبل السبيكة، والخزة، وموزور. كما وهبتها خمسة أنهار هي: شَنِيْل، وحَدَرّه، وأندرش، والمنصورة، وجراندي. وكان لها سبعة وعشرون عملاً، وهي: أجيجر، وأُرْجُبَة، وإسجته، وأشكر، وإلبيرة، وباغُه، والبراجلة، وبسطة، وبياسة، وجلْيانة، وجيان، والحامة، وحصن اللوز، ورَيّة، وشَلَوْبينية، وفِنْيانة، وقَبْرة، وقلعة يَحْصِب، وقَيْسانة، واليُسّانة أو اللُّسانة، ولَوْشة، ومالقة، ومتريل أو مطريل، والمُنَكَّب، ومونت فريو، والنوالش، ووادي آش. وتنوف قراها على ثلاثمائة قرية، وأشهرها قرية ألفنت، وطُرُّش، وعَبْلة، والعطشاء، وقولجر، ومُكْلين، والمَلاّحة، وهَمْدان.

الباب الثاني

تاريخ غرناطة من لدن استقلال بني زيري فيها حتى سقوطها في أيدي المرابطين

غرناطة في عهد زاوي بن زيري بن مناد
(٤٠٣ ـ ٤١٠ هـ/ ١٠١٢ ـ ١٠١٩ م)

أولاً: أولية بني زيري بن مَنَاد:

زيري: بكسر الزاي وسكون الياء[١]. ومَنَاد: بفتح الميم والنون، وبعد الألف دال مهملة[٢]. ويرجع بنو مناد في الأصل إلى قبيلة صنهاجة البربرية المشهورة[٣]. وصنهاجة: بضم الصاد وكسرها، وسكون النون وفتح الهاء والجيم[٤]. وقال القلقشندي: صنهاجة بفتح الصاد، من البرانس، ويقال إنهم من حِمْيَر من عرب اليمن، وليسوا من البرابر[٥]. وتنسب صنهاجة إلى صنهاج من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير، وقيل: هي فخذ من هوارة، وهوارة فخذ من حمير[٦]. وقال ابن خلكان إنّ صنهاجة قبيلة مشهورة من حمير[٧]. ونفى ابن حزم نسبتها إلى حمير فقال: ادّعت طوائف أن البربر ينتسبون إلى حمير، وهذا باطل لا شك فيه، إذ لم يكن لحمير طريق إلى بلاد البربر إلاّ في أكاذيب مؤرخي اليمن[٨]. وتنقسم صنهاجة على سبعين قبيلة، منهم لَمْتُوْنة، ومَسُوْفة، وتلكاته، ولمطة، وبُلُكّانة، وفي كل قبيلة بطون

---

(١) ابن حلكان. وَفَيات الأعيان (ج١ ص٢٨٧) و (ج٢ ص٣٤٣).

(٢) المصدر نفسه (ج٢ ص٣٤٣).

(٣)ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص٣١٢، ٣١٤).

(٤) ابن خلكان وفيات الأعيان (ج١ ص٢٦٦).

(٥) القلقشدي: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢ (ص ١٧٠)

(٦) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، أوبسالة، ١٨٤٣، (ص ٧٥)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، (القسم الثالث ص ٢٢٥).

(٧) ابن خلكان· وفيات الأعيان (ج١ ص٢٦٦)

(٨) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢ (ص ٤٩٥).

وأفخاذ[1]. وكان المُلْك في طبقتين منها، هما تلكاته ملوك إفريقية والمغرب، ومَسُوْفة ولمتونة من الملثّمين ملوك المغرب والأندلس، الذين سُمُّوا أيضاً بالمرابطين[2]. وكانت بلادَ صنهاجة المغربُ والصحراء[3].

ولما غلب العبيديون الفاطميون الشيعة على إفريقية وقامت دولتهم فيها، انحازت قبيلة صنهاجة إليهم، وتقلّدت مذهبهم الشيعي ضدّ بني مروان الأمويين السنّة حكام الأندلس، وكانت عماد دولتهم، وصارت قبيلة زناتة عندئذ حرباً لصنهاجة، فوالت بني أمية بالأندلس[4]. وقد حكم بنو زيري إفريقية وما يليها من بلاد المغرب بتكليف من الفاطميين، بدءاً بزيري بن مناد، وانتهاءً بالحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن منصور بن يوسف بن زيري. وقَدِمَ زعماءُ منهم إلى الأندلس فأقاموا مملكةً بغرناطة دامت حوالى ثمانين سنة.

ولنبدأ بالحديث بإيجاز عن بني زيري ملوك إفريقية وبلاد المغرب:

١ - **زيري بن مناد**: (٣٦٠ هـ/ ٩٧٠ م): كان زيري زعيم بني مناد، ومن أعظم أمراء البربر بإفريقية، وهو أول من ملك من الصنهاجيين بالمغرب الأوسط، ويُعَدُّ مؤسس دولة آل زيري في تلك البلاد، ولمّا كان قد بذل الطاعة للمنصور إسماعيل الفاطمي، أعطاه هذا الأخير تاهرت وأعمالها. وبنى مدينة آشير وجعلها دائرة لمملكته. وكان حسن التدبير في الرعية، شجاعاً شديد البأس، واستمرّ على حسن السيرة كل أيام ولايته[5]. وكان له عشرة أولاد، وكان أصغرهم سناً وريثه يوسف

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٧٥)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٢٥)؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣١٠ - ٣١١).

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣١١)

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج١ ص ٢٦٦).

(٤) ابن حيان. المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق الأستاذ عبد الرحمن الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥، (ص ٢٦ - ٢٧)؛ ابن دراج القسطلي: ديوان ابن دراج القسطلي، تحقيق الدكتور محمود علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ١٩٦١ (ص ٢٣ من مقدمة المحقق)؛ ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ٢٦٢)، ابن الخطيب الإحاطة (ج١ ص ٤٣١ - ٤٣٢) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٨)

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٢ ص ٣٤٣). وانظر أيضاً: الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠ - ج٣ ص ٦٣

المعروف ببلقين[١]. وقال ابن حيان إن يوسف بن زيري هو بكر أبيه[٢]. وقد قتل زيري يوم السبت لاثنتي عشرة ليلةً بقيت من شهر رمضان من عام ٣٦٠ هـ/ ٩٧٠ م بناحية الغرب، في معركة عظيمة دارت بينه وبين جعفر بن علي بن حمدون الجذامي، المعروف بابن الأندلسي، صاحب المسيلة وأمير الزاب من أعمال إفريقية؛ قيل: كَبَا به فرسه فسقط إلى الأرض وقتل[٣]. وقيل: توفي يوم الخميس لعشر خَلَوْن من رمضان من السنة المذكورة، بالقرب من ملوية، واحتزّ الزناتيون رأسه وأرسلوه إلى الحكم المستنصر خليفة الأندلس، وكانت مدة ملكه ستاً وعشرين سنة[٤].

وقال ابن الأبار إن جعفر بن علي فرّ إلى الأندلس بعد مقتل زيري، ولحق به أخوه يحيى بن علي، فأقاما مُكَرَّمَيْن عند الحكم المستنصر[٥]. وروى ابن خلكان أنه عندما علم جعفر أنْ ليس له طاقة على مقاومة يوسف بن زيري، ترك بلاده ومملكته وهرب إلى الأندلس، فقتل بها في سنة ٣٦٤ هـ/ ٩٧٤ م[٦].

٢ ـ يوسف بن زيري بن مناد (٣٦١ ـ ٣٧٣ هـ/ ٩٧١ ـ ٩٨٣ م): غلب على اسمه بلقين[٧]. وقال ابن خلكان: اسمه بلكين ويسمى أيضاً يوسف، لكن بلكين أشهر[٨]. وقال ابن خلدون: سمّاه المعزُّ لدين الله أبو تميم مَعَدّ بن المنصور إسماعيل الفاطمي يوسفَ بدلاً من بلكّين، وكنّاه أبا الفتوح، ولقّبه سيف الدولة وذلك إثر تولّيه أمر إفريقية والمغرب[٩]. وجعل ابن الخطيب اسمه بلقين بن يوسف فقال: أسند المعزُّ أمرَ المغرب إلى بلقين بن يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي[١٠]. وقد ولي يوسف تاهرت وأعمالها بعد موت أبيه زيري، ولما أخذ المعز في الرحلة إلى مصر

---

(١) اس عداري البيان المغرب (ج١ ص ٢٩٦).

(٢) ابن حيان: المقتبس، تحقيق الحجي (ص ٣٧).

(٣) ابن حيان. المقتبس في أحبار بلد الأندلس، تحقيق الحجي (ص ٢٦ ـ ٢٧، ٣٢، ٣٧)؛ ابن حلكان وفيات الأعيان (ج١ ص ٣٦٠) و (ج٢ ص ٣٤٣).

(٤) ابن حيان: المقتبس، تحقيق الحجي (ص ٣٦، ٣٨).

(٥) ابن الأبار: الحلة السيراء (ج١ ص ٣٠٦).

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج١ ص ٣٦٠)

(٧) ابن حيان: المقتبس، تحقيق الحجي (ص ٣٧ ـ ٣٨)؛ ابن الأبار: الحلة السيراء (ج٢ ص ٣٩٣).

(٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج١ ص ٢٨٦)

(٩) ابن حلدون. تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣١٧).

(١٠) ابن الحطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٨).

التي افتتحها قائده جوهر في عام ٣٥٨ هـ/ ٩٦٨ م، ووقع اختياره على يوسف فولّاه أمر إفريقيا والمغرب، وذلك يوم الأربعاء لسبع بَقِيْنَ من ذي الحجة سنة ٣٦١ هـ/ ٩٧١ م، وارتحل في ٥ صفر من سنة ٣٦٢ هـ/ ٩٧٢ م يريد القاهرة[١]. وقيل ولّاه المعز على إفريقيا والمغرب كله في ثمان بقين من شهر شوال من سنة ٣٦١ هـ/ ٩٧٢ م[٢]. واجتمعت صنهاجة ومن والاها بالمغرب على طاعته[٣]. وكان يوسف فارساً شجاعاً، حسن السيرة بين رعيّته[٤]. وكان له أربعمائة حظيّة حتى قيل إن البشائر وفدت عليه في يوم واحد بولادة سبعة عشر ولداً[٥]. وكانت وفاته يوم الأحد لتسع بقْيْنَ من ذي الحجة سنة ٣٧٣ هـ/ ٩٨٣ م عند قفوله من قتال برغواطة[٦].

وقال ابن خلكان: توفي يوسف يوم الأحد لسبع بقْين من ذي الحجة من السنة المذكورة[٧]. وقال ابن الأثير: توفي يوسف في سنة ٣٧٣ هـ لسبع بقين من ذي الحجة[٨]. واكتفى ابن خلدون بالقول: هلك يوسف سنة ٣٧٣ هـ[٩].

٢ ـ منصور بن يوسف بن زيري بن مناد (٣٧٤ ـ ٣٨٦ هـ/ ٩٨٤ ـ ٩٩٦ م): يكنى أبا الفتح، ويلقب عدّة العزيز بالله[١٠]. ولي إفريقية والمغرب بعد موت أبيه يوسف، وذلك في شهر محرم من سنة ٣٧٤ هـ/ حزيران ٩٨٤ م، وقام بأمر صنهاجة خير قيام[١١]. وكان كريماً، سمحاً، جواداً، شجاعاً، صارماً، حازماً، عادلاً، حسن السيرة، محبّاً للعدل والرعية طيلة فترة حكمه، وهي اثنتا عشرة سنة، حيث هلك خارج صبرة، يوم الخميس لخمسٍ خَلَوْنَ من ربيع الأول من عام ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م،

---

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء (ج٢ ص ٣٩٣)؛ ابن خلكان· وفيات الأعيان (ج١ ص ٢٨٦). و(ج٥ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧، ٢٢٩) ـ ابن حلدون. تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣١٧ ـ ٣١٨).

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب (ج١ ص ٢٢٨)

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت ١٩٨٢ (ح ٨ ص ٦٢٣).

(٤) ابن حيان: المقتبس، تحقيق الحجي (ص ٣٧).

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج ١ ص ٢٨٧)

(٦) ابن عذاري البيان المغرب (ج ١ ص ٢٣٩).

(٧) ابن حلكان: وفيات الأعيان (ح١ ص ٢٨٦).

(٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج٩ ص ٣٤)

(٩) ابن خلدون· تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٢٠).

(١٠) ابن عذاري· البيان المغرب (ج١ ص ٢٣٩، ٢٩٥).

(١١) المصدر نفسه؛ ابن خلدون. تاريخ ابن حلدون (م٦ ص ٣٢٠).

ودفن بقصره بالمنصورة[١]. وقال ابن خلكان إنه توفي يوم الخميس لثلاثٍ خلون من ربيع الأول من العام المذكور[٢]. وقال ابن خلدون إنه هلك سنة ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م[٣].

٤ - باديس بن منصور بن يوسف بن زيري بن مناد (٣٨٦ - ٤٠٦ هـ/ ٩٩٦ - ١٠١٥ م): يكنى أبا مناد[٤]. ويلقب نصير الدولة[٥]. كانت ولادته في سنة ٣٧٤ هـ/ ٩٨٤ م[٦]. وتولى الحكم بعد موت أبيه منصور، وهو ابن اثنتي عشرة سنة. وبعد ثلاث سنوات من حكمه، استضعفه أعمام أبيه، زاوي وجلالة وماكسن أبناء زيري، وخالفوا عليه، فوقعت بينه وبينهم حروب انتصر فيها عليهم، إذ كان قد ولّى عَمَّهُ حماد بن زيري على آشير، واتفق معه على أن يتولّى محاربة إخوته، فظل حماد يحارب إخوته حتى تمكن من قتل ماكسن بن زيري وبعض أولاده في عام ٣٩١ هـ/ ١٠٠٠ م، فضاقت الأرض على هؤلاء الإخوة؛ لانتصابهم بين بطش باديس وعداوة زناتة، فكتب شيخهم زاوي إلى حاجب الأندلس ابن أبي عامر ليجوزوا له إلى الأندلس رغبةً في الجهاد، فأذن لهم في ذلك، ولحقوا به بعد أن أذل لهم أخوهم حماد[٧]. وكان باديس حسن التدبير والسياسة، جواداً، جزيل العطاء، حازم الرأي، شجاعاً، شديد البأس، إذا هَزَّ رمحاً كسره[٨]. وقد هلك ليلة الأربعاء انقضاء ذي القعدة سنة ٤٠٦ هـ/ ١٠١٥ م[٩].

---

(١) ابن الأثير. الكامل في التاريخ (ج٩ ص ١٢٧)؛ ابن عذاري البيان المعرب (ج١ ص ٢٣٩)

(٢) ابن خلكان وفيات الأعيان (ج١ ص ٢٦٥).

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٢١)

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج٩ ص ١٢٧)؛ ابن خلكان وفيات الأعيان (ج١ ص ٢٦٥)، ابن عذاري: البيان المغرب (ج١ ص ٢٤٧)، الصفدي الوافي بالوفيات، طبعة ڤيسبادن، ١٩٦٢ - ١٩٨٣ (ج١٠ ص ٦٨).

(٥) ابن عذاري البيان المغرب (ج١ ص ٢٩٥)، الصفدي الوافي بالوفيات، (ج١٠ ص ٦٨).

(٦) ابن الأثير الكامل في التاريخ (ج٩ ص ١٢٧).

(٧) ابن الأثير. الكامل في التاريخ (ج٩ ص ١٢٧)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢٦٣)، ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٨ - ٢٢٩)؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٢٢، ٣٦٦ - ٣٦٧)

(٨) ابن خلكان. وفيات الأعيان (ج١ ص ٢٦٥).

(٩) ابن خلكان وفيات الأعيان (ج١ ص ٢٦٦)؛ ابن عذاري البيان المعرب (ج١ ص ٢٦٢ - ٣٦٣)؛ الذهبي العِبَرْ في خَبَرِ مَنْ غَبَرْ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، الكويت، ١٩٦٠ - ١٩٦٣ (ج٣ ص ٩٢ - ٩٣)؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٢٣).

٥ ـ **المعز بن باديس بن منصور بن يوسف بن زيري بن مناد (٤٠٦ ـ ٤٥٤ هـ/ ١٠١٥ ـ ١٠٦٢ م)**: بويع بالمهدية يوم السبت لتسعٍ بقين من ذي الحجة من سنة ٤٠٦ هـ/ ١٠١٥ م، لمَّا وصل الخبر بوفاة أبيه، وسِنه ثماني سنين وأربعة أشهر[١]. وقيل: ابن ثمانية أعوام، وقيل: ابن سبعة[٢]. وقيل: ولي الملك سنة ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦ م وعمره سبعة أعوام وشهران[٣]. وقيل: بويع وهو ابن ثماني سنين[٤]. يكنى أبا تميم، ويلقب شرف الدولة[٥]، وقال ابن خلكان: لم تعرف كنيته[٦]. وفي سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م قطع الخطبة للفاطميين وجعلها للعباسيين، حيث انتحل مذهب مالك بن أنس السني، بتأثير من مؤدِّبه ابن أبي الرجال[٧]. وفي سنة ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣ م ولَّى ابنه تميماً على المهدية، فوقعت بينه وبين العرب حروب هزمه فيها العرب وخربوا المهدية[٨]. وكان المعز أعظم ملك عرفه البربر بإفريقية، وكان جليلاً، محبّاً لأهل العلم، كثير العطاء[٩]. وكان شاعراً يحب الشعر والأدب[١٠]. هلك بالقيروان يوم السبت لخمسٍ بقيْنَ من شعبان سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م[١١]. وقيل سنة ٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣ م[١٢].

٦ ـ **تميم بن المعز بن باديس بن منصور بن يوسف بن زيري بن مناد (٤٥٤ ـ ٥٠١ هـ/ ١٠٦٣ ـ ١١٠٧ م)**: مَلَكَ إفريقية وما والاها من بلاد المغرب بعد موت أبيه المعز. ويكنى أبا يحيى[١٣]. وفي سنة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م تغلب نصارى جنده على

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب (ج١ ص ٢٦٧).
(٢) المصدر نفسه (ص ٢٧٣).
(٣) المصدر نفسه (ص ٢٩٥)
(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٢٣).
(٥) ابن عذاري: البيان المغرب (ج١ ص ٢٩٥)
(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٥ ص ٢٣٥)
(٧) ابن عذاري: البيان المغرب (ج١ ص ٢٧٣، ٢٧٧).
(٨) ابن الأبار: الحلة السيراء (ج٢ ص ٢١)
(٩) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٥ ص ٢٣٣)؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٢٤).
(١٠) ابن الأبار: الحلة السيراء (ج٢ ص ٢٣).
(١١) المصدر نفسه (ص ٢١)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج١ ص ٣٠٥) و(ج٥ ص ٢٣٤). ابن عذاري: البيان المغرب (ج١ ص ٢٩٨)، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٢٦).
(١٢) ابن عذاري. البيان المغرب (ج١ ص ٢٩٥).
(١٣) ابن خلكان. وفيات الأعيان (ج١ ص ٣٠٥).

المهدية في ثلاثمائة مركب وثلاثين ألف مقاتل، واستولوا عليها، وانتهبوا جميع ما كان فيها، فبذل لهم في النـزول عنها مـائة ألف دينـار، فاستخلصهـا من أيديهم ورجع إليها[1]. وكان شهماً شجاعاً حازماً، شديد البطش والمبادرة، ذكياً، حسن السيرة، محمود الآثار، حليمـاً، جواداً، كثيـر العفو عن الجـرائم العظيمـة، محباً للعلمـاء والشعراء، وله ديوان شعر كبير مشهور[2]. وقد انتجع حضرته من شعراء الأندلس ابن خفاجة في صباه، وعبد الله بن عبد الجبار الطرطوشي، وغيرهما[3]. خلف من الذكور ما يزيد على مائة، ومن البنات ستين[4]. وكانت وفاته في منتصف رجب سنة ٥٠١ هـ/ ١١٠٧ م، وهو ابن تسـع وسبعين سنة، فكانت مدة ولايته سبعاً وأربعين سنة غير أربعين يوماً، وقيل: كانت ولايته ستاً وأربعين سنة وعشرة أشهر وأكثر من نصف شهر[5].

٧ - **يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن منصور بن يوسف بن زيري بن مناد** (٥٠١ - ٥٠٩ هـ/ ١١٠٧ - ١١١٥ م): ولي أمر إفريقية وبلاد المغرب بعد موت أبيه سنة ٥٠١ هـ/ ١١٠٧ م، وعمره إذ ذاك ثلاث وأربعون سنة[6]. ويكنى أبا طاهر[7]. وكان عادلاً في دولته، حاذقاً بتدبير أمور الحكم، ماهراً في سياسة رعيته، ضابطاً لأمـورها، رحيماً بالضعفاء والفقراء، يكثر الصدقة عليهم. وكان أديباً وشاعراً، عالماً بالأخبار وأيام الناس، والـطب[8]. خلف ثلاثين من الـذكور[9]. تـوفي ثاني عيـد

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٢٧ - ٣٢٨).

(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ٤٤٩ - ٤٥٠)؛ ابن الأبار: الحلة السيراء (ج٢ ص ٢٣)؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج١ ص ٣٠٤)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج١ ص ٣٠٣)

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء (ج٢ ص ٢٢).

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ٤٥١)؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج١ ص ٣٠٦).

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ٤٤٩، ٤٥١)؛ ابن الأبار: الحلة السيراء (ج٢ ص ٢٢)؛ ابن خلكان: وفيات الأعيـان (ج١ ص ٣٠٥) و(ج٥ ص ٤٧)، ابن عذاري: البيـان المغرب (ج١ ص ٣٠٣، ٣٠٤)؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٢٨).

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ٤٥١)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج١ ص ٣٠٤)؛ ابن خلدون (م٦ ص ٣٢٨).

(٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٦ ص ٢١١)

(٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ٤٥١، ٥١٣)، ابن الأبار: الحلة السيراء (ج٢ ص ٢٣)؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٦ ص ٢١٤)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج١ ص ٣٠٤)

(٩) ابن خلكان. وفيات الأعيان (ج٦ ص ٢١٥).

الأضحى من سنة ٥٠٩ هـ/ ١١١٥ م، مقتولاً في قصره بالمهدية، فكانت مدة ملكه ثماني سنين وحوالى ستة أشهر، وكان عمره اثنتين وخمسين سنة وخمسة عشر يوماً[١]. وقد رثاه ابن حمديس شاعر بني عباد بإشبيلية[٢].

٨ ـ علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن منصور بن يوسف بن زيري بن مناد (٥٠٩ ـ ٥١٥ هـ/ ١١١٥ ـ ١١٢١ م): ولي أمر إفريقية والمغرب بعد وفاة أبيه سنة ٥٠٩ هـ/ ١١١٥ م[٣]. وكان شجاعاً حازماً، كريماً جواداً، يركن إلى الراحة واللذات[٤]. ولم تزل أموره جارية على السداد إلى أن عاجلته منيته في العشر الأخير من ربيع الآخر من سنة ٥١٥ هـ/ ١١٢١ م، فكانت دولته خمس سنين وأربعة أشهر واثني عشر يوماً[٥].

٩ ـ الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن منصور بن يوسف بن زيري بن مناد (٥١٥ ـ ٥٤٣ هـ/ ١١٢١ ـ ١١٤٨ م): ولي بعد موت أبيه سنة ٥١٥ هـ/ ١١٢١ م، وكان حينئذ غلاماً ابن اثنتي عشرة سنة، فقام بأمر دولته مولاه صندل الخصي، ثم مات صندل فقام بأمره مولاه موفق، فصلحت الأمور[٦]. وفي سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م هاجمه روجار الثاني صاحب صقلية في عقر داره واحتل المهدية وأخرجه منها، وبخروجه تنقرض دولة صنهاجة في إفريقية، وتبقى المهدية في أيدي الروم حتى يفتتحها الموحدون سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م[٧]. ويرى ابن الأبار أن الروم تغلبوا على المهدية في عهد الحسن سنة ٦٤٤ هـ/ ١٢٤٦ م[٨]. ويجعل

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج٢ ص ٥١٢ ـ ٥١٣)؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٦ ص ٢١٥)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج١ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥)؛ ابن خلدون تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٢٩).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ٥١٣).

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ٥٠٩، ٥١٣)؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٦ ص ٢١٦)، ابن عذاري: البيان المغرب (ج١ ص ٣٠٦)؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٢٩).

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب (ج١ ص ٣٠٦).

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ٥٨٨)؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان (ج٦ ص ٢١٦)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج١ ص٣٠٦)؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٣٠).

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ٥٨٩)؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان (ج٦ ص ٢١٧)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج١ ص ٣٠٨)؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٣٠).

(٧) ابن عذاري: البيان المغرب (ج١ ص ٣١٣).

(٨) ابن الأبار: الحلة السيراء (ج٢ ص ٣٩٣).

ابن خلدون وفاة الحسن عام ٥٣٦ هـ/ ١١٤١ م[1]، ولا يمكن أن يكون قد توفي قبل سقوط عاصمته المهدية في أيدي صاحب صقلية، وهو آخر من ولي من بني زيري بإفريقية.

ثانياً: زاوي بن زيري بن مناد يُقِيْمُ مملكة غرناطة

١ ـ نبذة عن قيام عصر الطوائف وحال ملوك الأندلس طيلة حكمهم: كان اعتلاء الخليفة هشام بن الحكم المستنصر مقاليد الحكم بقرطبة عام ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م، وهو صبيٌّ دون العاشرة، إيذاناً بسقوط الخلافة الأموية بالأندلس؛ فنظراً لصغر سِّنه، سيطرت عليه في بادىء الأمر أُمُّه صُبْح البشكنسية، وسيطر عليه فيما بَعْدُ الحاجبُ المنصور محمد بن أبي عامر. وقد استطاع المنصور، وهو ليس من بيت المُلْك، أن ينتزع من هشام السلطة الزمنية، مُبْقياً في يديه السلطة الروحية، وجعل منه خليفة بالاسم. وصار هشام في تلك الفترة «مُنْدَرِجاً في طَيِّ كافِلِهِ الحاجبِ المنصور ـ رحمه الله ـ بحيث لا يُنْسَبُ إليه تدبير، ولا يُرْجَعُ إليه من الأمور قليل ولا كثير، إذ كان في نفسه وأَصْلِ تركيبه مُضْعَفاً، مَهِيْناً، مشغولاً بالنزهات، ولعب الصبيان والبنات، وفي الكِبَر بمجالسة النساء، ومحادثة الإماء..»[2] وتوفي المنصور في ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ هـ/ ١٠٠٢ م، فتولَّى الحجابةَ بالأندلس ابنه المظفر عبد الملك، وأقرّه الخليفة هشام على ما كان عليه أبوه المنصور من قبل. ولما توفي المظفر في صفر سنة ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩ م، ولي الأمر بعده أخوه عبد الرحمن بن المنصور. وأراد عبد الرحمن أن يستأثر بالخلافة، فطلب من هشام أن يعهد إليه بولاية العهد، خاصة وأن هشاماً لم يُنْجب الولد، فوافق هشام وكتب عهداً بذلك بنصٍّ كاتبه أبي جعفر أحمد بن برد[3]. وعندما رأى بنو مروان انصراف العهد إلى بني أبي عامر، شرعوا في مبادرة الأمر، فانتهزوا فرصة غياب عبد الرحمن عن قرطبة، وخلعوا هشاماً وولَّوْا مكانه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، ولقّبوه بالمهدي. وعلم عبد الرحمن بما جرى، فهمَّ بالعودة إلى قرطبة، وبينما هو في الطريق، أخرج إليه

---

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٣٤).

(٢) ابن الخطيب. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٥٨)

(٣) راجع كتاب العهد بالبيعة في المصدر السابق (ص ٩١ ـ ٩٣)

المهدي حاجبه ابن ذَرى، فقتله يوم السبت لأربع خَلَوْنَ من رجب لسنة ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩ م[١].

وإذا كانت دولة بني عامر قد انتهت في الأندلس من الوجود في العام المذكور، فإنّ الفترة الباقية من الخلافة الأموية، والتي لا تتجاوز ثلاثاً وعشرين سنة، لم تُبشِّر بالخير، فقد خيَّمت عليها الفتن والاضطرابات، فتصارع العرب والبربر والصقالبة على الحكم، وأصبح عدد الخلفاء الذين تولُّوا سدّة الخلافة في تلك الحِقبة القصيرة أكثر من الخلفاء الذين حكموا الأندلس منذ بداية دولة بني مروان فيها.

وهكذا اضطربت الأندلس منذ بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وأخذ سلطان الخليفة الشرعي يضعف إلى أن انتهى وجوده وانقرضت به الدولة الأموية في الثاني عشر لذي الحجة من سنة ٤٢٢ هـ/ كانون الأول ١٠٣١ م، عندما خُلع المُعْتَدّ هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، آخرُ خلفاء بني أمية بالأندلس، وأُجْلي عنْ قرطبة كلُّ مَنْ تَبَقَّى من بني مروان، على حَدِّ قول ابن عذاري: «ونُوْدي في الأسواق والأرباض: لا يبقى بقرطبة أحد من بني أمية، ولا يكنفهم أحد»[٢]. وقد عزا ابن خلدون سبب سقوط الخلافة الأموية في الأندلس واستيلاء ملوك الطوائف على أمرها، إلى فساد عصبية العرب: «وكذا دولة بني أمية بالأندلس، لَمّا فَسُدَتْ عصبيّتُها من العرب، استولى ملوك الطوائف على أمرها»[٣].

وبانحلال عِقْد الخلافة الأموية، تفسّخت الأندلس، وانفصمت عُرَى وحدتها السياسية، فتفرَّق أهلُها شِيَعاً، وثار كلٌّ قائد في ناسه[٤]. وتغلَّب أصحاب الأطراف، والأمراء والرؤساء، من العرب والبربر والموالي على مدن الأندلس، وصار لكل منهم دويلة، وأصبح على أرض البلاد ثلاث وعشرون دويلة، منها دويلة بني زيري بغرناطة، وقد سُمِّيَتْ بدول الطوائف، وسُمِّي أصحابها بأمراء الطوائف أو ملوك الطوائف.

وقد استبدّ هؤلاء الملوك بتدبير ما تغلّبوا عليه من الجهات، واستفحل أمرهم،

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٩٨ ـ ٩٩)

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ١٥٢).

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م١ ص ٢٧٣).

(٤) ابن خاقان: قلائد العقيان، القاهرة، ١٢٨٤ هـ (ص ١٨).

وغدروا ببعضهم البعض، وتناحروا فيما بينهم وتحاربوا، على حدّ قول الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة: «وطمع كلٌّ واحد في الآخر، وكذلك لا يَصِحُّ أمرٌ بين نَفْسَيْن، فكيف سلاطينُ كثيرةٌ، وأهواءٌ مختلفة؟»[1]، فأحالوا بذلك بلدهم إلى مسرح للتناحر العقيم الذي لم يكن وراءه، إلَّا سَفْكُ دماء الرعية، وانتهاك الحُرَم والأموال، ومهّدوا بالتالي للإسبان أن يستردّوا ما فقدوه من قبل. وقد وُفِّق ابن الخطيب في تشبيههم، وقد تحاسدوا وتنافسوا فيما بينهم، بالضرائر المُتْرَفات والعشائر المُتَغَايِرات[2].

وتباهى هؤلاء الملوك في أحوال المُلْك، حتى في الألقاب، فآل أمرهم أن تلقّبوا بنعوت الخلفاء العباسيين[3]. ولهذا هاجمهم ابن شرف بقوله[4]:

مِمّا يُزَهِّدُني في أرض أَنْدَلُسٍ ... أسماءُ مُعْتَصِمٍ فيها ومُعْتَضِدِ
ألقابُ مملكةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِها ... كالهِرِّ يَحْكي انتفاخاً صورةَ الأَسَدِ

واستهتروا بأحكام الدِّيْن، فتشاغلوا بدنياهم عن إقامة دِيْنهم، وبعمارة المباني الفخمة والقصور الشامخة عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في دار الآخرة، وبجمع الأموال، فكان ذلك عوناً لأعدائهم عليهم، وسبباً في انقراض ممالكهم[5]. كذلك كانوا ضعفاء مترفين، «وبالكاد» كانوا يحكمون في ممالكهم، وكان عهدهم عهد ولائمَ وجرائمَ، وحُبّ وهوى، وعَهْداً ذهبيّاً للشعر[6].

---

(١) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٨).

(٢) ابن الخطيب أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٤٤)

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٤٤)، المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٢١٣).

(٤) ابن خلدون· تاريخ ابن خلدون (م١ ص ٢٧٤) وقد استشهد عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب (ص ٤٧) بهذين البيتين، بعد أن ذكر أحوال الأندلس بعد انقطاع الدولة الأموية عنها واقتسام ملوكها ألقاب الخلافة، ورواهما باختلاف يسير عمّا هنا. كذلك ورد البيتان المذكوران في وفيات الأعيان (ج٤ ص ٤٢٨) باختلاف يسير عما هنا، ونسبهما ابن خلكان إلى ابن عمار وقال· كانا من أسباب قتله. كما أوردهما ابن الخطيب في كتابه أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٤٤) باختلاف يسير عما هنا

(٥) ابن حزم. رسائل ابن حزم الأندلسي: تحقيق الدكتور إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠ - ١٩٨٣ (ج ٣ ص ٤١)

(٦) García Gómez Poemas Arabigoandaluces, Madrid, 1959, (P 31 - 32)

وإضافة إلى ذلك، فقد حالفوا ملوك النصارى الإسبان ضد بعضهم البعض، وأدّوا الجزية لهم عاماً بعد عام، فبذلوا لفردلند الأول وابنه ألفونسو السادس من بعده ما يريدانه من الأموال، وصاروا لهما عمّالاً يجبون لهما الجِزَى السنوية مقابل الاحتفاظ بعروشهم[1].

٢ ـ سيرة زاوي بن زيري بن مناد: ذكره أبو الفداء راوي ابن بلكين[2]. ورسمه القلقشندي زاري بن زيري بن مَيّاد[3]. وكان يُكْنى أبا مُثَنّى[4]. وقيل. يكنى أبا مزني[5]. وكان يلقّب الحاجب المنصور[6]. وكان له بنون، منهم بلقيس بن زاوي[7]، وحلالي بن زاوي[8]، وونّا بن زاوي[9]. وكان له أكثر من ألف امرأة، ولكن صلته بهنَّ كانت محرّمة على حد قول ابن حزم في رسالته نقط العروس: «من غرائب الدهر: زاوي بن زيري. . . كان في الدنيا معه، وهو حيّ، أزيد من ألف امرأة، لا تحلُّ له واحدة منهنَّ، كلهنَّ من نَسْل إخوته، ونحو هذا العدد من الرجال من نسل إخوته»[10].

وكان داهية البربر، وأخبار دهائه كثيرة، ونوادر أفعاله مأثورة[11]. وكان ظالماً

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٨)؛ ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس (ص ٧٦ ـ ٧٧)؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٥ ص ٢٧)؛ القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٤٠)، المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩)

(٢) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية (ج٢ ص ١٩٨).

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٤٢، ٢٤٨).

(٤) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ١٤٠، ٥١٣) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٨) واللمحة البدرية (ص ٣١).

(٥) Lafuente y Alcántara: Inscripciones árabes de Granada (P. 19).

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٤٠، ٥١٣) واللمحة البدرية (ص ٣١). وانظر أيضاً.
Lafuente y Alcántara Inscripciones árabes de Granada (P. 19).

(٧) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٤).

(٨) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ (ق ١ ص ٤٥٩).

(٩) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٦٨)

(١٠) ابن حزم: رسائل ابن حزم (ج٢ ص ٩٦). وقد ورد هذا النص في كتاب ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٦٨) باختلاف يسير عما هنا

(١١) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٧، ٢٥)؛ ابن بسام. الذخيرة (ق١ ص ٤٦٠). و(ق ٤ =

جائراً، مستحلاً للمحارم[1]. وكان جواداً كثير العطاء، إذ كان أول دخوله الأندلس يُظْهِرُ من أنواع البِرِّ والإحسان للناس ما لا شيء فوقه، ويُنْفِقُ ما لا قدرة لغيره على الإنفاق، وكل ذلك من العقود والذخائر التي جاء بها من بلده، والتي باعها بأغلى الأثمان، وربما اشترى منها المظفرُ عبد الملك بن المنصور العامري[2]. ووُصِف بالحزم والإقدام، وعُدَّ ليث الحروب، وأبعد البربر همّة وفروسية[3]. وقد جمع ابن الخطيب خلاله بقوله: «وكان زاوي كَبْشَ الحروب، وكاشَفَ الكروب، خَدَمَ قَوْمِهِ، شهيرَ الذِّكْر، أصيلَ المَجْد، المثل المضروب في الدهاء والرأي والشجاعة والأنفة والحُزْم. وقال بعضهم: أحكم التدبير والدولة تُسْعِدُهُ والمقادير تُنْجِده، وحُكِيَتْ له في الحروب حكايات عجيبة»[4]. وأضاف: ظهر زاوي على طوائف الأندلسيين، واشتهر أمره وبَعُدَ صِيْتُه[5]. وقال فيه دوزي: كان زاوي كثير الذكاء، مثقّفاً، وأقوى البربر شوكة[6].

٣ - زاوي في خدمة المنصور العامري بقرطبة سنة ٣٩٠ هـ/ ٩٩٩ م: قدم زاوي إلى الأندلس مع مجموعة من أقاربه؛ بسبب الحروب التي وقعت بينه وبين قريبه باديس بن منصور بن يوسف بن زيري، صاحب إفريقية وبلاد المغرب، وقد اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي ورد فيها على الأندلس، وانقسموا فريقين؛ فريق يرى أنه دخل الأندلس في عهد الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، صاحب الدولة الأموية في عهد الخليفة هشام المؤيد، ويتزعمه الأمير عبد الله بن بلقين وابن خاقان وابن الأثير وابن خلدون. وفريق آخر يرى أنه دخلها في عهد الحاجب المظفر

= ص ٨١ - ٨٢)؛ ابن سعيد: المعرب (ج٢ ص ١٠٦)؛ ابن عذاري: البيان المعرب (ج٣ ص ١٢٩)؛ ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٥١٧) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٧ - ٢٢٨)، المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٤٨٥)

(١) ابن بسام: الذخيرة (ق ١ ص ٥٨٨)

(٢) المصدر نفسه (ق٤ ص ٨١ - ٨٢). وانظر أيضاً الصوفي تاريخ العرب في إسبانيا (عصر المنصور العامري)، دار الكاتب العربي (ص ٢٠٨).

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٧)، ابن الخطيب أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٨)

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٥١٤)

(٥) المصدر نفسه (ص ١٤٠) واللمحة البدرية (ص ٣١)

(٦) Dosy Histoire des Musulmans d'Espange (T 2 P 293, 3II)

عبد الملك بن المنصور محمد بن أبي عامر، ويتزعمه ابن بسَّام وابن عذاري.

وكون الأمير عبد الله، آخرِ ملوك بني زيري بغرناطة، الأقربَ لتلك الفترة من غيره من المؤرخين، فقد كشف النقاب عن أمر قدوم زاوي إلى الأندلس، فقال إن قدومه مع ابن أخيه حبوس وعدد من رؤساء البربر وحُماتهم كان في عهد المنصور، وإن المنصور اعتمد عليهم في جيشه، وكان يصول بهم على العدو لفروسيتهم وشدتهم في القتال، ويستند عليهم في الرأي والمشورة دون غيرهم من الأجناد[1].

وإذا لم يحدّد ابن بلقين تاريخ دخول زاوي إلى الأندلس، فإن معاصره ابن خاقان الغرناطي لم يشر إلى اسم زاوي، واكتفى بالإشارة إلى دخول البربر من المغرب في عهد المنصور دون أن يحدد التاريخ، وأن المنصور استقدم أعداداً كبيرة منهم، ليذلَّ بهم قبائل الأندلس ولا سيما الأعلام الأكابر منها[2].

وحدّد ابن الأثير عام ٣٧٣ هـ/ ٩٨٣ م تاريخ دخول زاوي مع أخويه جلال وماكْسَن إلى الأندلس، وأقرّ بأن المنصور سُرَّ بهم وأجرى عليهم الوظائف وأكرمهم، وأحسن إليهم وجعلهم بطانته[3].

ويروي ابن خلدون أن زاوي كتب إلى المنصور يستأذن في قدومه وبنيه وأخيه جلال وبني أخيه وحاشيته ومس معه من أكابر أهل بيته، فأذن لهم، فأجازوا البحر إلى قرطبة، ونزلوا عليه في سنة ٣٩٠ هـ/ ٩٩٩ م[4]. ونحن بدورنا نأخذ بروايته ورواية ابن بلقين، فنقول: أغلب الظن أن زاوي دخل الأندلس في السنة المذكورة في عهد المنصور يوم كان ولده عبد الملك يقوم بمهمة الحجابة عند غياب أبيه عن قرطبة

---

(١) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٦ ـ ١٧).

(٢) ابن خاقان: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، دراسة وتحقيق الأستاذ محمد علي شوابكة، دار عمار، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣ (ص ٣٨٩). وتجدر الإشارة هنا إلى أن بداية استخدام البربر في الجيش الأندلسي كان منذ اعتلاء الحكم المستنصر عرش الخلافة، ثم ازداد عددهم في حجابة المنصور الذي عمل على الاستكثار منهم في جيشه وإهمال رجال العرب. سالم. قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دار النهضة العربية بيروت، ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ (ج١ ص ٨٢ ـ ٨٣).

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج٩ ص ٣٢ ـ ٣٣)

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧) و (م٧ ص ٧٠)

بهدف الغزو؛ لأن ابن خلدون حُجَّةٌ في تأريخ البربر من جهة، ولأن ابن بلقين أدرى بتاريخ أسرته من جهة ثانية.

ونشير هنا إلى أن ليڤي - بروڤنسال يؤيد هذا الفريق[١]. كما يؤيده محمد عبد الله عنان، ولكنا نتساءل عمن اعتمد عنان في تحديد عام ٣٩١ هـ/ ١٠٠٠ م تاريخ عبور زاوي ومن معه إلى الأندلس[٢]؟

وكون ابن بسام أديباً أكثر منه مؤرخاً، فإنه يغفل تاريخ دخول زاوي إلى الأندلس، ويخبرنا أن المنصور لم يأذن لزاوي بالدخول إلى الأندلس حذراً من دَهْيه ومَكْره وبُعْدِ صِيْته في المغرب، وأن المظفر هو الذي دعاه إلى الدخول إليه والخدمة له، فأدخله بمن معه من إخوته ورغب في رفع منزلته، فولّاه الوزارة، فرفضها زاوي؛ لأن خطته كانت الإمارة وليس الوزارة[٣].

وبدوره لم يشر المؤرخ المراكشي ابن عذاري إلى تاريخ دخول زاوي إلى قرطبة، وهو ينقل عن كتاب المتين لابن حيان، فيروي أن زاوي كتب إلى المظفر ليجوز إليه رغبةً في الجهاد، فأذن له في ذلك، فدخل مع جماعة وافرة من أقربائه وفي مقدمتهم ابنا أخيه ماكْسَنْ المقتول، وهما حباسة وحبوس، فأكرمهم المظفر، وعملوا في عسكره[٤]. وأورد ابن الخطيب هذا الخبر كما رواه ابن عذاري[٥]. ثم ذكر أن زاوي لحق بالأندلس مع أخويه جلال وماكسن[٦]. وبعد أن أكّد ورود زاوي على المظفر[٧]، عاد وناقض نفسه فقال إن زاوي جاز إلى الأندلس مع ابْنَيْ أخيه ماكْسَن، حباسة وحبوس، فتلقّاهم المنصور بكل بِرّ وترحيب[٨].

وقد أيّد عبد العزيز سالم وجهة نظر ابن بسام وابن عذاري، ولكنَّا في الوقت

---

(١) Lévi-Provençal Histoire de l'Espange Musulmane , Paris-Leiden, 1950 - 1953 (T. 2, P 271, 296) et (T 3, P 82)

(٢) عنان: دول الطوائف (ص ١٢٠)

(٣) ابن بسام: الذخيرة (ق٤ ص ٨١ - ٨٢)

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢٦٣).

(٥) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٤٣٢، ٥١٣)

(٦) نفسه. أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٦٧ - ٦٨)

(٧) المصدر نفسه (القسم الثاني ص ٢٢٧)

(٨) المصدر نفسه (ص ٢٢٩).

نفسه نسأله لماذا اختار سنة ٣٩٣ هـ/ ١٠٠١ م تاريخ وصول زاوي إلى قرطبة[1]، مع العلم أن المظفر حكم قرطبة كحاجب من العام المذكور حتى العام ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٨ م.

٤ ـ دور زاوي في الفتنة التي اندلعت بقرطبة عام ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٨ م: في عام ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨ م قام محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد العزيز بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر على الخليفة هشام المؤيد، وخلع حاجبه عبد الرحمن بن المنصور العامري، المعروف بشنجول، وقتله، ومَلَكَ قرطبة، وسمَّى نفسه المهدي، فلحق به زاوي ابن زيري وسائر البربر بقرطبة؛ لِمَا كانوا يَرَوْنَه من سوء تدبير شنجول، ولكن تأييدهم للمهدي جنى عليهم ما لم يتوقّعوه؛ ففي الشهر الأول من تسلّمه الحكم وَجَّه رجالُهُ سهامَ الأذيّة نحوهم، فنهبت العامةُ دُوْرَ بني زاوي بن زيري وبني ماكْسَنْ بن زيري وغيرها من دُوْر زعماء البربر. ولمّا دخل عليه زاوي، وحبوس وحباسة، ابنا ماكسن ابن زيري، وأخبروه بما جرى عليهم، وشكوا بما أصابهم، اعتذر إليهم، وقتل من آذاهم[2].

ولم يكن اعتذار المهدي صادراً عن حسن نية تجاه البربر، فهو الذي حرّض العامة بقرطبة على تقتيلهم ونَهْب دوْرهم؛ لأنه كان يبغضهم ويمقتهم، وكان على حَدِّ قول ابن عذاري وابن الخطيب، سبب الفتنة العظيمة التي سمّاها أهل الأندلس بالفتنة البربرية، وكان يستفسد إلى البربر ويصرِّحُ ببغضه لهم، ولا يقدر على كتم ذلك حتى أذلَّهم وتنكّر لهم[3].

ولما بلغ البربر أن المهدي سَرَّه الفَتْكُ بهم قاموا عليه، واتفقوا على بيعة هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، ولكن المهدي قبض على هشام في سنة

---

(١) سالم: المغرب الكبير (ص ٦٤٨) وقرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (ح١ ص ٧٦، ٨٤) وتاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (ص ٣٣٧).

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٢٢٥)؛ ابن عذاري· البيان المغرب (ج٣ ص ٧٥ ـ ٧٦). وانظر أيضاً: نعنعي: تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦ (ص ٥٠٤).

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص٧٦، ٢٦٣ ـ ٢٦٤)؛ ابن الخطيب· الإحاطة (ج١ ص ٥١٣ ـ ٥١٤).

٣٩٩ هـ/ ١٠٠٨ م وضرب عنقه[1]. عندئذ تمرّس زاوي بظاهر قرطبة هو وقومه صنهاجة وكافة زَنَاتَه والبربر، ونهضوا إلى ثغر طليطلة برفقة سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، وبايعوا سليمان في عام ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م، ولقّبوه بالمستعين، واقتحموا به قرطبة عَنْوة، واستباحوها، وعاثوا بها، وخرّبوا معالمها، وسلبوا محاسنها ومحاسن أهلها فقتلوا منهم الآلاف، وذهبوا من الفساد في الأرض إلى غير نهاية[2]. وتوصل زاوي إلى رأس أبيه زيري المتصوّر بجدران قصر قرطبة فأزاله وأصاره إلى قومه ليدفن في جَدَثه[3].

وإذا كان المهدي الأصل في هذه الفتنة، فقد كان زاوي مُوْقِدَها، وكَبْشَ وقائعها، وفحل كتائبها، ومهيِّج حروبها، وعميد صنهاجة في أحداثها[4]. وقد أكد ابن حيان ذلك عندما بلغه نبأ وفاة زاوي، فقال: «وَنُعِيَ إلينا عدوُّ نَفْسِهِ، زاوي بن زيري، مُوْقِدُ الفتنة بعد الدولة العامرية؛ ورد النبأ بمهلكه في القيروان وطنه، بعد منصرفه إليها خاملاً مغموراً بين أعاظم قومه، فالحمد لله المنفرد بإهلاكه»[5].

٥ ـ دور زاوي في دولة المستعين الثانية عام ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م: في شوال عام ٤٠٢ هـ/ ١٠١١ م قُتِلَ حُباسة بن ماكْسَن بن زيري في وقعة «رمداي» بطرف قرطبة في حروب البربر لأهل قرطبة، على يد فارس نصراني، أحد فرسان الموالي العامريين، فحزّوا رأسه، وأسلموا جسده للعامة، فجّروه في الطرق، وطافوا به الأسواق، وقطعوا بعض أعضائه، وأوقدوا له ناراً فحرقوه بها، فجزع عليه أهله وخاصة أخاه حبوس بن ماكسن بن زيري، وعمه زاوي بن زيري، وأرادوا أن يثأروا له، فقاتلوا

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦ (ص ١٨)، الضبي: بُغْية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٧٧ (ص ٢٢)؛ ابن خلدون تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٢٥).

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة (ج٤ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٧)، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦) و (م٦ ص ٣٦٧)؛ المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٤٨٢).

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٦٨).

(٤) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٥٨٨)، ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٥١٤)؛ ابن خلدون تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦) و (م٦ ص ٣٦٧)

(٥) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٥٨٨).

أهل قرطبة قتالاً شديداً، وهزموهم أشد هزيمة[1] ولما استولى سليمان المستعين ثانية على قرطبة عام ٣٠٤ هـ/ ١٠١٢ م، وأصبح الحكم بيد البربر، أتى رحل من أهل قرطبة إلى حبوس وعرّفه بقاتل أخيه حباسة، فجاء حبوس في بعض أصحابه إلى دار قاتل أخيه، فاستخرجه منها وقتله، وأضرمها ناراً وحرّقها، ووجد له فيها مالاً وفُرُشاً كثيرة وأسلحة وافرة فأخذها، واستخرج أخاه حباسة من القبر، فما وجد إلّا عظامه[2]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المستعين دخل قرطبة في ٢٧ شوال سنة ٤٠٣ هـ/ التاسع عشر من نيسان ١٠١٣ م بفضل جهود زاوي وأتباعه من بربر صنهاجة، فبايعوه فيها [3]

ولمّا استقرّ الأمر للمستعين احتلَّ البربرُ المناصبَ العليا في الدولة، فكان منهم الحاجب والوزير[4]. وشكّلوا جزءاً هاماً من جيش الخليفة المستعين[5].

٦ - زاوي يترك قرطبة ويستقرّ بإلبيرة سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م: كان زاوي واحداً من ستة زعماء برابرة ولّاهم سليمان المستعين في عام ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م مدناً أندلسية، وكانت إلبيرة من نصيب زاوي[6]. وروى ابن الخطيب أنه لمّا استقرّ المستعين بمقرّ الخلافة بقرطبة طالبه البربر ببلاد يلجأون إليها خوفاً من غوائل الزمن، فكان زاوي مَنِ استأثر بإلبيرة وجيان معاً[7]. وأضاف. لمّا تغلب جيش البربر مع المستعين على قرطبة عام ٤٠٣ هـ سكن زاوي مدينة غرناطة وصيّرها دار ملكه ومقرّ أمره[8]. ثم قال إنّ زاوي انحاز مع صنهاجة إلى غرناطة في عهد بني حمود العلويين: «فلما انهدمت الإمامة وانشقّت عصا الجماعة سَعَوْا في الفتنة سَعْيَ غيرهم من سائر قبائل البرابرة، عند تشديد أهل الأندلس للبربر، وانحازوا عند ظهورهم على أهل

(١) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ١١١ - ١١٢)؛ ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٤٨٦ - ٤٨٧) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٩).

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ١١٥)

(٣) ابن الخطيب أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٣٢٨)

(٤) ابن عذاري· البيان المغرب (ج٣ ص ١١٤)

(٥) Pérès: La poésie Andalouse (P. 259).

(٦) ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ١١٣)، ابن الخطيب. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١١٩).

(٧) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٨).

(٨) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٤٠) واللمحة البدرية (ص ٣١).

الأندلس بملوك بني حمود، إلى بلاد تضمّهم، فانحازت صنهاجة مع شيخهم ورئيسهم زاوي بن زيري إلى مدينة غرناطة. . . واتخذوها ملجأ، وحَمَاها زاوي المذكور، وأقام بها ملكاً، وأثّل بها سلطاناً لذويه»[1]. ويذهب ابن خلدون مذهب ابن الخطيب فيروي أنه لما أصبحت قرطبة بيد بني حمود افترق أمر البربر، فلجأ عميدهم زاوي مع صنهاجة إلى ناحية إلبيرة، واستولى على ضواحيها[2]. وروى ابن الكردبوس أنه لما اتصل الخبر بأمراء البلاد بمقتل المهدي ثار كل واحد منهم في بلده بمن عنده من الأجناد، فثار زاوي بمن تبعه في ناحية غرناطة[3]. وروى ابن بلقين أنه لما رأى أهل إلبيرة اختلاف سلاطين الأندلس، بعد زوال الدولة العامرية، خافوا على مدينتهم، فعرضوا على زاوي وحاشيته تقديم الأموال والسُّكْنى، مقابل أنْ يَحْمُوا ديارهم ويدافعوا عنهم؛ لأنهم لم يكونوا آنذاك قادرين على قتال أحد. وقد وافق زاوي على هذا العرض، فأتى إلبيرة ونزل بساحتها برفقة ابن أخيه حبوس بن ماكسن بن زيري، ومعه حشود من البربر، واستجابت له معاقل كثيرة، منها جيان وحصن آشر Iznajar. ولما طاعت له البلاد تقارع وابن أخيه عليها،وكانت القرعة من عادات البربر، فأصبحت إلبيرة بيد زاوي، وأصبحت جيان مع حصن آشر بيد ابن أخيه، وتعاقدوا على أن يحمي كل منهما جهة صاحبه متى طرقها العدو[4].

٧ ـ زاوي يختطُّ غرناطة وَيتخذها داراً لملكه بدل إلبيرة: يروي ابن بلقين أن أهل الأندلس خافوا أن تَقْوَى شوكةُ زاوي بن زيري وابن أخيه حبوس بن ماكْسَنْ بن زيري، بإلبيرة وضواحيها، فاحتشدوا ضدّهما، واجتمعوا على منازلتهما. ولما علم زاوي وابن أخيه وجموع صنهاجة بذلك جمعوا أهل إلبيرة وأعلموهم أنهم أَتَوْا إلى مدينتهم بناء لطلبهم، ولحمايتهم من العدوّ، ورغبةً في الجهاد، فحثّهم أهل إلبيرة على الدفاع عن مدينتهم والثبات في قتال العدو. عندئذ رأى زاوي أنه من الصواب أن

---

(١) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٤٣٢، ٥١٤). ومن المعروف أن علي بن حمود هو أول من بويع بقرطبة من بني حمود وذلك سنة ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦ م، عندما قبض على سليمان المستعين وضرب عنقه بيده. راجع في ذلك: الحميدي. جذوة المقتبس (ص ٢٢)؛ الضبي: بغية الملتمس (ص ٢٧)؛ ابن الخطيب. الإحاطة (ج٤ ص ٥٦ ـ ٥٧)؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٢٨)

(٢) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٦٨).

(٣) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس (ص ٦٧).

(٤) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٨ ـ ١٩).

يرتحل عن إلبيرة لأنها لا تصلح للدفاع، وأن يختار بالقرب منها معقلاً شامخاً في جبل منيف، يرحل إليه بأهله وأمواله، ويبنون فيه ديارهم ويجعلونه قاعدة ملكهم. وقد وقعت أعينهم على جبل منيع، فاختاروه؛ كونه يشرف على بسيط جميل يجمع الأنهار والأشجار من جهة، ولمناعته عند حصار العدو له من جهة ثانية، وشرعوا في بنيانه، فتولى كلٌّ امرىء إقامة داره، فأقيمت هناك مدينة غرناطة، وعمرت، وكان قيامها نذيراً بخراب إلبيرة، فعفت منازل إلبيرة وأخذت غرناطة تحتل مكانها[1]. وقد أشار ابن سعيد إلى أن زاوي قام بالمملكة وجعل مدينة غرناطة قاعدة له[2]. وبدوره يشير القلقشندي إلى تملك زاوي غرناطة فيقول: «وأما غرناطة، فَمَلَكَها أيام الفتنة زاوي بن زيري بن مياد»[3]. ويكتفي ابن خلدون بالإشارة إلى نزول زاوي بغرناطة، واتخاذها داراً لملكه، ومعتصماً لقومه[4]. وهكذا حمى زاوي غرناطة، ومدَّنها، وبناها، وزادها تشييداً ومنعة، وأقام بها ملكاً، وأَثَّلَ بها سلطاناً لذويه على حد تعبير ابن الخطيب[5]. ويروي شيخ الربوة أن إلبيرة كانت قصبة كورة إلبيرة في صدر الإسلام، ثم صارت غرناطة هي القصبة بعدها، فانتقل الناس إليها وصارت المصر المقصود[6].

٨ - زاوي يشارك في خلع الخليفة سليمان المستعين وتعيين علي بن حمود مكانه عام ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦ م: لما أراد علي بن حمود الحسيني الهاشمي، صاحب سبتة، أنْ يَثُلَّ عرش سليمان المستعين بقرطبة، وافقه في ذلك خيران العامري صاحب ألمرية، فالتقيا في المُنَكَّب في أواخر عام ٤٠٦ هـ/ ١٠١٥ م، حيث جمعا قواتهما للزحف على قرطبة، وعند وصولهما إلى غرناطة انضم إليهما زاوي بن زيري وسار معهما إلى قرطبة برفقة ابن أخيه، حبوس بن ماكْسَن بن زيري، وإخوته وبني عمه الصنهاجيين. وعلم المستعين بزحفهم لقتاله، فخرج للقائهم في جند البربر، فالتقوا على عشرة فراسخ من قرطبة، واقتتلوا، فانهزم المستعين والبربر، وقتل منهم

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٠ - ٢٢).

(٢) ابن سعيد المغرب (ج٢ ص ١٠٦).

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٤٢).

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٦) و (م٦ ص ٣٦٨)

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٥١٤)

(٦) شيخ الربوة: نخبة الدهر (ص ٢٤٢ - ٢٤٣).

خلق كثير، وأخذ المستعين أسيراً، فحمل إلى علي بن حمود ومعه أبوه وأخوه، فقتلهم بيده جميعاً، ودخل علي قصر الخلافة بقرطبة، ودعا الناس إلى بيعته، فبويع في المحرم سنة ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦ م وتسمَّى بأمير المؤمنين، وقيل بالمتوكل على الله[١].

٩ ـ زاوي يهزم الخليفة المرتضى بظاهر غرناطة عام ٤٠٩ هـ/ ١٠١٨ م: لما صارت الخلافة لعلي بن حمود عام ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦ م فَرَّ عبدُ الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر من قرطبة إلى شرق الأندلس وأعلن نفسه خليفة، وسُمِّي بالمرتضى. وفي العام التالي قتل علي بن حمود، ونُصِّب مكانه أخوه القاسم ابن حمود، فاجتمع عندئذ للمرتضى أكثرُ أمراء الطوائف، وفي مقدمتهم خيران العامري وصاحبه زهير العامري، ومنذر بن يحيى التجيبي أمير سرقسطة والثغر الأعلى، وإسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون صاحب طليطلة، واتفقوا على أن يزحفوا بالمرتضى على قرطبة لينصِّبوه خليفة عليها مكان القاسم بن حمود[٢]. وكاتبوا المرتضى على أن يوافيهم إلى شاطبة للتجمع فيها والانطلاق منها إلى قرطبة، فلما جاؤوا في جيوشهم، ومعهم مَدَدٌ من المرتزقة الإفرنج، للاجتماع به بشاطبة، اجتازوا على بلنسية، فأغلق صاحبها مبارك بابها في وجههم ومنعهم من دخولها. فلما اجتمع خيران ومنذر بالمرتضى بشاطبة، حَثّاه على اصطحاب مبارك معهم للغزو، فلم يُجِبْهما لذلك بحجة أن مبارك سيبقى في بلنسية لجمع الأموال وإرسالها لهم، فحقدا على المرتضى وأجمعا على الغدر به، فمالا به إلى غرناطة ليبدآ بحرب أميرها زاوي بن زيري بسبب مناهضته للمرتضى.

ورأى الأمير عبد الله أنهم زحفوا على غرناطة خوفاً من ازدياد قوة بني زيري:

---

(١) ابن الأثير. الكامل في التاريخ (ج٩ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١)؛ ابن عذاري البيان المغرب (ج٣ ص ١١٦ ـ ١١٧ ـ ١٢٠ ـ ١٢١)؛ ابن الخطيب. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٢١).

(٢) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٤٥٣)؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج٩ ص ٢٧١ ـ ٢٧٢)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ١٢١، ١٢٥)؛ ابن الخطيب. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٣٠)؛ المقري. نفح الطيب (ج١ ص ٤٨٤ ـ ٤٨٥).

(٣) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٤٥٦). وانظر أيضاً: سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (ج١ ص ٩٥)؛ أبو الفصل. تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية في العصر الإسلامي منذ إنشائها حتى استيلاء المرابطين عليها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨١ (ص ٩٧)

«فلما بصر بفعلهم (أي بفعل بني زيري) ثوارُ الأندلس جزعوا منهم، وحذروا أنْ تقوى شوكتهم، فيطرقوهم ويحصِّلوا على بلادهم، لِمَا اختبروا من شدّتهم ورأيهم، فاجتمعوا على منازلتهم وقَصْدهم إليهم بأحشادهم، كراهيةَ توطيدهم بذلك المكان وبغضهم لجنسهم. وقدّموا على أنفسهم إنساناً سمّوْه بالمرتضى، زعموا أنه قرشي، كي يستضلّوا بخلافته عامةَ الناس، وليرجع أمرهم إليه. ونزل الجمع على مقربة منهم»[1]. وذهب ابن الأثير إلى أن خيران ومنذراً أجمعا على الغدر بالمرتضى؛ لإظهاره لهما الجفاء بعد مبايعتهما له، وإقباله على أهل بلنسية وشاطبة دون أن يقبل عليهما[2]. وروى عبد الواحد المراكشي أن العبيد الذين بايعوا المرتضى وزحفوا به إلى غرناطة ندموا على مبايعته، لما رأوا من صرامته، وخافوا من عواقب تمكّنه وقدرته، ورأوا أن ينهزموا عنه[3]. وذهب دَوزي إلى أن خيران ومنذراً رأيا أن المرتضى ليس الخليفة الذي يريدانه، فقرّرا أن ينهزما عنه، واتصلا بزاوي ووعداه بذلك[4]. وقد نوّه المقري بفساد نيّة خيران ومنذر على المرتضى بقوله: «فكان من الاتفاق العجيب أنْ فسدت نيّة منذر وخيران على المرتضى، وقالا: أرانا في الأول وَجْهاً ليس بالوجه الذي نراه حين اجتمع إليه الجمُّ الغفير، وهذا ماكرٌ غيرُ صافي النيّة، فكتب خيرانُ إلى ابن زيري الصنهاجي المتغلّب على غرناطة ـ وهو داهية البربر ـ وضمن له أنه متى قطع الطريق على المرتضى عند اجتيازه عليه إلى قرطبة خَذَّل عن نصرته الموالي العامريين أعداءَ المروانيين، وأصحابَ رياسة الثغور، فأصغى ابن زيري إلى ذلك»[5]. ويروي ابن الخطيب أن مبارك ومظفراً، صاحِبَيْ بلنسية، وَصَلَا ظاهرَ غرناطة، مع أمثالهما من أمراء شرق الأندلس، صُحْبَةَ المرتضى، لمقاتلة بني زيري[6]. وذكر إحسان عباس أن ابن حزم صاحب «طوق الحمامة» سار مع المرتضى لمحاصرة زاوي بغرناطة[7]

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٠)

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج٩ ص ٢٧٢).

(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ٥٠)

(٤) Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne (T 2, P 317)

(٥) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٤٨٥).

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة (ج٣ ص ٢٩٧)

(٧) عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٣ (ص ٣٠٩)

ونزلت جموع المهاجمين بظاهر غرناطة على مقربة منها، ولم يكن قد استكمل بناؤها بعد، وكتب المرتضى إلى زاوي يدعوه لطاعته والخروج عن المدينة، وأنْ لا سبيل إلى البقاء فيها، فلم يعبأ زاوي بكثافة جيشه، وردَّ على كتابه ردّاً ضَمَّنَهُ من التحدِّي ما أثار غيظه، وجمع رجاله وخاطب ابن أخيه حبوس بن ماكسن بن زيري، والي جيان وحصن آشر مِنْ قِبَلِهِ، يأمره بالقدوم إليه، فأتى في جميع عسكره ودخل غرناطة[1].

وأمام هذا التحدي ازداد حنق المرتضى واعتقد أنه سيكسر شوكة زاوي ويهزمه في ساعة من نهار[2]. ولقيهم زاوي في جموع صنهاجة وكان عسكره دون الألف، وكانت الطوائف المهاجمة في نحو أربعة آلاف فارس[3]. واقتتل الفريقان اقتتالاً شديداً، ودامت الحرب أياماً[4]. وعندما طالت الحرب أرسل زاوي إلى خيران يستنجزه وَعْدَهُ، فأجابه إلى طلبه، فما كان من الغد حتى وَلَّتْ عن المرتضى أعلام خيران ومنذر معاً[5]. وبذلك يكون أنصار المرتضى من هؤلاء الأمراء قد خذلوا المرتضى، وكان أول المنهزمين عنه خيران ومنذر[6].

وإثر دلك دبَّت الهزيمة في جُنْدْ المرتضى، ففرّوا من أرض المعركة، مُسْلموهم وإفرنجهم، يطلبون النجاة، لا يلوي أحد منهم على آخر، وخَيْلُ بني زيري تطردهم في تلك المضايق، يقتلون منهم ويأسرون. وقُتِل المرتضى في ضنك ذلك المأزق،

---

(١) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٢)، ابن بسام. الذخيرة (ق١ ص٤٥٣ - ٤٥٤)، ابن عذاري: البيان المعرب (ج٣ ص ١٢٥ - ١٢٦)، ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٥١٥ - ٥١٦)، المقري. نفح الطيب (ج١ ص ٤٨٥). وانظر أيضاً:

Lévi - Provençal Histoire de l'Espagne Musulamne (T 2, P 330), Dozy Histoire des Musulmans d'Espagne (t 2, P 316 - 317).

(٢) المقري. نفح الطيب (ج١ ص ٤٨٥).

(٣) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٢).

(٤) ابن بسام. الذخيرة (ق١ ص ٤٥٤)، ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج٩ ص ٢٧٢)، ابن عذاري: البيان المعرب (٣ ص ١٢٦)، ابن الخطيب. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٣١)؛ المقري نفح الطيب (ج١ ص ٤٨٥)

(٥) المقري نفح الطيب (ج١ - ص ٤٨٥)

(٦) ابن بسام. الذخيرة (ق١ ص ٤٥٤)، ابن عذاري. البيان المعرب (ج٣ ص ١٢٦)، ابن الخطيب أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٣١)

ولم يوقع له على أثر، وعمره أربعون سنة[1].

وقد وصف ابن بلقين بأس بني قومه في تلك الحرب، فجعلهم شجعاناً يُقْدمون على الموت بقلوب حَنِقة[2] وناقضه ابن بسام، فذهب إلى أنّ الصناهجة لم يستميتوا في دفاعهم، وأن انهزام المرتضى لم يكن بسبب قوة بني زيري، وإنما بسبب غدر حلفائه وفي مقدمتهم خيران ومنذر[3].

وقيل إن المرتضى، بعد أنْ تخلّى عنه خيران ومنذر، خاف أن يُقْبض عليه، ففرَّ ناجياً بحياته، فوضع عليه خيران عيوناً لِئلاّ يُخْفى أثره، فلحقوه بقرب وادي آش، وقد أمِنَ على نفسه، فهجموا عليه وقتلوه، وجاءوا برأسه إلى خيران ومنذر وقد لَحِقَا بألمرية، فتحدَّث الناسُ أنهما شربا خمرة الصباح على رأسه سروراً بمهلكه[4].

واكتفى ابن سعيد بالإشارة إلى أن خيران هو الذي دَبَّرَ مقتل المرتضى عن طريق من يثق بهم[5]. وروى عبد الواحد المراكشي أنَّ خيران ومنذراً انهزما عن المرتضى ودَسَّا من قتله غِيْلة[6]. ورأى الحميدي والذهبي أن العبيد الذين بايعوا المرتضى وزحفوا به إلى غرناطة ونازلوها ندموا على فعلتهم لِمَا رأوا من صرامته وقدرته، فانهزموا عنه ودَسُّوا عليه من قتله غِيْلة، وخفي أمره[7]. وانفرد ابن الخطيب بتحديد تاريخ هذه الموقعة وهو الثالث من شهر جمادى الأولى من السنة ٤٠٩ هـ/ ١٠١٨ م[8]. ولكنه جعل المعركة بين المرتضى وباديس بن حبوس: «ولما جَرَتْ على المرتضى الهزيمةُ واستولى باديسُ الأمير بغرناطة على محلّته...»[9].

---

(١) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٤٥٤)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ١٢٦)؛ ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٥١٦) و (ج٢ ص ٤٦٧) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٣١، ١٣٨، ٢٢٩)

(٢) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٣)

(٣) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٤٥٨).

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ١٢٧)، المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٤٨٥ - ٤٨٦)

(٥) ابن سعيد. المغرب (ج٢ ص ١٩٤).

(٦) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ٥٠).

(٧) الحميدي: جذوة المقتبس (ص ٢٢)؛ الضبي: بغية الملتمس (ص ٢٧)؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، (ج١٧ ص ١٣٥ - ١٣٦، ٢٨٠).

(٨) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٣١) والإحاطة (ج٣ ص ٤٦٧).

(٩) نفسه: الإحاطة (ج٤ ص ١١٥).

أما الآخرون الذين تحدّثوا عن هذه الوقعة، فقد ذكروا أن المرتضى ومَنْ معه خرجوا بجملتهم من شرق الأندلس لغزو القاسم بن حمود بقرطبة سنة ٤٠٩ هـ/ ١٠١٩ م، فعرّجوا في طريقهم إلى غرناطة لمقاتلة صاحبها زاوي بن زيري[١]. وذكر ابن الأثير أن أكثر أهل الأندلس اتّفقوا على المرتضى، واجتمعوا بموضع يعرف بالرياحين في الأضحى سنة ٤٠٨ هـ/ ١٠١٨ م، وأصفقوا على بيعته، وساروا معه إلى غرناطة[٢].

وجعل ابن خلدون تاريخ هذه الوقيعة سنة ٤٢٠ هـ/ ١٠٢٩ م[٣]. وكانت غنائم زاوي من محلّة المرتضى أموالاً وأسلحة وخيلاً وذخائر، لا تُعَدُّ ولا تُحْصى، إضافة إلى فاخر الحلي والمتاع التي لم يَقْدِرْ مَلِكٌ على اقتنائها[٤] وأشار الأمير عبد الله إلى أن جُنْدَ زاوي أصابوا من محلّة المرتصى أموالاً وأسلحة حتى امتلأت أيديهم[٥].

وبعث زاوي بكتاب إلى القاسم بن حمود يخبره فيه بما حدث مع المرتضى، ومعه نصيبه من الغنيمة وفي جملتها سُرادِقُ المرتضى، فَسُرَّ القاسمُ بذلك[٦].

وكانت تلك الوقيعة أول ظفر لبني زيري البربر على المروانيين، فهابهم الناس، وانقادت لهم الرعايا، وتوطّد مُلْكهم بغرناطة، وركدت بعدها ريح بني مروان، ولم تقم لهم قائمة، ولم يجتمع لهم على البربر جَمْعٌ بعد[٧].

١٠ ـ زاوي يترك غرناطة ويرتحل إلى القيروان عام ٤١٠ هـ/ ١٠١٩ م: صَمَّمَ

(١) ابن بسام. الذخيرة (ق١ ص٤٥٣)؛ ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ١٢٥)؛ المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٤٨٤).

(٢) ابن الأثير. الكامل في التاريخ (ج٩ ص ٢٧٢)

(٣) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٦)

(٤) ابن بسام. الذخيرة (ق١ ص ٤٥٤)؛ ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ١٢٦)، ابن الخطيب. الإحاطة (ج٣ ص ٤٦٧) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٣١)، ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٦)

(٥) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٣)

(٦) ابن بسام. الذخيرة (ق١ ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦)، ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ١٢٧)؛ ابن الخطيب. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٣١)

(٧) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص٢٣)، ابن بسام. الذخيرة (ق١ ص ٤٥٥)، ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ١٢٧)؛ ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٥١٦) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٣١)، المقري. نفح الطيب (ج١ ص ٤٨٦).

زاوي على الرحيل إلى وطنه إفريقية بعد أن استأذن صاحبها المعز بن باديس بن منصور ابن يوسف بن زيري، فأذن له، وبعد أن أدرك أن جميع بني عمه بالقيروان يحرصون على رجوعه لهم، لكبر سنه من جهة، ولحاجتهم إليه بعد مهلك جميع إخوتهم من جهة ثانية[1].

ولقد أجمع معظم المؤرخين على أن السبب الذي دفع زاوي لأن يرتحل عن غرناطة، ولمَّا يَمْضِ عام على انتصاره على الخليفة المرتضى المرواني ومن معه من أهل الأندلس، هو خوفه من ردّة فعل هؤلاء الأندلسيين؛ لهول ما عاينه من اقتدارهم، وإشرافهم على التغلب عليه في تلك الحرب لولا تخاذل أمراء الأندلس عن نصر المرتضى وغدرهم له، فأيقن أنهم دأبوا على بغضهم له ولقومه البربر، ورأى أنه لم يعد يأمنهم على نفسه ودياره، فاغتبط بما تهيأ له من غنائم، وهان سلطانه عنده بغرناطة، ودعا جماعة قومه للرحيل معه، فَعَصَوْهُ، فلم يَثْنِهِ ذلك عن عزمه[2]

وأضاف عنان إلى هذا السبب سبباً آخر هو خوف زاوي من غَدْر برابر زناتة أعدائه القدامى[3]

وهناك سبب آخر انفرد بذكره الأمير عبد الله، وهو برأينا السبب الرئيسي، وهو طمع زاوي بعرش القيروان بعد أن علم بوفاة مليكها باديس وتوّليه من قبل ابنه الطفل المعز بن باديس، فشرهت نفسه إلى مُلْكها، وعزم على النهوض إليها[4]

ولما عزم زاوي على الرحيل عارضه في ذلك الحين ابنه بلقين ولامه على فِعْلته، وطلب منه أنْ يثبت بغرناطة التي لم يحصل عليها إلاَّ بعد مشقّة، ولأنه من غير المعقول أنْ يبني مُلْكاً لغيره. ورحل زاوي واستخلف مكانه بغرناطة بعض شيوخ قومه الذين يثق بهم، لينوبوا منابه فيها ريثما يرى كيفية مخرجه من القيروان، واستحلفهم

---

(١) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٤٥٨)؛ ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ١٢٨) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٥١٧).

(٢) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٤)؛ ابن بسام. الذخيرة (ق١ ص ٤٥٨ - ٤٥٩)، ابن سعيد. المغرب (ج٢ ص ١٠٦)؛ ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ١٢٨ - ١٢٩)، ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٥١٦) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٣١)؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٦) و (م٦ ص ٣٦٨)

(٣) عنان دول الطوائف (ص ١٢٣)

(٤) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٤)

ألاّ يُدْخلوا عليه ابن أحيه حبوس بـن مـاكْسن بن زيري، ولا أحـد غيره[1] . وقيـل استخلف مكانه ابنه وَنّا بن زاوي، فظعن وَنّا لأهل غرناطة، وأساء السيرة فيهم، فبعثوا إلى حبوس من بعض الحصون ليتولّى أمر عرناطة قبل فوات الأوان، فبادر إليهم، ونزل بغرناطة، وبايعوه، فملكها واستبدَّ بها[2]

ويروي الأمير عبد الله أنه ما إن خرج زاوي عن غرناطة حتى كتب شيوخُهـا المستحلفون إلى حبوس يحثّونه على القدوم إلى البلد ليتولّى أمره قبل أن يطمع فيه من لا يَرْضَوْن به، فأسرع حبوس، وبادر إليهم، ونزل بعـرناطـة، فتلقّتْه صنهـاجة بالطاعة، وبايعته وانقادت لملكه[3] .

ويدكر ابن الخطيب أن زاوي، بعد إيقاعه بالمرتضى، حاف تمالؤ الأنـدلس عليه، ونظر للعاقبة، فأسند الأمر إلى ابن أخيه حبوس، ولما ركب البحر من المُنَكَّب ودَّعه به زعيم البلدة وكبير فقهائها أبو عبد الله بن أبي زَمَنين[4] وسمع زاوي بخبر تملّك حبوس غرناطة، وهو في طريقه على مقربة منها، فندم على ما كان منه[5] .

ووصـل زاوي إلى مَرْسَى المُنَكَّب، ومنـه ركـب البحر، فـاستقلَّت السفن به وبجيشه وأهله وولده وحَشَمِهِ، وفي شحنتها من ذخائر الأنـدلس ونِعَمِها مـا لا يُعَدُّ ويُحْصَى لعظيم ما حازه أيام الفتنة[6] ويخبرنا ابن بسام، نقلاً عن ابن حيان، أنَّ حلالي بن زاوي لم يرافِق أباه إلى المنكب، فمكث بغرناطة أياماً لتتميم حاجاته، وقد دَبَّرَ مع بني عمه الراحلين مع أبيه القبض على قاضي غرناطة ابن أبي زمنين وعلى المشيخة من أهله، عند عودتهم من تشييع أبيه، وذلك ليأخذ أموالهم. واهتدى ابن أبي زمنين إلى هذا التدبير، وأسرع إلى حبوس وأعلمه بالأمر، وكان حبوس آنذاك

---

(١) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٤ ـ ٢٥)

(٢) ابن حلدون تاريخ ابن حلدون (م٤ ص ٣٤٦) و (م٦ ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩)، القلقشندي صبح الأعشى (ح٥ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٨)

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٥)

(٤) ابن الحطيب الإحاطة (ح١ ص ٤٧٧).

(٥) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٥)

(٦) ابن بسام. الدحيرة (ق١ ص ٤٥٧ ـ ٤٥٨)؛ ابن الأثير الكامل في التاريخ (ح٩ ص ٢٥٩)، ابن سعيد: المغرب (ح٢ ص ١٠٦)، ابن عذاري. البيان المغرب (ج١ ص ٢٦٩)، ابن الحطيب الإحاطة (ح١ ص ٥١٦ ـ ٥١٧).

بحصن آشر يرتقب ركوب عمِّه زاوي البحر ليلحق بغرناطة، فتوجّه حبوس برفقة ابن أبي زمنين إلى غرناطة، فلم تشعر صنهاجة حتى أطل عليهم قارعاً طبوله، فخرجت تستقبله. وصعد حبوس إلى قصبة غرناطة، فضبطها وحطَّ رحله فيها، واستوطن البلد وأورثه عقبه[1]. وأشار ابن عذاري إلى هذا الخبر إشارة عابرة[2]. وروى ابن الخطيب أن حبوساً قَدِمَ من حصن آشر إلى غرناطة ومَلَكَها بسعي كبيرها وفقيهها ابن أبي زمنين[3].

وقد اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي رحل فيها زاوي عن الأندلس؛ فابن بسام، وأبو الفداء، وابن الوردي، وابن خلدون، يُقِرُّون بأن زاوي رحل عن الأندلس سنة ٤١٠ هـ/ ١٠١٩ م، وعاد إلى بلد قومه بإفريقية في أهله وولده وحَشَمه[4]. وهكذا قال ابن عذاري[5] إلاَّ أنه عاد وقال، نقلاً عن ابن حيان، إن زاوي ترك الأندلس سنة ٤١٦ هـ/ ١٠٢٥ م[6] وكذلك الأمر بالنسبة إلى ابن الخطيب، فمرة يحدد تاريخ خروج زاوي من الأندلس عام ٤١٦ هـ/ ١٠٢٥ م[7]، ومرة أخرى سنة ٤٢٠ هـ/ ١٠٢٨ م[8]. إلاَّ أنه يُقِرُّ بأن زاوي عاد إلى قومه بإفريقية بعد أنْ أسنَّ وبلغ الغاية من العمر[9].

كذلك كان التباين واضحاً في كتابات المؤرخين المعاصرين، وهذا يعود إلى المصادر التي اسْتَقَوْا منها معلوماتهم. فالمؤرخان محمد عبد الله عنان وبريتو إي ڤيڤس يحددان عام ٤١٠ هـ/ ١٠١٩ م تاريخ خروج زاوي من غرناطة[10]. وتاريخ

---

(١) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٤٥٩ - ٤٦٠)

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ١٢٩)

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٩)

(٤) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٤٥٨)، أبو الفداء. المختصر من أخبار البشر (ج٢ ص ١٩٨)، ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق الأستاذ أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٠ (ج٢ ص ٨)؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٢٤ - ٣٦٨)

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب (ج١ ص ٢٦٩).

(٦) المصدر نفسه (ج٣ ص ١٢٨).

(٧) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٥١٧).

(٨) نفسه: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٩)

(٩) المصدر نفسه (القسم الثالث ص ٦٨)

(١٠) عنان: دول الطوائف (ص ١٢٣ - ١٢٤)، Prieto y Vives. Los Reyes de Taifas (P. 28, 32)

هدا الحروج عند ليفي -بروفنسال هو عام٤١٦ هـ/ ١٠٢٥ م[١] وعند أشباخ هو عام ٤٢٠ هـ/ ١٠٢٨ م[٢]. وعند بروكلمان هو عام ٤١٥ هـ/ ١٠٢٤ م[٣]. وينفرد عبد العزيز سالم عن غيره من المؤرخين بجعل ٤٠٩ هـ/ ١٠١٨ م عام رحيل زاوي إلى إفريقية[٤].

ونحن بدورنا نميل إلى أن زاوي أقام بالأندلس مدة عشرين سنة؛ فدخلها سنة ٣٩٠ هـ/ ١٠٢٠ م حسبما جاء به ابن خلدون، ورحل عنها سنة ٤١٠ هـ/ ١٠٢٠ م حسب رواية كل من ابن خلدون، وابن بسام، وأبي الفداء، وابن الوردي، وابن عذاري.

كذلك تباينت الروايات في مسألة استقباله من قبل المعز؛ فيروي ابن عذاري أنه يوم وصول زاوي إلى القيروان خرج إليه المعز بزي عظيم، فترجّل له زاوي، ونزل المعز، فسلّم عليه وسار معه حتى أنزله بالمنصورية[٥] ويضيف: ارتفع شأن زاوي بالقيروان، وأقرّه المعز في دولته وكنفه[٦]. ويخبرنا ابن بسام، نقلاً عن ابن حيان، أن زاوي اجتمع شمله بالقيروان، وأقرّه المعز في دولته، إلَّا أنه لم يُؤْثِرْهُ، ولا قَلَّدَ أحداً من بَنِيْهِ شيئاً من عمله[٧]. ويروي ابن خلدون أن المعزّ تلقّى زاوي أعظم لقاء، ووصله بأرفع الصِّلات، وأنزله أرفع المنازل من الدولة، وقدَّمه على الأعمام والقرابة، وأسكنه بقصره، وأبرز الحرم للقائه[٨]. وذكر ابن الأثير أن المعز أكرم زاوي وأهله وولده وحَشَمه، فأقاموا عنده[٩]. وروى الأمير عبد الله أنه لما وصل زاوي إلى القيروان أحسَّ بعض وزراء المعز بنواياه، فرأوا أن ولاية المعز، على طفوليته، أحفُّ

---

(١) Levi-provençal Histoire de l'Espagne Musulmane (T. 2, P 331)

(٢) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٣٢).

(٣) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة الأستاذين نبيه فارس ومنير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٥ (ص ٣١٥).

(٤) سالم: المغرب الكبير، الدار القومية للطباعة والنشر، الإسكندرية، سنة ١٩٦٦ (ص ٦٤٨ - ٦٤٩)

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب (ج١ ص ٢٦٩)

(٦) المصدر نفسه (ج٣ ص ١٢٨)

(٧) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٤٥٨)

(٨) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٢٤، ٣٦٨).

(٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج٩ ص ٢٥٩)

عليهم من تولية داهية مثل زاوي، فدسُّوا إليه مَنْ سقاه السمَّ، فمات مسموماً[1]. وذكر ابن بسام، نقلاً عن ابن حيان، أن زاوي مات بالقيروان إثر إصابته بمرض الطاعون[2].

---

(١) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٥) وانظر أيضاً. Maeso Garnata al-Yahud (p 56)
(٢) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٥٨٨).

غرناطة في عهد حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد
(٤١٠ - ٤٢٩ هـ/ ١٠١٩ - ١٠٣٧ م)

أولاً: تولِّيه الحكم:

معظم الذين ترجموا له أوردوا اسمه «حبوس بن ماكسن»، وصحّفه قلة منهم؛ فرسمه ابن سعيد «حبوس بن ماكس» بسين بعد الكاف دون النون[١]. ورسمه أبو الفداء «حبوس بن مالس» بلام وسين بعد الميم [٢]. وأورده ابن الوردي والقلقشندي هكذا: حيوس بن ماكس، بياء بدل الباء في الإسم الأول، وسين بعد الكاف في الاسم الثاني[٣].

يُكْنَى أبا مسعود[٤]. ويُلَقَّب بالحاجب وهو لقب ملكي، وبسيف الدولة وهو لقب التشريف[٥]. وبرحيل زاوي بن زيري إلى إفريقية صفا الجو بغرناطة لحبوس، فثبت بها قَدَمه، واستظهر عليها بجماعة من قومه، وأقام بها مُلْكاً عظيماً شامخاً، ورأب الصدع، وحمى وطنه ورعيته من سائر البربر المجاورين له بممالك الطوائف فدامت رياسته، واستبدَّ بالملك، وتأثّل أمره، وصار من أعظم ملوك الطوائف بالأندلس[٦].

---

(١) اس سعيد: المغرب: (ج ٢ ص ١٩٤).

(٢) أبو الفداء. المختصر في أحبار البشر (ج٢ ص ١٩٨)

(٣) اس الوردي. تتمة المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ٨)؛ القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٤٢، ٢٤٨).

(٤) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٤٧٧).

(٥) دائرة المعارف الإسلامية (ح١١ ص ٢٤). ليفي - بروفنسال.

(٦) ابن عذاري· البيان المعرب (ج٣ ص ٢٦٤)، ابن الحطيب الإحاطة (ج١ ص ٤٣٢، ٤٧٧) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٩)، ابن حلدون· تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٦) و(م٦ ص ٣٦٩).

ثانياً: علاقته بمن حوله من حكام الأندلس:

١ ـ عداوته لخليفة قرطبة المعتلي يحيى بن علي بن حمود: لما أعاد أهل قرطبة المعتلي بالله يحيى بن علي بن حمود إلى سُدّة الخلافة بعد موت الخليفة المستكفي محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر سنة ٤١٦ هـ/ ١٠٢٥ م، خالفه حبوس وخرج على طاعته[1]. وظل حبوس يتحيّن الفرصة المؤاتية للانقضاض عليه؛ فما إن خرج المعتلي يوم الثلاثاء لثمانٍ خَلَوْنَ من المحرم لسنة ٤١٧ هـ/ ١٠٢٦ م إلى مالقة التي كان قد استولى عليها في العام ٤١٤ هـ/ ١٠٢٣ م ليتفقّد شؤونها، حتى أوعز حبوس إلى خيران وزهير العامريين بدخول قرطبة، وقيل: أوعز إلى خيران ومجاهد العامريين بدخولها. وكان أهل قرطبة يبغضون البربر، فلما أحسّوا بقرب جيش العامريين أقدموا على قتل من كان عندهم من البربر، فقتلوا منهم يوم الثلاثاء لعشر بقين من ربيع الأول من السنة المؤرخة حوالى الألف رجل. وفرّ وزيرا المعتلي ومُدَبِّرا شؤونه بقرطبة، فلحق أبو جعفر أحمد بن موسى بمالقة، ولحق دُوْناس بن أبي رَوْح بغرناطة، وبقي المعتلي بمالقة التي غدت منذ ذلك الحين معقله وعاصمة ملكه إلى أن قتل في المحرم من عام ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٦ م بظاهر قرمونة على يد إسماعيل ابن صاحب إشبيلية القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد[2].

٢ ـ موقفه المؤيد لخلافة إدريس بن علي بن حمود بمالقة: عندما تولّى إدريس بن علي بن حمود أمر مالقة سنة ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٦ م، بعد مقتل أخيه المعتلي يحيى بن علي بن حمود، وتلقّب بالمتأيد بالله، أسرع حلفاؤه حبوس، وزهير العامري صاحب ألمرية، ومحمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة وإستجه، إلى مبايعته، ورأوا، قبل أن يتوجّهوا إلى مالقة لتهنئته بالإمارة، أنْ يسيروا إلى إشبيلية لمقابلة صاحبها القاضي ابن عباد، فهاجموا مدينة إشبيلية وعاثوا في بسائطها وحصونها وقراها، على حدِّ قول ابن عذاري: «وفيها (أي في سنة ٤٢٧ هـ) اجتمع زهير وحبوس مع محمد بن عبد الله زعيم زناته بجهة إستجه، في يوم الأربعاء لخمسٍ خَلَوْنَ من ذي القعدة من السنة، واحتلوا يوم السبت بعده بقرمونة، ونهضوا إلى جهة

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج٩ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩).

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص١٤٣ ـ ١٤٤)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٣٦ ـ ١٣٧).

إشبيلية، واحتلوا قرية طشتانة، وقاتلوا حصن زعبوقة يوم الأحد، واحتلوا بالقلعة يوم الاثنين، وقربوا من إشبيلية يوم الثلاثاء، وأحرقوا طريانة يوم الأربعاء بعده، ثم احتلوا بحصن القصر وفيه انعقدت البيعة بينهم لإدريس بن علي بن حمود، وانصرفوا إلى قرمونة، وقد تحالفوا وتعاقدوا على القيام بدعوته»[1]. واكتفى ابن الخطيب بالإشارة إلى أن حبوس بـن ماكسن وصنهاجة وزهيراً العامري، توجهوا إلى إشبيلية، فجلّلوها نَهْباً وغارة[2].

٣ ـ **عداوته لصاحب إشبيلية القاضي ابن عباد:** كانت إشبيلية، كما مرّ معنا، أكبر خطر عـلى غـرناطـة، لـذلك تحالف حبوس مع مالقة وقرمونة ضدها. وانطلاقاً من هذا التحالف، فقد بادر حبوس إلى إغاثة محمد بن عبد الله البِرْزالي، صاحب قرمونة وإستجه، ومعه بنو حمود أصحاب مالقة، عندما هاجم قاضي إشبيلية قرمونة عام ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م وافتتحها وحاصر إستجه، فأمدّه حبوس وبنو حمود بجيش أوقع بقاضي إشبيلية هزيمة فادحة واستردّ قرمونة وأوغل في أراضي إشبيلية وأثخن فيها[3]. وروى ابن بسام وابن عذاري، نقلاً عن ابن حيان، أن حبوس بن ماكسن كان عدوّاً لمحمد بـن عبد الله البرْزالي، وقد خلَّف هذه العداوةَ في عَقِبِهِ، فاستمرت بين ابنه باديس بـن حبوس وبين البِرْزالي، وأنَّ زهيراً العامري قد أضرم بَعْدُ نارَها بتمادي تمسّكه بالبرزالي[4].

٤ ـ **تحالفه مع زهير العامري صاحب ألمرية:** كانت تربط حبوس بن ماكس بزهير العامري صاحب ألمرية محالفة، وقد أشار إليها كل من ابن بسام وابن سعيد وابن عذاري وابن الخطيب[5]. ويـروي ابن الأثير أن قـاضي إشبيلية ومعـه رؤساء الأندلس، أجمعوا على مبايعة هشام المؤيد بإشبيلية، وخطبوا له، وجُدِّدَتْ بيعته في المحرَّم من سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م. ولما امتنع زهير العامري عن مبايعة هشام أرسل

---

(١) ابن عذاري البيان المغرب (ج٣ ص ١٩٠ ـ ١٩١)

(٢) ابن الخطيب أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٤٠)

(٣) أشباخ. تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٣٢، ٣٦)، Prieto Y Vives, Los Reyes de Taifas (P 22)

(٤) ابن بسام الذخيرة (ق١ ص ٦٥٦)، ابن عذاري البيان المغرب (ج٣ ص ١٦٩).

(٥) راجع في ذلك الذخيرة لابن بسام (ق١ ص ٦٥٧) والمعرب لابن سعيد (ج٢ ص ١٩٤) والبيان المغرب لابن عذاري (ج٣ ص ١٩١) وأعمال الأعلام لابن الخطيب (القسم الثاني ص ١٤٠).

القاضي جيشاً لمقاتلته، فاستنجد زهير بحبوس فأنجده وسار إليه بجيشه، فاضطر القاضي إلى العودة بعسكره إلى إشبيلية، ولم يكن بين العسكرين قتال، فعاد حبوس بدوره إلى بلاده، وأقام زهير في بياسة[1] وأشار محمد أبو الفضل إلى تلك الحادثة، ولكنه جعل بطلها باديس بن حبوس بدل أبيه حبوس[2]. ونشير هنا إلى أن هشاماً المؤيد اختفى أثره عام ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م، وأغلب الظن أنه قتل في العام المذكور، وأن الشخص الذي أجمع قاضي إشبيلية وجماعته على مبايعته هو خلف الحصري، وقد ظهر بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام، وادّعى أنه هشام، فخُطِب له على منابر الأندلس في أوقات شتى[3].

ثالثاً ـ أعماله الإدراية والعمرانية:

قسّم حبوس البلاد على أقاربه وبني عمه، وأمر كلَّ قائد منهم أنْ يكون عَسْكَرُهُ أكثر عدداً وأجودَ خبرة، فانفرد كل واحد منهم بعسكره على الجهة التي تولّاها، وكان يستشيرهم في كل مسألة، فكانت له بهم الصولة على الناس والاستطالة على العدو[4]. يروي ابن الخطيب أن المكانة الكبيرة التي تبوّأها إسماعيل بن نغرالة اليهودي في عهد حبوس، ككاتبٍ له ووزير أول، مَكَّنَت اليهود من التصرّف بكثير من الشؤون الإدراية والمالية؛ لأن إسماعيل كان يختار الموظفين منهم[5]. وهكذا نظم حبوس جيشاً حمى به بلاده من غارات مجاوريه ملوك الطوائف وأطماعهم، وضبط النظام والأمن[6]. وفي أيامه اتسع نَظَرُ غرناطة فصارت قبرة إضافة إلى جيان ضمن أعمال غرناطة[7].

---

(١) ابن الأثير. الكامل في التاريخ (ج٩ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦) وانظر أيضاً دوزي ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة الأستاذ كامل كيلاني، القاهرة ١٩٣٣ (ص ٢٣)؛

Dozy Histoire des Musulmans d'Espagne(T. 3, P 17)

(٢) أبو الفضل: تاريخ مدينة المرية الإسلامية (ص ١١٠)

(٣) انظر في ذلك ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي (ج٢ ص ٩٧ ـ ٩٨)، ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٤٢ ـ ١٤٣) وسوف نشير إلى هذا الأمر لاحقاً، فانظره.

(٤) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٦).

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٣٨)

(٦) الزركلي الأعلام (ج٢ ص ٢٩١).

(٧) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢٦٤)

وأكمل حبوس بناء مدينة غرناطة وأقام له فيها بلاطاً فخماً[1] . وروى المقري أن حبوساً بنى مدينة غـرناطـة وقصبتها وأسـوارها[2] . واكتفى ابن بسـام بالإشـارة إلى أنَّ حبوساً، عندما ولي غرناطة، صعد إلى قصبتها فضبطها وحطَّ رحله عليها[3] .

رابعاً ـ وزراؤه وكُتّابه :

من وزراء حبوس، أحمد بن محمد بن أحمد بن يزيد الهمداني اللخمي، وهو من أهـل غربـاطة، وكـان فقيهاً جليـلاً، وكانت وفـاته بـإلبيرة قبـل عام ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨ م[4] . كذلك تولّى الوزارة في عهده عبد الملك بن علي بن هذيل الفـزاري وأخوه عبد الله، ثم تولّيا القيادة بثغور الأندلس وقهرا ما جاورهما من العدو إلى أن استشهدا[5] . وأكثر وزرائه وكُتّابه شهرةً هو إسماعيل بن يوسف بن نغرالة اليهودي .

وقد اختلف الذين ترجموا لإسماعيل في رسم اسمه وشهرته؛ فأسماه ابن حزم أشموال بـن يوسف اللاوي، المعروف بابن النغرال[6] ، ثم قال: ابن النغريلة[7] وذكـره صاعـد الأندلسي في بـاب العلوم في بني إسرائيـل هكذا: أبـو إبراهيم بن إسماعيل بن يوسف، المعروف بابن الغزال[8] . وجعل الأمير عبد الله وابن الخطيب عائلته نَغْرالّة[9] .وجعلها ابن بسام النَّغْرِيْلّي[10] ،وجعلها ابن سعيد نَغْرِلّة[11] . وكتبها ابن عذاري :نغزالة [12] . وهي عند ابن خلدون: نَغْزَلَة[13] ، وعند دوزي : نغدله[14] ،

(١) عنان: دول الطوائف (ص ١٢٤).

(٢) المقري· نفح الطيب (ح١ ص ١٥٠).

(٣) ابن بسام الذخيرة (ق١ ص ٤٥٩)

(٤) ابن الخطيب· الإحاطة (ح١ ص ١٥٠).

(٥) المصدر نفسه (ج٣ ص ٥٣٨).

(٦) ابن حزم الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل، المطبعة الأدبية بالقاهرة، ١٣١٧ هـ (ح١ ص ١٥٢)

(٧) نفسه. رسائل ابن حزم (ج٣ ص ٤١).

(٨) صاعد الأندلسي. طبقات الأمم (ص ١٣٦).

(٩) ابن بلقين: مـذكرات الأميـر عبد الله (ص ٣٦)؛ ابن الخـطيب· الإحاطة (ح١ ص ٤٣٤) وأعمـال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠).

(١٠) ابن بسام الذخيرة (ق١ ص ٧٦١)

(١١) ابن سعيد· المغرب (ج٢ ص ١١٥).

(١٢) ابن عذاري البيان المغرب (ج٣ ص ٢٦٤).

(١٣) ابن خلدون تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٦).

(١٤) دوزي. ملوك الطوائف (ص ٣٩).

وعند آنخل بالنثيا: النَّغْدِلّة [1]. وأغلب الظن أن هذا التباين في رسم شهرته عائد إلى طبيعة النطق أو إلى تصحيف الناسخ أو المحقّق أو المترجم.

يكنى أبا إبراهيم[2]، ويلقب الناغيد أو النغيد أو الناغيد، أو الناغد، أو الناجد، وهو لقب خاص بالأمراء، وقد منحه إياه يهود غرناطة في عام ٤١٨ هـ/ ١٠٢٧ م، ويعني بالعربية المُدَبِّر أو الأمير، أو عميد القوم، أو زعيم القبيلة، أو القَيِّم على المعبد، أو رئيس القصر، أو قائد الجيش[3].

ولد إسماعيل بماردة سنة ٣٨٣ هـ/ ٩٩٣ م[4]. وقيل: ولد بقرطبة بعد أن هاجر إليها أبوه قادماً من ماردة[5]. ودرس التلمود بقرطبة على يد هانوخ الرئيس الروحي للجالية اليهودية وتعمّق فيه، ثم انصرف إلى دراسة اللغة العربية وآدابها حتى أصبح يُتْقِنُ الكتابة البليغة بالعربية. كما تعلم لغات أخرى، وتثقّف بأكثر العلوم التي كانت معروفة آنذاك[6]. وعمل بقرطبة في تجارة العملة كبدّال صغير مدة طويلة[7].

وعندما عاد الخليفة المستعين إلى سُدّة الخلافة بقرطبة للمرة الثانية في عام ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م بمعاضدة البربر، لاقى اليهود معاملات سيئة من قبل البربر، فأُجْبِرَتْ عائلاتٌ يهودية على الهجرة إلى مالقة وغرناطة وغيرهما من المدن، فقدم إسماعيل إلى مالقة سنة ٤٠٤ هـ/ ١٠١٣ م، وهو ابن عشرين سنة، واستقرَّ بها،

---

(١) بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الإسبانية الدكتور حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٥ (ص ١٥، ١٠٧).

(٢) صاعد الأندلسي. طبقات الأمم (ص ١٣٦)؛ ابن بلقين· مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٠) وانظر أيضاً:

Maeso. Manual de historia de la literature hebrea, Madrid, 1960 (P. 469 - 475).

(٣) انظر في ذلك: ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٧٦٧)، ابن حزم: رسائل ابن حزم (ج٣ ص ٨ من مقدمة المحقق)، دائرة المعارف الإسلامية (ج١١ ص ٢٤)؛ دوزي. ملوك الطوائف (ص ٤٥)، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٣١٥).

Maeso Garnata al-Yahud (P 75), Maeso· Manual (P 473).

(٤) Maeso Manual (P. 469), Maeso· Garnata al-Yahud (P. 58).

(٥) دوزي: ملوك الطوائف (٣٩)،

Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne (T 3, P 18) Maeso. Manual (P 469)

(٦) المراجع نفسها.

(٧) دوزي: ملوك الطوائف (ص ٣٩)

وأقام فيها حانوتاً للعِطارة بالقرب من قصر أبي القاسم ابن العريف، وزير حبوس، وتابع عمله في تجارة العملة وكان يقوم إلى جانب ذلك بكتابة الرسائل للذين يعملون في خدمة القصر، فأعجبت رسائله الوزير المذكور لبلاغتها، فقرّبه إليه، واصطحبه معه عند عودته إلى غرناطة حيث عيّنه كاتباً ومستشاراً له، فدخل إسماعيل بذلك في خدمة البلاط الغرناطي، ولمّا مرض ابن العريف وأحسّ بدنوِّ الأجل نَصَح أميره حبوساً بأنْ يتّخذ إسماعيل وزيراً له، فعمل حبوس بنصيحة ابن العريف إثر موته، فأحلَّ إسماعيلَ بقصره محل ابن العريف الراحل، فاتّخذه كاتبه وناصحه ومستشاره ووزيراً أول لمملكته[1].

ولم يُشِر الأميرُ عبد الله إلى وصول إسماعيل إلى قصر حبوس عن طريق ابن العريف، فروى أنَّ أبا إبراهيم اليهودي أصبح كاتباً بين يَدَي أبي العباس، الكاتب الأعلى لحبوس، ولمّا توفي أبو العباس ترك بَنِيْنَ له، فاستعمل حبوس أكبرهم مكان أبيه. وكان في الابن صَبْوَةٌ لا يرتبط معها إلى خدمة المملكة، فمكر به اليهودي، ولزم خدمة حبوس حتى تمكّن منه وأصبحت شؤون ديوان الكتابة العليا في يده: «وصار، متى غاب ولد أبي العباس، يحضر أبو إبراهيم، فيسأل عنه حبوس، فيقول معتذراً في الظاهر ومُطَالِباً له في لحن القول: ولدُ أبي العباس، كما ترى، صَبيٌّ يُؤْثِرُ الراحة، وأنتَ جديرٌ بالإغضاء عليه وإقامة عُذْرِهِ، وأنا عبده، أنوب منابه، فَمُرْني بما شِئْتِ، يتهيأ ذلك. فلم يزل على هذا أبداً حتى تمكّن وظهرت خدمته وسَعْيُهُ في ضَمِّ الأموال»[2].

وبدوره يشير محمد عبد الله عنان إلى رواية الأمير عبد الله، ولكنه يخلط بين إسماعيل وابنه يوسف فيقول: «وكان لأبي العباس، كاتبِ حبوس، مساعدٌ من اليهود يُدْعَى أبو إبراهيم يوسف بن إسماعيل بن نغرالة، كان يتولى جمع المال، وكان رجلاً متواضعاً حسن السيرة، فلما توفي أبو العباس تقدَّم مكانه، وعلت منزلته»[3]. واكتفى

(١) ابن حزم. رسائل ابن حزم (ج٣ ص٨ - ٩، ١٧، من مقدمة المحقق)، دوزي. ملوك الطوائف (ص ٣٩ - ٤١)؛

Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne (T 3, P 18 - 19), Macso: Manual (P 469 - 470), Macso, Garnata al-Yahud (P 52 - 53, 59).

(٢) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٠ - ٣١).

(٣) عنان دول الطوائف (ص ١٢٥).

ابن الخطيب بالإشارة إلى أن حبوساً اتّخذ إسماعيلَ اليهوديَّ كاتباً ووزيراً له[1]. وحصر ابن خلدون وظيفة إسماعيل بالكتابة[2].

وهكذا لم يُسْنِدْ حبوس منصب الوزير الأول إلى رجل من البربر أو العرب، وأسنده إلى رجل من اليهود هو إسماعيل ابن نغرالة، وذلك لعدة أسباب؛ أولها جهل البربر بالثقافة وعجزهم عن النطق الفصيح بالعربية، وكونهم لا يُحْسِنون إلاّ القتال والاستيلاء على المدن ونَهْب ما فيها من الأموال والذخائر. وثانيها عدم ثقة حبوس بالعرب؛ للخصومة القديمة القائمة بين البربر والعرب والتي ظلت جذورها متأصّلة بين الفريقين حتى أيام حبوس؛ بحيث كان العرب يكرهون حبوساً، وكان حبوس بالتالي لا يأمن جانبهم. وثالثها كثرة اليهود بغرناطة، بحيث كانوا يشكّلون شريحة هامة من شرائح مجتمع غرناطة. ورابعها أنه توفّر لإسماعيل ما كان يُطْلَبُ من الوزير، وهو كثرة التعلم، ويُسْرُ كتابة الرسائل في الحال إلى سائر المقاطعات، وامتلاك ناصية الأدب والبلاغة، واتساع المعارف، والتحلّي بالرصانة والكياسة. وخامسها أن علماء العرب أنفسهم شهدوا لإسماعيل بالاستبحار في العلوم، وارتاحوا إلى هذا الاختيار ووافقوا عليه[3].

وإذا كان مسلمو الأندلس قد عُرفوا بتسامحهم الديني مع العناصر الأندلسية غير المسلمة، فإنهم لم يصلوا إلى حَدٍّ أنْ تولّى رجل يهودي منصب وزير أول إلاّ في عهد بني زيري بغرناطة؛ فحسداي بن شبروت اليهودي، رغم حظوته عند الخليفة عبد الرحمن الناصر، لم يصل إلى هذا المنصب الرفيع الذي وصل إليه إسماعيل[4].

وهكذا وَثِقَ حبوس بإسماعيل كل الثقة[5]. وقد استغل إسماعيل هذه الثقة

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٣٤) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠)

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٦).

(٣) انظر في ذلك ابن حزم: رسائل ابن حزم (ج٣ ص ٩، من مقدمة المحقق)؛ دوزي: ملوك الطوائف (ص ٤١ - ٤٤)؛

Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne (T 3, P 19), Maeso. Manual (P 470 - 471), Maeso Garnata al-Yahud (P 53 - 59), Pérès La Poésie Andalouse (P 268)

(٤) راجع دوزي: ملوك الطوائف (ص ٤١)؛

G Maeso Manual (P 470); G Maeso: Garnata al-Yahud (P 53 - 59), Pérès La Poésie Andalouse (P 268), Prieto Y vives Los Reyes de Taifas (P 29)

(٥) Pérès La Poésie Andalouse (P 270)

لينقضَّ على مقدّرات الحكم كلها[1]. وقد عَدَّ المستشرقُ الإسباني إميليـو غرسيـة غومس عهد بني زيري عهد استسلام لليهود[2]. وأضاف: إنَّ عدم ثقـة بني زيري بالعرب جعلهم يستسلمون لليهود[3].

وكان إسماعيل من أهل الأدب والشعر[4]. وعُدَّ من أكبـر شعراء اليهـود في الأندلس[5]. وكان يُكْرِم الشعراء ورجال الأدب الذين كانوا بدورهم يُثْنُوْنَ عليه ولا يقصّـرون في مدحـه[6]. وله ديـوان شعر يحتـوي على ما يقـرب من ألفي قصيدة ومقطوعة، تتناول الموضوعات الدينية والدنيوية كالغزل والخمر والمـديح والهجـاء ووصف المعارك[7]. وبرزت في ظله بغرناطة كوكبة من الشعراء والكتاب اليهود[8].

وللمنزلة الكبيرة التي بلغها بغرناطة كان أدباء الأندلس وشعراؤها يتقرّبون إليه بالمدائح نثراً وشعـراً؛ يذكـر ابن بسام أنَّ الأديب أبـا أحمد عبـد العزيـز بن خيرة القرطبي، المعروف بالمُنْفَتل، بعث برقعة إلى إسماعيل يذكر فيها فقره ورحلته عن قرطبة، ويُطْنِبُ فيها في الثناء على إسماعيل رجاءَ نَـوَالِهِ، فيقـول: «إسماعيـل بن يوسف، فَتىً كَرُمَ خالاً وعَمّا، وشَرَحَ من المَجْدِ ما كان مُعَمَّى، قُسّاً فصاحةً، وكَعْباً سماحةً، ولُقْمانَ عِلْماً، والأحنفَ حِلْماً»[9]. ثم يختم المنفتل رقعته النثرية بعشرة أبيات من الشعر[10]. كذلك له فيه قصيدة طويلة، أورد منها ابنُ بسام ستة وعشرين بيتاً، نتجتزىء منها هذا البيت[11]:

---

(١) Huici Miranda Encyclopédie de l'Islam (T II, P 1036)

(٢) García Gómez Poemas Arábigoandaluces (P.32).

(٣) Garcia Gómez. Cinco Poetas Musulmanes, Madrid, 1959 (P 97)

(٤) ابن عداري: البيان المغرب (ج ٣ ص٢٦٤)

(٥) Gonzalo Maeso Manual (P. 473)

(٦) دوزي: ملوك الطوائف (ص ٤٣ ـ ٤٤).

(٧) ابن حزم: رسائل ابن حزم (ج٣ ص ١٠، من مقدمة المحقق)؛ Gonzalo Maeso. Manual (P. 472)

(٨) Gonzalo Maeso Garnata al-Yahud (P 75)

(٩) ابن بسام: الذخيرة. (ق١ ص ٧٦٢). وهنا يشير المنفتل إلى قُسّ بن ساعدة الإيـادي المشهـور بالفصاحة، وإلى كعب بن مامة المشهور بالجُوْد، وإلى لقمان المعروف بعمله، والأحنف المشهـور بتوقّد ذهنه.

(١٠) الأبيات في المصدر السابق (ص ٧٦٢ ـ ٧٦٣).

(١١) المصدر نفسه (ص ٧٦٤). وابن يوسف هنا هو إسماعيل المترجم له، ويتمثّل غلوّ الشاعر هنا بجعل الممدوح أجمل خلق الله من جهة، وأكثر إشراقاً من الشمس والقمر من جهة أخرى

ومـا آكْتَحَلَتْ عَيْني بمثلِ ابن يـوسفٍ ولسْتُ أحاشي الشمسَ مِنْ ذا ولا البَدْرا

وقد تأسّف ابنُ بسام لموقف المنفتل ومدحه لليهودي، فقال: «وهذا القـصيد اندرج له من الغلوِّ فيه، ما لا أُثْبته ولا أرويه، وأَبْعَدَ الله المنفتلَ، فيما نظم فيه وفَصَّل، وقَبَّحه ما أَمَّل»(١). وأضاف: «فقبّح الله هذا (أي المنفتل) مَكْسَباً، وأبْعَدَ من مذهبه مَذْهباً، تعلّق به سَبَباً، فما أدري مِنْ أي شؤونٍ هذا المُدِلُّ بذنبه، المجترىءُ على ربِّه، أعَجَـبُ: أَلِتَفْضِيلِ هذا اليهودي المأفونِ على الأنبياء والمرسلين، أم خلعه إليه الدنيا والدين؟ حَشَرَهُ الله تحت لوائه، ولا أدخله الجنةَ إلاَّ بفضل اعتنائه»(٢).

وكان إسماعيل أعلم اليهود وأَجْدَلَهُم(٣). وكان عنده من العلم بشريعة اليهود والدفاع عنها ما لم يكن عند أحد من يهود الأندلس قبله(٤). وقد نشر مقدمة للتلمود باللغة العبرية، تنـاولت التلمود ومصـطلحاتـه في اثنين وعشرين جـزءاً(٥). وارتقى بالدراسات التلموديـة في الأندلس إلى أوج بعيـد(٦). وله رسـالة يـأخذ فيهـا على أبي مروان بن جناح اليهودي في نحو اللغة العبرية(٧). وله في شبابه كتاب هاجم فيه القرآن الكريم وبعض ما جاء به الإسلام، وقد ضاع هذا الكتاب ولم نعثر عليه حتى الآن(٨). وكان يجيد إلى جانب العبرية، العربية والآرامية، واللاتينية، والبـربريـة، والرومنثية لغة الإسبان العامية(٩). وشغف باللسان العربي وقرأ كتبه، وطالع أصوله، وصار يكتب عنه بالعربية(١٠). وله بالعربية رسالة في النحو بعنوان «كتاب الاستغناء»، لم يعثر عليه(١١). وكان ماهـراً بالخط، وخـاصة بـالخط العربي(١٢). وكـان عالمـاً

(١) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٧٦٤)

(٢) المصدر نفسه (ص ٧٦٥).

(٣) ابن حزم: الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل (ج١ ص ١٥٢).

(٤) صاعد الأندلسي· طبقات الأمم (ص ١٣٦).

(٥) دوزي: ملوك الطوائف (ص ٤٣).

(٦) بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ١٥ ـ ١٠٧).

(٧) المرجع نفسه (ص ٤٩٢)

(٨) Gonzalo Maeso· Manual (P 473)

(٩) Ibidem (P 470)

(١٠) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٣٨).

(١١) Gonzalo Maeso. Manual (P. 473)

(١٢) Ibidem (P. 470).

بالرياضيات، والهندسة، والنجوم، والمنطق، والفلسفة، والنحو، وفاق نظراءه في الجدل [١]. وكان يملك مكتبة خاصة في غاية الروعة [٢].

وقد حصر ابن الخطيب صفات إسماعيل بسعة العلم، والحلم، والفهم، والذكاء، والدماثة، والدهاء، والمكر، والمعرفة، ومداراة العدو، وقلة الكلام، والبعد عن السِّباب، وديمومة التفكر، والرغبة في جمع الكتب[٣]. وأغلب الظن أن تلك الصفات هي التي ساعدت صاحبها على أن يستحوذ على عقل وإحساس كل من حبوس وباديس. وترجم ابن سعيد لإسماعيل، فوسم به صفات هي بالحقيقة لأبيه يوسف بن إسماعيل، وهي الاستهزاء بالمسلمين، والسعي إلى نظم القرآن الكريم في أشعار وموشحات يُغَنَّى بها. وأورد له شعراً نظم فيه القرآن وهو قوله[٤]:

نَقَشْتُ في الخَدِّ سَطْراً   من كتابِ اللهِ موزونْ
لن تنالوا البِرَّ حتى   تُنْفِقوا مما تُحِبُّونْ

وأضاف: آل أمره إلى أن قتله صنهاجة بغير أمر الملك، ونهبوا دُوْر اليهود، وقتلوا أعداداً كبيرة منهم[٥].

ومن كُتّاب حبوس أبو العباس، وقد انفرد الأمير عبد الله بذكره دون أن يشير إلى اسمه وشهرته، فذكر أن أبا العباس كان الكاتب الأعلى لحبوس، وأنه كان يُؤْثِر يَدِّيْر بن حُبَاسة بن ماكْسَن، ويميل إلى أن يكون يَدِّيْرُ وليَّ عهدِ حبوس بدل باديس بن حبوس، وسعى مع بعض شيوخ صنهاجة في إقناع حبوس بالأمر، ولكن محاولته باءت بالفشل[٦].

ومن كُتّابه أيضاً أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عامر البِزِلْياني المالقي، وكان

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٣٨ - ٤٣٩)؛ دوزي: ملوك الطوائف (ص ٤٣)؛
Dozy Histoire des Musulmans d'Espagne (T 3, P 20), Maeso, Manual (P 472); Maeso, Garnata al-Yahud (P 59)
(٢) Gonzalo Maeso Manual (P 474)
(٣) ابن الخطيب الإحاطة (ج١ ص ٤٣٨ - ٤٣٩)
(٤) ابن سعيد. المغرب (ج٢ ص ١١٤).
(٥) المصدر نفسه.
(٦) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٧ - ٢٩).

أحد شيوخ الكُتّاب وجهابذة أهل الأدب، أصله من مالقة، وقد التحق بغرناطة وصار في خدمة حبوس وابنه باديس من بعده. ثم التحق، وهو كهل، بالمعتضد بن عباد، صاحب إشبيلية، فاستكتبه وصار وزير ابنه إسماعيل بن المعتضد وصاحبه وقد قتله المعتضد سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م في اليوم الذي قَتَلَ فيه ابنه إسماعيل؛ لاشتراكه في المؤامرة التي دَبَّرها إسماعيل ضدَّ أبيه المعتضد بقصد الاستيلاء على عرش إشبيلية [١]

خامساً ـ صفاته ونهايته:

ليس غريباً أن يُشيد ابن بلقين بخلال حبوس، وهو جَدُّ أبيه بلقين، فحصر فيه كل الصفات الحميدة من عدل وتعفّف وحسن سيرة، ومحبة للناس [٢] أما معاصره ابن حيان الذي يعرف بالأمانة والثقة، فقد وَسَمَ حبوساً بصفات متناقضة، وهي حب الأدب، والوقار والحلم، وقلة الكلام، وقلة الضحك، وكثرة التفكير، والشجاعة، والفروسية، وكمال الرجولية، والدهاء، والتكبر، والحيلة، والفظاظة، وشدة الغضب [٣]. واكتفى ابن الخطيب بالإشارة إلى حزم حبوس وشجاعته ودهائه [٤]. ورأى المستشرق الإسباني مايسو أن حبوساً جمع الغباوة إلى الشجاعة والقسوة وشدة البطش [٥].

وعن وفاته نقول: لقد أجمع معظم الذين ترجموا له على أنه توفي في رمضان من عام ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م [٦]. ويتردّد ابن الخطيب في تحديد السنة التي توفي فيها

---

(١) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٦٢٤) و (ق٣ ص ١٤٦ ـ ١٤٧)؛ ابن سعيد: المغرب (ج١ ص ٤٤٤).

(٢) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٥ ـ ٢٦)

(٣) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٤٦٠ ـ ٤٦١)، ابن سعيد: المغرب (ج٢ ص ١٠٧).

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٤٠، ٤٣٢ ـ ٤٣٣) واللمحة البدرية (ص ٣١).

(٥) Gonzalo Maeso: Garnata al-Yahud (P 59 - 60)

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج٩ ص ٢٨٦ ـ ٢٩٢)؛ أبو الفداء. المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ١٩٨)، الذهبي: سِيَرُ أعلام النبلاء (ج ١٨ ص ٥٩٢)؛ ابن الوردي. تتمة المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ٨)؛ ابن خلدون تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٦) و (م٦ ص ٣٦٩)، القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٤٢، ٢٤٨)، وانظر أيضاً.

H. Terrasse. Encyclopédie de l'Islam (t. II, P 1038); Dozy. Histoire des Musulmans d'Espagne(T 3, P. 24), Prieto Y Vives: Los Reyes de Taifas (P. 28), Maeso. Garnata Al-Yahud (P 56).

حبـوس، فيذكـر مرة أنـه توفي عـام ٤٢٩ هـ، ويقول مـرة أخرى إنـه تـوفي سنـة ٤٢٨ هـ[١]. وحدّد ابن عذاري وفاة حبوس في سنة ٤٢٨ هـ[٢].

وقد أعقب حبوس ولدين هما باديس البكر، وبلقين الأصغر سناً[٣]

---

(١) في الإحـاطة (ج١ ص ١٤٠) وفي اللمحـة البـدريـة (ص ٣١) وفي أعمـال الأعـلام (القسم الثـاني ص ٢٢٩): وفاته سنة ٤٢٩ هـ. وفي الإحاطة (ج١ ص ٤٧٧)· وفاته سنة ٤٢٨ هـ.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ١٩١ - ٢٦٤)

(٣) دوزي. ملوك الطوائف (٥٠ - ٥١)؛ Dozy· Histoire des Musulmans d'Espagne (T. 3, P 24); Prieto Y Vives Los Reyes de Taifas (p 32)

غرناطة في عهد باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد

(٤٢٩ - ٤٦٧ هـ/ ١٠٣٧ - ١٠٧٤ م)

أولاً - تولِّيه الحكم:

معظم الذين ترجموا له أوردوا اسمه «باديس بن حبوس»، وصحّفه بعضهم فرسموه «باديس بن حيوس» بياء بعد الحاء في الاسم الثاني[١]. يُكْنَى أبا مناد[٢]، وقيل أبا مسعود[٣]. ويلقّب بالحاجب المظفر بالله الناصر لدين الله[٤]، وقيل بالحاجب المظفر[٥]، وقيل بالمظفر بالله الناصر لدين الله[٦]، وقيل بالمظفر[٧]

وقد ولي عرش غرناطة بعد موت أبيه، بتسليمٍ له من شقيقه الأصغر بلقين بن حبوس دون منازعة، وبمساعدة وزير أبيه حبوس، إسماعيل ابن النغرالة[٨]. نشير هنا إلى أن باديس كان عند موت أبيه حبوس قد اختصَّ أخاه بلقين بكل ما شاء وفَضَّله في

---

(١) الأزدي: بدائع البدائه، تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠ (ص ٣٦٦)؛ ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر (ج١ ص ٤٩٩)؛ ابن الخطيب الإحاطة (ج٤ ص ٣٤١).

(٢) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص٦٦٢)؛ ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٣٥) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠)؛ Dozy: Recherches (T. I, Appendice LXI).

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٣٥)؛ النباهي: المرقبة العليا (ص ٩١)

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٣٥).

(٥) نفسه: اللمحة البدرية (ص ٣١)؛ النباهي. المرقبة العليا (ص ٩١)

(٦) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠ - ٢٣٣).

(٧) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١١، ٢٧، ٣٦، ٥٥)؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٦٩)؛ القلقشندي. صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٤٨)

(٨) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢٦٤)؛ ابن الخطيب أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠).

الميراث على نفسه[1]. ويروي ابن الخطيب أن حبوساً مات، فولي بعده حفيده عبد الله بن بلكين بن باديس[2].

وقد لاقى باديس مصاعب في بداية حكمه، فاوأه على سُدّة الحكم ابن عمه يَدَّيْر بن حباسة بن ماكسن، بالاتفاق مع بعض شيوخ صنهاجة؛ يروي ابن بلقين أنَّ يَدَّيْر بن حباسة بن ماكسن كان أثير عمه حبوس، إذ كان حبوس يفضّله على ولديه باديس البكر وبلقين الأصغر سنّاً، لِمَا كان يرى فيه من نباهة وشغف بقراءة الكتب ومجالسة الفقهاء، وكان يعتمد عليه في كثير من المَهَمّات. كذلك كان بعض صنهاجة يُؤْثِرون يَدَّيْر على وَلَدَيْ حبوس، وأفضى بهم الأمر أنْ فضّلوه أن يكون وليّاً للعهد على ابن عمه باديس؛ خوفاً من أن يُسيء إليهم باديس إن صار الأمر إليه[3]. وبتدبير أبي العباس، كاتبِ حبوس وأثير يَدَّيْر، كما مَرَّ معنا عند حديثنا عن الكاتب المذكور، انْتُدِبَ بعضُ شيوخ صنهاجة إلى حبوس على أن يُوَلِّي يَدَّيْرَ أمر غرناطة ويكون أميرها بعد موته. وكان يَدَّيْر يُقَرِّب إليه هذا الكاتب ويفضله على غيره، لِمَا كان يرى فيه من تواضع وحسن مشاركة في خطة الكتابة[4]. وعارضهم في ذلك شيخ من صنهاجة يُعْرَفُ بِفِرْقان - كان باديس قد اصطنعه واستماله - مُحْتَجّاً بأنَّ الولاية لا تصلح إلّا لباديس، وأنه بمجرد موت حبوس سَيُقْدِمُ يَدَّيْرُ على قتل باديس، فعمل حبوس برأي فِرْقان، وجعل ابنه باديسَ وليّاً للأمر، فوقع من ذلك في نفس يَدَّيْر عداوة مُجَدَّدة لباديس، وعمل منذ ذلك الوقت على خلافه؛ فشتَّت أقواماً من صنهاجة حتى صاروا معه، ووالى بلقينَ شقيقَ باديس، وأخذ يحرِّضه على قتل أخيه باديس[5]. وقد أشار الأمير عبد الله إلى مواجهة باديس في بداية حكمه لبعض شيوخ صنهاجة، لتآمرهم عليه مع يَدَّيْر، فقال: «وكان باديس بن حبوس، جَدُّنا رحمه الله، كبيرَ النَّفْس، عالي الهمّة، حادّ المزاج، لا يستطيع أحد أنْ يُمَخْرِقَ عليه في أمر من الأمور، ولا ينكسر لأحد من بني عمِّه... وكان ذلك كلُّه منه في حزم ورويّة، ولا يُفْسِدْ جانباً حتى يُصْلِحَ آخرَ، ويضرب بعضهم ببعض، فوجستْ أنفسُ البعض منه، وأُشْرِبوا هيبته

---

(1) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٥)

(2) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٤٠)

(3) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٧).

(4) المصدر نفسه

(5) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٨ - ٢٩).

ومخافته، وتوقعوا، إنْ صار الأمرُ إليه، أنْ يُجَرِّبهم علي خلاف ما عهدوه من أبي
فأضمر أكثرُهُم له الغوائلَ وآثروا عليه يَدِّيْرَ المذكور، وتَمَنّوا بولايته؛ كل ذلك لشقا
وتمام أيام سعادتهم»[1] . وذكر السيوطي أن الكاتب أبا الفتوح ثـابت بن محـ
الجرجاني كان من مشجِّعي يَدّيْر ومحرِّضيه على القيام على ابن عمه باديس[2].

وكان هؤلاء المتآمرون قد شاركوا في مؤامرتهم إسماعيلَ ابن نغرالة اليهو
الذي كان باديس، عند تولّيه الحكمَ، قد أبقاه كوزير أول كما كان في عهد أب
حبوس، فتظاهر إسماعيل بالقبـول وتقدَّمَ إلى بـاديس وأخبره بـالأمر ليسمـع بنف
مشاوراتهم من مكان قريب عند اجتماعهم في منزله. ولما اجتمعوا يرومون قتل بادي
وإقامة يَدِّيْرَ مكانه، كان باديس قد سمع كل ما جرى في ذلك الاجتماع، ومنذ ذل
الوقت أخذ باديسُ يثقُ باليهودي ويشاوره في أكثر أموره مع بني عمه. واتفق المتآمر
على قتل باديس عند خروجه من أحد بابَيْ مُنْية الرَّمْلة، إذ كانت عادةُ باديس الخرو
إلى ذلك الموضـع للتنزه، وتسلّحـوا بالـدروع من تحت الثياب. واكتشف أمرهم
فِرْقانٌ، فأفضى بالأمر إلى باديس وأشار عليه بالخروج من الباب الآخر، فخرج م
يجدُّ في السير إلى قصبته، وهم لا يشعرون. وعندما افتضح أمرهم فرّوا إلى إشبيليا.
وعلى رأسهم يَدِّيْرُ والجرجاني، يطلبون النجاة بأنفسهم. أما شقيق باديس، بلقينُ بن
حبوس، فقد قدم على أخيه باديس يسأله العفو عمّا أدخله فيه يَدِّيْر، وأعلمه أنَّ يَدِّيْرَ
خرج عن غرناطة وصار في حَيِّز الأعداء، فصفح باديسُ عنه، وهمَّ بقتل أزيد من مائتي
رجل من صنهاجة كانوا قد إشتركوا في تلك المؤامرة، وشاور في الأمر كاتبه اليهودي،
فـأشار عليـه بعدم قتلهم؛ لأنهم رجـاله وجُنْـده وأوْلَى به أن يـلاطفهم، ويغمرهم
بالعطايا، فعمل بنصيحته، واستعان ببعضهم على بعض، وضرب الابن بأبيه، والأخ
بأخيه. ثم ظفر باديسُ بِيَدِّيْر وحبسه، وقيل: مات يَدِّيْرُ حَتْفَ أنفه، وبموته استتبَّ الأمر
لباديس وصفا له الجـو[3]. ولما علم الجرجاني أن باديس أمر بالقبض على زوجته
وأولاده ونَفْيهم إلى المُنَكَّب ـ وكانت زوجته أندلسية بارعة الحسن ـ هرع إلى باديس
يستأمنه ويستجير به، فسمح له باديس بالدخول إلى غرناطة، وعند وصوله إلى البلد
اعتقله أياماً، ثم دخل عليه وهو في سجنه، وأخذ في تأنيبه وسبِّه، ثم قتله بيده واحتزَّ

---

(١) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٨ ـ ٢٩).

(٢) السيوطي. بغيه الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، دار المعرفة، بيروت (ص ٢١٠).

(٣) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٠ - ٣٤).

رأسه وذلك ليلة السبت لاثنتين بقيتا من المحرم العام ٤٣١ هـ/ ١٠٣٩ م[1].

ثانياً ـ علاقته بمن حوله من حكام الأندلس وإسبانيا النصرانية:

أقام باديس مُلْكاً بمدينة غرناطة وأعمالها مدة ثمانٍ وثلاثين سنة قطعها في حروبه مع جيرانه ملوك الطوائف؛ فبدل أن يُذْكي نار الحرب مع الملوك الإسبان الذين كانوا يهدّدون ممالك الأندلس بالسقوط، ومنها مملكته، أذكاها مع أمراء الأندلس وفي مقدمتهم بنو عباد بإشبيلية، وأمراء ألمرية بدءاً بزهير العامري وانتهاءً بالمعتصم بن صمادح.

وكانت سياسة باديس متأثرة إلى حدّ بعيد بالروح العنصرية، فأيّد زعامة البربر في جنوب الأندلس[2]، ردّاً على تحالف العرب فيما بينهم، وترسّخت زعامته للبربر بعد زوال سلطان بني حمود عن مالقة، وأخذ يقود المعركة ضد هؤلاء العرب الذين تظاهروا عليه وسَعَوْا إلى القضاء على مملكته وممالك حلفائه البربر.

أ ـ موقفه من بني حمود أصحاب مالقة والجزيرة الخضراء:

سار باديس على سَنَن أبيه حبوس في الطاعة لبني حمود أصحاب مالقة والجزيرة الخضراء، وفي إقامة دعوتهم، ومؤازرتهم في كل حين. وقد أقرَّ بذلك معظم المؤرخين، وعلى رأسهم ابن الخطيب وابن خلدون[3].

١ ـ مبايعته لصاحب مالقة المستنصر بالله حسن بن يحيى بن علي بن حمود عام ٤٣١ هـ/ ١٠٤٠ م: لما توفي المتأيد بالله إدريس بن علي بن حمود، صاحب مالقة، وبويع مكانه حسن بن المعتلي يحيى بن علي بن حمود في جمادى الثانية لعام ٤٣١ هـ/ ١٠٤٠ م وتلقب بالمستنصر بالله، بايعه باديس ومن حالفه من أمراء البربر[4]. وذهب بريتو إي ڤيڤس إلى أن حسن بن المعتلي بويع سنة ٤٣٠ هـ/

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٥٤ ـ ٤٥٨)؛ السيوطي: بغية الوعاة (ص ٢١٠).

(٢) أقام البربر إمارات لهم في جنوب الأندلس، هي إمارة رُنْدَة، وإمارة مَوْرُوْر، وإمارة قَرْمُوْنَة، وإمارة أَرْكُش. وقد سقطت تلك الإمارات في يد المعتضد بن عباد، صاحب إشبيلية، فسقطت رندة عام ٤٥٧ هـ ١٠٦٤ م، وسقطت مورور عام ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥ م، وسقطت قرموية عام ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ م، وسقطت أركش عام ٤٦١ هـ/ ١٠٦٨ م. عنان: دول الطوائف (ص ١٤٦ ـ ١٥٦).

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٣٥)؛ ابن خلدون (م ٦ ص ٣٦٩)

(٤) ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ٢٩٠)؛ القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٣٨). وانظر=

١٠٣٩ م إثر مقتل المتأيّد بالله إدريس(1).

٢ ـ مبايعته لصاحب مالقة العالي إدريس بن يحيى بن علي بن حمود عام ٤٣٤ هـ/ ١٠٤٢ م: لما توفي حسن بن المعتلي مسموماً بمالقة في جمادى الأولى لسنة ٤٣٤ هـ/ كانون الأول ١٠٤٢ م، أخرج الجند أخاه إدريس بن المعتلى من السجن الذي كان أخوه حسن قد ثقّفه فيه، وبايعوه في جمادى الثانية من العام المذكور، ولقّبوه بالعالي، وبايعه باديس ومن والاه من أمراء البربر، وخطبوا باسمه(2). وذهب القلقشندي إلى أن العالي إدريس بويع في عام ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧ م(3). وكان العالي ضعيف الشخصية، فأخذ باديس منه عدة حصون، وكتب إليه أن يسلّم إليه وزيره ومدبّر أمره موسى بن عفان السبتي، لِحِقْدِ باديس عليه، فبعث به إلى باديس، فضرب عنقه في الحال(4). وذكر دوزي أن باديس تحالف ومن معه من أمراء البربر مع العالي إدريس، ودعا له، ولكنه لم يكن يعترف بخلافته وخلافة بني حمود بمالقة إلاّ بمجرد السيادة الاسمية(5).

٣ ـ خروجه على طاعة صاحب مالقة المهدي محمد بن إدريس بن علي بن حمود عام ٤٣٨ هـ/ ١٠٤٦ م: لما خرج العالي إدريس من مالقة متنزّهاً للصيد في شعبان من عام ٤٣٨ هـ/ ١٠٤٦ م، غلق أهل مالقة الباب في وجهه، وقدّموا عليهم مكانه ابنَ عمِّه محمد بن المتأيّد إدريس بن علي بن حمود، ولقّبوه المهدي. وانصرف العالي إلى العدوة المغربيّة، ثم رجع إلى الأندلس واستقرّ شهوراً عند أبي نور هلال بن أبي قُرّة اليَفْرَني، صاحب رُنْدة، ودعا له اليفرني بالخلافة. ولمّا كان باديس من أشدِ معارضي المهدي، فقد نكل عن طاعته، وغزا مع العالي إدريس مالقة، إلاّ

= أيضاً دائرة المعارف، بإدارة الدكتور فؤاد افرام البستاني، بيروت، ١٩٥٦ ـ ١٩٨٣ (م٨ ص ١٦٣ ـ ١٦٤).

(1) Prieto Y Vives: Los Reyes de Taifas (P 32).

(2) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص٢١٦ ـ ٢١٧، ٢١٩، ٢٩١)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٤١)؛ المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٤٣٢)

(3) القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٣٨).

(4) الحميدي. جذوة المقتبس (ص ٣٤)؛ الضبي. بغية الملتمس (ص ٤٠)؛ ابن الأثير. الكامل في التاريخ (ج٩ ص ٢٨١)؛ عبد الواحد المراكشي: المعجب (٦٦).

(5) دوزي: ملوك الطوائف (٧٩ ـ ٨٠).

أنهما أخفقا ولم يقدرا على شيء، فعاد باديس إلى بلده، ورجع العالي إلى حِصْن بُبَشْتَرْ وأخرج عيالـه وجاز إلى سبتة[1]. ويروي القلقشندي أنّ باديس أطاع المهدي بعد مبايعته بمالقة في العام المذكور، وأطاعته غرناطة وجيان وأعمالها، وكانت وفاته عام ٤٤٤ هـ/ ١٠٥٢ م[2].

٤ ـ مبايعته صاحب الجزيرة الخضراء المهدي محمد بن القاسم بن حمود عام ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧ م: لم يُطِعْ زعماء البـربر المهـدي محمد بن إدريس بن علي بن حمود، فتجمّعوا في عام ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧ م وبايعوا محمد بن القـاسم بن حمود، صاحب الجزيرة الخضراء، وقدموه للخلافة بها، ولقّبوه بالمهدي، وخطبوا لـه في بلادهم على المنابر، وهم إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي الزنـاتي صاحب قرمونـة، ومحمد بن نُـوْح الدَّمَّري صاحب مـورور، وعبدون بن خَـزْرُوْن صاحب أَرْكُشْ، ومحمد بن عبد الله بن الأفطس صاحب بطليوس، وفتح الله بن يحيى صاحب ولْبة، إضافةً إلى كبيرهم باديس بن حبوس[3]. وصار في رقعة صغيرة من أرض الأندلس مقدارها ثلاثون فرسخاً في مثلها، أربعة خلفاء يتسمَّى كلٌّ واحد منهم بأمير المؤمنين، وهو أمرٌ في غاية الفضيحة[4].

واعتبر ابن حزم وجود هؤلاء الخلفاء في وقت واحد فضيحة لم تعرف الأندلس مثلها في عصره: «فضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا مثلها؛ أربعة رجـال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها، كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين، ويُخْطَبُ لهم بها في زمن واحـد، وهم خلف الحصـري بـإشبيليـة على أنـه هشـام بن الحكم، ومحمـد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس بن علي بن حمود بمالقة، وإدريس بن يحيـى بن علي بن حمود بِبُبَشْتَرْ»[5]. وأضاف: ظهر الحصري بعد اثنتين

(١) ابن عـذاري: البيـان المغـرب (ج٣ ص ٢١٧)، ابن الخـطيب: أعمـال الأعـلام (القسم الثـاني ص ١٤١)

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٣٩).

(٣) الحميـدي. جـذوة المقتبس (ص ٣٥)؛ الضبي: بغيـة الملتمس (ص ٤١)، ابن عـذاري: البيـان المغرب (ج٣ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٤٢)

(٤) الحميـدي: جذوة المقتبس (ص ٣٥)؛ الضبي: بغيـة الملتمس (ص ٤١)؛ ابن الأثير. الكـامل في التاريخ (ج٩ ص ٢٨٢)؛ عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ٦٨)

(٥) ابن حزم. رسائل ابن حزم الأندلسي (ج٢ ص ٩٧ ـ ٩٨) وقد ورد هذا النص في أعمال الأعلام لابن الخطيب (القسم الثاني ص ١٤٢ ـ ١٤٣) باختلاف يسير عما هنا.

وعشرين سنة من موت هشام بن الحكم، وادّعى أنه هشام، فبويع له، وخُطِبَ له على جميع منابر الأندلس في أوقات شتى[1].

وروى الذهبي أنه لما رأى البربر أن العالي إدريس بن المعتلي يحيى بن علي بن حمود قليل العقل، مالوا إلى محمد بن القاسم بن حمود، فملّكوه الجزيرة الخضراء ولقّبوه بالمهدي، ولكنه مات فجأة فقام مكانه أبوه القاسم ولم يتلقّب بالخلافة[2].

٥ ـ تخلصه من صاحب مالقة المهدي محمد بن إدريس بن علي بن حمود عام ٤٤٤ هـ/ ١٠٥٣ م: لما امتدّت يد المهدي محمد بن المتأيّد إدريس بن علي بن حمود إلى قتل البربر بمالقة، عمل باديس بن حبوس الحيلة في هلاكه بكأس عراقية مسمومة وجّهها له مع رجل من الكتاميين، فأعجب بها المهدي وملأها خمراً، وضمّها إلى فيه، فأحسّ في نفسه رَيْبة منها، فأمر الكتاميَّ، فشرب ما فيها، فتهرّأ جلده عن عظمه في حينه، وبقي المهدي ثلاثة أيام ومات من رائحتها، وذلك في أواخر عام ٤٤٤ هـ/ أوائل عام ١٠٥٣ م[3]. ويروي عبد الواحد المراكشي أنّ المهدي مات بمالقة سنة ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣ م، وأنّ العامّة ردَّت العالي إدريس إلى مالقة فاستولى عليها وحكمها للمرة الثانية، وهو آخر من ملكها من الحموديين الحسنيين[4]. ويخبر الذهبي أن البربر عزلوا إدريس بن المعتلي يحيى بن علي بن حمود عن مالقة، فوليها ابنه محمد بن إدريس، وبقي عليها إلى أن مات في سنة ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣ م، فأعاد عندئذ البربر والده إدريس إلى إمرة مالقة، وهو آخر من ملكها من الأدارسة، ولمّا مات إدريس اجتمع رأي البربر على نفي الأدارسة عن الأندلس إلى العُدْوة المغربية، والاستبداد بضبط ما بأيديهم[5].

٦ ـ قضاؤه على بني حمود بمالقة وضمُّ مملكتهم إلى غرناطة عام ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م: تغلب باديس على مالقة عام ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م، وخلع خليفتها المستعلي محمد بن إدريس بن المعتلي يحيى بن إدريس بن علي بن حمود، وأضافها إلى

---

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم (ج٢ ص ٩٧).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، (ج١٧ ـ ٦٥٧ ـ ٦٥٨).

(٣) ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ٢١٨)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٤١ ـ ١٤٢). Pérès, La Poésie Andalouse (P. 370).

(٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ٦٨).

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء (ج١٧ ص١٤٣ ـ ١٤٤).

عمله غرناطة[1]. ويروي ابن الخطيب والنباهي، نقلاً عن ابن عسكر، أن باديس مَلَكَ مالقة سنة ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م إثر وفاة صاحبها إدريس بن يحيى العالي[2].

ويذهب أبو الفداء وابن الوردي إلى أن باديس أخذ مالقة من بني حمود عام ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣ م، وأن آخر من ملك منهم هو محمد بن إدريس بن علي بن حمود[3]. ويذكر المستشرق الإسباني بريتو إي ڤيڤس أن المعتضد بن عباد، صاحب إشبيلية بعد أن استولى على الجزيرة الخضراء وطرد صاحبها القاسم بن محمد بن حمود عام ٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤ م، انتابت باديس مخاوف، وخاف أن يصبح مصير مالقة كمصير الجزيرة الخضراء، فاغتنم موتَ إدريس الثاني عام ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م، وضمَّ مالقة إلى مملكته، محبطاً بذلك آمال وريث إدريس الثاني، وقاضياً على بني حمود بمالقة[4]. وأيّده في هذا الرأي غونثالو مايسو[5]. وقيل: ضَمَّ باديس مالقة عام ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م[6]. واكتفى الأمير عبد الله بالإشارة إلى أن باديس ظل يعاود مالقة بلا سآمة حتى حصل عليها من بني حمود بعد مكابد وبأس[7]. ويرى دوزي أنه لما كان باديس هو الرئيس الحقيقي للبربر، كره أن يرى أمامه خليفة تستظل بلاده بحكمه، فعقد النيّة على أن يقضي على بني حمود، وأن يدمج مالقة وأعمالها ضمن مملكته، فأنفذ مشروعه دون أن يصادف عوائق كبيرة[8].

ب ـ علاقته بألمرية:

١ ـ باديس يهزم زهيراً العامري صاحب ألمرية عام ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥ م بظاهر غرناطة: عندما تولّى باديس أمر غرناطة، استصغره زهير العامري صاحب ألمرية،

---

(١) ابن سعيد: المغرب (ج١ ص ٤٢٥)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢١٨ ـ ٢٦٦)، ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٤٢)؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٦٩)

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٣٥)؛ النباهي: المرقبة العليا (ص ٩١).

(٣) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ١٤٨ ـ ١٦٠)؛ ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر (ج١ ص ٤٩٩ ـ ٥١٧)

(٤) Prieto Y Vives: Los Reyes de Taifas (P 28 - 29).

(٥) G Maeso: Garnata Al-Yahud (P. 61), Maeso: Manual (P. 471)

(٦) دائرة المعارف الإسلامية (ج١١ ص ٢٥): ليڤي ـ بروڤنسال.

(٧) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٦).

(٨) دوزي: ملوك الطوائف (ص ٩٢ ـ ٩٣).

وطمع في ضمّ غرناطة إلى مملكته، وهيّأ نفسه لأخذها من يده[1]. ولتنفيذ مشروعه أوعز إلى صاحب قرمونة محمد بن عبد الله البرزالي الزناتي أن يُفْسِد الحلف الذي كان بينه وبين حبوس من قبل، ففسد الحلف بين باديس والبرزالي، وانتهز زهير فرصة خلاف الرجلين، وأخذ يُذْكي نار العداوة بينهما، وتمسّك زهير بالبرزالي وأوفد إليه المَدَدَ، فاغتاظ باديس،وفسدت الحال بينه وبين زهير. وبرغم موقف زهير هذا، فقد أرسل إليه باديس رسوله يعاتبه، وكتب إليه يستدعيه تجديد التحالف الذي كان بينه وبين أبيه حبوس من قبل[2]. وردَّ عليه زهير بأنَّ كلَّ شيء تتم تسويته عند المقابلة[3].

ويذهب محمد أبو الفضل إلى أن حبوس بن ماكسن هو الذي اختلف مع حليفه زهير بسبب موالاة الأخير للبرزالي[4]. وقد استند في قوله هذا على ابن بسام وابن عذاري، وهذان الرجلان لم يشيرا إلى عداوة كانت بين حبوس وزهير، بل أشارا إلى عداوة قامت بين باديس وزهير، وذكرا أن حبوساً كان في وقت من الأوقات خصماً للبرزالي وأنه خلَّف تلك العداوة في ولده باديس وفي عقبه من بعده[5].

ويروي ابن عذاري أن باديس، عندما ولي غرناطة، ذهب إلى محالفة زهير على ما كان أبوه معه، فاجتمع به زهير بقرية ألبونت بمقربة من غرناطة، فعزّاه في أبيه حبوس، ثم حملت الحميّة باديس إلى الغدر به، فلمّا أخذ زهير في الانصراف قطع له باديس الطريق وأرصد له الخيل، ودارت عليه الدائرة[6]. وقيل إن أبا جعفر أحمد بن عباس، وزيرَ زهير وكاتبه ومدبِّرَ سلطانه والغالبَ على أمره، هو الذي دفع زهيراً إلى رفض التحالف، وأشار عليه بغزو باديس في عُقْر داره[7]. وأكّد ذلك المستشرق دوزي فذهب إلى أن ابن عباس عربي يكره البربر ويحتقر اليهود، فتحامل على باديس وامتعض من سيده زهير لتحالفه مع ذلك البربري الذي استوزر يهودياً، ونجح في

---

(١) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٤)؛ ابن سعيد. المغرب (ج٢ ص ١٩٤).

(٢) ابن بسام: الذخيرة(ق١ ص ٦٥٦)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ١٦٩) ابن الخطيب. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٦) والإحاطة (ج١ ص ٥١٨).

(٣) دوزي: ملوك الطوائف (ص ٥٣).

(٤) أبو الفضل: تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية (ص ١١١).

(٥) ابن بسام الدخيرة (ق١ ص ٦٥٦)، ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ١٦٩).

(٦) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ١٩١)

(٧) المصدر نفسه (ص ٢٩٣).

ا. صدر أميره على باديس وتمكن من الوقيعة بينهما[1]. ولهذا السبب هاجمه الأمير
ا. الله بقوله: «وكان له كاتب يُعْرَفُ بولد عباس، من أشدّ الناس حماقةً واستخفافاً،
.براً للشر، مؤرشاً بين الملوك، وكان الغالب على أمر زهير، إذ لم يكن زهير يصلح
ا.شيء لغباوته وجهله»[2].

وكان هدف ابن عباس من تلك الحرب هو التخلص من أميره زهير لينفرد فيما بَعْدُ بحكم المرية، فسعى إلى هلاكه وحرص على زواله[3].

ولم يَمْضِ قليلٌ على إرسال باديس رسوله إلى زهير حتى خرج زهير من المرية بجيش كثيف، وأقبل نحو باديس، وكان أشبه شيء بمجيء الأمير الضخم إلى عاملٍ من عُمّاله، فاجتاز أملاك باديس من غير إذْنه، واقتحم بلده حتى وصل إلى باب غرناطة، وأخفى باديس امتعاضه من ذلك التصرّف المشين، فخرج إليه في جمعه وقد أنكر عليه اقتحامه وعدّه حاصلاً في قبضته، فبدأه بالجميل والتكريم، وأوسع عليه وعلى رجاله في الضيافة ما ثَبَّتَ طمأنينته، مريداً معاقبته[4] واعتبر زهير أن هذا الترحيب ناجم عن ضعف، وأوهمه وزيره ابن عباس بأنَّ باديس لم يُقْدم على هذا الاستقبال الحارّ إلّا لعجزه عن الوقوف بوجهه[5].

ووقعت المناظرة بين باديس وزهير ومَنْ معهما من رجال دولتيهما، فنشأ بينهما الخلاف لأول وهلة، إذ تشدّد زهير وأبدى الجفاء في محادثاته، وتجاوز حدَّ اللياقات في المحادثات الرسمية، وزعم أنه جاء لزيارة قبر حليفه السابق حبوس، واتصلت بينهما المناظرة، وابنُ عباس يُغْلِظ على قوم باديس، وانفضَّ الاجتماعُ على غير موافقة[4]. وبرغم ذلك لم يدبَّ اليأسُ في نفس باديس، فأرسل أخاه بلقين في تلك الليلة إلى حيث مجلس ابن عباس، في محاولة أخيرة لرأب الصدع، إذ كان يعلم أن

---

(١) دوزي: ملوك الطوائف (٤٩ - ٥٠)؛

Dozy. Histoire des Musulmans d'Espagne (T 3, P. 23)

(٢) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٤) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٦٦١ - ٦٦٢).

(٣) ابن بسام: الذخيرة (ق ١ ص ٦٥٦ - ٦٥٧)؛ ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ١٦٩ - ١٧٠)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٦) والإحاطة (ج١ ص ٥١٨ - ٥١٩).

(٤) أبو الفضل: تاريخ مدينة المرية الأندلسية (ص ١١٣).

(٥) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٦٥٧)؛ ابن عذاري البيان المغرب (ج٣ ص ١٧٠)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٧) والإحاطة (ج١ ص ٥١٩).

زهيراً منقادٌ إلى وزيره ابن عباس وأنه يعمل بمشورته، فـأخذ ابنُ عبـاس يستجهل بلقين، وبلقينُ يرفق به ويقبِّل وجهه، ولمَّا لـم يزدد ابنُ عباس إلَّا قسوةً مريداً الحرب، انصرف بلقين إلى أخيه باديس وأعلمه بما جرى، وسعَّر له نار الحرب[1]. وهكذا أخفق باديس في تجديد التحالف الذي كان قائماً بين أبيه حبوس وبين زهير[2]. وعزم على قتال زهير، ووافقه قومه صنهاجة، فنصب كتائبه، وعمل على قطع طريق الرجعة على زهير، فهدم في الطريق خلف زهير قنطرة لا محيد لزهير عنها عند عودته إلى ألمرية، ووضع له الكمائن في المضايق[3]. وقدَّم على عساكره أخاه بلقين، وكان من أشجع الناس، إذ اختصّه باديسُ بكل ما شاء وفضّله في الميراث على نفسه[4].

ويرى عنان أن الحرب اندلعت بين باديس وزهير لأحد سببين؛ إما لسوء تفاهم وقع بين الرجلين، أو لأنَّ باديس وضع خطة للغـدر بزهير[5]. أما دوزي فإنه يرى أن باديس هو الذي نوى الإيقاع بزهير وبوزيره ابن عباس لِمَا رآه من سوء تصرفهما أمامه؛ إذ تظاهر زهير أمام باديس بعظمة تركت في نفسه أثراً سيئاً، وظهر من ابن عباس عناد وفظاظة لم يتحملها باديس وأخوه بلقين[6].

وفي صبيحة تلك الليلة التي اجتمع فيها زهير وباديس للتفاوض، رأى زهير نفسه محاطاً بجنود غرناطة، فرتّب المشاة من الزنوج والأندلسيين وأمر قائد عسكره هذيلاً الصقلبي بالتقدّم على رأس الفرسان الصقالبة لينقضّ على عسكر غرنـاطة. وحمي وطيس الحرب، فاختلط الفريقان واشتدَّ القتال بينهما، وثبت زهير في قلب عسكره. ودارت الرحى على هذيل فأصيب بطعنة أوقعته عن متن فـرسه، وعجَّـل باديسُ في الموقعة على فرسـان زهير وقواده بالقتـل، إلى أن انهزم أصحـاب زهير وتمزقت أوصالهم برغم تفوقهم العددي. وقيْدَ هذيلٌ لوقته إلى باديس أسيراً، فعجّل

(١) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٦٦٠ ـ ٦٦١). وانظر أيضاً:
Dozy. Histoire des Musulmans d'Espagne (T 3, P 24)

(٢) ابن الأثير. الكامل في التاريخ (ج٩ ص ٢٨٦)

(٣) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٦٥٨)، ابن عذاري. البيان المعرب (ج٣ ص ١٧٠)؛ ابن الخطيب. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٧) والإحاطة (ج١ ص ٥١٩)

(٤) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٥).

(٥) عنان: الدولة العامرية (ص ١٧٤).

(٦) دوزي. ملوك الطوائف (ص ٥٤).

بضرب رقبته. ولما نظر زهير إلى مصرع هذيل فرَّ على وجهه، ولحق به من بقي من عسكره لا يلوون على شيء، ولما كانت القنطرة قد هدِّمت، فرَّ زهير ومن معه إلى رؤوس الجبال، فلحق بهم جيش صنهاجة، فأعملوا السيف بهم، فقتل زهير وجهل مصرعه ولم يوقع له على أثر[1].

وكان السودان من رجّالة زهير، وعددهم يقارب الخمسمائة، قد غدروا بزهير في تلك المعركة، وعمدوا إلى خزانة سلاحه ونهبوها، ونادَوْا بشعار صنهاجة، وانقلبوا معهم[2]. واكتفى ابن سعيد بالقول: «وكانت الدائرة عليه، وقتل في المعركة»[3].

ويروي ابن بلقين أن زهيراً خفي عن عسكره إثر انهزامه في معركة لم تدم إلاَّ ساعة من النهار، ولم يوجد حيّاً أو ميتاً[4]. وإذا لم يتأكد ابن بلقين من مقتل زهير، ولم يحدد عدد قتلى جيشه، فإن ابن عذاري وابن الخطيب قد أشارا إلى مقتل زهير مع بشر كثير من جنده[5].

وقد أجمع معظم المؤرخين على أن زهيراً صُرع في قرية ألفنت على بعد أربعة أميال من غرناطة[6].

وحدد ابن الدلائي وابن الأثير وابن الخطيب يوم المعركة، وهو الجمعة في آخر شوال من عام ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٨ م[7]. ومثلهم ذهب ابن عذاري وابن خلدون والقلقشندي، ولكن دون أن يحددوا اليوم والشهر[8]. وجعل ابن حيان عام ٤٢٧ هـ/

---

(١) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٦٥٨ - ٦٥٩)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ١٧٠ - ١٧١، ١٩١)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٧) والإحاطة (ج١ ص ٥١٩ - ٥٢٠)

(٢) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٦٥٩)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ١٧١)

(٣) ابن سعيد: المغرب (ج٢ ص ١٩٥).

(٤) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٥).

(٥) ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ٢٩٣)؛ ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٢٦٠، ٥١٩ - ٥٢٠)

(٦) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٤)؛ ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ٢٩٣)؛ ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٥٢٠) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٧)

(٧) ابن الدلائي. نصوص عن الأندلس (ص ٨٣)؛ ابن الأثير الكامل في التاريخ (ج٩ ص ٢٨٦) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٥٢٠) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٧).

(٨) ابن عذاري البيان المغرب (ج٣ ص ١٩١)؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٩، ٣٦٩)؛ القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٤٤).

١٠٣٦ م تاريخ تلك الموقعة[١].

وقد غنم باديس في تلك المعركة من المال، والخزائن، والمرافق، والمتاع، والأسلحة، والعُدّة، والخيل، وَالحُلْي، والغِلْمان، والخيام، ما لا يُحاط به وصفاً وقيمة [٢].

وأمّا الأسرى من وجوه رجال زهير، فقد قتل منهم باديس الفرسان والقواد، أما حملة الأقلام، فقد عفَّ عن دمائهم، واكتفى بإيداعهم السجن، وكان فيهم ابن عباس [٣].

وهكذا أمر باديس بحبس ابن عباس، وصَدْرُه يغلي حقداً عليه، وشفاؤه يكون في إراقة دمه على يديه، لتيقّنه من أنه هو الذي حرض زهيراً على غزو غرناطة، إلاّ أنه أرجأ قتله[٤]. وقد عبّر الأمير عبد الله عن نقمة جده باديس تجاه ابن عباس بقوله: «وظفر بعدوّه كاتبِ زهير، وأمر بقتله متأوّلاً لإثارته الفتنة، ونقم عليه أشياءَ كثيرةً قبل ذلك، من أقاويل خشنة ومعاملات قبيحة عَرَّفَهُ بها»[٥]. وبذل ابن عباس في فداء نفسه أموالاً كثيرة، فردّ عليه باديس بأنه سينظر في طلبه، ولكنه مضى شهران دون أن يبتّ في أمره[٦]. وفي غضون هذه المدة وجّه أبو الحزم جَهْوَر بن جهور، صاحب قرطبة، رسولاً إلى باديس شافعاً في الأسرى ومؤكداً في شأن ابن عباس، فلم تَلْقَ شفاعَتُهُ جواباً من باديس[٧].

أما المنصور عبد العزيز العامري الذي مَلَكَ ألمرية منذ مصرع زهير، فقد سعى على دم ابن عباس، فأرسل إلى باديس وزيره أبا الأحوص معن بن صمادح يُلِحُّ عليه في قتل ابن عباس، خوفاً من أن يتخلّص من السجن فيكدِّر ألمريةَ عليه[٨].

---

(١) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٦٦٣)

(٢) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٦٥٩)؛ ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ١٧١)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٧) والإحاطة (ج١ ص ٥٢٠)

(٣) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٦٥٩ - ٦٦٠)؛ ابن عذاري البيان المغرب (ج٣ ص ١٧١)

(٤) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٦٦٠ - ٦٦٣)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ١٧١)؛ ابن الخطيب الإحاطة (ج١ ص٢٦٠ - ٢٦١).

(٥) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٥).

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٢٦١)

(٧) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٦٦٣).

(٨) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٦٦٧)؛ ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ١٧٢)

وبينما كان باديس في بعض ركباته مع أخيه بلقين يتنزّهان خارج مدينة غرناطة، رأى أن يعرض على أخيه مسألة الفدية ليستأنس برأيه، فأنف بلقين منه وأشار عليه بقتل ابن عباس؛ لتوقّعه إثارة فتنة أخرى على يديه. ولمّا عاد باديس من المتنزه، وتوسّط الدار التي فيها ابن عباس، وقف فيها بصحبة أخيه بلقين وحاجبه علي بن القروي، وأمر بإخراج ابن عباس من السجن، وكان مسجوناً بقصبة غرناطة لَصْقَ القصر، فأقبل يَرْسُفُ في قيده حتى وقف بين يديه، فأقبل باديس على سبِّه وتبكيته بذنوبه، وابنُ عباس يتلطّف إليه ويسأله إراحته مما هو فيه، وجعل يكلّم أخاه بالبربرية، فبان لابن عباس وجه الموت، فأخذ يكثر الضراعة ويضاعف عدد المال، فأثار غضبه، وهزّ مِزْراقه فأخرجه من صدره، وحذا حذوه بلقين وابن القروي، وانهالوا عليه بالطعنات، ولم يقع إلاّ عن سبع عشرة طعنة، فاغتاظ باديس عند ذلك، وأمر بحزّ رأسه، فرمي خارج القصر[1]. وكان ذلك يوم الخميس أو يوم الجمعة آخر يوم من شوال لعام ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م[2]. ويروي ابن الخطيب أنَّ ابن عباس قتل عشية الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥ م، بعد اثنين وخمسين يوماً مِنْ أسْره، وكان يوم مات ابنَ ثلاثين[3]. ونحن نعتقد أن خطأ ابن الخطيب في تحديد السنة لم يكن متعمّداً، بل كان سهواً منه، وربما كان الخطأ من الناسخ بحيث اختلط عليه رسم العدد فرسمه «سبع» بدل «تسع»؛ لأنَّ ابن الخطيب ذكر، حسبما تقدّم في وصفه للمعركة، أن زهيراً توفي يوم الجمعة عقب شوال من عام ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م، ولا يعقل أن يكون كاتبه ابن عباس قد توفي قبل هذا التاريخ، سيما وأن الرجلين حاربا باديس في السنة المذكورة وانهزما معاً[4]. واكتفى ابن سعيد والمقري بالإشارة إلى أن باديس قتل ابن عباس بيده[5]. وذكر المستشرق الإسباني آنخل جنثالث بالنثيا أن ابن عباس قتل في ٢٧ من ذي القعدة عام ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥ م[6].

---

(١) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٦٦٤ - ٦٦٨)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ١٧٢)؛ ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٢٦١ - ٢٦٢)

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ١٩١، ٢٩٣).

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٢٦٢).

(٤) راجع ابن الحطيب: الإحاطة (ج١ ص ٥٢٠) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٧).

(٥) ابن سعيد: المغرب (ج٢ ص ٢٠٦)، المقري: نفح الطيب (ج٣ ص ٥٣٥).

(٦) جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ١١٠).

أمّا الأسرى كابن حزم، والوزير أبي عمر يوسف بن جعفر الباجي صاحب الرسائل، وغيرهما، فقد أطلق باديس سراحهم جميعاً[1] ويعتقد عنان أن ابن حزم هذا هو والد ابن حزم صاحب المؤلّفات الشهيرة: «وكان بين الأسرى عدة من الكتاب في مقدمتهم أحمد بن عباس، وابن حزم والد الفيلسوف»[2]. والصواب هو الفقيه أبو محمد علي بن أحمد بن حزم، صاحب «طوق الحمامة» وغيره من الكتب، وقد لجأ إلى ألمرية في أول عام ٤٠٤ هـ/ ١١٠٣ م بعد وفاة والده بسنتين، أي قبل وقوع المعركة بسبع وعشرين سنة، بعد أن انتهب البربر منازله في الجانب الغربي بقرطبة[3].

وكان ابن شبيب، أحدُ قواد زهير، قد أُسِرَ في ذلك اليوم، وقد أطلق باديسُ سراحَهُ دون غيره من جُنْد زهير، وكان سبب نجاته من يَدَيْ باديس أنه نظر إلى ابن عباس وهو يُقاد إلى باديس أسيراً، وخاطبه بصوت عال يسأله ألاَّ يُفْلِتَ ابنَ عباس؛ لِمَا جناه من آثام، وتمنّى معاينة حتفه، ولا يبالي القتل بعده[4].

وبهزيمة زهير، ضمَّ باديسُ بعضَ جهات ألمرية إلى بلده غرناطة، فكان ذلك بداية طريق العظمة والمجد في تاريخ غرناطة في بداية حكمه، فَقَرَّ ملكه، وطار له لذكر، ولم يعد يجترىء عليه أحد[5]. والأراضي التي استولى عليها باديس هي القسم الشمالي الغربي من مملكة ألمرية المتاخمة لغرناطة، وتشمل مدينة جيان وأعمالها، وجزءاً من أراضي ولاية قرطبة الجنوبية[6].

٢ ـ باديس يتحالف مع معن بن صمادح إثر انقلابه على المنصور العامري عام ٤٣٣ هـ/ ١٠٤١ م واستئثاره بحكم ألمرية: إثر مصرع زهير العامري، مَلَكَ صاحبُ بلنسية المنصورُ عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر، ألمرية

(١) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٦٦٠ ـ ٦٦١)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ١٧١).

(٢) عنان. دول الطوائف (١٢٧).

(٣) ابن حزم. طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق الأستاذ فاروق سعد، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٢ (ص ٢٦١) ورسائل ابن حزم (ج١ ص٣٨، ٢٦٠ ـ ٢٦١). وانظر أيضاً: عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة (ص ٣٠٩)

(٤) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٦٦١)

(٥) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٤ ـ ٣٥)؛ ابن سعيد: المعرب (ج٢ ص ١٠٧)

(٦) عنان: دول الطوائف (ص ١٢٨، ١٦١)؛ Prieto Y Vives Los Reyes de Taifas (p 29)

في آخر ذي القعدة لعام ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م، فحسده أبو الجيش مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية، فخرج غازياً بلده بلنسية، مستغلاً فرصة اشتغاله بألمرية في تركة زهير، فلما سمع المنصور بهذا التحرك خرج إليه من ألمرية وقدّم عليها ابنه عبيد الله، واستوزر صهره أبا الأحوص معن بن محمد بـن صمادح. وما إنْ وارى المنصورُ وجهه عن ألمرية حتى غدر به معن، وخلع طاعته ودعا لنفسه أميراً على ألمرية، وأيّده في ذلك أهل ألمرية، وذلك عام ٤٣٣ هـ/ ١٠٤١ م[١].

وكان باديس بن حبوس أول من سعى إلى هذا الانقلاب وأيّده، فَعَضَدَ ابنَ صمادح وأثبته في حكمه، وصارت علاقته به منذ ذلك الحين ممتازة إلى حين وفاة ابن صمادح عام ٤٤٣ هـ/ ١٠٥١ م[٢].

٣ ـ باديس يجدد تحالفه مع المعتصم محمد بن معن بن صمادح عند تسلّمه حكم ألمرية عام ٤٤٣ هـ/ ١٠٥١ م: لمّا تولّى المعتصم محمد بن معن بـن صمادح حكم ألمرية في عام ٤٤٣ هـ/ ١٠٥١ م، أرسل إلى باديس يسأله تجديد الحلف الذي كان قائماً بينه وبين أبيه معن بـن صمادح، وأن يكون له في العَضُد والحماية اللذين كان عليهما لأبيه، ودعاه للاجتماع به، فأجابه باديس إلى ما سأل، ووعده بالذبِّ عنه على أتمّ ما كان عليه لأبيه، واجتمع به، وجدّد معه عقداً، وداما على ذلك دهراً طويلاً لم يسمع فيه بفتنة ولا شغب[٣]. وفي العام المذكور ثار على المعتصم ابنُ شبيب والي لورقة بعد أبيه، للاستقلال بها عن مملكة ألمرية ـ إذ كانت لورقة آنذاك من أعمال ألمرية ـ فجهّز إليه المعتصم جيشاً، فاستعان ابنُ شبيب بالمنصور العامري صاحب بلنسية، فأمدَّه ببعض قواته، واستمدَّ المعتصمُ بباديس، فزوّده باديس بكل ما يحتاج من عدة وعتاد، وغزا المعتصمُ مدينةَ لورقة واشتبك مع ابن شبيب في معركة ضارية،

---

(١) ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس (ص ٨٤)؛ ابن بسام. الذخيرة (ق١ ص ٧٣٠ ـ ٧٣١)؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج٩ ص ٢٩١)؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان (ج٥ ص ٤٠)؛ ابن سعيد. المغرب (ج٢ ص ١٩٥)؛ ابن عذاري· البيان المغرب (ج٣ ص ١٦٧، ١٧٤، ١٩٢، ٢٩٣)؛ الصفدي. الوافي بالوفيات (ج٥ ص ٤٥)؛ ابن الخطيب· أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٩٠).

(٢) ابن الدلائي نصوص عن الأندلس (ص ٨٤)؛ ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٤٤ ـ ٤٥).

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٤٥ ـ ٤٦)

ولكنه أخفق في القضاء على ابن شبيب، وخسر لورقة، فخرجت عن حكمه، ولم يسترجع إلاَّ بعض حصونها[1]. وبموت ابن شبيب يخلفه إخوته الثلاثة في حكمها بالتعاقب، وقد اعترف آخرهم بطاعة المعتضد ابن عباد، صاحب إشبيلية، واستمرّ يحكمها باسمه واسم أبيه المعتمد بن عباد، حتى سقوط إشبيلية في أيدي المرابطين عام ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م[2].

وظل باديس يعمل على إذكاء الخلاف بين المعتصم والمنصور العامري، ويَسْعَى إلى تقويته كلما بَدَتْ بوادره؛ وذلك بهدف إضعاف الجبهة الأندلسية وتقوية جبهته البربرية[3].

وبعد موت المنصور عام ٤٥٢ هـ/ ١٠٦٠ م، وتولية ابنه عبد الملك بن المنصور مكانه، سعى باديس إلى إضرام نار الشقاق بين عبد الملك والمعتصم؛ فعندما قام المعتصم بعزوة لأحد حصون عبد الملك بتدمير، استعان بحليفه باديس، فسارع باديس إلى ذلك، مدفوعاً بعصبيته البربرية التي تُمْلي عليه زرع بذور الشِّقاق بين عرب الأندلس أنفسهم، كون المعتصم وعبد الملك من العرب، ليقوِّي بذلك مركزه، كونه زعيم بربر الأندلس[4]. وقد يكون المعتصم لجأ إلى محالفة باديس بدافع الحرص على استرجاع أملاكه التي ضمَّها باديس إلى مملكته في حروبه مع زهير العامري؛ لأن المعتصم كان يكره البربر ويتعصّب للعرب[5].

وبالفعل أغارت قوات المعتصم على بعض حصون عبد الملك في تدمير، وساعده في تلك الغارة باديس، إلاَّ أنَّ عامل الحصن أبْدى من الشجاعة والاستبسال والصمود ما أحبط هذا الهجوم، فلم يظفر المعتصم بشيء، وانتهت حملته بالفشل، ورُدَّتْ قواته على أعقابها[6].

٤ ـ توتّر العلاقات الودّية بين باديس والمعتصم: أخذت وشائج السوء والفساد تعتري العلاقات الوديّة بين باديس والمعتصم عندما اكتشف باديس أنَّ المعتصم طامع

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٥٠).

(٢) Gaspar Remiro Historia de Murcia Musulmana, Zaragoza, 1905 (P 105)

(٣) عنان. دول الطوائف (ص ١٦٤)

(٤) ابن بسام: الذخيرة. (ق١ ص٧٣٢)؛ ابن عذاري. البيان المعرب (ج٣ ص ١٧٤ ـ ١٧٥)

(٥) سالم. تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية (٧٩)؛ أبو الفضل: تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية (ص ١٢٦ ـ ١٢٨).

(٦) عنان. دول الطوائف (ص ١٦٤ ـ ١٦٥)؛ أبو الفضل: تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية (ص ١٢٦).

في ضمِّ غرناطة إلى بلده ألمرية، والذي كان يوحي إلى المعتصم بتلك الأطماع هو يوسف ابن نغرالة، وزير باديس ومدبّر دولته، فاتصل بالمعتصم سرّاً، وحثّه على احتلال غرناطة وصوَّر له بأن أبواب غرناطة باتت سهلة عليه متى أراد فتحها، وجَسَّرَ وطَرَقَّها[1].

وعمل المعتصم بنصائح يوسف ابن نغرالة، فزحف على وادي آش الواقعة شمال شرقي غرناطة، وشحنها برجاله، فاحتلّها واحتلَّ جميع أنظارها حتى أنه لم يبق لباديس أكثر من غرناطة والمُنَكَّب وباغه وقبرة[2]. كما أغارت قواته على معاقل غرناطة الشرقية حتى احتلتها ولم يبق منها بيد باديس إلاَّ حصن قبريرة Gabrera القريب من غرناطة على طريق وادي آش[3]. وقد أضاف المعتصم هذه المعاقل إلى بلده، وباديس لا يشعر بخروجها عن يده[4]. واكتفى ابن الخطيب بالإشارة إلى أن جيشاً من ألمرية أغار على غرناطة وباديس حينذاك منغمس في بِطالته، عاكف على شرابه[5]. أما مدينة غرناطة، فلم يجسر المعتصم على غزوها[6].

وكان ليلة مقتل يوسف ابن نغرالة في العاشر من شهر صفر لعام ٤٥٩ هـ/ ٣١ كانون الأول ١٠٦٦ م يكمن مع جُنْده في مكان قريب من مدينة غرناطة، ينتظر إشارة يوسف للزحف عليها، ولما اكتشفت المؤامرة وقُتِل يوسف، فشلت حملته، ورجع إلى ألمرية وقد صَفِرَتْ يداه[7].

وإثر مقتل ابن نغرالة، رأى باديس أن يتحرّك لاسترداد ما انتزعه منه المعتصمُ وخاصة مدينة وادي آش ذات الموقع الاستراتيجي الهام، فجمع قواده ورجاله واستشارهم في هذا الأمر، فشاطروه الرأي ونصحوه ببذل الأموال وقيادة الحملة بنفسه، فجمع جُنْده وفرّق عليهم الأعطيات، وسار بهم نحو وادي آش وحاصرها.

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٥٣). سوف نتحدث فيما بعد عن أهداف يوسف ابن نغرالة ومشاريعه واتصاله بالمعتصم عند حديثنا عن وزراء باديس.

(٢) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٤٤).

(٣) المصدر نفسه (ص ٥٣).

(٤) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٧٦٨ - ٧٦٩).

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٤٠).

(٦) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٥٣).

(٧) المصدر نفسه (ص ٥٤)؛ ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٧٦٨ - ٧٦٩).

ولمّا كان يدركَ ضعف جيشه بالنظر إلى إمكانيات المعتصم العسكرية، قرّر الاستعانة بالمأمون ابن ذي النون، صاحب طليطلة، وسأله العون مقابل إعطائه ما أحبَّ من الحصون التي سيستعيدها، فسارع المأمون إلى ذلك، مدفوعاً بأطماعه، وبادر على رأس فرقة من جيشه، ولحق بباديس وهو يحاصر وادي آش. فاشتدَّ الحصار عندئذ على قصبة تلك المدينة، وكثر الإنفاق بحيث بلغت النفقة ستة بيوت من المال، البيت منها ألف ألف دينار ثلثية، أي ستة ملايين دينار. ولمّا رأى بعض وزراء المعتصم وأكابر رجاله الذين كانوا آنذاك في تلك القصبة، أنْ لا ملجأ لهم إلاّ الهرب أو السيف، أرسلوا إلى المأمون يسألونه أن يتوسّط مع باديس ليوقف الحصار وينسحبوا هم بالتالي من وادي آش وأحوازها ويتنازلوا عنها لصالح باديس، فوافق باديس على ذلك، فخرجوا وأخْلَوْا القصبة، وعادت وادي آش إلى غرناطة. ووفى باديس بوعده، فتنازل للمأمون عن بسطة وأمر بإخلائها له نزولاً عند طلبه. وإثر ذلك ندم المعتصم على فعلته تلك، فأرسل إلى باديس يسأله العفو والإغضاء على ما كان منه، وأنه لم يُقْدِمْ على احتلال وادي آش لولا يوسف ابن نغرالة، ثم أتاه بنفسه ليجتمع به ويجدّد الحلف الذي كان قائماً بينهما، فقبل باديس اعتذاره وتجدد الحلف بينهما[1].

وذكر عبد المجيد نعنعي هذه الحادثة معتمداً في ذلك على رواية الأمير عبد الله، وقال إن باديس تنازل للمأمون عن مدينة بياسة[2]. وقد يكون نعنعي على حق؛ لأن الأمير عبد الله نفسه عاد وذكر أن ابن مَلْحان قائدَ مدينة بسطة في عهده ثار عليه وسلَّم بسطة إلى المعتصم[3].

ج ـ علاقته بإشبيلية:

أهمُّ ما شغل به باديس هو محاربته لبني عبّاد بإشبيلية؛ فالخصومة بين هؤلاء وبين بني زيري قديمة، بدأت، كما رأينا، منذ عهد حبوس، ولمّا كان باديس كبيرَ أمراء البربر بالأندلس وأقواهم شوكةً، فقد كان هؤلاء البربر يستنجدون به كلّما داهمهم خطر آتٍ من أمراء الأندلس المناوئين لهم، وذلك بموجب تحالف سياسي وعسكري فيما بينهم يرمي إلى الحؤول دون عودة الخلافة الأموية إلى الأندلس،

(١) اس بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٥٥ ـ ٥٧).

(٢) نعنعي الإسلام في طليطلة، دار النهضة العربية، بيروت (ص ١٨٤)

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٧١).

وبالتالي عودة الهيمنة العربية على مقدّرات البلاد[1].

وهكذا لم يكن أمام باديس في بداية حكمه إلّا أنْ يواجه بني عباد، بإشبيلية؛ لأن ملوك الطوائف كانوا يرومون أخذ بلاده وظلت الحروب والوقائع متصلة بين باديس والمعتضد ابن عباد بعد أن تخلّص باديس من والد المعتضد القاضي ابن عباد، وكانت الغلبة في معظمها للمعتضد، ثم استمر القتال بين باديس والمعتمد ابن المعتضد حتى تاريخ وفاة هذا الأخير[3].

١ - باديس يُنْجد البرزالي صاحب قرمونة عندما يهاجمه القاضي ابن عبّاد صاحب إشبيلية عام ٤٣١ هـ/ ١٠٣٩ م: كان القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عبّاد، مؤسسُ الدولة العبّادية بإشبيلية، يأمل في التغلب على ما كان يملكه البربر من الحصون القريبة من بلده، فسيَّر ابنه إسماعيل في المحرم من عام ٤٣١ هـ/ أيلول ١٠٣٩ م في عسكر مع من أجابه من قبائل البربر، لمحاصرة قرمونة وانتزاعها من يد صاحبها أبي عبد الله محمد بن عبد الله البرزالي الزناتي، إذ كانت في نظر القاضي حِصْنَ إشبيلية من الشرق، فاستولى عليها، وأخذ معها حِصْنين تابعين لها، هما أشونة[4] وإستجّه القريبان من إشبيلية، فاستنجد البرزالي بباديس، وإدريس بن علي بن حمود، صاحب مالقة، وكلاهما يتوجّس من أطماع ابن عباد ومشاريعه التوسّعية، فأتاه باديس بنفسه وقومه، وأمدّه إدريس الذي كان آنذاك على فراش الموت، بعسكر يقوده مدبِّرُ دولته أبو جعفر أحمد بن موسى، المعروف بابن بَقَنَّة أو ابن بقية، فاجتمعوا مع البرزالي، فلم يجسروا على إسماعيل الذي غلبت هيبته عليهم، فافترقوا دون قتال، وانصرف كل واحد منهم إلى بلده، فأخذ إسماعيلَ الغرورُ، فقوي أمله في الغلبة، فنهض بعسكره، مقتفياً أثر باديس، وذلك بعد ساعة من عودة عسكر باديس إلى غرناطة، فلحق به. وكان باديس قد أرسل إلى ابن بَقَنّة رسولاً على جناح السرعة يستنجده، فطار إليه، والتفَّت العساكر على مقربة من إستجه، فانهزم عسكر إسماعيل، وقُتِل إسماعيلُ وكان أول قتيل، وقُطع رأسه وحُمِل إلى باديس[5].

---

(١) نعمعي. الإسلام في طليطلة (ص ١٤٢).

(٢) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٠)

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢٦٦)

(٤) في الكامل في التاريخ لابن الأثير (ج٩ ص ٢٨٠) وفي ملوك الطوائف لدوزي (ص ٦٩) أشبونة

(٥) الحميدي: جذوة المقتبس (ص ٣٠ - ٣١)؛ الضبي. بغية الملتمس (ص ٣٧ - ٣٨)؛ ابن الأثير =

وأشار الذهبي إلى تلك المعركة، فتحدَّث عن إمداد إدريس للبرزالي، دون أن يذكر شيئاً عن مشاركة باديس فيها، ولا حدَّد تاريخها[1].

ويروي ابن عذاري أن إسماعيل قتل في المحرم من سنة ٤٣١ هـ/ في حرب عظيمة وقعت بينه وبين باديس؛ بسبب انحياز هذا الأخير إلى أبي الحـزم جَهْور بن جَهْور، صاحب قرطبة، عندما هدّده إسماعيل في عَقر داره قرطبة مبعوثاً من قبل والده القاضي. وكان مع إسماعيل جمع من البربر فَرُّوا عنه، ولم يبق معه إلاَّ طائفة يسيرة من فِتْيانه وعبيـده، وأخذت الحمـلات تتوالى عليـه إلى أن أكلت السيوف جميـع عسكره. ولما رأى أنه لا طاقة له بالقتال انحاز إلى موضع يَتَمَنَّع فيه، فركض فرسه، والظلام قد انسدل، فسقط في هوّة وسقط الفرس عليه، وأمسك به جُنْدُ باديس فحزّوا رأسه، وأخرجوا خاتمه من إصبعه[2].

٢ ـ باديس يغزو إشبيلية ويقتل صاحبها القاضي ابن عباد عام ٤٣١ هـ/ ١٠٣٩ م: كان باديس يطمع في إشبيلية ويأمل في ضمِّها إلى مملكته، فغزاها في جيش عظيم، فخرج إليه صاحبها القاضي ابن عباد بنفسه، فاقتتل الفريقان قريباً من إشبيلية قتالاً عظيماً، فقُتِل القاضي وعاد جيشه مهزوماً إلى إشبيلية، وذلك في المحرم من عام ٤٣١ هـ/ أيلول ١٠٣٩ م[3].

٣ ـ باديس يُخْفِقُ في إنجاد البرزالي صاحب قرمونة عندما يهاجمه المعتضد ابن القاضي ابن عباد: ضَيَّقَ المعتضدُ ابن عباد على محمد بن عبد الله البرزالي الزناتي، صاحب قرمونة، وسَدَّ مسالكه، وسَدَّدَ إليه مهالكه، فاستنجد البرزالي بباديس، فلمّا وصل باديس إلى قـرمونـة أخرج إليـه المعتضدُ جيشـه بقيادة ابنـه الظافـر. والتقى العسكران، فحمل عسكرٌ إشبيلية في عسكر باديس حملة خلعتهم عن مركزهم، فتفرّقوا

= الكامل في التاريخ (ج٩ ص ٢٨٠ ـ ٢٨٦)، عبد الواحد المراكشي. المعجب (ص ٦١ ـ ٦٢، ٩٥)، اس خلدون تاريخ ابن حلدون (م٦ ص ٣٦٩).

(١) الذهبي. سير أعلام النبلاء (ج١٧ ص ١٤١ ـ ١٤٢).

(٢) ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ١٩٩، ٢٠١ ـ ٢٠٣)

(٣) المصدر نفسه (ج٣ ص ٣١٦). وجاء في جذوة المقتبس للحميدي (ص ٨١) وفي بغية الملتمس للضبي (ص ١١٨) أن وفاة القاضي كانت قريباً من سنة ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨م. وفي وفيات الأعيان لابن خلكان (ج٥ ص ٢٢ ـ ٢٣) أنَّ القاضي توفي عام ٤٣٣ هـ/ ١٠٤١ م. وفي المعجب لعبد الواحد المراكشي (ص ٩٥): مات القاضي ابن عباد عام ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧ م

في أرض المعركة، وأوقع بهم الظافر أحسن إيقاع، وتركهم في تلك البقاع مضرّجين بدمائهم، وانصرف إلى إشبيلية، فَهُنِّيء المعتضدُ بذلك، وأنشده ابن عمار قصيدة دالية طويلة[1].

٤ ـ باديس يُنْجِدُ ابن يحيى اليحصبي صاحب لَبْلَة عندما يغزوه المعتضد ابن عباد: غزا المعتضد ابن عباد مدينة لَبْلَة، فاستنجد صاحبُها الحاجبُ أبو نصر فتح الله ابن يحيى اليحصبي بباديس، وبالمظفر محمد بن عبد الله بن الأفطس، صاحب بَطَلْيَوْس، وببني حمود أصحاب مالقة والجزيرة الخضراء، فتقدّم هؤلاء المتحالفون نحو إشبيلية، وعاثوا في نظرها، واشتبكت قواتهم بقوات المعتضد، فكثر القتل والهرج والسَّلْب، وأُجْبِرَ المعتضدُ على التقهقر نحو إشبيلية[2].

٥ ـ باديس وحلفاؤه البربر يُخْفِقون في الهجوم على إشبيلية عام ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧ م: اتفق زعماء البربر، باديس بن حبوس، وإسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة، ومحمد بن نوح الدَّمَّري صاحب مَوْرُور، وعبدون بن خَزْرون صاحب أَرْكُشْ، والمظفر محمد بن عبد الله ابن الأفطس صاحب بَطَلْيَوْس، وفتح الله بن يحيى اليحصبي صاحب لَبْلَة ووِلْبة، على مهاجمة المعتضد ابن عباد في عُقْر داره إشبيلية، فساروا جميعاً في عام ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧ م إلى إشبيلية، ومعهم أيضاً المهدي محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء، فنازلوا المعتضد، وانتسفوا أرضه، ثم انصرفوا وقد عجزوا عنه، فلم يَقْضِ الله لهم ما أرادوا، ولم يكن لهم بعد ذلك اجتماع ولا اتفاق[3].

٦ ـ باديس يُخْفق في إنجاد ابن خزرون صاحب أَرْكُشْ عندما يهاجمه المعتضد ابن عباد عام ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥ م: بعد أن تخلّص المعتضدُ ابن عباد من أبي نور بن أبي قرّة صاحب رُنْدة وضَمَّ إمارته إلى إشبيلية عام ٤٥٧ هـ/ ١٠٦٤ م، ومن محمد بن نوح الدَّمَّري صاحب مَوْرُوْر وضَمَّ إمارته إلى بلاده عام ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥ م، طَمِعَ في ضَمِّ أَرْكُشْ وكان صاحبها آنذاك محمد بن خزرون اليفرني الزناتي، فابتنى قلعة

---

(١) ابن خاقان: قلائد العقيان (ص ٨٧).

(٢) ابن بسام: الذخيرة (ق٢ ص ٣٤)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢١١).

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٤٢).

حصينة على مقربة منها، وأخذ رجالُهُ يُغِيْرُوْنَ منها عليها، ولمَّا لم يقدر صاحبُها ابنُ خزرون على مقاومة المعتضد قَصَدَ باديسَ على رأس جماعة من قومه، واتفقوا معه على أن يُعْطوه أَرْكُشْ وجميع ما بأيديهم من بلاد شذونة وشريش، ويُعْطيهم هو بلداً يسكنونه تحت كنفه، فتمَّ ذلك، وبعث باديسُ عسكراً ضخماً، فخرجوا عن غرناطة قاصدين أَرْكُشْ، فلمَّا وصلوها سلَّموها إلى جند باديس وخرجوا بأموالهم وحريمهم قاصدين غرناطة، فكانت حملة دوابّهم نحو خمسمائة بغل، وبينما هم في الطريق، تعرّض لهم المعتضدُ بفحص شِلْب Silves على بعد نحو عشرين ميلاً من أَرْكُشْ، فوقعت الحرب، فلجأ البربر إلى ربوة قريبة منهم وحطّوا أثقالهم إلى الصباح حيث حمي وطيس المعركة، فانهزم عسكر باديس وقُتِل قائدُه، وقتل أيضاً ابن خزرون وأُبيْدُ أكثرُ أهله، ودخل المعتضدُ قلعة أَرْكُشْ وسائر بلاد شذونة، وكان ذلك آخر يوم من سنة ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥ م[١]. وقيل: تولّى القائم بن محمد بن خزرون الحكم بأَرْكُشْ إثر موت أبيه، فحاصره المعتضد وضايقه مضايقة شديدة إلى أن خذله أصحابُه، فغلب عليه المعتضدُ وافتضَّ مُلْكَه وذلك في عام ٤٦١ هـ/ ١٠٦٨ م[٢].

٧ ـ **المعتضد يحتلُّ مالقة في بداية عام ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ م فيستعيدها باديس بعد أيام**: منذ أن ضَمَّ باديسُ مالقةَ إلى مملكته في عام ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م، وأهلُ مالقة يميلون إلى المعتضد ابن عباد ويفضّلونه على باديس، برغم إحسان باديس إليهم؛ إذ كان قد أصلح من أحوالهم الكثير وأنزل فقهاءهم ومُقْرئيهم على أفضل المراتب، حيث كانوا في عهد بني حمود في غير رتبة وفي حال قِلّة[٣]. وقد آثروا المعتضدَ على باديس لكونهم عرباً يرفضون أن يكونوا تحت حكم البربر[٤].

وقد انتهز أهل مالقة فرصة وجود باديس في غرناطة، وناجَوْا المعتضدَ، فلبَّى دعاءهم، وأمر ولديه جابراً ومحمداً اللذين بِرُنْدَة بالزحف إلى مالقة، فأسرعا إليها على رأس كتيبة من الجُنْد، واستوليا عليها، عدا قصبتها، فإنها امتنعت بفرقة من السودان

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢٧١ ـ ٢٧٣)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠).

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢٩٤).

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٥٨).

(٤) ابن بسام: الذخيرة (ق٢ ص ٤٩)، ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢٧٣)

المغاربة[1]. ويروي ابن خاقان أن المعتضد وجَّه إلى مالقة ابنه محمداً على رأس جيش عرمرم، ولمَّا وصلها انقادت إليه إلَّا قصبتها[2].

ويفهم من رواية ابن عذاري أن المعتضد سيَّر جيوشه إلى مالقة في بداية عام ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ م، بعد أن ملك أَرْكُشْ في آخر يوم من سنة ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥ م: «. . . آخر يوم من سنة ثمانٍ وخمسين وأربعمائة، ومَلَكَ ابنُ عباد قلعة أركش. . . إلى أن قطع دابر أمراء البرابرة، ولم يبق منهم سوى باديس بن حبوس، فجيَّشَ الجيوشَ وعَمَّرَ الأسطولَ إلى مالقة فحلَّ بِمَرْساها وجَعْجَعَ بأهلها، وأقام عليها أياماً برّاً وبحراً»[3].

وكان أهل مالقة قد أشاروا على ولدي المعتضد بضبط ما حول مدينة مالقة من المعاقل والحصون، ولكنهما غفلا عن ذلك[4]. وكانا قد عكفا على اللهو والملذّات، وآثرا الراحة، وأخذا يبحثان عن النساء لاعتقادهما بأنه لا خطرَ بَعْدُ يهدّدهما[5].

وكانت فرقة السودان المغاربة التي تلوذ بقصبة مالقة قد وجدت مُتَّسعاً من الوقت للاتصال بباديس، فأخبرته بأن الفرصة سانحة لمباغتة عسكر المعتضد والقضاء عليه، فلبّاهم بالمَدَد[6]. وكان قائد القصبة آنذاك مخلوف بن مَلُّوْل[7]. فأخرج باديسُ من حينه النايةَ قائدَ جنده على رأس كتيبة، فدخل النايةُ مالقةَ ودارت الدائرة على جيش المعتضد[8]. وقد أُسِرَ وقُتِلَ الكثير من جنود المعتضد وامتلأت أيدي جنود باديس من السلاح، ولجأ ولدا المعتضد إلى رندة[9].

ويخبرنا الأمير عبد الله أنَّ يحيى بن يِفْران قائد عسكر باديس هو الذي قاد المعركة بمالقة ضد جيش المعتضد وأنه قتل فيها، وكانت فرحة باديس كبيرة بمقتله

(١) ابن بسام: الذخيرة (ق٢ ص ٤٩ ـ ٥٠).
(٢) ابن خاقان: قلائد العقيان (ص ١٨).
(٣) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢٧٢)
(٤) ابن بسام: الذخيرة (ق٢ ص ٥٠)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢٧٤).
(٥) ابن خاقان: قلائد العقيان (ص ١٩).
(٦) ابن بسام: الذخيرة (ق٢ ص ٥٠)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢٧٤).
(٧) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٥٨).
(٨) ابن خاقان: قلائد العقيان (ص ١٨ ـ ١٩).
(٩) ابن بسام: الذخيرة (ق٢ ص ٥٠)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢٧٤)

وبفتح مالقة في آن معاً؛ لأنَّ يحيى كان قد نال من باديس كثيراً من ماله وعرضه، فحقد عليه باديس وعزم على خلعه كقائد لعسكره بعد فتح مالقة[1].

وقد أشار ابن الخطيب إلى تلك المعركة إشارة عابرة[2]. واكتفى بريتو إي ڤيڤس بالإشارة إلى هزيمة المعتضد وعودة مالقة إلى باديس[3].

وبعد أن استرجع باديس مالقة، عفا عن أهلها فزادفي مراتب فقهائها ومقرئيها[4].

وإثر هزيمته لم يَرْعَوِ المعتضد، فهاجم غرناطة، فلم يخرج إليه أحد من جندها، فعاد إلى حضرته إشبيلية يرفل في ثوب العزّ ورداء النصر[5]. وقد أورد ابن بسام رقعة كتبها ابن عبد البر عن أميره المعتضد إلى المنصور عبد العزيز بن أبي عامر، صاحب بلنسية، يشير فيها إلى مهاجمة جيش المعتضد بلد باديس بن حبوس، دون أن يحدّد الزمان[6]. واكتفى ابن خلدون بالإشارة إلى معارك كانت بين باديس والمعتضد دون أن يشير إلى المكان الذي وقعت فيه، أو إلى السنة التي حدثت فيها[7].

٨ ـ سوء العلاقات بين باديس والمعتمد ابن المعتضد ابن عباد: عَلَتْ يدُ المعتمد على نظرائه ملوك الطوائف، وخاصة باديسَ صاحبَ غرناطة، والمتوكل ابن الأفطس صاحب بَطَلْيَوْس، والمعتصم بن صمادح صاحب ألمرية، بحيث كانوا جميعاً يخطبون سِلْمه، ويعملون في مَرْضاته[8].

د ـ علاقته بقرطبة:

١ ـ تحالفه مع أبي الوليد محمد بن جَهْور صاحب قرطبة: يروي ابن بسام وابن عذاري روايتين تدلّان على تحالف باديس مع أبي الوليد محمد بن جَهْور، صاحب

(١) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٥٧ ـ ٥٨).
(٢) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٤٣٦)
(٣) Prieto Y Vives Los Reyes de Taifas (p 29)
(٤) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٥٨)
(٥) ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ٢٧٣)
(٦) ابن بسام: الذخيرة (ق٣ ص ١٤١).
(٧) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤١).
(٨) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤١)؛ المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٤٣٩).

قرطبة، ومفادهما أن المعتضد بن عباد، لمّا قرّر مهاجمة قرطبة للاستيلاء عليها، جهّز جيشاً في عام ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م، وجعل على رأسه ابنه إسماعيل، خليفته ووليّ عهده، وأمره بالزحف إلى قرطبة، إلاّ أنّ إسماعيل كره ما حَمّله أبوه من ذلك، وحَسَرَ على معصيته؛ إذ صعب عليه أمر الهجوم على قرطبة لقلّة مَنْ معه من الجيش من جهة، ولتيقّنه من أن باديس سيدخل الحرب لصالح حليفه ابن جَهْور، فيخسر بالتالي الحرب ويكون فريسة سهلة لباديس وابن جَهْور معاً، فغضب المعتضد لتصرف ابنه، فلم يتمالك أعصابه، وأقدم على قتله[١].

ويروي ابن عذاري، نقلاً عن جماعة من المؤرخين، أن مقتل إسماعيل كان في سنة ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م[٢].

وقد أشار ابن زيدون إلى ذلك التحالف بين باديس وابن جَهْور في قوله من قصيدة يمدح فيها ابنَ جَهْور ويشكر باديس[٣]:

فِداءٌ لباديسَ النفوسُ، وَجَادَهُ ... مِنَ الشُّكْرِ في أُفْقِ الوَفَاءِ غَمَامُ

فما لَحِقَتْ تلك العهودَ ملامةٌ ... ولا ذُمَّ مِنْ ذاك الحفاظِ ذِمامُ

٢ ـ باديس وأبو الوليد محمد بن جَهْور وبعض أمراء البربر يغزون مَوْرُور: تحالف باديس مع أبي الوليد ابن جَهْور، وأبي عبد الله محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة، وأبي نور هلال بن أبي قُرّة اليَفْرُني الزناتي صاحب رُنْدة، على غزو محمد بن نوح الدَّمَّري اليفرني الزناتي صاحب مورور، فحشدوا الجيوش وقصدوا حِصْناً من حصون مورور، وأقاموا عليه أياماً يقاتلون أهله حتى دخوله عَنْوة، فقتلوا رجاله وهتكوا أستاره وبعد ثلاثة أيام من القتال فتك باديس بنساء الحصن وهتك أعراضهن[٤].

هـ ـ علاقته بطليطلة:

١ ـ تحالفه غير الوطيد بالمأمون ابن ذي النون صاحب طليطلة: كانت أراضي

(١) ابن بسام: الذخيرة (ق٣ ص ١٤٣ ـ ١٤٥)؛ ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ٢٤٨).

(٢) ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٩)

(٣) ابن زيدون: ديوان ابن زيدون، شرح وتحقيق كرم البستاني، دار بيروت، بيروت، ١٩٧٩ (ص ٢٣٥).

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢٦٩)

طليلة ملاصقة لأراضي غرناطة، ففضّل صاحبها المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذي النون ألَّا يثير غضب باديس؛ لِمَا كان لباديس من نفوذ بين سائر البربر من جهة، ولِمَا كان عنده من قدرات عسكرية تفوق قدرات طليطلة من جهة ثانية. ولم يكن المأمون يشعر في أعماق نفسه بأي التزام تجاه قضية البربر في الأندلس، ولا كان شديد التحسّس بقضاياهم، ورغم كونه بربرياً، فقد حافظ طيلة فترة حكمه (٤٣٥ - ٤٦٧ هـ/ ١٠٤٣ - ١٠٧٤ م) على سياسة الحياد بين العرب والبربر، وهمُّه الوحيد مصالحه الذاتية. ولم يكن أهل غرناطة بالمقابل يحبونه أو يثقون به؛ إذ كانوا يعتبرونه عدوّاً يرتدي ملابس الصديق، وبرغم ذلك، فقد اعتمدوا عليه في صراعهم مع المعتضد ابن عباد[١]. وقد مرَّ معنا أنه توسّط في النزاع بين باديس والمعتصم ابن صمادح صاحب ألمرية، برغم مشاركته الفعلية بجانب باديس في ذلك النزاع، مقابل الحصول على أحد معاقل غرناطة الهامة[٢].

٢ - تحالفه مع القادر يحيى حفيد المأمون ابن ذي النون صاحب طليطلة: سار القادر يحيى ابن ذي النون على سَنَن جدِّه المأمون في سياسة التقارب من باديس، فكان يستنجد بباديس وقومه ليردَّ مكايد بني عباد أصحاب إشبيلية ويستدفع إستطالة أعوانهم[٣].

و - علاقته بإسبانيا النصرانية:

١ - باديس يقاوم غارات فردلند الأول صاحب قشتالة: أراد فردلند الأول صاحب قشتالة وليون، بعد انتصاره على أقوى ملوك الطوائف، أنْ يوجّه قوة إلى مملكة غرناطة أقوى الممالك البربرية، منتهزاً حال العداء بينها وبين ممالك العرب، فزحف إلى غرناطة عام ٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣ م، فواجهه باديس بقواته وأنزل به هزيمة ساحقة[٤].

وبعد أن استردَّ المقتدرُ أحمد بن سليمان بن هُوْد، صاحبُ سرقسطة، بَرْبَشْتَرَ من النصارى الإسبان عام ٤٥٧ هـ/ ١٠٦٥ م، شَنَّ هؤلاء غارةً على ناحية غرناطة،

---

(١) نعنعي. الإسلام في طليطلة (ص ١٤٢ - ١٤٤)

(٢) راجع ما فاتنا في هذا البحث (ص ١٣٧).

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٦٩).

(٤) نعنعي. الإسلام في طليطلة (ص ١٥٤)

فخرج إليهم باديسُ وقومه، فهزموهم واحْتَوَوْا على مضربهم وانتهبوه[1].

٢ ـ استمرار الخلاف بين باديس وألفونسو السادس ابن فردلند الأول صاحب قشتالة: إثر وفاة فردلند الأول ملك قشتالة وليون في عام ٤٥٨ هـ/ ٢٧ كانون الأول ١٠٦٥ م، خلفه على العرش ولده سانشو وكانت قشتالة من نصيبه، وكانت ليون من نصيب ألفونسو السادس. وذلك حسب وصية والدهما. وبعد صراع على السلطة بين الأخوين، أدّى إلى مقتل سانشو في عام ٤٦٥ هـ/ ٧ تشرين الأول ١٠٧٢ م، اعتلى ألفونسو العرش بمساعدة أخته أوراكا، وأصبح في حوزته قشتالة وليون معاً، وسار على سَنَن أبيه في معاداة باديس، فعزم على محاربة غرناطة وإخضاعها لسلطانه، فتدخّل عندئذ المأمونُ ابن ذي النون، صاحبُ طليطلة بينهما وأزال أسباب خلافهما، إذ كان المأمون آنذاك على صداقة بألفونسو وعلى علاقات حسنة معه، منذ أن التجأ ألفونسو إلى طليطلة إثر الصراع الذي نشب بينه وبين أخيه سانشو[2].

وظلَّ باديس كغيره من ملوك الطوائف، يُداري ألفونسو السادس ويتّقيه بالجزية حتى آخر أيامه[3].

ثالثاً ـ أعماله الإدارية والمعمارية:

وطَّد باديس الدولة بغرناطة، ونظّم مراتبها وعُمّالاتها، وأنشأ جيشاً قوياً مرابطاً، معظمه من قومه صنهاجة، وبذل له المال الوفير[4]. وكان أعظم ملوك البربر شأناً، فتناهى أمره في الجلالة، وأذعنت له الأعداء، وضخم أمره، وأضاف إلى مملكته كورتَيْ رَيُّه وقِنَّسْرين، فاتّسع نظر غرناطة، وعظمت جبايتها، وأصبح سلطانه يمتدُّ من أطراف كورتَيْ بسطة وجيّان شرقاً إلى أبواب إستجّه ومالقة ورندة غرباً، ومن جيان وبياسة شمالاً حتى البحر المتوسط جنوباً[5]. وولّى على جيّان أحد أبنائه، وعلى مالقة حفيده تميم بن بلقين، فاستبدَّ تميم بها وصنع ثريّا للفضة بمسجدها[6].

(١) ابن الكردبوس. تاريخ الأندلس (ص ٧٣)

(٢) نعنعي. الإسلام في طليطلة (ص ١٤٤ ـ ١٤٥، ١٥٦ ـ ١٦٨).

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤١)؛ المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٤٣٩)

(٤) عنان: دول الطوائف (ص ١٣٧)

(٥) ابن الخطيب أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠) والإحاطة (ج١ ص ٤٣٥) واللمحة البدرية (ص ٣١)

(٦) ابن الخطيب أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤، ٢٣٦)

وهكذا فإن العظمة التي عرفتها غرناطة في عهد حبوس، أكملها ولده باديس بنطاق واسع خلال فترة حكمه الطويلة والمزدهرة[١]. وقد أقرَّ المستشرق الإسباني لافونت بعظمة باديس وازدهار غرناطة في عهده[٢].

وقد زاد باديس في عمارة غرناطة حتى مَصَّرَها[٣]. وأكمل تشييد قصبتها التي كان قد بناها والده حبوس على الشاطىء الغربي لنهر حَدرُّه، حتى وسَّعَ رقعتها[٤]. وذكر ابن خلدون والقلقشندي أنَّ باديس هو الذي اختطّ قصبة غرناطة[٥]. وقد أنشأ باديس هذه القصبة فوق أنقاض القصبة القديمة، واتْخذها مقاماً له ومركزاً لحكومته، وسُمِّيَتْ بالقلعة الحمراء تجديداً لاسمها القديم[٦]. وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن إسماعيل ابن نغرالة اليهودي، وزير باديس، هو الذي أعاد بناء هذه القصبة ما بين عامي ٤٤٣ هـ/ ١٠٥٢ م و٤٤٧ هـ/ ١٠٥٦ م[٧]. ويرى هنري بيرس أن يوسف بن إسماعيل ابن نغرالة هو الذي بدأ ببنيان هذه القصبة[٨].

وشاد باديس القصور بغرناطة[٩]، ومنها قصره الذي بناه داخل القصبة والذي لم يكن له نظير على الأرض، وقد سُمِّي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي بيت الديك Casa del Gallo[١٠]. وأقام داخل القصبة مسجداً، وقد دفن فيه[١١]. وقد ذكر ابن الخطيب هذا المسجد وأسماه مسجد القصبة القُدْمى من دار باديس[١٢].

---

(١) Gonzalo Maeso· Garnata al-Yahud (P 56).

(٢) Lafuente y Alcántara. Inscripciones árabes de Granada (P 20).

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٦٩)؛ القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٤٨)؛ المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٥٠).

(٤) المقري. نفح الطيب (ج١ ص ١٥٠).

(٥) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٦٩)؛ القلقشندي· صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٤٨)

(٦) عنان. دول الطوائف: (ص ١٣٧) والآثار الأندلسية (ص ١٨٩) ونهاية الأندلس (ص ٢٧٤)

(٧) H Terrasse Encyclopédie de l'Islam (T. II, P 1040)

(٨) Pérès· La poésie Andalouse (P. 146)

(٩) ابن خلدون تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٦٩)؛ القلقشندي· صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٤٨).

(١٠) عنان· الآثار الأندلسية (ص ١٨٩)؛ مورينو. الفن الإسلامي في إسبانيا (ص ٣٠٦)؛ Simonet Descripción del reino de Granada (P. 43)

(١١) عنان: دول الطوائف (ص ١٣٧).

(١٢) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٤٢).

وشيد باديس حصون غرناطة[١]، وحَصَّنَ أسوارها[٢]. وأنشأ سوراً ضخماً حول الربوة التي تقع عليها القصبة[٣]. وجَدَّدَ تشييد قصبة مالقة، ووسّع منشآتها حتى غدت من أعظم القصبات الأندلسية[٤]. وهذا ما ذهب إليه الأمير عبد الله في قوله: «وبنى قصبتها بنياناً لم يَقْدِرْ على مثله أحدٌ في زمانه»[٥]. وقد شرع في إعادة تشييدها في عام ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م، وانتهى منها في عام ٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣ م[٦]. وما تزال آثارها باقية إلى اليوم[٧]. وقد اكتشفوا فيها طائفة من الدُّوْر الصغيرة التي لا تقلّ روعةً من قصر مالقة والتي قد تكون بنيت أثناء بناء القصر، أو في عهد باديس، أو في عهد عبد الله بن بلقين بن باديس، والأرجح أنها أقيمت في عهد عبد الله[٨].

وكانت تلك الحصون والمباني التي زيَّن بها باديس العاصمة غرناطة رمز قوة البربر في الأندلس[٩].

رابعاً ـ وزراؤه، وكُتّابه، وقضاته:

عندما تسلَّم باديس مقاليد السلطة أمْضىَ وزيرَ أبيه وكاتبه، إسماعيل ابن نغرالة، على وزارته وكتابته، وسائر أعماله، ورفعه فوق كل منـزلة[١٠]. واكتفى ابن خلدون بجعل إسماعيل كاتباً لباديس[١١]. أما ابن سعيد، فقد أضفى عليه فقط لقب الوزير[١٢].

وإلى جانب تقليده مَنْصِبَيْ الوزير الأول والكاتب الأعلى، تـولَّى إسماعيلُ قيادة

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٦٩)

(٢) القلقشندي. صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٤٨).

(٣) عنان الآثار الأندلسية (ص ١٨٩) ونهاية الأندلس (٢٧٤)

(٤) نفسه. الآثار الأندلسية (ص ٢٤٣ - ٢٤٤)

(٥) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ٤٣).

(٦) مورينو. الفن الإسلامي في إسبانيا (ص ٢٨٩).

(٧) عنان دول الطوائف (ص ١٣٧).

(٨) مورينو. الفن الإسلامي في إسبانيا (ص ٢٩٧)

(٩) دائرة المعارف الإسلامية (ج٣ ص ٢٦٧) أ. شمتس

(١٠) ابن عذاري البيان المغرب (ج٣ ٢٦٤)، ابن الخطيب الإحاطة (ج١ ص ٤٣٤ - ٤٣٨) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠)

(١١) ابن خلدون تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٦).

(١٢) ابن سعيد: المغرب (ج٢ ص ١١٤).

جيش غرناطة، وقام بعشرين غزوة خلال عشرين عاماً، في كل عام غزوة. وقد يكون تولّى قيادة الجيش في عهد حبوس، وقاد عسكر كل من حبوس وابنه باديس في معاركهما مع ملوك الطوائف، وخاصة مع صاحب مالقة عندما ضُمَّتْ مالقة إلى مملكة غرناطة عام ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م، ومع ملوك إشبيلية وقرمونة وألمرية. وديوانه يمدُّنا بمعلومات تاريخية قيّمة عن هذه المعارك، ويقدِّم لنا وصفا دقيقاً لها[١]

كذلك تولّى إسماعيل جباية الأموال في عهد باديس، فاختار عُمّاله ومتصرّفيه في الأشغال من اليهود، فتصرّف هؤلاء بكثير من الشؤون الإدارية والماليّة، فاكتسبوا الجاه والمال في أيامه، واستطالوا على المسلمين[٢]. وقد أشار ابن بسام إلى هذا الأمر في فصل بعنوان «تلخيص التعريف بمقتل ذلك اليهودي»، ولكنه خلط بين إسماعيل وابنه يوسف، وكان عليه أن يضع اسم يوسف في العنوان، واسم إسماعيل في المتن، لتَصِحَّ الروايةُ ويصبح إسماعيلُ هو المعنيَّ بقوله: «وكان أبوه يوسف رجلاً من عامّة اليهود، حسن السيرة فيهم، ميمون النقيبة عندهم، تولّى لباديس ولأبيه حبوس بغرناطة جباية الأموال، وتدبير أكثر الأعمال، وَنَجْمُ ابنه بَعْدُ غلاماً»[٣].

وقد حصر الأمير عبد الله الأسباب التي دفعت بباديس إلى اختيار إسماعيل لتلك المناصب العليا في الدولة بأربعة؛ أولها أنَّ إسماعيل كشف المؤامرة التي دُبِّرَتْ للتخلص من باديس وأحاط باديسَ بها عِلْماً قبل وقوعها، وثانيها الصفات التي يتحلّى بها إسماعيل ومنها الكِيَاسة والمداراة للناس، وثالثها أن إسماعيل ذِمِّيٌّ لا تَشْرَهُ نفسه إلى الحكم، ورابعها احتياج باديس إلى الأموال التي يحاول بها أَمْرَ المُلْكِ من جهة، ويُغْدِقُ على بني عمه صنهاجة من جهة ثانية، ولم يكن آنذاك شخصية تؤمِّنُ تلك الأموال إلّا إسماعيل، فكان يجمعها عن طريق اليهود الذين عَيَّنَهم جُباةً له، ويعطيها لباديس فيملأ بها بيت المال[٤].

---

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم (ج٣ ص ١٢، من مقدمة المحقق)؛

Gonzalo Maeso: Garnata al-Yahud (P 61 - 62); Maeso. Manual (P 471)

(٢) ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ٢٦٤)؛ ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٣٨).

(٣) ابن بسام: الذخيرة (ق ١ ص ٧٦٦)

(٤) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣١ - ٣٢) وانظر أيضاً:

Gonzalo Maeso· Garnata al-Yahud (P 75)

وهكذا وثق باديس بإسماعيل كما كان يثق به والده حبوس من قبل[1] . فاستولى إسماعيل على سلطانه كما استولى من قَبْلُ على دولة أبيه حبوس، وظل كذلك إلى أن توفي . وقد اعترف بذلك جميع الذين ترجموا له[2] .

وقد توفي إسماعيل عام ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م[3]. وقد خلط ابن الخطيب والنباهي وابن خلدون بينه وبين ابنه يوسف، وجعلوا وفاته عام ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ م[4] ، وهو العام الذي قُتِلَ فيه ابنه يوسف. وشاركهم ابن سعيد في هذا الوهم، دون تحديد تاريخ الوفاة، فذكر أن صنهاجة أصحاب الدولة قتلوا إسماعيل بغير أمر الملك، ونهبوا دُوْرَ اليهود وقتلوهم[5] . ورغم الدراسة القيْمة والمستفيضة التي قام بها المستشرق الإسباني غونثالو مايسو عن إسماعيل، فإنه لم يَهْتَدِ إلى تاريخ وفاة هذا الرجل[6] .

وكان لإسماعيل ولدٌ اسمه يوسف ويُكْنى أبا الحسين، حمله أبوه على مطالعة الكتب، وجمع إليه المعلّمين والأدباء من كل ناحية، يعلّمونه ويدارسونه، وأعلقه بصناعة الكتابة، وثقّفه بشتى العلوم والآداب، ثم ألحقه بخدمة بلقين بن باديس كاتباً عنده، وأعدَّه للقيام بأعباء الوزارة بعده[7] . وأوصاه بأنْ يسعى في طلب الوزراء، وعرض عليه الأبواب التي منها يكون حَتْفُ كلٍّ واحد منهم. ولما توفي إسماعيل كان ابنه يوسف في سن الصِّبا، فكره باديس توليته وطلب من علي ابن القروي أن يلتزم خدمة المملكة، فتقرّب يوسف بأمواله الجمّة التي تركها له أبوه إلى وزيرَيْ باديس، علي وعبد الله ابنَيْ القروي، فاطمأنّا إليه وَنَصَحَا باديسَ بالاعتماد عليه، فقدَّمه على

---

(١) Pérès. La poésie Andalouse (P. 270)

(٢) انظر في ذلك: صاعد الأندلسي. طبقات الأمم (ص ١٣٦)؛ ابن خاقان: قلائد العقيان (ص ١٨)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠)؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٦).

(٣) صاعد الأندلسي. طبقات الأمم (ص ١٣٦).

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٣٩)؛ النباهي المرقبة العليا (ص ٩١)؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٦). وانظر أيضاً. دائرة المعارف الإسلامية (ج٣ ص ٢٦٧)؛ Prieto Y Vives: Los Reyes de Taifas (p. 29).

(٥) ابن سعيد: المغرب (ج٢ ص ١١٤).

(٦) Gonzalo Maeso. Manual (P 469)

(٧) ابن الخطيب الإحاطة (ج١ ص ٤٣٩)

العمّال والجبايات. ثم استطاع يوسف أن ينتزع له بالحيلة ما كان بأيدي الوزيرين الأخوين من أملاك[1].

وبذكائه ارتقى يوسف إلى خطة الوزارة التي تبوّأها أبوه، فخلف أباه على منصب الوزير الأول[2]. وحدّد إحسان عباس تاريخ ارتقائه إلى الوزارة سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م أو على الأرجح سنة ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م[3].

وقد عَيَّنَ معظمَ المتصرّفين والعمّال من اليهود، وأخذ نفسه بالاجتهاد في جميع المال واستخراجه، فاستطاع بحنكته أن يملأ خزائن باديس بها وأن يمكّنه من الإنفاق على جيشه ومن تحقيق مشاريعه الإنشائية، فزادت منزلته عند باديس، فرفعه فوق سائر كُتّابه ووزراءه وفوَّضه في جميع أموره، فاجتمعت في يده السلطات شيئاً فشيئاً حتى غَدَا كأبيه من قبل، أولَ رجلٍ في الدولة وأَمْضاهُمْ تصرّفاً في شؤونها[4].

وسلَّمَ يوسفُ بعضَ اليهود المناصب الهامة بغرناطة، وعلى رأسهم الشاعر ابن عِزْرا الذي كان يُتْقن اللغة العربية إلى جانب العبرية، وكان ينظم بالعربية في موضوعات الغزل والخمر ووصف الطبيعة وغيرها من أغراض الشعر[5].

واتّخذ يوسفُ لقبَ أبيه وهو الناغيد[6]. وكان يظهر بمظهر أميره باديس على حَدِّ قول ابن بسام: «أخبرني مَنْ رآه يساير صاحبه بساحة قرطبة في بعض قَدَمَاته عليها لبعض تلك الشؤون المظلّة، والفتن المصمئلّة (أي المذهلة)، قال المحدِّثُ: فرأيته مع باديس، فلم أُفَرِّقْ بين الرئيس والمرؤوس»[7].

وكان ليوسف على أميره جواسيس من نساء وفتيان في قصره، يغمرهم بالمال، بحيث لم يكن يُخْفَى عليه شيء من أموره من كل ما يجري داخل القصر من شرابٍ

---

(١) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٦ ـ ٣٨).

(٢) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٤٣٩).

(٣) ابن حزم. رسائل ابن حزم (ج٣ ص ١٩، من مقدمة المحقق).

(٤) ابن عذاري. البيان المعرب (ج٣ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥)؛ ابن الخطيب الإحاطة (ج١ ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠).

(٥) Gonzalo Maeso. Garnata al-Yahud (P 77)

(٦) ابن حزم: رسائل ابن حزم (ج٣ ص ٨، من مقدمة المحقق)؛ Gonzalo Maeso. Garnata al-Yahud (P. 76)

(٧) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٧٦٧)

ولَهْوٍ وجِدّ وهَزْلٍ إلا وعَلِمَ به هو واليهود[1].

وبعد موت ابنه بلقين على يد يوسف، انطوى باديس على نفسه، وزهد في طلب البلاد، وأخلد إلى الراحة، وفوّض أمره إلى وزيره يوسف، فتمكّن هذا الأخير بما شاء من الأمر والنهي، واستولى على مقاليد الأمور كلها، بحيث صار باديس لا يقطع أمراً دونه[2].

وتمادى يوسف في سلطانه، وشمخ بأنفه، فتطاول على القرآن الكريم، وجاهر في الطعن على ملّة الإسلام، واليهودُ مع ذلك تتشاءم باسمه، وتتظلّم من جُور حكمه[3]. وقد هاجمه ابن حزم دون أن يذكر اسمه؛ ففي رسالته الموسومة بـ «الردّ على ابن النغريلة»، يشير إلى أنه رجل من اليهود يكره الإسلام، وأنّ البَطَرَ أرخى عِنانَه، وأنّ نفسه شَمَخَتْ لكثرة الأموال التي جمعها في ظل ملك ضعيف. «فإنّ بعضَ مَنْ تَقَلَّى قَلْبُه للعداوةِ للإسلام وأهلِه، وذُوِّبَتْ كَبِدُهُ بِبُغْضِهِ الرسولَ ﷺ، مِنْ مُتَدَهِّرَةِ الزنادقةِ، المُسْتَسِرِّيْنَ بأذَلِّ المِلَلِ وأَرْذَلِ النِّحَلِ من اليهود. . . أَطْلَقَ الأَشَرُ لِسانَهُ، وأَرْخَى البَطَرُ عِنانَهُ، واستشمختْ لكثرة الأموال لديه نَفْسُه المهينة، وأَطْغَى توافر الذهب والفِضّة عنده هِمَّتَهُ الحقيرة، فألَّف كتاباً قَصَدَ فيه، بزعمه، إلى إبانة تناقض كلام الله، عَزَّ وجل، في القرآن، اغتراراً بالله تعالى أولاً، ثم بِمَلِكٍ ضَعَفَةٍ ثانياً. . . . الزنديقُ المستبطنُ مذهبَ الدهرية في باطنه، المُتَكَفِّنُ بتابوت اليهودية في ظاهره»[4]. ثم ينعته في هذه الرسالة بالجاهل الوقاح، والقليل الفهم، والخسيس الزنديق، والمائق، والسخيف، والأنْوَك، والمجنون، وضعيف النفس، والملعون[5].

وإلى جانب ذلك، كان يوسف يحتقر الأديان جميعاً؛ إذ لم يكن يهودياً إلاَّ بالاسم فقط، فقد حمل على الدين الموسوي، ولم يكن يؤمن بكبار رجال الدين اليهودي، ووصل به الأمر إلى حَدِّ احتقارهم. كما جهر بالغَضِّ من الدين المحمدي، وحَرَّف كثيراً من آيات القرآن الكريم وتَهَكَّمَ على بعضها، وجاهر بالإلحاد، وأعلن أنَّ

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢٦٥)، ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٤٠)

(٢) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٤٢ - ٤٦)، ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠) والإحاطة (ج١ ص ٤٣٧).

(٣) ابن بسام. الذخيرة (ق١ ص ٧٦٦)

(٤) ابن حزم: رسائل ابن حزم (ج٣ ص ٤٢)

(٥) المصدر نفسه (ص ٤١ - ٧٠)

العقل لا يمكنه تقبّل العقيدة الإسلامية، وأساء إلى العرب والبربر وحتى اليهود، وجرح كرامة الجميع بصلفه وكبريائه وتعاليه على الناس وكثرة مظالمه وقلة إنصافه وعدم رعايته العدل، وحمل كثيراً من جمهرة المسلمين على معاداته، وعلى رأسهم الزاهد أبو إسحاق الإلبيري الذي ذاعت قصيدته في الإغراء باليهود [١].

وبسبب حظوة النابة عند باديس، لم يعد يوسف يثق بأميره باديس، فخاف على نفسه وانقطع رجاؤه [٢].

وهكذا رأى يوسف تغيّر باديس عليه، فشاور في ذلك كبار اليهود، فرأى بعضهم أن ينجو بنفسه ويأخذ جُلَّ ماله إلى أي البلاد أَحَبَّ، واستقرَّ الرأيُ أخيراً على أن يخاطب المعتصم ابن صمادح، صاحبَ ألمرية، لقرب ألمرية من غرناطة، وفَضَّلَ الاتصال بالمعتصم على الهرب إلى أي بلد خوفاً من أن يطلبه باديسُ من صاحب ذلك البلد، وصادف آنذاك وجودُ ابن أرقم بغرناطة كمبعوثٍ من المعتصم إلى باديس، فاستجار يوسف به، ولكن ابن أرقم أَلْمَحَ إلى باديس بما يخطّط يوسف ضده، عندئذ اتصل يوسف بالمعتصم وأشار عليه إلى أن يسحب رسوله من غرناطة ويأمره بالعودة إلى ألمرية، فتمَّ ليوسف ما أراد [٣]. ويقول ابن الخطيب إن يوسف «رَمَى بمداخلة ابن صمادح صاحب ألمرية، في تصيير مُلْك باديس إليه» [٤]. ويرى ابن بسام، ونحن لا نوافقه على ذلك، أنَّ إسماعيل ابن نغرالة هو الذي أراد أن يثلَّ عرش باديس لِمَا كان يتيقن من قلة استقلاله، فواطأ جاره المعتصم واتصل به ووعده بأن يُقْعده مكان باديس، وعزم ساعة تسنح له الفرصة أن يتخلّص فيما بَعْدُ من المعتصم ليستولي بالتالي على مقاليد الحكم بغرناطة [٥]. ويرى ابن عذاري أن يوسف طمع بحكم غرناطة وإقامة دولة لليهود فيها، فاتصل في السرّ بالمعتصم ابن صمادح، وحَثَّهُ على أنْ يُدْخِلَهُ غرناطة، ويكون هو في ألمرية [٦]. وبالفعل أغارت على غرناطة بعوث

---

(١) دوزي: ملوك الطوائف (ص ١٦٣ - ١٦٤)؛

Dozy. Recherches, (T. I, App. LXVIII, 290); Maeso Garnata al-Yahud (P 73)

(٢) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٤٧ - ٤٨)

(٣) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٥٠ - ٥٢).

(٤) ابن الخطيب. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣١).

(٥) ابن بسام. الذخيرة (ق١ ص ٧٦٧ - ٧٦٨).

(٦) ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ٣٦٦) وانظر أيضاً. ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣١).

المعتصم تقول إنها قدمت باستدعاء يوسف، وباديس في هذه الحال منغمسٌ في بِطالته، عاكفٌ على شرابه[1].

ويرى عبد المجيد نعنعي أنَّ اليهودي لم يكن يريد إقامة دولة يهودية، ومن المرجح أن يكون وجد نفسه مضطراً للتعاون مع المعتصم ومساعدته في احتلال بعض أراضي غرناطة، ليتقرَّب منه ويضمن ديمومة نفوذه بغرناطة متى ما توفي باديس واعتلى العرش وليّ العهد حفيده عبد الله بن بلقين، إذ كان باديس آنذاك قد شاخ، وكان عبد الله شديد الكراهية لليهود بسبب مقتل والده بلقين على يد اليهودي نفسه[2].

ويرى محمد عبد الله عنان أن اليهودي عندما شعر بتغير الأمير عليه وبأنَّ منزلته أخذت في الضعف، فَكَّرَ في التفاهم مع المعتصم واستدعائه للاستيلاء على غرناطة[3].

ويذكر إحسان عباس أن المنافسة بين يوسف وبين الناية كانت شديدة، وخاصة بعد أن لقي النايةُ حظوته عند باديس، بحيث أخذ باديس يُصْغي إليه فيما يقوله ضد يوسف، فرأى يوسف عندئذ أنْ لا مخلص له إلاَّ في التآمر مع المعتصم ليستولي على غرناطة ويتخلص من باديس[4].

ولكبرياء يوسف وتسلُّطه على المسلمين وإساءته لهم، جعل هؤلاء ينفرون منه، فقال ابن الجَدِّ يهجوه ويدعو للقيام عليه[5]:

تَحَكَّمَتِ اليهودُ على الفُرُوْجِ ... وتاهَتْ بالبِغَالِ وبالسُّرُوْجِ
وقامتْ دولةُ الأنذالِ فينا ... وصارَ الحُكْمُ فينا للعُلُوْجِ
فَقُلْ للأعورِ الدَّجَّالِ: هذا ... زمانُكَ إنْ عَزَمْتَ على الخُرُوْجِ

كما أفسح يوسف في المجال أمام عدوّ آخر هو الفقيه الزاهد أبو إسحاق

(١) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٤٠)
(٢) نعنعي: الإسلام في طليطلة (ص ١٨٣).
(٣) عنان: دول الطوائف (ص ١٣٣)
(٤) ابن حزم: رسائل ابن حزم (ج٣ ص ١٤، من مقدمة المحقق).
(٥) ابن بسام: الذخيرة (ق٢ ص ٥٦٢) وانظر أيضاً: طويل. مدخل إلى الأدب الأندلسي، دار الفكر اللبناني، بيروت ١٩٩١ (ص ١٢٦ - ١٢٧).

الإلبيري، ليقول فيه قصيدة هجاء أثارت حفيظة المسلمين بغرناطة[1]. وكان أبو إسحاق ينكر على باديس استيزاره يوسف، فسعى يوسف لدى باديس فنفاه إلى إلبيرة[2]. وكان نفيه من غرناطة عام ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ م[3]. ومن منفاه قال قصيدته الشهيرة في إغراء صنهاجة باليهود، فذاعتْ بين المسلمين ودفعتهم إلى الهياج على يوسف وقومه، وكانت سبب استئصال شأفة اليهود[4]. ومع الأيام أخذت القصيدة تفعل فعلها في نفوس المسلمين[5]. وتتألف هذه القصيدة من ٤٧ بيتاً، ونظراً لأهميتها ودلالتها على معانٍ تاريخية وسياسية واجتماعية، رأينا أن نجتزىء منها هذه الأبيات[6]:

أَلَا قُـلْ لِصِنْهَـاجَـةٍ أَجْمَعِيـنْ ... بُـدُوْرِ الـزمـانِ وأُسْـدِ العَـرِينْ
لـقـد زَلَّ سَـيِّـدُكُـمْ زَلَّـةً ... تَـقِـرُّ بهـا أَعْـيُنُ الـشـامتـيـن
تَـخَـيَّـرَ كـاتِـبَـهُ كـافـراً ... ولـو شـاءَ كـان من المؤمنـين
فَـعَـزَّ اليـهـودَ بـه وٱنْـتَـخَـوْا ... وتـاهُـوا وكـانـوا من الأَرْذَلِينْ
ونـالـوا مُنـاهُمْ وجـازُوا المَـدَى ... وقـد جَـازَ ذاك ومـا يَشْعُـرُون
أبـاديسُ، أنـتَ امـرؤٌ حـاذِقٌ ... تُصِيبُ بظنّكَ مَرْمَى الـيـقـيـن
فـكـيـف تُـحِـبُّ فـراخَ الـزِّنَا ... وقد بَـغَّضُوْكَ إلى العـالـمين؟
وكـيـف اسْـتَـنَـمْتَ إلى فـاسـقٍ ... وقـارَنْـتَـهُ وهـو بِئْسَ القـرين؟
وإنّـي احْـتَـلَلْتُ بـغـرنـاطـةٍ ... فـكنـتُ أَراهُمْ بـهـا عـابـثـيـن

---

(١) Prieto Y Vives· Los Reyes de Taifas (p 30)

(٢) ابن سعيد· المعرب (ج٢ ص ١٣٢).

(٣) Simonet. Descripción del reino de Granada (P. 33).

(٤) ابن الخطيب الإحاطة (ج١ ص ١٤٠، ٤٤٠)؛ المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٣٢٢)؛ Dozy Recherches; (T I, App LXXII, LXVIII, 289)

(٥) Pérès. La poésie Andalouse (P. 273)

(٦) أبو إسحاق الإلبيري. ديوان أبي إسحاق الإلبيري، تحقيق غرسية غومس، مدريد، ١٩٤٤ (ص ١٥١ ـ ١٥٣). وورد من هذه القصيدة ٤٣ بيتاً في أعمال الأعلام لابن الخطيب (القسم الثاني ص ٢٣١ ـ ٢٣٣). ووردت الأبيات الأربعة الأوائل في المغرب لابن سعيد (ج٢ ص ١٣٣) وفي نفح الطيب للمقري (ج٤ ص ٣٢٢) وأورد منها عنان في كتابه دول الطوائف (ص ١٣٣ ـ ١٣٤) ٢٥ بيتاً. ونشر منها دوزي ٣٣ بيتاً في كتابه ملوك الطوائف (ص ١٦٤ ـ ١٦٦)، وأوردها كاملة باللغتين العربية والفرنسية في كتابه:
Recherches: (T. I, APP. LXIII, LXIV, LXV, LXVI, LXVII, LXVIII, P. 286 - 289).

وقـد قَسَّمُـوْهـا وأعـمـالهـا   فـمنهـمْ بكـلِّ مكـانٍ لَـعِيـنْ
وهُـمْ يَقْبَضُـوْنَ جبـايـاتِهـا   وهُمْ يَخْضِمُـوْنَ وهُمْ يَقْصِمُـون
وهُمْ يَلْبَسُـوْنَ رفيـعَ الكِسَـا   وأنـتمْ لأوْضـاعِهـا لابـسـونْ
وهُـمْ أُمَنَـاكُـمْ عـلى سِـرِّكُـمْ   وكـيف يـكـون أميـنـاً خَؤون؟
ويـأكُـلُ غـيْـرُهُـم دِرْهَـمـاً   فَيُقْصَى ويُـدْنَـوْنَ إذ يـأكـلون
وقـد نـاهَضُـوْكُم إلى رَبِّكُمْ   فمـا يُمْنَعُـوْنَ ومـا يُنْكَـرُون
فـبـادِرْ إلى ذَبْـحِـهِ قُـرْبَـةً   وَضَـحِّ بـه فَهْـوَ كَبْشٌ سميـن
ولا تَـرْفَـعِ الضَّغْطَ عن رَهْـطِهِ   فقد كَـنَزُوا كلَّ عِـلْق ثـمـيـن

وبرغم أهمية هـذه القصيدة، فـإنَّ الأمير عبـد الله لم يُشِرْ إليهـا وهذا مـدار استهجاننا ومصدر تساؤلنا. وقد علّق المستشرق الإسباني دافيد غونثالو مايسو على هذه القصيدة بقوله: «لا شك في أن هذه القصيدة التي عبَّر فيها قائلُها عن بغض دفين لليهود، قد أضرمتْ نار الخلاف بين صنهاجة واليهود، وساهمت إلى حدّ كبير بهلاك اليهود، ولكنها لم تكد تحرّك مشاعر باديس؛ لأنه كان قد منح يوسفَ ابن نغرالة ثقة لا حدود لها. وقد أثّرت هذه القصيدة في نفوس البربر أيَّما إثارة، خاصة أنهم منذ فترة، وهم يمارسون أشدَّ الكراهية لليهود، ويرغبون في الوصول إلى ما وصل إليه هؤلاء من غنى فاحش»[1].

ويذكر نعنعي أن ظهور هذه القصيدة تزامن مع استيلاء المعتصم ابن صمادح على مدينة وادي آش التابعة لمملكة غرناطة واكتشاف تآمر يوسف على سيّده باديس وتسهيل مهمة الغـزاة في الاستيلاء على تلك المدينة ذات الموقع العظيم لغرناطة[2].

وإتماماً لمؤامرته رأى يوسف أنْ يُخْرج من غرناطة كلَّ من كان يخشى أذاهم وغدرهم، فتخيَّر من كبار صنهاجة وغيرهم من العبيـد أقوامـاً، وأشار على بـاديس بإرسالهم إلى المعاقل المهمة البعيدة عن غرناطة، بحجة أن تلك القواعد لا يحميها إلّا كبارُ الرجال. ولمّا خرج هؤلاء من غرناطة، اتصل يوسف بالمعتصم ابن صمادح يخبره بأنه لم يبق بغرناطة غيرُ الضعفاء، وأنه بات من السهل دخول غرناطـة وفتح

(١) Gonzalo Maeso: Garnata al-Yahud (P 72)

(٢) نعنعي: الإسلام في طليطلة (ص ١٨٢).

أبوابها، وباديسُ في هذا كله لا خبر عنده إلاّ الإقبالُ على الشراب والدعة. وبالفعل غزا جندُ المعتصم أراضي غرناطة واحتلوا معظم حصونها، ولكنهم لم يدخلوا غرناطة؛ لأنَّ المعتصم لم يكن يجرؤ على مثل ذلك، فخاف من العاقبة(١).

ومساء يوم السبت لعشرٍ خَلَوْنَ من شهر صفر عام ٤٥٩ هـ/ ٣١ كانون الأول ١٠٦٦ م، اجتمع يوسف بالقصبة على الشراب، مع طائفة من صحبه الضالعين معه من عبيد باديس وخاصّته، وأعلمهم بأن المعتصم سَيَرِدُ عليهم ويعطيهم بعض قرى غرناطة، وكان المعتصم آنذاك يكمن مع جنده في مكان قريب من مدينة غرناطة، ينتظر إشارة يوسف. فانتدب إلى يوسف عَبْدٌ من هؤلاء العبيد، وكان يكمن بغضه له، وقال له: قد عَلِمْنَا هذا، ولكن الذي يهمنا هو أن الملك حَيٌّ أم ميت؟. وردّ عليه بعض حاشية يوسف ووبّخه على قوله، فأنف العبدُ وخرج فارّاً على وجهه وهو سكران، وأخذ يصيح بالناس ويقول إنَّ اليهودي غدر بباديس وإنَّ المعتصم داخل المدينة. وتسامع لذلك الناس أجمع، خاصّتُهُمْ وعامّتُهُمْ، وأتَوْا عازمين على قتل يوسف، فاقتحموا القصبة، فتحيَّل يوسفُ على باديس حتى أخرجه إليهم. وحاول باديس تهدئتهم فلم يقدر، فهرب يوسف بنفسه إلى داخل القصر، واتّبعته العامة حتى ظفرت به وقتلته، وأحالت السيف على كل يهودي بالمدينة، وحصلت على عظائم من أموالهم(٢).

ويروي ابن عذاري أن قبيلة صنهاجة زحفوا في عام ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ م على دار اليهودي مع جملة من العامة واقتحموها، فاختفى في بيت فحم وسوَّد وجهه وتنكّر، فعرفوه، وقتلوه، وصلبوه على باب مدينة غرناطة، وقُتِل من اليهود أكثر من ثلاثة آلاف، ونُهِبَتْ دُوْرُهُمْ، واسْتُؤصلت أموالهم(٣). وكان ابن عذاري قد أشار إلى أن ذلك اليهودي قتل عام ٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤ م(٤). وحدّد ابن الخطيب ثلاثة تواريخ لمقتل اليهودي، وهي سنة ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦ م، وسنة ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢ م، وسنة ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ م(٥). وأشار ابن خلدون إلى التاريخ الأخير وهو ٤٥٩ هـ، إلاَّ

(١) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ٥٢ ـ ٥٣).
(٢) المصدر نفسه (ص ٥٤).
(٣) ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٢٧٥ ـ ٢٧٦).
(٤) المصدر نفسه (ص ٢٣١).
(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٣) والإحاطة (ج١ ص ٤٣٤ ـ ٤٤٠).

أنه جعل المقتول إسماعيل ابن نغرالة وليس ابنه يوسف[1]. كذلك اختلط الأمر على بروكلمان، فذكر أن أبا إسحاق الإلبيري بعث بقصيدة إلى باديس يحرّضه فيها على كاتبه اليهودي، ممّا أثار حفيظة اليهود في سنة ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢ م أو سنة ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦ م[2].

ولم يحدّد ابن بسام تاريخ مقتل اليهودي واكتفى بالإشارة إلى مقتل ما ينوف على أربعة آلاف يهودي، ووصف تلك المذبحة بملحمة من ملاحم إسرائيل[3]. وعدَّ مايسو تلك المذبحة التي ذهب ضحيتها حوالى أربعة آلاف من اليهود، أول مجزرة جماعية تَحْدُثُ بغرناطة بحقِّ اليهود[4].

وإثر تلك المذبحة رَجَعَ المعتصم ابن صمادح إلى بلده، وقد صَفِرَتْ يداه وانهار مشروعه التوسعي[5]. وقد حدّد ابن الخطيب قبر يوسف وقبر أبيه إسماعيل أمام باب إلبيرة: «وقبره اليوم وقبر أبيه يعرف أصلاً من اليهود، ينقلونه بتواترٍ عندهم، أمام باب إلبيرة، على غَلْوَةٍ، يعترض الطريق، على لحده حجارة كدان جافية الجَرْم»[6].

وكان ليوسف ولد اسمه إسماعيل هرب إلى إفريقية إثر مقتل أبيه، وكتب من هنالك إلى أهل غرناطة بهذا الشعر[7]:

أَقَتِيلاً بِسَنْجَلٍ ليس تَخْشَى	حَشْرَ جِسْمٍ وقد سَمِعْتَ النَصِيْحَا
غُوْدِرَ الجسمُ في التراب طَرِيْحاً	وغَدَا الرُّوْحُ في البسيطة رِيْحا
أيها الغادرون، هَلاَّ وَفَيْتُمْ	وفَدَيْتُمْ شِبْهَ الذَّبِيْحِ الذَّبِيْحا
إنْ يكنْ قَتْلُكُمْ له دون ذَنْبٍ	قد قَتَلْنا مِنْ قبلِ ذاك المَسِيْحا
وَنبيّاً مِنْ هاشم قد سَمَمْنا	خَرَّ مِنْ أكلةِ الذِّراع طَرِيْحا

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٦).

(٢) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار والدكتور رمضان عبد التواب والدكتور السيد يعقوب بكر، دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٧٧ (ج٥ ص ١٢٤)

(٣) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٧٦٩)

(٤) Gonzalo Maeso: Garnata al-Yahud (P 74).

(٥) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٧٦٩).

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٤٠)

(٧) ابن سعيد: المعرب (ج٢ ص ١١٥)

وبعد مقتل يوسف ابن نغرالة استوزر باديسُ النايةَ، وكان النايةُ من قَبْلُ عَبْداً للمعتضد ابن عباد، صاحب إشبيلية، ولمّا اتُّهم في المؤامرة التي دبّرها إسماعيل ابن المعتضد ضد أبيه، فرَّ من إشبيلية وقصد باديس في أيام عزٍّ دولته وقوّته، فقرّبه إلى باديس جماعةٌ من كبار العبيد، فاستعمله باديس في بادىء الأمر في عسكره لمقاتلة المعتضد ابن عباد، وضاعف من إحسانه له، ولشدّة ميله إليه كان ينفرد به على تعاطي الشراب. ثم وقع التنافس بينه وبين يوسف ابن نغرالة، إذ أخذ الناية يحثُّ باديسَ على إبعاد يوسف وقتله، ويوسف يعلم بذلك عن طريق جواسيسه، ولكنه فشل في منع ارتفاع مكانة الناية عند باديس، وانقطع رجاؤه من إبعاد الناية عن الحكم(١).

وقد استوزره باديس إثر موت يوسف ابن نغرالة وفوّض إليه الأمر، فعلا سلطانُه بسرعة، وانتهى إلى الاستئثار بالأمور على نحو ما كان ابن نغرالة، وزاد جاهه، وأخمل صنهاجة، وقرّب إليه بني بِرْزال، وأحسن إليهم؛ لأنهم كانوا من قَبْلُ أولياءه وأنصاره. ورأى أنْ يخلِّدَ التاريخ اسمه في غزو مدينة بيَّاسة التابعة لإقبال الدولة علي بن مجاهد العامري، فألحَّ على باديس ليسمح له بالاستيلاء على بياسة، إذ كان باديس غير مرتاح لهذا الأمر، فأجابه باديس إلى ذلك وأمره بالمسير، وهيّأ معه الجيش، وأعطاه الأموال اللازمة لهذا الغزو، ودخل الناية بياسة في رفعة وعزة بعد أنْ أنفق في غزوته تلك أموالاً تفوق التصوّر، فسئم باديس من تلك النفقات. ولمّا رأى وزراء باديس وعبيده ما وصل إليه الناية من جاه وعز، خافوا أن يستبدَّ بالسلطة ويطمع بالرياسة مع بني بِرْزال، فدبْروا مؤامرة لقتله والتخلّص منه، فاتّفقوا مع ابن القاضي صاحب باغه، وابن يعيش صاحب قبرة، وواصل العِلْج صاحب وادي آش، وأبي عبيد الله محمد بن الحسن النباهي وزير مالقة وقاضيها، على قتل الناية متى قدم إحدى تلك الجهات، ورأَوْا أن يقتله واصلٌ بوادي آش، ووعدوه بالوزارة مكان الناية، وضمنوا له توطيدهم الأمر عند باديس، فاستعدَّ واصل لقتل الناية. وكانت الصدفة أن أرسل باديسُ وزيره الناية إلى وادي آش لتحصيل أموالها، فتوجّه الناية إلى المدينة، فاستضافه فيها واصلٌ وبالغ في إكرامه. وفي منتصف الليل أتاه واصلٌ برمحه، وهو سكران، فضربه ضربة واحدة قطعت رأسه، وطوّفه صبيحة الغد بأزقّة المدينة. وورد

---

(١) ابن بلقين· مذكرات الأمير عبد الله (ص ٤٦ ـ ٤٨). وانظر أيضاً .Gonzalo Maeso. Garnata al-Yahud (P 65 - 66).

الخبر على غرناظة، فأرسل باديسُ إلى واصلٍ بالأمان، يأمره بالقدوم عليه، ويشكره فيما فعل، إذ كان صاحب باغه قد كلَّم باديسَ في الأمر وأخبره أنَّ واصلاً أقدم على قتل النابة رغبةً في الحفاظ على الدولة وتخلّصاً من استبداد هذا الرجل، فعهد باديس إلى واصلٍ بمنصب قائد الفرسان[1].

وروى السلفي أن باديس استوزر نصرانياً بعد مهلك اليهودي[2].

واستوزر باديس أيضاً القاضي أبا عبد الله محمد بن الحسن بن يحيى بن عبد الله بن الحسن الجُذامي النُّباهي، فأقرَّه على خطة الوزارة والقضاء بمالقة لَمَّا مَلَكَها وضمَّها إلى مملكته، وقد ورد في كتاب بخط باديس في مستهل شهر رمضان سنة ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م[3]، وقيل في مستهل شهر رمضان عام ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م[4]. وولّاه باديس أيضاً قضاء القضاة وخطابة الجامع الأعظم بغرناطة، وهذان المنصبان لم يكن في الأندلس في ذلك الزمان من المناصب الدينية أجلُّ منهما[5]. وكان أبو عبد الله حازماً صارماً، عادلاً في أحكامه، وقد توفي مقتولاً في ضيعته بقرطبة عام ٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠ م[6].

ومن وزراء باديس علي وعبد الله ابنا القروي، وكانا أيضاً قائدي عسكره. وكان عبد الله يتولّى، إضافة إلى منصبه كوزير، جباية أموال مدينة وادي آش. كذلك كان أولاد هذين الأخوين وزراء لبلقين بن باديس، وندماء له، لا يفارقونه، وهم الذين حرّضوا بلقين على بغض الوزير اليهودي يوسف ابن نغرالة[7]. وقال ابن الخطيب إن علي ابن القروي كان حاجب باديس[8].

كذلك استوزر باديسُ أبا إسحاق إبراهيم بن حكم واستكتبه، وكان أبو إسحاق

---

(١) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ٦٢ ـ ٦٥)

(٢) السلفي: أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السَّفْر للسلفي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣ (ص ٨٣).

(٣) النباهي المرقبة العليا (ص ٩٠ ـ ٩٢).

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٣٣)

(٥) المقري نفح الطيب (ج٥ ص ١٣٨).

(٦) النباهي: المرقبة العليا (ص ٩٠، ٩٣ ـ ٩٤)

(٧) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٦ ـ ٣٩)

(٨) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٢٦٢).

ناظماً ناثراً، حسن المحادثة لائِقاً بخدمة الملوك، ومن شعره قوله في باديس[1]:

صابِحْ مُحَيَّاهُ تَلْقَ النُّجْحَ في الأمَلِ   وانْظُرْ بنادِيْهِ حُسْنَ الشمسِ والحَمَلِ

ومن وزرائه أيضاً سِمَاجَة الصِّنْهاجي، وكان حازماً شديد السطوة، مرهوب الجانب، شجاعاً، جواداً، فاضلاً. وقد ذكر عنه أهل غرناطة أنه اشتدَّ في منع اتخاذ الخمر، وجعل بإزاء ذلك القتلَ غريمة[2]. وسوف نكمل الحديث عنه في عهد الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس، حيث لزمه مدة كوزير، ثم أبعده عبد الله عن غرناطة، فلجأ إلى ألمرية، وعاش في كنف صاحبها المعتصم.

ومن كتاب باديس أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عامر البِزِلْياني المالقي[3]. وأبو الربيع النصراني، وكان كاتب حشم عند باديس، وكان يخدم يوسف ابن نغرالة، ويتصرّف معه، ولمّا قُتِلَ يوسفُ التحق بابن ذي النون، ثم أقام في دانية[4]. وأبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني، وأصله من القيروان، وقد قدم الأندلس عند اشتداد فتنة العرب على القيروان سنة ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م، وتردَّد على ملوكها، وعمل كاتباً في بلاط باديس[5].

ومن قضاته أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الحسن بن مسعود الجُذامي البزلْياني، وقد تولّى القضاء بغرناطة وبجّانة، وكان من أهل العلم والفضل، وكانت وفاته في مستهل جمادى الأولى سنة ٤٦١ هـ/ ١٠٦٨ م[6]. وأبو الحسن

---

(١) ابن سعيد: المغرب (ج٢ ص٢٢٣). وقد أورد المقري هذا البيت في كتابه نفح الطيب (ج٣ ص ٣٨٧) منسوباً إلى الفراء الأخفش بن ميمون القبذاقي.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٤)

(٣) تقدّم الحديث عنه في فصل حبوس، فانظره.

(٤) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٦٦)

(٥) ابن بسام. الذخيرة (ق٤ ص ١٦٩)؛ ابن بشكوال: الصلة، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري بالقاهرة، دار الكتاب اللبناني ببيروت، سنة ١٩٨٩ (ص ٨٧١ ـ ٨٧٢)؛ الأزدي. بدائع البدائه (ص ١٢١، ٢٤٠)؛ ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد الحميد والدكتور أحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع، بيروت ١٩٥٥ (ص ٦٦ ـ ٦٧)؛ عبد الواحد المراكشي: المعجب (٣٥٦)، ابن خلكان وفيات الأعيان (ج٢ ص ٨٦) و(ج٤ ص ٣٨٤)ـ ابن شاكر الكتبي. فوات الوفيات، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ (ج ٣ ص ٣٥٩)، السيوطي. بغية الوعاة (ص ٤٦).

(٦) ابن بشكوال: الصلة (ص ١٠٩ ـ ١١٠)

علي بن محمد بن توبة، وكان من العلماء الفقهاء الجلّة، وعلى يديه كان عمل منبر جامع غرناطة في شهر ربيع الأول من عام ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م، وإليه تنسب قنطرة القاضي بغرناطة التي ما تزال تعرف حتى اليوم بقنطرة القاضي Puente del Cadi، كما ينسب إليه المسجد المتصل بتلك القنطرة لجهة القبلة، وكان الزاهد أبو إسحاق الإلبيري كاتباً خاصّاً عنده[1]. وأبو علي الحسن بن محمد بن الحسن الجذامي النباهي، وهو من أهل مالقة ومن أعيانها وقضاتها، استُقْضي بغرناطة، وكان من أهل الدين والنُّهَى والنباهة والجلالة، وقد توفي سنة ٤٧٢ هـ/ ١٠٧٩ م[2].

خامساً ـ أولاده، صفاته، نهايته:

كان لباديس ولدان اثنان هما بلقين البكر وماكسن الأصغر سناً، وكان البكر يرفق به أبوه، ويُحبّه حباً كبيراً، ويُشْفق عليه، ويحذر من أعدائه وبني عمه عليه[3]. وكان حليماً رفيقاً، عاقلاً نبيلاً، جليلاً، وقد أجمع الناس على محبته[4]. ولّاه أبوه على مالقة بعد أن ضمَّها إلى غرناطة عام ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م، واستمرّت ولايته عليها إلى سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م حيث توفي مسموماً، فعادت مالقة تخضع لباديس مباشرة[5]. وكان أبوه قد رشّحه للمُلْك من بعده، وأخذ له بيعة قومه، ولقّبه سيف الدولة[6].

وكان بلقين يجاهر ببغضه ليوسف بن إسماعيل اليهودي، وقد أذكى فيه هذا الشعور بالبغض تحريض وزراء الدولة وخاصة أولاد علي وعبد الله ٱبْنَيْ القروي، إذ قلق هؤلاء الوزراء من تمكّن يوسف عند باديس وابنه بلقين، فأغاظهم ذلك، وحثّوا بلقين على التخلّص منه، فصوّروا له أن يوسف يخمله ويخمل سائر رجال الدولة بسيطرته على مقدّراتها واستئثاره بأموالها، وأنه هو أحق بهذا النفوذ، فسعى بلقين إلى التخلّص من يوسف وعمل على قتله، وكان لا يستطيع كتمان سرّ، فتكلّم في ذلك لأبيه والوزراء المحرّضين، وأخذ يتحدث في قتله علناً، فدبّر اليهودي الحيلة عليه ودعاه

---

(١) ابن الخطيب. الإحاطة (ج٤ ص ٨٢).
(٢) ابن بشكوال: الصلة (ص ٢٢٥)؛ ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٦٥ ـ ٤٦٧)
(٣) ابن بلقين· مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٣ ـ ٣٦).
(٤) المصدر نفسه (ص ٣٦)، ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٣٣).
(٥) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٣٣)؛ النباهي· المرقبة العليا (ص ٩١ ـ ٩٢).
(٦) ابن بلقين· مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٣)؛ ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٣١ ـ ٤٣٣) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠)؛ النباهي: المرقبة العليا (ص ٩١).

إلى داره لتناول الطعام والشراب مع عبيده ورجاله، وكـان بلقين كثير الشـرب معه والتكرار عليه في منزله، فقدَّم اليهوديُّ له طعاماً وشراباً، وجعل له السمّ في الكأس، فشرب ما فيها، وقذف ما كان في جوفه ووقع على الأرض، فلم يستطع المشي إلى منزله إلاَّ عن مشقّة ولبث يومين ومات، وقيل: رام القيء فلم يقدر عليه، فحُمل إلى قصره، وقضى نحبه غد يومه، وكان ذلك في عام ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م. وبلغ الخبر إلى أبيه، ولم يعلم السبب، وهاج الناس بأمره، وهمّوا بقتل اليهودي، فأقنعه اليهودي بأنّ أصحاب ابنه بلقين وبعض جواريه وخدامه وقرابته هم الذين زيّنوا لبلقين الإدمان على الخمر حتى هلك، فأقدم باديس عندئذ على قتل جماعـة كبيرة من جـواري بلقين وفتيانه وبني عمه وبعض الوزراء، وعلى نفي أولاد القروي خارج غرناطة، فخافـه سائرهم وفرّوا عنه، وأقبل هو على شرابه ليتسلّى به عن مصابه[١]. وكان عمره يوم قتل خمساً وعشرين سنة[٢]. وعلق نعنعي على تلك الحادثة بقوله: كان الجميع بغرناطة يتّهمون اليهودي بأنه كان وراء قتل بلقين[٣].

وذهب النبـاهي[٤] إلى أن بلقين مـات بمـالقـة سنـة ٤٥٦ هـ من وجـع أصـابـه. وروى ابـن عـذاري أنـه تـوفي عـام ٤٥٧ هـ/ ١٠٦٤ م. وقـال بونس بويغس: قتل بلقين مسموماً في عام ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م[٦]. وأشار بيريس إلى أنه قتل بالسمّ على يد يوسف ابن نغرالة دون أن يحدّد التاريخ[٧]. واكتفى غونثالو مايسو بالقول: مات بلقين دون أن يحكم[٨]. ووهم بريتو إي ڤيڤس حين جعل بلقين يموت بالسمّ على يد إسماعيل بن يوسف ابن نغرالة[٩]. وأضاف: توفي بلقين وله ولدان هما عبد الله وتميم[١٠].

---

(١) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٩ ـ ٤٢)، ابن عذاري البيان المغرب (ج٣ ص ٢٦٥)، الإحاطة (ج١ ص ٤٣٤، ٤٣٩ ـ ٤٤٢) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠ ـ ٢٣١).

(٢) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٣)

(٣) نعنعي: الإسلام في طليطلة (ص ١٨٣).

(٤) النباهي: المرقبة العليا (ص ٩٢).

(٥) ابن عذاري. البيان المغرب (ج٣ ص ٢٦١ ـ ٢٦٥).

(٦) Pons Boigues: Ensayo (P 195)

(٧) Pérès La poésie Andalouse (P. 271).

(٨) Gonzalo Maeso· Garnata al-Yahud (P 57 - 58)

(٩) Prieto Y Vives· Los Reyes de Taifas (p 30)

(١٠) Ibidem (P 32)

أما الابن الآخر ماكْسَنْ، فكان الأصغر سنّاً، وكان ولداً مخمولاً، سيىء الطريقة، قليل البِرّ، خشن الكلام، وكان من السفه وعجز الرأي وقلة الفطنة، فتحكّم الشرُّ فيه، وكرهه أهل الدولة وكثر عليه الطلب عند أبيه [1] . وقد ترجم له ابن عذاري دون أن يسميه، فقال: كان لباديس ولد أعطاه في حياته مدينة جيان، وكان هذا الولد منهمكاً في شرب الخمور، ويعامل الرعيّة بالسوء. يحكى أنه كانت له كلبة سمّاها لُبُّوْنة، وكان إذا استوجب أحد عقوبةً رماه إلى الكلبة فأكلته، فافترق الناس عنه وكرهوه، واتفقوا على تقديم عبد الله بن بلقين مكانه [2] .

وكان الوزير اليهودي إسماعيل ابن نغرالة قد ساءت علاقته بماكْسَنْ، فاعتمدت أمُّ ماكسن على خال إسماعيل، أبي السبع ابن الماطوني اليهودي، فعمل إسماعيلُ على قتل خاله لخلافه عليه، وجعل أميرَهُ باديسَ يرضى عن عمله هذا مقابل أموال جسيمة أعطاه إياها، ثم طلب منه أن ينفي ابنه ماكسن عندما علم أن ماكسن عينه أبوه قائداً على الجيش الذي سيتوجه لمقاتلة المعتصم ابن صمادح، فأمر باديسُ بنفي ولده [3]. وأشار مايسو إلى إبعاد ماكسن عن المملكة مكتفياً بالقول: «أبْعد ماكسن عن غرناطة دون أن يحكم» [4] . ومضى ماكسن إلى جيان، وكان حاكمها آنذاك مُسَكَّن بن حبوس المغرالي، فاستولى ماكسن عليها، وثار فيها على أبيه، وثار معه مسكن مع بني عمه، فرأى باديسُ أنه من الأفضل أنْ يساير ابنه. وكان مسكن قد أخمل ماكسن واستبدّ بالرأي في جيان، وجمع الأموال دونه، وقنع ماكسن بتلك الحال لأنَّ مسكناً استنقذه من الموت وحماه من ملاحقة أبيه له. ولكن المغاربة الذين بقصبة جيان قاموا على مسكن وماكسن، ففرَّ ماكسن بنفسه ومن معه، وهرب مسكن، وعادت جيان إلى باديس، وفرَّ ماكسن إلى طليطلة ولجأ إلى ابن ذي النون وعمل في جيشه، وتقلّب مسكن في البلاد في خدمة الجندية [5] .

وإثر مقتل الناية وزير باديس، أرسلوا إلى ماكسن المقيم بطليطلة يخبرونه بمقتل الناية ـ حيث كانت العداوة بين الناية وماكسن على أشدها ـ ويحثّونه على

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٤٠، ٤٨، ٦٧).

(٢) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله، ملحق لكتاب البيان المغرب لابن عذاري (ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦)

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٤٨ ـ ٤٩).

(٤) Gonzalo Maeso: Garnata al-Yahud (P 58).

(٥) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٥٥، ٦٠ ـ ٦٢).

القدوم إلى غرناطة، ولكن ماكسن لم يجرؤ على المجيء، وفضّل مراقبة الأحوال[1].

ولما رأى باديس أن الجميع اتفقوا على خلعه وتولية ابنه ماكسن مكانه، أرسل إلى أبي الربيع النصراني، وكان من قبل كاتب حشم عنده، وكان قد التحق، إثر موت يوسف ابن نغرالة، بابن ذي النون وأقام في دانية. فقدم أبو الربيع إلى غرناطة، فأعلمه باديس بما حلَّ به، فحثَّه أبو الربيع على أن يكتب إلى ابنه ماكسن بخط يده بالعفو عنه، وإيثاره له على كل والٍ، وأنْ يقدمه لولايته ويرثه الملك. فسمع باديس منه، وأرسل فقيهاً كبيراً من فقهائه يبشّر ماكسن باستخلاف أبيه له، وأنه ليس في الدولة من بنيه من يُرْجَى لهذا الأمر سواه، كما كتب إلى ابن ذي النون ليسمح لماكسن بالقدوم إلى غرناطة، فسّر بذلك جميع الناس ورَجَوْا الخير معه. وقَدِمَ ماكسن إلى غرناطة، فأنسه أبوه باديس، وبذل له الأموال، وجعل يوصّيه بوصايا لم تنفعه، مريداً بذلك ضُرَّه وانصراف الناس عنه، وطلب منه معاملتهم بالشدّة ليهابوه، فكانت النتيجة أنْ بغضه الناس وأجمعوا على أنْ لا خير فيه يُرْتَجَى[2].

وروى ابن الخطيب أنه لما توفي باديس كان ابنه ماكسن والياً على جيان من قبل أبيه[3]. وذكر الأمير عبد الله أن ماكسن استشهد في وقيعة بطليوس[4]، والمقصود بها معركة الزلاقة التي وقعت بين المسلمين والنصارى على أرض بطليوس عام ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م زالتي سنتحدث عنها بالتفصيل في فصل الأمير عبد الله.

وفيما يتعلق بصفات باديس، فقد أجمعت الروايات على أنه كان داهيةً، شجاعاً، حازماً، طاغيةً، جبّاراً، مستبدّاً، خَشِناً، شديدَ البأس والقسوة، لئيماً، سفّاكاً، كثير الإساءة والذنوب، شديد العِقاب، غليظَ القلب، جافَّ الطبع، حادَّ المزاج، سريع الغضب، عادلاً بجهل، كثيرَ النزوات، بعيداً عن الحصافة والثقافة، حسن السياسة، صبوراً على الأذيّة، عالي الهمّة، سديدَ الرأي، نبيلاً، كبير النفس، ذا مروءة ونجدة ونزاهة وصراحة، شديدَ الميل إلى اللهو والإدمان على الشراب،

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٦٥)

(٢) المصدر نفسه (ص ٦٦ ـ ٦٧).

(٣) ابن الخطيب· أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٤). وانظر أيضاً:

Prieto Y Vives Los Reyes de Taifas (p. 30).

(٤) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٤٠).

يُحِبُّ المال ويسخر من آداب اللياقة. يقول لنا عنه معاصره ابن حيان: «وأما أَرْفَعُ أملاكِ البرابرة في هذا الوقت شأناً، وأشدُّهُمْ سلطاناً، وأَكْثَرُهُمْ رجالاً، وأَوْسَعُهُمْ أعمالاً، فباديسُ بن حبوس... وأساء الانتقام، ولم يُقِلِ العَثْرَةَ، وأَخَذَ بالظِّنَّة، وأَسْرَفَ في العقوبة، وشدَّ يداً بالعصبيّة، وتقلَّدَ الحَمِيَّةَ الجاهلية، واستأثر بالقسوة والجَبْرِيْة، فأَسْلَفَ في ذلك كله أخباراً مأثورة»[1]. ويقدّمه إلينا حميده الأمير عبد الله في صورة مشرقة فيقول عنه: أُوْتي باديسُ من الدهاء والتمييز لأحوال الزمان ما لا خفاء به[2]. ويضيف: «وكان باديس بن حبوس، جَدُّنا ـ رحمه الله ـ كبير النفس، عالي الهمة، حادَّ المزاج... وكان ذلك كله منه في حزم ورويّة...»[3]. ويضيف أيضاً: وكان حسن السياسة، صبوراً على الأذيّة[4]. ويقول فيه ابن خاقان بأسلوب مسجّع: «وكان باديس بن حبوس بغرناطة عاتياً في فريقه، عادلاً عن سَنَنِ العدل وطريقه، يجتري على الله غَيرَ مراقب، ويجري إلى ما شاء غير ملتفت للعواقب، قد حَجَبَ سِنانُهُ لسانَهُ، وسبقتْ إساءتُهُ إحسانَهُ، ناهِيْكَ من رجل لم يَبِتْ من ذنب على نَدَم، ولا شَرِبَ الماءَ إلاّ من قليب دم، أَحْزَمُ من كادَ وَمَكَرْ، وأَجْرَمُ من راحَ وابتكَرْ، وما زال متّقداً في مناحيه، مفتقداً لنواحيه، لا يُرامُ بريث ولا عَجَل، ولا يَبِيْتُ له جارٌ إلاَّ على وَجَل، إلى أنْ وكَّلَ أمره إلى أحد اليهود واستكفاه، وجرى في ميدان لهوه حتى استوفاه، وأَمْرُهُ أَضْيَعُ من مصباح الصباح، وهمُّهُ في غَبُوْقٍ واصْطباح»[5].

ويقول عنه ابن سعيد: «كان من أبطال الحروب وشجعانها، يُضْرَبُ به المثلُ في شدة القَسْوة وسَفْكِ الدماء... وكان على ما فيه من القسوة حَسَنَ السياسة، مُنْصِفاً حتى من أقاربه»[6] وعن شدة قسوته يروي ابن سعيد أنَّ عجوزاً شَكَتْ عُقُوْقَ ابنها، وأنَّه مَدَّ يده إلى ضَرْبها، فأحضره وأمر بضرب عُنُقه، فقالت له: يا مولاي، ما أردْتُ

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠).
(٢) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١١ ـ ٢٥)
(٣) المصدر نفسه (ص ٢٧).
(٤) المصدر نفسه (ص ٣٠).
(٥) ابن خاقان: قلائد العقيان (ص ١٨). وقد أورد ابن الخطيب هذا النص في كتابه الإحاطة (ج١ ص ٤٣٦) باختلاف يسير عما هنا.
(٦) ابن سعيد: المغرب (ج٢ ص ١٠٧).

إلّا ضربه بالسُّوْط وأَدَبَهُ، فقال: لست بمعلّم صبيان، وأمر به، فَضُرِبَتْ عُنُقُـه[1].
وأورد الذهبي حكاية هذه المرأة وما حلَّ بابنها وقال: كان باديس سفّاكاً للدماء، وفيه عدل بجهل، وله شرف وأبوّة وعشيرة[2]. ويقدّم لنا ابن الخطيب تلك الصورة الجامعة عن باديس فيقول: «كان رئيساً يَبِساً، طاغيةً، جباراً، شجاعاً، داهيةً، حازماً، جَلْداً، شديدَ الأمر، سديدَ الرأي، بعيدَ الهمّة، مأثورَ الإقدام، شَرِهَ السيف، واري زنـادَ الشَّرِّ، جَمّاعةً للمال، ضَخُمَتْ به الدولة، ونَبُهَت الألقاب، وأمنتْ لحمايته الرعايا، وطمَّ تحت جناح سيفه العمرانُ، وانسع بطاعته المرهبة الجوانب بيأسه النظرُ، وانفسح الملكُ، وكان ميمونَ الطائر، مطْعِمَ الظفر، مصنوعـاً له في الأعـداء، يقنع أقتـاله بسِلْمِهِ، ولا يَطْمَعُ أعداؤه في حربه»[3]. ويقول فيه المقري: كان باديس أفرسَ الناس وأنبلهم، وكان ذا مروءة ونجدة[4].

وعن أخبار باديس في القسوة وتأثره بالروح العنصري يروي ابن الخطيب أن باديس هاجت عصبيته وثار أيّما ثورة عندما علم بمقتل حليفه البربري أبي نصر بن أبي نور اليفرني، صاحب رندة، على يـد المعتضد ابن عباد، صاحب إشبيليـة، وقام للحادثة وقعد، فسوّلت له نفسه حمل السيف على عرب غرناطة وعقد النيّة على أن ينفّذ مأربه هذا عند اجتماع هؤلاء بالمسجد للصلاة يوم الجمعـة، واستشـار وزيره إسماعيل ابن نغرالة في الأمر، فنهاه إسماعيل عن ذلك، وأظهر له شناعة هذه الخطة ووخامة عاقبتها. ولم يأخذ بـاديس بنصيحة وزيـره، وحشد الجنـد حول المسجـد والقصر للتنفيذ، فأفشى إسماعيل عندئذ سرّ الخطة إلى زعماء العرب عن طريق بعض النسوة، ينهاهم عن المجيء إلى المسجد في ذلك اليوم، ويأمرهم بإخفاء أنفسهـم، ولمّا لم يحضر سوى نفرٍ يسير من عامة العرب الذين لا خطر عليهم، أدرك باديس فشل خطته وعلم بفشوِّ السرّ، فأرسل في طلب وزيره وأخذ يلومه على إذاعة سرّه، فأنكر وزيره ما قرفه به، وأقنع أميره بأن امتناع العرب من الحضور لصلاة الجمعة لم يكن لسرّ مُذاع، بل لما رأوه من حشـود في وقت لم يكن بينه وبين جيـرانه ملوك

(١) ابن سعيد: المغرب (ج ٢ ص ١٠٧).
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (ج١٨ ص ٥٩١).
(٣) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٣٥)
(٤) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٩٦).

الطوائف حرب، واقتنعوا بأن حشد الجيوش هو للإساءة إليهم ليس غير[1] وأشار بـريتو إي ڤيڤس إلى تلك الحـادثـة وقـال: كـان ذلـك اليـوم في عـام ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣ م[2].

وعن إدمان باديس على الشراب يروي ابن الخطيب، نقلاً عن ابن الصيرفي، أن باديس كان مع أصحابه في المجلس العلي من دار الشراب بقصره، وكان العبيد قد اصطفّوا ببهو المجلس للخدمة، فورد عليه نبأ أوجبه القيام عن مجلسه، ثم عاد إلى موضعه وقد تجهّم وجهه، وخبثت نفسه، فحذر ندماؤه على أنفسهم، وتخيّلوا وقوع الشرِّ بهم، فقال لهم: دخل المرابطون بلدي، فأخذوا بالدعاء لنصره، ودوام دولته، ووجموا لوجومه، فلما رأى تكدّر صفْـوهم قال لهم: أَقْبِلوا على شـأنكم، ما نحن وذاك، اليومَ خَمْرٌ، وغداً أمْر، ولا بُدَّ للمرابطي أن يتملَّك بلدي[3]. وحصر دوزي خلال باديس بقوله: كان باديس غليظ القلب، قاسياً، شديد البأس، لئيماً سفّاكاً، طاغية، جباراً، خشناً، جـاف الطبـع، مولعـاً بشرب الخمـر، بعيداً عن الحصـافة والثقافة، ساخراً من آداب اللياقة، سريع الغضب، ففي ثورة عضبه كان يقتل ضحاياه بيده، ومن دأبه أن يعلّق رأسَ القتيل على رمح ليطافَ به في المدينة، وبهذا تبرد غلّته[4]. وقال بريتو إي ڤيڤس: كان باديس رجلاً غير مثقف، وكانت نزواته تتحكّم به[5].

وعن تاريخ وفاة باديس، فقد تباينت أقوال المؤرخين في تحديده، فيقول ابن عـذاري: كانت وفـاته سنـة ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢ م، على حَدِّ قـول المرادي، وسنـة ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦ م على حَدِّ قول ابن القطان[6]. ويرى ابن خلدون أنه توفي في عام ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤ م[7]. ويؤيده في ذلك بطرس البستاني وشكيب ارسلان وتوريس

---

(١) ابن الخطيب· الإحاطة (ج١ ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨). وانظر أيضـاً. دوزي ملوك الطوائف (ص ١٣٥ ـ ١٣٨)؛ دائرة المعارف الإسلامية (ج٣ ص ٢٦٧). أ شمتس.

(٢) Prieto Y Vives Los Reyes de Taifas (p 29)

(٣) ابن الخطيب· الإحاطة (ج١ ص ٤٤١) وقوله: «اليوم خمر وغداً أمـر» لامرىء القيس، وقـد قالـه عندما أبلغ أن بني أسد ثاروا على أبيه وقتلوه، وكان آنذاك في مجلس شراب.

(٤) دوزي: ملوك الطوائف (ص ٦٧ ـ ٦٨ ، ٧٩، ٩٦، ١٠٠، ١٠٥ ـ ١٠٧، ١١٥)

(٥) Prieto Y Vives· Los Reyes de Taifas (p 28).

(٦) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله، ملحق لكتاب البيان المعرب لابن عذاري (ص ٢٠٥).

(٧) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٦) و (م٦ ص ٣٦٩).

بلباس[١] ويتردّد القلقشندي في تاريخ الوفاة؛ فمرة يذكر أنه توفي سنة ٤٦٧ هـ[٢]، ويذكر مرة أخرى أنه توفي عام ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ م[٣]. ويقول ابن الخطيب: توفي باديس ليلة الأحد المُوْفي عشرين من شوال سنة ٤٦٥ هـ/ حزيران ١٠٧٣ م[٤]. ويشاطره الرأي الزركلي وأشباخ وبونس بويغس وغيرهم[٥]. وبدوره يعتمد عنان على ابن الخطيب حيناً[٦]، وعلى ابن خلدون حيناً آخر[٧]. ويذهب بعض المستشرقين إلى أن الوفاة كانت في عام ٤٦٦ هـ/ ١٠٧٣ م[٨]. وقيل عام ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٧ م[٩]. ويترجم له كل من ابن سعيد وأبي الفداء وابن الوردي والذهبي دون أن يتعرّضوا لذكر السنة التي مات فيها[١٠]. ودفن باديس في قبر جَدَّتُهُ من رخام، بداخل القصبة في المسجد الصغير المتصل بقصره، وظل هذا المسجد قائماً حتى بعد عام ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م، وفي أيام ابن الخطيب، أي بعد النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ذهب أثره وبقي يحفُّ به حَلْقٌ له باب[١١]. ونحن بدورنا أخذنا برأي ابن خلدون؛ كونه حجّة في دراسة البربر، فملنا إلى أن وفاة باديس كانت عام ٤٦٧ هـ.

---

(١) بطرس البستاني. دائرة المعارف الإسلامية (م٥ ص ٤١)؛ أرسلان حلاصة تاريخ الأندلس (ص ٣٢)؛ Torres Balbás Extensión y Demografia de las ciudades hispanomusulmanas, Estudia Islamica, Vol III, Madrid 1955 (P. 55)

(٢) القلقشندي. صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٤٢).

(٣) المصدر نفسه (ص ٢٤٨)

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٤٢) و(ج٣ ص ٣٧٩) واللمحة البدرية (ص ٣١)

(٥) الزركلي. الأعلام (ج٤ ص ٧٥)؛ أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٣٢)؛ دائرة المعارف الإسلامية (ج ٣ ص ٢٦٦، ٢٦٧)؛ شمتس، Terrasse. Encyclopédie de l'Islam (T. II, P. 1038); Boigues: Ensayo (P. 159).

(٦) عنان. دول الطوائف (١٣٧).

(٧) نفسه: نهاية الأندلس (ص ٢٤).

(٨) دائـرة المعـارف الإسـلاميـة (ج١١ ص ٢٥)؛ Prieto Y Vives: Los Reyes de Taifas (P. 30, 32) Maeso: Garnata al-Yahud (P 56).

(٩) Garcia Gómez Cinco Poetas Musulmanas (P. 98)

(١٠) ابن سعيد. المغرب (ج٢ ص ١٠٧ - ١٠٨)؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ١٩٨)؛ ابن الوردي. تتمة المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص٨)؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء (ج١٨ ص ٥٩٢).

(١١) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٤٤٣) و(ج٤ ص ٣٤٧)، الناصري. الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق الأستاذين جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤ (ج٢ ص ١١٨).

غرناطة في عهد عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد
(٤٦٧ - ٤٨٣ هـ/ ١٠٧٤ - ١٠٩٠ م)

أولاً - توليه مقاليد الحكم

جميع الذين ترجموا له أوردوا اسمه عبد الله، بمن فيهم ابن الخطيب(١). ثم عدل ابن الخطيب عن ذلك وأسماه عبيد الله(٢). ويُكْنَى عبد الله أبا محمد(٣). ويلقّب بالمظفر بالله(٤)، الناصر لدين الله(٥).

ولد عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥ م.(٦) واختاره جدُّه باديس ليكون خلفاً له على غرناطة، فعيّنه وليّاً للعهد عند وفاة ابنه المرشّح من بعده بلقين بن باديس(٧)، وأمر بإخراجه من

---

(١) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب (ص ٩٩)؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ١٩٨)؛ ابن الوردي. تتمة المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ٨)؛ ابن الخطيب أعمال الأعمال (القسم الثاني ص ٢٣٣) والإحاطة (ج٣ ص ٣٧٩)؛ النباهي. المرقبة العليا (ص ٩٧).

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٥٠).

(٣) مجهول. الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مطبعة التقدم الإسلامية بتونس، ١٣٢٩ هـ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٤٦) و (م ٦ ص ٣٧٠) القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٤٢ - ٢٤٨)

(٤) ابن عذاري. البيان المغرب (ج٤ ص ١٤٢ - ١٤٣)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٣) والإحاطة (ج٣ ص ٣٧٩)؛ مجهول: الحلل الموشية (ص ٣٤ - ٤٩)؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٦) و (م٦ ص ٣٧٠)؛ القلقشندي. صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٤٢ - ٢٤٨)

(٥) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله، ملحق لكتاب البيان المغرب لابن عذاري (٢٠٥)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٣) والإحاطة (ج٣ ص ٣٧٩)

(٦) ابن الخطيب. الإحاطة (ج٣ ص ٣٨٢)

(٧) توفي بلقين مسموماً على يد وزير أبيه باديس، يوسف ابن نغرالة عام ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م، وقد ذكرنا ذلك عند الحديث عن أولاد باديس (ص ١٦٢ - ١٦٣).

المكتب ليتصرّف بين يَدَيْه، وجعله يُكِبُّ على الكتابة وتلاوة القرآن، ثم أخذ يدرّبه على أمور الدولة، فامتثل عبد الله حَدَّه، وكان لا يَمُرُّ نهارٌ إلاّ ويستفيد فيه، وما كان يجهله من الأشياء استعان به بالوزراء، واستنار بآرائهم حتى وقع ذلك من أنفسهم موقعاً ارتضوه به للإمارة من بعد جدّه[1]. ويجعل الذهبي عبد الله ابن أخي باديس[2].

وقد تولّى عبد الله حكم غرناطة بعد وفاة باديس عام ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤ م[3]. ويُقرُّ ابن الخطيب بذلك، إلاّ أنه يروي أن باديس توفي عام ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢ م[4]. ويضيف أن عبد الله تولّى الأمر وهو صبيٌّ صغير لم يقارب الحلم، فانفرد بتربيته وتدبير ملكه الوزير سِمَاجَة الصنهاجي وصحبه تسع سنين إلى أن بلغ[5]. ولو ذهبنا مذهب ابن الخطيب في أن عبد الله ولد عام ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م، وأنه ولي الأمر عام ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢ م، لرأينا أنه لم يكن آنذاك صبيّاً صغيراً؛ لأن عمره يكون عندئذ ثماني عشرة سنة، وهو عمر الرشد، إلاّ إذا قصد بولاية الأمر ولاية العهد. وقال عبد السلام سودة: تولى عبد الله عرش غرناطة سنة ٤٥٤ هـ، موافق ١٠٧٧ م[6].

وقد عرفت غرناطة في عهد عبد الله العظمة نفسها التي عرفتها في عهد جدّه باديس[7].

ثانياً ـ مشاكل غرناطة الداخلية في عهده

١ ـ عبد الله يتخلّص من وزيره سِمَاجَة الصِّنْهاجي ويعزل مناوئيه عُمّال الجهات: صالح الأميرُ عبدُ الله المعتمدَ ابن عباد، صاحبَ إشبيلية، وأذفونشَ بن فردلند، صاحبَ قشتالة، وانصرف إلى تنظيم الإدارة، وإصلاح أمر المملكة، والنظر في أمر الرعيّة، والكشف على عُمّاله إنْ كانوا عادلين أو ظالمين. وأول ما ابتدأ به هو

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٢ ـ ١٣).

(٢) الذهبي: سِيَرُ أعلام النبلاء (ج١٨ ص ٥٩٢).

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠).

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٤٢) و (ج٣ ص ٣٧٩) واللمحة البدرية (ص ٣١).

(٥) نفسه: الإحاطة (ج٣ ص ٣٧٩) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥).

(٦) سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٠ (ص ١٥٩).

(٧) Gonzalo Maeso· Garnata al-Yahud (P. 56)

النظر في أمر وزيره سِمَاجَة الصِّنْهاجي ؛ إذ كان سماجة قد طمع بالتحكّم على أميره والتمكّن من دولته في بداية حكمه، وأقدم على تحصين معاقل المملكة كالمُنَكَّب Almunecar ووادي آش Guadix وغيرهما، بعد أن وضع بني عمّه عمالاً عليها ليسيروا في فلكه ويعاضدوه في سياسته. ولمّا شعر سماجةُ بما يرومه أميره اغتمَّ للأمر، وخاف من سوء العاقبة، فرأى أنْ لا سبيل إلّا إلى مداراته وإشغاله بالنساء وابتياع الرقيق له. وبرغم ذلك، فقد أصرَّ عبدُ الله على إصلاح الشأن وتجديد الدولة، فتوجّه إلى مدينة وادي آش وعزل عاملها ابن أبي جوش، صنيعة سماجة، وأمر بثقافه، وعزل عامل المُنَكَّب، وسائر العُمّال الذين اتُّهموا بالخيانة وعاملوا رعاياهم بالشدة، وعيَّن مكانهم عمّالاً يثق بهم، ويظن فيهم العدل وحسن السيرة، كما جَرَّدَ سِمَاجَةَ من صلاحياته، وأمره بالتزام ما يخصّه لنفسه، وساوى بينه وبين سائر الوزراء، فجمعهم ووضع لهم حدّاً يقفون عنده وهو ألّا يجعلوا سَمَاجة واسطةً بينه وبينهم، فَسُرَّ بذلك جميعُ الوزراء واغتبط الرعايا بعزل الظَّلَمَةِ عنهم، ثم أمره بلزوم مجلسه، فأطاعه في كل أمر دون خلافٍ ولا إظهارٍ لمعصية، ومضى مدة طويلة على لزوم المجلس دون خدمة. ثم رأى عبد الله أَنْ يرتحل سماجةُ عنه، فخرج بجميع أثاثه وخَدَمِهِ ودوابِّه وثيابه وفُرُشِهِ، مُشَيَّعاً إلى ألمرية، فاستتبَّ الأمنُ بغرناطة وصار الناس في أحسن حال، وظلَّ الأمر كذلك مدة طويلة[١].

واكتفى ابن الخطيب بالقول إن سماجة استأثر بالسلطة، واستبدَّ. فضاق به عبد الله، فرحل عنه سماجةُ إلى كنف المعتصم ابن صمادح، صاحب ألمرية، فاستقرَّ لديه بحال ثروة وغنى، وأقام عنده إلى آخر عمره[٢]. وقال بريتو إي ڤيفس إن سماجة لجأ إلى ألمرية بعد أن أكمل رسالته كوصيّ على عبد الله فترة صغيرة[٣].

٢ ـ عبد الله ينهي تمرُّد ابْنَيْ تاقْنَوْتَ بغرناطة وجريشة: لما رأى ابن تاقْنَوْتَ، صاحب[٤] مدينة غرناطة، تأديبَ الأمير عبد الله لوزيره سِمَاجَة الصِّنْهاجي، وظهوره

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٨٤ ـ ٨٨، ٢٠٦).

(٢) ابن الخطيب. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥).

(٣) Prieto Y Vives. Los Reyes de Taifas (p 30)

(٤) كان صاحب خطّة الشرطة بالأندلس يُعْرف في ألسن العامّة بصاحب المدينة وصاحب الليل، وكان عظيم القَدْر عند السلطان، وكان له القَتْلُ لمن يجب عليه دون استئذان السلطان، وكان يحدُّ على الزِّنا وشرب الخمر، ويرجع إليه كثير من الأمور الشرعية. المقري. نفح الطيب (ج١ ص ٢١٨).

على أخيه تميم بمالقة، شعر بالخوف وأحسَّ بأنه سيكون هو المستهدف هذه المرة. وكان الأمير قد عزم على التخلص منه؛ لتعامله مع أهل غرناطة بالقسوة وسوء التدبير، إذ كان كثير الطِّغْيان، بعيداً من الخير مُؤْثراً للشّر. ولما تمَّ الصلحُ بين عبد الله والمعتمد ابن عباد، صاحب إشبيلية، إثْرَ موت ابن عمار وزير المعتمد، طلب عبد الله مساعدة المعتمد للتخلص من ابن تاقْنَوْت، فأجابه المعتمد إلى طلبه، وعامله على ذلك بأحسن معاملة، وصار ابن تاقْنَوْت في قبضة عبد الله وثقافه[1].

وكان لابن تاقْنَوْتَ أخٌ يتولّى حِصْنَ جَرِيْشة، وإقليم نِيْمَش بتدبير الوزير سِمَاجَة الصِّنْهاجي، ولمَّا طال مَكْثُهُ في الحِصْن المذكور سبع سنوات أضمر نفاقاً للأمير عبد الله، وتعاقد مع كَبّاب بن تَمِيْتَ، قائدِ مَعْقلَيْ أَرْجَذُوْنَة Archidona وأَنْتَقِيْرة Antequera واتفقا معاً على ألَّا ينعزل أحدهما إلَّا بعزلة الآخر، متى أراد الأمير عزلهما. ورام الأمير عبد الله، في بداية الأمر، أنْ يتخلّص من ابن تاقْنَوْتَ سِلْماً، فطلب من المعتمد ابن عباد أنْ يتوسط بينهما، فأرسل المعتمدُ رسوله ابنَ الأصبحيّ إلى ابن تاقْنَوْتَ ليطلب منه التنازل عن الحصن لصالح عبد الله، واللجوء إلى إشبيلية، بعد ضمان الأمان له وإعطائه عَهْداً بعدم تسليمه إلى عبد الله. ولمّا رفض ابنُ تاقْنَوْتَ هذا العرض بعث المعتمدُ رسوله إلى عبد الله، يخبره أن الرجل متأهّبٌ للشرّ وأنه لا بدَّ من منازلته، وقدَّم له معونة عسكرية لقتاله. فنازل عبدُ الله حِصْنَ جريشة، ومكث في منازلته ستة أشهر، لا يبالي بما أنفق عليه من الأموال، وأمر ابنَ تاقْنَوْت، صاحبَ مدينة غرناطة، وكان في ثقافِه، أن يكتب إلى أخيه بجريشة يطلب منه أن يسلِّم نفسه وينزل على الأمان، وإلاّ بَرَّحَ الأميرُ بقتله وسَفْكِ دمه. ولمَّا وردت عليه كتب أخيه ازداد طغياناً وحماقةً، فما كان من عبد الله إلا أن دخل الحصن عَنْوَةً، وقبض على ابن تاقْنَوْتَ، وشاور الفقهاء في أمره وأمر أخيه، فأشاروا عليه بصلبهما، فتمَّ ذلك، وكان يومُ قتلهما عيداً كبيراً للناس، وابتهاجاً بالراحة من شرّهما[2].

٣ ـ عبد الله ينهي تمرّد كَبّاب بن تَمِيْتَ بأرجذونة وأنتقيرة: كان كَبّاب بن تَمِيْتَ، قائدُ مَعْقِلَيْ أرجذونة وأنتقيرة، يضمر نفاقاً لعبد الله ويطيعه في معصية، ولمَّا رأى ما كان صنعه الأمير بوزيره سِمَاجَة الصِّنْهاجي، وبأخيه تميم بمالقة، علم أنَّ عزله

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٩٥ ـ ٩٧).

(٢) المصدر نفسه (ص ٩٦ ـ ٩٨).

عن المعقلين المذكورين بات مسألة وقت، فاتصل بابن تاقْنَوْتَ قائد حصن جريشة، كما مرَّ معنا، وتحالف معه ضد عبد الله. ولما تمّ الصلح بين أميره وبين المعتمد ابن عباد جعل كَبّاب يُفْسِدُ عَقْد الصلح، فأنذره عبد الله غير مرة، ولكنه لم يزدجر ولا نَفَعَ معه وَعْظ. وكان المعتمد يشكو من كَبّاب عبر رسائل يبعث بها إلى عبد الله، فعاقده عبد الله على أن يعزله عن المعقلين المذكورين، شرط ألاّ يُنْجِده المعتمد متى ترامى عليه واستنجد به. ولمّا رأى كَبّاب ما صُنِع ببني تاقْنَوْت ازداد حماقةً، فعرض عليه عبد الله التخلّي عن المعقلين، فأبى ذلك، ثم ألحَّ عليه في أنْ يتنازل عنهما، فزاد طغيانه وخاطب المعتمدَ يرغّبه في تصيير ما بيده من حصون إليه، فأرسل المعتمد بكتابٍ إلى عبد الله يخبره فيه بالأمر ويحضّه على شدّ اليد على كبّاب. واستعدّ كَبّاب للقتال، وقطع الطرق، وأتى بما هو مشهور من شرِّه، فأمر عبد الله بضمِّ الأجناد لقتاله، فكان ذلك على أتمِّ ما يمكن. ولمّا أحسَّ كَبَّاب من نفسه بالضعّف، وأنه لا ملجأ له، ترامى على عبد الله وسأله العفو، خوفاً أنْ يحلّ به ما حلَّ بابن تاقْنَوْت، فعفا عنه عبد الله ليكون ذلك قدوة لمن يسأل العفو بَعد الإساءة، وأمَّنه وأبقاه في جملة الجند، إلاّ أنّه لم يستعمله بعد ذلك في مَعْقل، ولا مكّنه من صخرة(٢).

٤ ـ **عبد الله يقضي على ثورة ابن ميمون اليهودي بمدينة اليُسّانة:** عند انصراف الأمير عبد الله من حصن أليبط عام ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ م، فرض على أهل اليُسّانة Lucena ذهباً كثيراً من أجل تقوية جيشه وتحسين الوضع بغرناطة، ولمّا لم تَجْرِ عادة هؤلاء على دفع مثل تلك الضريبة الباهظة، نفرت أنفسهم لذلك، فاستغلَّ زعيمهم ابن ميمون اليهودي هذا الوضع، وأخذ في إغرائهم، فحملهم على النفاق، وحثّهم على الانقباض وحماية أموالهم، فأجابوه، وحلموا السلاح بوجه عبد الله. وإزاء ذلك لم يَجِدْ عبد الله بُداً من إرسال عسكره إلى ابن ميمون، ولكن مؤملاً، وزير عبد الله، سرعان ما أصلح الأمر مع ابن ميمون، وأقنع الأمير بعدم النهوض إليه، لِئلاَّ يزيد أهلَ اليُسّانة نفاراً، وكي لا يستعينوا بالمعتمد ابن عباد، صاحب إشبيلية. ولم يطمئن عبد الله إلى هذا التدبير، فاحتلَّ اليُسّانة وقبض على ابن ميمون وهو غافل، وأمر بثقافه مع ابنه، ووعد يهود اليُسّانة بالإحسان، وأمر بعدم تعيين زعيم عليهم بعد اليوم، فشكروه على فعلته ورَضُوا بالأمر، فتهدَّنت الأحوال وقَرَّت(٢). وقد أشار ويسي ميراندا

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٩٥ ـ ١٠٠).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٣١ ـ ١٣٢).

إلى هذه الثورة وحدَّد تاريخها بقوله: قامت ثورة اليسانة عام ٤٨٢ هـ/ ١٠٨٩ م، بعد المحادثات التي أجراها عبد الله مع ألفونسو وقائده ألبرهانس[١].

٥ ـ عبد الله يقضي على ثورة وزيره مؤمّل بمدينة لوشة: بعد القضاء على ثورة ابن ميمون اليهودي بمدينة اليُسّانة، اكتشف الأمير عبد الله مؤامرة بمدينة غرناطة، تزعّمها كاتبه ابن البَرَاء، وكبار قواد جيشه من زناتة، وكبار العبيد وعلى رأسهم لبيب الخصي صاحب المدينة، فأمر عندئذ بإخراج مائة فارس زناتي عن غرناطة، ثم أعقبهم باثنين من شيوخ العبيد، وثقّف لبيباً[٢]. وكان وزيره مؤمّل آنذاك خارج غرناطة، فلحق به هؤلاء بصحبة ابن البَرَاء، وأعلموه بما جرى معهم، فخاف على نفسه من أن يكون مصيره كمصيرهم، فقصد معم مدينة لوشة، إذ كانوا جميعاً على اتفاق مسبق مع بني مالك عمّال لوشة،على أن يلجأوا إليهم متى دهمهم سوء. ودخل مؤمل وصحبه قصبة لوشة، وجمع الجند والرعية، وأوهمهم أنه لجأ إليهم للتخلّص من براثن النصارى الذين استحوذوا على غرناطة ومقدّراتها، وحملهم على الوقوف بجانبه، وخاطب ملوك الطوائف حتى صاحب مالقة تميم بن بلقين، فلم يُجِبْه أحد، ولمّا يئس منهم أرسل إلى يوسف بن تاشفين يزوِّرُ عنده الأمر ويكذب. وخاطب كذلك أهل حصون غربي غرناطة يأمرهم بالخلاف والتضييق على الحاضرة غرناطة، ولمّا شكَّ أهل تلك الحصون بنوايا مؤمّل أرسلوا في الحال رُسلاً إلى غرناطة للاطلاع من أميرها على صورة الوضع، فأخبرهم عبد الله بحقيقة الأمر،ولمّا لم يَرَوْا شيئاً ممّا ذكره مؤمل، طابت أنفسهم، وعلموا أنه مخالف منافق، فبادروا إلى منازلته، طالبين العون من عبد الله. ولكن هذا الأخير فضّل التريّث في بداية الأمر، فأرسل كتبه ورسله إلى هؤلاء الثوار يحذّرهم من سوء عاقبة الفتنة، فلم يرجعوا عن غيِّهم، فيئس منهم وأرسل عسكره بقيادة صهره، زوج أخته، يوسف بن حجاج، فدخل عسكره قصبة لوشة، وقبض على مؤمّل ومن معه. واستفتى عبد الله الفقهاء في مصيرهم، فأفتى فريق منهم

---

(١) Huici Miranda: El Sitio de Aledo, Miscelánea de estudios árabes y hebraicos, Año III, N°3, Granada, 1954 (P 46)

(٢) يشير ابن عذاري إلى هذه الثورة بقوله: بعد القضاء على ثورة اليُسّانة في سنة ٤٨٢ هـ/ ١٠٨٩ م، قام في السنة نفسها مقاتل بن عطية الزناتي أحد قواد عبد الله، بتمرّد على الأمير مع ثلاثمائة فارس، فطرده عبد الله من غرناطة، وكان ذلك إيذاناً بزوال حكم عبد الله. ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله، ملحق لكتاب البيان المغرب لابن عذاري (ص ٢٠٦)؛ Miranda: El Sitio de Aledo (P 46)

أنّ قتلهم غير جائز، وأفتى فريق آخر بقتلهم، وآثر عبد الله الأبعد عن الآثام، فأمر بتثقيفهم[1].

وروى ابن الخطيب أنَّ مؤملاً أشار على عبد الله بالخروج إلى يوسف بن تاشفين متى قَرُبَ من غرناطة؛ لعدم تمكّنه من مدافعته، فاستشاط عبد الله غيظاً على مؤمّل وهَمَّ به، فخرج مؤمّل ليلاً وفرَّ إلى لوشة، وكان قائدها آنذاك رجل من أبناء عبيد باديس، فملكها وثار فيها على عبد الله بدعوة ابن تاشفين، وبادر بالخطاب إلى ابن تاشفين الذي أعجبه منذ وفَدَ إليه مبعوثاً من قبل عبد الله. وبادر عبد الله الأمر، فأرسل الجيش إلى لوشة، وتغلّب على من ثار فيها، وسِيْقَ مؤمَّلٌ ومن كان معه في الحديد، وأُرْكِبُوا على دوابّ وكُشِفَتْ رؤوسهم، ثم أودعوا السجن. وأنفذ ابن تاشفين إلى عبد الله في حلِّ اعتقالهم، فأطلق سراحهم[2].

٦ ـ تمرّد القائد نعمان في حصون غرناطة الغربية: اتّفق القائد نعمان مع أهل حصون غرناطة الغربية على أن يصيروا في طاعة المرابطين، وعمل الحيلة على أميره عبد الله، فادَّعى أنّ له بالعدوة المغربية ميراثاً ومالاً يريد اقتضاءهما، وهو في الحقيقة يريد الاتصال بيوسف بن تاشفين، فسمح له عبد الله بالخروج، فتوجّه إلى المغرب، واتصل بيوسف، وأخذ يسعى على عبد الله مدّعياً أنه نفاه من بلاده بسبب محبّته في دولة المرابطين، فعملت أقواله كلها في نفس ابن تاشفين[3].

٧ ـ ثورة أيوب بن مطروح بغرناطة: ثار أيوب على أميره عبد الله، وخاض بحار الفتنة، ليحكم غرناطة مكانه، ولكنه فشل، وعفا عنه عبد الله. ولمّا خَلَعَ ابنُ تاشفين عبد الله سنة ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م وأخذ منه غرناطة، مات أيوب كَمَداً، فأدخل رأسه تحته، ولمَّا حُرِّكَ وُجِدَ ميتاً[4].

ثالثاً ـ علاقته بمن حوله من ملوك الأندلس:

١ ـ علاقته بأخيه تميم صاحب مالقة: كان أخوه الأكبر تميم بن بلقين والياً على

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٣٦ ـ ١٣٨).
(٢) ابن الخطيب. الإحاطة (ج٣ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣)
(٣) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٣٩).
(٤) ابن سعيد: المغرب (ج٢ ص ١٥٤)؛ المقري نفح الطيب (ج٣ ص ٥٦٨).

مالقة منذ أيام جدِّه باديس، فثبَّت له عبد الله الأمر، وأبقاه على ولايتها[1]. ولكن تميماً لم يُرِدْ أن يعترف بسلطان أخيه، فتمرّد عليه، وأعلن الاستقلال بمالقة عام ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦ م، وظل هذا التقسيم قائماً حتى سقوط غرناطة ومالقة معاً في أيدي المرابطين سنة ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م[2].

وتطوّر الخلاف بين الأخوَيْنِ، فأرسل تميم عسكراً للإغارة على حِصْنَيْ المُنَكَّب Almunecar وشاط Jete، الواقعَيْنِ تحت حكم عبد الله، فرأى هذا الأخير أن يؤدِّب أخاه على فعلته تلك، فنهض بنفسه على رأس جيش إلى مالقة، واستولى على بعض حصونها الأمامية مثل حصن القصر، والحَمَّة، وصخرة دُوْمِس، وحِصِنْ أَشْتَنِيْر، وَمِرِيّة بِلِّش، وصخرة حبيب، وجُطْرون، ومُنْت ماس، وهدم من الحصون ما يستغني عنها، ثم وقع القتال بين قوات الأخوين أمام مالقة، وكاد عسكر عبد الله أن ينهزم في بادىء الأمر، ثم كانت الكرّة على عسكر تميم، فهزمه وضيّق الخناق على مالقة. ولمّا رأى أخوه ما دهمه من الأمر، خاف على نفسه من أهل مالقة، فأرسل إلى أخيه يستعطفه ويسأله العفو، فرفع عبد الله الحصار عن مالقة، وأبقى بيد أخيه مالقة والحصون الغربية مثل قَرْطَمَة، ومِيْشَش، وحُمَارِش، وقامَرَة. وقد أقدم عبد الله على ذلك لتدخّل أمِّهما في الأمر من جهة، ولخشيته من أن يتحوّل أخوه، إذا اشتدَّ عليه الحصار، إلى محالفة المعتمد ابن عباد، صاحب إشبيلية، وإعطائه مالقة من جهة ثانية[3].

ولم يَرْعَوِ تميمٌ، فعاد إلى الخلاف، فاستغاث بيوسف بن تاشفين لينتقم من أخيه، ويستدرك ما فاته من مملكة جدِّه باديس، ظنّاً منه بأن ابن تاشفين سيكون حكماً بينهما، وأنه سيقسم الأموال بينهما بالتساوي، ولكنَّ ابن تاشفين لم يلتفت إلى دعوته. وكان خلافهما على حدِّ قول عبد الله في مذكراته، لصالح ابن تاشفين، بحيث يَسَّرَ عليه أخذ الواحد بالآخر: «وكان هذا الخلاف كله من سعادة أمير المسلمين، ورأى مِنْ تشتّتنا أنه لا مشقّة تكون عليه في أخذ بعضنا ببعض متى شاء، فلم يُجِبْه

---

(١) ابن حلدون: تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٦)؛ القلقشندي. صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٤٢).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (ج١١ ص٢٦): بروڤنسال؛ Prieto Y Vives: Los Reyes de Taifas (p. 30 32)

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٩٠ ـ ٩٥).

الأمير إلى شيء، ولا كان وقته، وهو يُلِحُّ عليه بقلّة الدُرْبة»[1].

٢ ـ علاقته بالمعتصم ابن صمادح صاحب ألمرية: ما إنْ تسلَّم عبد الله مقاليد الحكم حتى أفسد المعتصمُ ابن صمادح، صاحبُ ألمرية، الحلفَ الذي كان قائماً بينه وبين باديس جَدِّ عبد الله، فعاد إلى عدائه المتأصّل لبني زيري، وكشف من جديد عن أطماعه في مدينة غرناطة أو بعض حصونها. يروي الأمير عبد الله أنَّ ابن مَلْحان عامِلَهُ على مدينة بسطة منذ عهد جَدِّه باديس، شَرهَتْ نفسه في بداية عهده إلى رتب الملوك، فأخذ يتصرّف بتلك المدينة على هواه. ولمّا ألحَّ وزراء غرناطة على ابن مَلْحان بطلب المال لم يجد سبيلاً إلى الدفاع عن نفسه، فانتهز فرصة انشغال أميره بمواجهة المعتمد ابن عباد، صاحب إشبيلية، وترامى على المعتصم ابن صمادح وذلّل له مهمة الاستيلاء على حصن شِيْلَشْ، فاستولى المعتصم على الحصن المذكور. ولم يَنَمْ عبد الله على ضَيْم، فهاجم حصن شنت أقلج أحد معاقل ألمرية، وانتزعه من المعتصم عوضاً عن حصن شِيْلَشْ، ثم فاوض المعتصمَ بشأن هذا الحصن، فأُعِيْدَ كلُّ حِصْنٍ إلى صاحبه، وصالحه مهادئةً وانجراراً للحال ريثما ينتهي خلافه مع المعتمد[2]. ويضيف: لمّا نُفي وزيرُ عبد الله، سماجةُ الصنهاجي، مِنْ قِبَلِهِ إلى ألمرية، أخذ سماجةُ يحقِّر للمعتصم دولة غرناطة ويطمعه فيها، أملاً في أن ينال على يديْه فرصة يفيد منها ويعود إلى غرناطة، فعلم عبد الله بما يدبِّر له سماجة والمعتصم، فأقدم على إقامة حصون على حدود بلاده الشرقية المتاخمة لبلاد المعتصم، بهدف حماية حدوده، من جهة، وكَبْح أطماع المعتصم من جهة ثانية، فأمر ببناء حصن المُنْتَوْري[3] القريب من فِنْيانة finana، وفي مدة وجيزة تمَّ بناء الحِصْن المذكور، وجعل فيه حماة الرجال، فأصبح خطراً على أملاك المعتصم. ثم أردفه بإقامة سبعة معاقل أخرى. ولمّا ضاق المعتصم ذرعاً بهذه المعاقل، بحيث باتت تهدّد جهات ألمرية، وجّه عساكره نحو بلاد عبد الله، فَهُزِمَتْ وعادت على أعقابها غير مرة، وأُسِر كبارُ رجاله[4]. ويضيف: لمّا باتَ الروم يهدّدون ملوك الأندلس، وهو واحدٌ منهم،

---

(١) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٢).

(٢) المصدر نفسه (ص ٧١ ـ ٧٢)

(٣) المُنْتَوْري Montawri وهو نفسه مرتفع Montaire ويبعد ٩ كلم عن فِنْيانة.

Hernández Jiménez Estudios de Geografia histórica espanola (Munturio Muntawri - Montaire), Al - andalus, Vol. VI, Madrid - Granada, 1941 (P. 133 - 134).

(٤) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٨٨ ـ ٨٩).

رأى أن يصالح جاره المعتصم، فصالحه، وباتا صديقَيْن طيلة فترة عَهْدَيهما: «وإصلاح الأمر مع الجار - وجارٌ ضعيف يُتْقَى عليه - خيرٌ من تهيؤنا لقويّ لا يُرام . . . فصالحْتُ الرجلَ، وأمرْتُ بهدم الحصون، ونُشِرَت ألمرية من كفن. وتمكّن بعد ذلك، ودَنَا، وصار أصدق الناسِ لنا. . . فلم نزل متعاقِدَيْنِ متشارِكَيْنِ في الحلو والمرِّ إلى انصرام الأجل»[1].

- ٣ - **علاقته بالمعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية**: كان المعتمد ابن عباد، صاحبُ إشبيلية، يطمع بغرناطة، ويبرِّز على مقربة منها طمعاً في أن يقوم أهلُها معه، فكان عدوّاً لعبد الله في الباطن، وصديقاً في الظاهر[2]. فلما اعتلى عبد الله العرش عام ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤ م، طالبه الملك الإسباني ألفونسو السادس بدفع الجزية المتوجّبة عليه، ومقدارها عشرون ألف دينار، فرفض عبد الله تسديدها، فانتهز المعتمد هذه الفرصة، وبعث وزيره ابن عمار إلى ألفونسو، فعقد معه اتفاقاً خلاصته أنْ يتعاون الفريقان على افتتاح غرناطة، على أن تكون مدينة غرناطة للمعتمد، وأنْ يكون سائر ما فيها من الأموال لألفونسو، إضافة إلى خمسين ألف دينار يعطيها المعتمد لألفونسو، فعاقده ألفونسو على ذلك، فأمدّه بسريّة من جنده، فأمر المعتمدُ وزيره ابنَ عمار بتنفيذ الخطة، فبنى ابن عمار على مقربة من غرناطة حصن بليلش Velillos، وشحنه بالجند، واتّخذ فيه جميع الأقوات، وأمر حاميته بالتضييق على غرناطة لإرهاق أهلها، فحشد سماجةُ الصنهاجيُّ وزيرُ عبد الله قوات صنهاجة وأبدى منتهى العز في مقاومة المغيرين، فاضطرّ المعتمدُ إلى أنْ يسحب قواته وقوات ألفونسو عن المعقل، ويعود إلى إشبيلية بعد أن مُني بهزيمة في قرطبة على يد ابن ذي النون، صاحب طليطلة، في العام المذكور، فأقدم عسكر عبد الله عندئذ على احتلال الحصن، وصار هذا الحصن في ملك عبد الله، فاهتمَّ بتشييده من جديد كاهتمامه بقصبة غرناطة[3].

وبدافع من وزيره ابن عمار، عاد المعتمد ثانية إلى ألفونسو، وحرّضه على

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٩٠).

(٢) المصدر نفسه (٦٩ - ٧١)

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٧١ - ٢٠٦)؛ ابن الخطيب. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٤). وانظر أيضاً:

Prieto Y Vives Los Reyes de Taifas (p 30) Miranda la invasión de los Almorávides y la batalla de Zalaca, Hésperis (T. XL./° y 2°. trimestres, 1953 P. 18).

احتلال غرناطة، وأظهر له أنَّ صاحبها ملكٌ ضعيف لا يقدر على مقاومته، فعاقده، عند تمكّنه من غرناطة، أن يجعل غرناطة ملكه، مقابل إعطائه خمسين ألف مثقال. فأدرك ألفونسو طمع كبير، إلاَّ أنه رأى أنه من الأفيد أخذ مال المعتمد وعبد الله؛ لأنْ لا أمل له بأخذ غرناطة لنفسه، ورأى أنْ يهدّد الواحدُ الآخرَ، فيضعف بالتالي الرجلان، ويصبح من السهل الاستيلاء على غرناطة، وسار ألفونسو بنفسه نحو غرناطة على رأس جيش، ومعه جيش ابن عمار، وعند وصوله إلى أبواب غرناطة، أرسل إلى عبد الله يأمره بالخروج إليه، فأدرك عبد الله أنَّ ألفونسو قادم للقبض عليه، فاستشار في الأمر كبار رجال دولته، فأشاروا عليه بالخروج إليه والتحدّث معه بلين، كونه عدوّاً لا يُقاوم، ومن الأجدى مهادنته. فخرج إليه مع من يثق بهم من رجاله، ولقيه على مقربة من غرناطة، وبالغ في إكرامه، فأعلمه ألفونسو بأنه لا ينوي إيذاءه، ووعده بأنه يحامي عن بلده، واشترط عليه مقابل ذلك أنْ يَفِيْه بخمسين ألف مِثْقال. ولم يكن عبد الله قادراً على دفع هذا المبلغ، فأعطاه ثلاثين ألفاً، ووعده بدفع الباقي فيما بعد، فأخذ ألفونسو المبلغ ورجع إلى ابن عمار يلومه كيف صوّر له أن غرناطة في ضعف وأن مليكها صغير لا يعقل[1]. ورأى عبد الله أنه من الأجدى أنْ يعاقب المعتمد ويؤدّبه في عُقْر داره؛ ففي عام ٤٧٢ هـ/ ١٠٧٩ م زحف بقواته إلى أراضي إشبيلية تسانده سريّة من الفرسان النصارى كان قد بعثها ألفونسو لعبد الله، وكانت بقيادة غرسية منافس السِّيْد الكمبيطور وعدوّه، وصادف في ذلك الوقت وصول السِّيْد الكمبيطور إلى إشبيلية مبعوثاً من قبل سيِّده ألفونسو لقبض الجزية من المعتمد، فتدخّل السِّيْد لصالح المعتمد، فطلب من مواطنيه النصارى الكفّ عن هذا العدوان، تحقيقاً لمقتضيات الصداقة التي يكنُّها ألفونسو لصديقه المعتمد. ولمّا لم يُصْغِ هؤلاء إلى كلامه خرج إلى قتالهم وأوقع بهم الهزيمة وأسر جماعة من الأشراف المسيحيين، بينهم غرسية، ولم يطلق سراحهم إلاَّ بعد ثلاثة أيام، فقفلوا إلى بلادهم مذلولين. وسُرَّ المعتمدُ من تصرّف السِّيْد وأعطاه، إضافةً إلى الجزية، طائفةً من التحف والهدايا[2]. وبموت ابن عمار عام ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ م، أزيلت الفتن بين عبد الله والمعتمد؛ لأنَّ ابن عمار هو الذي كان يُثيرها، فجدّد الرجلان عقد الصلح، وعاد جوّ الصفاء بينهما، وقَرَّتِ الأحوال

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٧٢ - ٧٥)

(٢) البستاني: معارك العرب في الأندلس، دار مارون عبود، بيروت ١٩٨٧ (ص ٥٠)؛

Menéndez pıdal· La Espana del Cıd, Madrıd, 1947 (T I, P 259 - 261)

قرارها، وتهنّأ كلاهما بمُلْكه، وتوطّدت العلاقة بينهما إلى حَدٍّ أنَّ المعتمد عاونه في القضاء على تمرّد كَبّاب بن تَمِيْتَ وابْنَيْ تاقْنَوْتَ[1].

رابعاً ـ علاقته بالملك الإسباني ألفونسو السادس:

١ ـ عبد الله يعقد اتفاقاً مع ألفونسو على أداء الضريبة السنوية له: كان ملوك الطوائف، وعبد الله واحد منهم، يُدارون ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون وجليقية، ويتّقونه بالجِزَى، ولمّا ظهر بالعدوة المغربية أميرُ المرابطين يوسف بن تاشفين، تعلّقت آمالهم بإعانته، وأخذوا يستصرخونه متى ضايقهم ألفونسو في طلب الجزية[2]. وقد كانت الأندلس، قبل انتصار المرابطين وملوك الطوائف بالزلاقة عام ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م، بصدد التلاف بسبب فرض الإتاوة على ملوكها قاطبة[3].

وأول مداخلة تنشأ بين عبد الله وألفونسو هي رفض عبد الله في بداية حكمه دفع الجزية السنوية لألفونسو؛ فلما رأى هذا الأخير الفتن في غرناطة أرسل رسوله باطْرُ شُوْلش Pedro Solos إلى عبد الله يطلب منه ضريبة مقدارها عشرون ألف دينار، فأبى عبد الله أنْ يؤدِّيها له؛ لأنه لم يكن يخشى يومئذ ضُرّاً من ألفونسو، وذلك أسوة بما فعل غيره من ملوك الطوائف، فانصرف باطْرُ إلى بلاده خالي الوفاض[4].

وفيما بعد، وجد عبد الله نفسه غير قادر على ملاقاة ألفونسو، فاستنجد بنظرائه ملوك الطوائف، ولمّا لم يَلْقَ منهم آذاناً صاغية، انصاع لمهادنة ألفونسو ومصالحته، فعاقده على أن يعطيه ضريبة سنوية مقدارها عشرة آلاف مثقال، واشترط عليه ألفونسو ألّا يتأخّر في تأديتها، فإذا تأخّر بها أتاه رسوله، وألزمه عليه نفقات، إضافةً إلى الضريبة، ورأى عبد الله أنّ ذلك خيرٌ من هلاك مسلمي غرناطة[5].

٢ ـ عبد الله يتنازل لألفونسو عن حصون وقلاع تابعة لغرناطة: ظل ابن عمار، وزيرُ المعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية، يزيّن لألفونسو احتلال بعض حصون غرناطة

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٨٢، ٩٥ ـ ٩٨).
(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ١٣٣)؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤١)؛ المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٤٣٩).
(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ١٣٥)
(٤) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٦٩).
(٥) المصدر نفسه (ص ٧٦).

الهامة، فحثّه على احتلال حصن إسْطَبه Estepa، وكان معقلاً عظيماً مما يلي جهات إشبيلية، فأسرع ألفونسو واستولى عليه، فاتصل عندئذ عبد الله به وعاقده على أن يتنازل له عن قلعة أسْطَلِيْر، عوضاً عن إسْطَبّة[1]. ثم ترامى ابن عمار على ألفونسو في أمر قاشْترُه Castro ومارتش Martos، وهما معقلا جيان الشهيران التابعان لغرناطة، فأخذهما ألفونسو دون مقاومة تذكر، وأعطى مارتش لابن عمار مقابل أموال قدَّمها له هذا الأخير[2]. ونحن مضطرون هنا لننقل عن الأمير عبد الله، كونه المؤرخ الوحيد الذي يروي ذلك، وقد لا يكون الأمر هكذا؛ لأن عبد الله البربري كان على خصومة مع بني عباد العرب.

٣ ـ عبد الله يشارك في معركة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م لمقاتلة ألفونسو:
من أهم أسباب وقوع معركة الزلاقة غارات ألفونسو المتكرّرة على مدن الأندلس ومعاقلها، وسقوط مدينة طليطلة في أيديه. فقد كان ألفونسو بغاراته تلك يحرق مدن الأندلس وقراها، وينتسف حقولها، ويقتل شِيْبها وشُبّانها، ويأسر نساءها وصبيانها، ويثخن فيهم بالنار والسيف، ويفرض عليهم الجزى[3]. وبعد أن غلب على طليطلة في صفر عام ٤٧٨ هـ/ أيار ١٠٨٥ م[4]، طمع في الاستيلاء على سائر ممالك الأندلس، ولم يعد يقنع بالجزية، فهابه ملوك الطوائف، وكثر رعبهم، واشتدَّ خوفهم؛ لكون طليطلة واسطة عِقْد الأندلس، ونقطة دائرتها، وتحقّقوا عظم الخطر النصراني عليهم، فاستنجدوا بالمرابطين[5].

وكان الأمير عبد الله واحداً من بين هؤلاء الأمراء المستغيثين، عندما شعر بالخطر يداهمه من قبل غرسية أحد قواد ألفونسو؛ فقد كان غرسية يقيم في حصن

---

(١) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ٧٥).

(٢) المصدر نفسه (ص ٧٦).

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٢)؛ الناصري: الاستقصا (ج٢ ص ٣٢ ـ ٣٣). وانظر أيضاً:
Lévi - Provençal, Gómez, Asın: Novedades sobre la Batalla Ilamada Al-Zallaqa, Al-Andalus, vol, XV, Fasc I Madrıd - Granada, 1950 (P 115)

(٤) روى ابن الكردبوس أن صاحبها عبد القادر بن ذي النون هو الذي تخلى عنها لألفونسو عام ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م. ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس (ص ٨٤ ـ ٨٥) وحدّد القزويني وابن أبي زرع تاريخ سقوطها عام ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤م القزويني: آثار البلاد (ص ٥٤٧)؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٢).

(٥) مجهول: الحلل الموشية (ص ٢٢).

أليط، وكان يواصل منه غاراته على غرناطة وألمرية معاً؛ ففي عام ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م زحف بعسكره إلى غرناطة وأصبح على بعد ميل من شرقيِّها، وجرت بينه وبين عبد الله معارك، وكان الخطر آنذاك عظيماً على غرناطة[١].

وكون المعتمد ابن عباد، صاحب إشبيلية، أقوى ملوك الطوائف، فقد تزعّم حركة الاستنجاد بالمرابطين، فطلب من جارَيْهِ المتوكل عمر بن محمد ابن الأفطس صاحب بَطَلْيَوْسَ، وعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، أنْ يُوْفِد إليه كلٌّ منهما قاضي حضرته، ففعلا، وكان قاضي المتوكل هو أبا إسحاق بن مُقانا، وكان قاضي عبد الله أبا جعفر بن القليعي، ثم استحضر قاضي الجماعة بقرطبة وهو عبد الله بن أدْهم، فلمّا اجتمع هؤلاء القضاة عنده بإشبيلية أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون، وبعث الأربعة إلى يوسف بن تاشفين، مُسْنِداً إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف وترغيبه في الجهاد، وإلى ابن زيدون ما لا بُدَّ منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية[٢]. وتمَّ الاتفاق مع ابن تاشفين على أن يتّحد أمراء الأندلس جميعاً بمعونته على غزو بلاد الروم[٣].

وفي عام ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م جاز المعتمد البحر وقصد ابنَ تاشفين للاستنجاد به على غزو الإسبان، فوعده يوسف بتلبية مطلبه، ورجع المعتمد إلى الأندلس مسروراً، ولم يَدْرِ أنَّ تدميره في تدبيره[٤].

ولمّا رأى ملوك الطوائف ما عزم عليه المعتمدُ حَذَّروه سوء العاقبة، فأجابهم بأنّ رعي الجمال خير من رعي الخنازير، أي أن كونه أسيراً لابن تاشفين يرعى جماله خيرٌ من كونه أسيراً لألفونسو يرعى خنازيره[٥].

ولمّا كان ابن تاشفين يرغب في جهاد النصارى، فقد بعث من سبتة إلى

---

(١) دوزي: ملوك الطوائف (ص ٢٧٨).

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء (ج٢ ص ٩٨ - ٩٩)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٤ ص ١٣٢)، الحميري: الروض المعطار (ص ٢٨٨)؛ المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٣٥٩)؛ الناصري. الاستقصا (ج٢ ص ٣٩).

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٣).

(٤) عبد الواحد المراكشي المعجب (ص ١٣٠ - ١٣١)

(٥) ابن خلكان. وفيات الأعيان (ج٧ ص ١١٥)، ابن عذاري. البيان المغرب (ج٤ ص ١٣٢)، الحميري. الروض المعطار (ص ٢٨٨)؛ المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٣٥٩).

المعتمد بكتابٍ يطلب فيه منه أن يتنازل له عن الجزيرة الخضراء، وكان حاكمها آنذاك ولده يزيد ابن المعتمد، فقبل ذلك ولبّى طلب ابن تاشفين[1]. ويروي المقري نقلاً عن ابن اللبانة، أنَّ المعتمد اعتذر عن تلبية طلب ابن تاشفين، فلم يكن إلاَّ كَلَمْح البصر وقد أَطَلَّتْ على الجزيرة مائة شراع، فَطَيَّر يزيد ابن المعتمد الحَمَام إلى أبيه فأمره بإخلائها[2]. ويروي ابن بلقين أن المعتمد طلب من ابن تاشفين التريّث مدة ثلاثين يوماً لإخلاء الجزيرة، فأرسل ابن تاشفين في الحال خمسمائة فارس، فدخلوها عَنْوةً، فأمر المعتمدُ عندئذ ابنه بإخلائها[3].

ويخبرنا ابن خلكان أنَّ ابن تاشفين عبر من سبتة إلى الجزيرة الخضـراء في عشرة آلاف مقاتل، ثم أمر بعبور الجمال، فعبر منها ما أغصَّ الجزيرة، وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الأندلس قد رأَوْا قطّ جملاً، ولا كانت خيلهم قد رأت صورها ولا سمعت أصواتها، وكان لابن تاشفين في عبورها رأي مصيب، إذ أحضرها إلى أرض المعركة، فكانت خيل الفرنجة تحجم عنها[4].

ويروي عبد الواحد المراكشي أنّ ابن تاشفين عبر إلى الجزيرة بعسكرٍ ضخم، يقدّر بحوالى سبعة آلاف فارس، إضافةً إلى عدد كثير من المشاة، وذلك في شهر جمادى الأولى من سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م[5]. ويذكر ابن أبي زرع والناصري أنّ عبـوره كان يـوم الخميس منتصف ربيع الأول من العـام المذكـور[6]. ويجعل ابن الخطيب شهر ربيع الأول تاريخ دخول ابن تاشفين الجزيرة، دون أن يحدّد اليوم[7]. ويقول ابن الكردبوس إنّ ابن تاشفين عبر إلى الجزيرة في عام ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م في كتيبته الخضراء المشتملة على اثني عشر ألف راكب من صناديد الأجناد[8]. ويحدّد

---

(١) محهول: الحلل الموشية (ص ٣٣)؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٨٢)

(٢) المقري. نفح الطيب (ج٤ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧).

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٢ ـ ١٠٣).

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيـان (ج٥ ص ٢٩) و(ج٧ ص ١١٦). وانظر أيضـاً: المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٣٦١).

(٥) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ١٣١).

(٦) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٣)؛ الناصري. الاستقصا (ج٢ ص ٣٤)

(٧) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٤٠).

(٨) ابن الكردبوس. تاريخ الأندلس (ص ٩٠). وكيفما كان الأمر، فإن العدد متقارب ليس فيه خلاف كبير بين هؤلاء المؤرخين.

ابن خلدون نزول ابن تاشفين بالجزيرة عام ٤٨٩ هـ/ ١٠٩٥ م: «ونزل بالجزيرة سنة تسع وثمانين وأربعمائة ولقيه المعتمد وابن الأفطس»[١]. وقد التقى ابنَ تاشفين بالجزيرة جميعُ أمراء الأندلس ورؤسائها مستبشرين بقدومه[٢]. وقال أبو الفداء وابن الوردي والناصري إن المعتمد وغيره من ملوك الطوائف اجتمعوا بالجزيرة إلى ابن تاشفين[٣]. ويروي عبد الواحد المراكشي أنَّ المعتمد ابن عباد تلقّى ابنَ تاشفين في الجزيرة في وجوه دولته، وأكرمه وقدَّم إليه من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية ما لم يظنّه ابنُ تاشفين عند ملك، وأنَّ المعتصم ابن صمادح لقيه أيضاً بهدايا فاخرة وتحف جليلة، فكان هذا أول ما أوقع في نفس ابن تاشفين التشوّق إلى احتلال الأندلس[٤]. وأشار صاحبُ الحلل الموشية إلى أنَّ ابن تاشفين رحل بعساكره من الجزيرة نحو إشبيلية، فتلقّاه المعتمد على مرحلة من الجزيرة وسلّم عليه، وتابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى إشبيلية، فأقاموا بها ثلاثة أيام ثم ارتحلوا إلى بطليوس[٥].

ويخبرنا عبد الواحد المراكشي أنّ ابن تاشفين فصل عن الجزيرة الخضراء بجيوشه قاصداً شرقيَّ الأندلس، لمحاربة ألفونسو الذي كان آنذاك يحاصر حِصْن أليط، وسأله المعتمدُ دخولَ إشبيلية ليستريح فيها أياماً من عناء السفر ثم يقصد قصده، فأبى عليه يوسف وقصد الحِصْن المذكور، فلما أُبْلِغَ ألفونسو بالأمر أقلع عن ذلك الحصن ورجع إلى بلاده مُسْتَنْفِراً عساكره ليلقى بهم ابن تاشفين. ولقي يوسفُ ملوكَ الطوائف الذين كانوا على طريقه كعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، والمعتصم ابن صمادح صاحب ألمرية، وابن عبد العزيز أبي بكر صاحب بلنسية[٦].

وعند حلول ابن تاشفين بإشبيلية كتب إلى أمراء الأندلس يحضُّهم على اللحاق به بعساكرهم، وانطلق والمعتمدَ نحو بطليوس، فلحق بهما عبد الله بن بلقين، وأخوه تميم صاحب مالقة، واعتذر المعتصم ابن صمادح صاحب ألمرية عن المجيء

---

(١) ابن خلدون· تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٨٢).

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٣ - ٩٤).

(٣) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (ح٢ ص ١٩٨)؛ ابن الوردي. تتمة المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ٨)؛ الناصري: الاستقصا (ح٢ ص ٣٤)

(٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ١٣١ - ١٣٦).

(٥) مجهول: الحلل الموشية (ص ٣٤).

(٦) عبد الواحد المراكشي المعجب (ص ١٣١ - ١٣٢).

بنفسه، بسبب العدوّ الملاصق له بحصن أليط من عمل لورقة، ولكبر سنّه، وأرسل ابنه معزّ الدولة أحمد بن المعتصم، ولقيهم المتوكل ابن الأفطس، صاحب بطليوس، على ثلاث مراحل من بطليوس، واحتفل لهم وبذل مجهوده[1]. وهكذا لبّى الأمير عبد الله دعوة ابن تاشفين والتحق به، فلقيه بجريشة الواقعة بين إشبيلية وبطليوس على حدّ قول الأمير عبد الله نفسه: «وأرسل أميرُ المسلمين، عند حُلُوْلِهِ بإشبيليـة، عن جميع الرؤساء؛ فأمّا ابنُ صمادح، فأبى عليه وبقي متربّصاً ليرى كيفية الأمر ومَخْرَجَهُ مع الروم، واعتذر بكبر السنِّ مع الضعف، وأرسل ابنه مُعْتذراً. وبـادَرْنا نحن إلى الخروج، وسُرِرْنا بذلك، وأَعْدَدْنا ما استطعْنا عليه للجهاد بأموالنا ورجالنا، وقدَّمْنا الهديّة إلى أمير المسلمين، وأَمَرْنا بضرب الطبل وما يُسْتَعَدُّ به للفرح، عند مخاطبته لنا بدخول الجزيرة، وظَنَنَّا أنَّ إقباله إلى الأندلس مِنَّةٌ من الله عَظُمَتْ لدينا، لا سيمـا خاصةً من أجل القرابة... ولقيْنا أميرَ المسلمين في طريقه إلى بطليوس بِجَرِيْشَةَ، ورأيْنا من إكرامه لنا وتحفِّيْه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبةً، لو استطعْنا أنْ نمنحه لحومنا، فضلاً على أموالنا، ولقيْنا المتوكل ابن الأفـطس محتفلاً بعسكـره؛ كلٌّ يـرغب في الجهاد، قد أعمل جـَهْدَه، ووطَّنَ على الموت نفسه»[2].

وقد حدّد ابن الأبار عسكر عبد الله بثلاثمائة فارس وعسكر أخيه تميم بمائتي فارس: «ثم تحرّكت العساكرُ إلى إشبيلية، ورَدِفَهُم ابنُ تاشفين ونـزل بظاهرهم... وبعد قراره بظاهر إشبيلية لحق به صاحبُ غرناطة في نحو ثلاثمائة فارس، وأخوه تميم من مالقة في نحو مائتين، فَنَزَلاَ على ضفة النهر الأعظم. ثم لحق لصاحب ألمرية عدد من الخيل صُحْبَةَ ولده، وتقدَّم ابنُ تاشفين مستعجلاً في حركته إلى بطليوس، وابنُ عباد وراءه»[3].

وكان عدد أمراء الأندلس الذين لحقوا بابن تاشفين ثلاثة عشر[4]. إضافة إلى المتطوِّعـة الذين قصدوا ابن تاشفين من سائر مدن الأندلس[5].

---

(١) مجهول: الحلل الموشية (ص ٣٤ ـ ٣٥)؛ ابن الأبار: الحلة السيراء (ج٢ ص ١٠٠)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٤ ص ١٣٦)؛ الحميري: الروض المعطار (ص ٢٩٠)؛ ابن الخطيب: أعمـال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢)؛ المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٣٦٤)

(٢) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٤).

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء (ج٢ ص ١٠٠).

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٨٨)

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ١٥٢).

وكان ألفونسو في ذلك الحين يحاصر سرقسطة لاحتلالها، فبذل له صاحبها المستعين ابن هود أموالاً جمّةً لرفع الحصار عنها، فأبى ألفونسو كلَّ الإباية. ولمَّا وصلته أخبار عبور المرابطين إلى الأندلس وتحرّكهم نحو بطليوس طلب من المستعين أن يدفع له ما أمكنه من المال، مقابلِ رفع الحصار عن المدينة، فرفض المستعين طلبه ولم يُعْطِهِ دِرْهماً واحداً، معتمداً في ذلك على نجدة المرابطين الذين عَلِمَ بعبورهم. فرحل ألفونسو عندئذ عن سرقسطة، وأسرع إلى طليلطة ليستعدَّ للقتال، واستدعى قائد عسكره ألْبَرْهانس[1] Alvar Hanez الذي كان آنذاك يحاصر بلنسية، وأنفذ كتبه إلى جميع النصارى يخبرهم بجواز المرابطين، فوفاه أهلُ قشتالة في عدد لا يحصى، وأقبلت عليه النصارى من كل حَدْبٍ وَصَوْب، وانفصل عن طليلطة بجيوشه التي ضاقت بها البطاح[2].

وهكذا استنفر ألفونسو الكبيرَ والصغيرَ، ولم يَدَعْ في أقاصي مملكته من يقدر على النهوض إلاَّ استنهضه، حتى إنَّ الرهبان والقساوسة والأساقفة تقدّموا أمام جيشه يرفعون صلبانهم وينشرون أناجيلهم[3]. كما بعث إلى سانشو راميريس Sancho Ramirez ملك أراغون، وبنبلونة، وكان يحاصر طرطوشة، وإلى الكونت برنجار ريموند صاحب برشلونة، وإلى جليقية، فأتاه منها أمم من الحشود لا تحصى. كما بعثت فرنسا وإيطاليا عساكر لا يستهان بها[4]. وكان في جيش ألفونسو عدد كبير من الفرسان الفرنسيين[5].

= الأندلس ومتاخمة للبرتغال راجع ياقوت. معجم البلدان (ج٤ ص ٣٠)؛ القزويني: آثار البلاد (ص ٥٤٤).

(١) هو ابن أخي السِّيْد الكَمْبيطور، وكان من كبار قواد ألفونسو، وقد وكّله ألفونسو أمر جهات غرناطة والمريّة معاً. ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٢٣)؛ ابن الكردبوس تاريخ الأندلس (ص ٨٦، حاشية ٢)

(٢) ابن الكردبوس تاريخ الأندلس (ص ٩١ ـ ٩٢).

(٣) عبد الواحد المراكشي المعجب (ص ١٣٣)؛ الحميري الروض المعطار (ص ٢٨٩)؛ ابن عذاري البيان المغرب (ج٤ ص ١٣٤)؛ المقري نفح الطيب (ج٤ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣)

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٤) وانظر أيضاً:
Turk El Reino de Zaragoza en el siglo XI de Cristo (V de la Hégira) Madrid, 1978 (P 155)

(٥) Dozy Histoire des Musulmans d'Espagne (T 3, P 126)

وإذا كان كل أمير قد تعهّد بأنْ يجمع ما في وسعه من الجند والمؤن، فإن المعتمد ابن عباد سبقهم في إعداد مقادير عظيمة من المؤن تكفي لتزويد جيش ضخم، إضافةً إلى كثرة عسكره[1].

واتجه المسلمون بجيوشهم، إلى مدينة بطليوس، فأقاموا بها أياماً ينتظرون وصول وفود أمراء الأندلس، إلى أنْ صَحَّ عندهم إقبالُ ألفونسو بجيشه نحوهم يروم ملاقاتهم ويظنُّ أنّه سيهزمهم لقلة معرفتهم به من قبل[2]. وكان ابن تاشفين يريد أن يقصد طليطلة للقاء ألفونسو، فسارع هذا الأخير إليه، والتقيا على مقربة من بطليوس بموضع يعرف بالزلاقة[3]. ويقول ابن تاشفين في رسالته التي كتبها إلى الناصر لدين الله تميم بن المعز بن باديس بالمهديّة، يصف فيها هزيمته لألفونسو، إنه سار بجيوشه إلى مدينة بطليوس، فأقام بها أياماً منتظراً قدوم أمراء الأندلس مع عساكرهم، فأُخْبِرَ أنَّ كلَّ واحدٍ منهم مشتغلٌ مع قطعة كثيرة من النصارى، فجمع عساكره وسار نحو قورية Coria لملاقاة ألفونسو، فسمع ألفونسو بهم وقصدهم منتظراً ملاقاتهم[4]. ودون أن يشير أشباخ إلى المصدر الذي استقى منه معلوماته، فإنه يذكر أن جيوش المسلمين انطلقت من إشبيلية باتجاه بطليوس؛ فسار فرسان المرابطين في الطليعة وعددهم عشرة آلاف يقودهم داود ابن عائشة، وتلتهم قوات الأندلس بقيادة المعتمد ابن عباد وكانت تؤلف وحدها جيشاً خاصّاً منفصلاً عن جيش المرابطين المؤلّف من جند إفريقية، وسار من بعدهم بيوم جيش المرابطين بقيادة ابن تاشفين، ووصلت الجيوش مجتمعةً إلى أرطوشة Artosa على مقربة من بطليوس، ولبثت فيها ثلاثة أيام[5].

---

(١) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٧٩).

(٢) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٤ ـ ١٠٥)؛ ابن الأبار. الحلة السيراء (ج٢ ص ١٠٠ ـ ١٠١)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٤ ص ١٣٦)، الحميري: الروض المعطار (ص ٢٩٠)؛ المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٣٦٤)؛ الناصري: الاستقصا (ج٢ ص ٤٣).

(٣) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس (ص ٩٢)

(٤) عنان: دول الطوائف (ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦)؛ Lévi-Provençal, Gómez , Asin: Novedades (P. 118) ومدينة قورية كانت تابعة لمملكة بَطَلْيَوْس، وقد استولى عليها ألفونسو سنة ٤٧٣ هـ/ ١٠٨٠ م عنان. دول الطوائف (ص ٩٠).

(٥) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٧٩). وفي المعجب لعبد الواحد المراكشي (ص ٧١)، والأنيس المطرب لابن أبي زرع (ص ٩٤): «طرطوشة» وهو خطأ؛ لأن طرطوشة مدينة تتصل بكورة بلنسية شرقي الأندلس، وأرطوشة تابعة لبطليوس، وبطليوس غربي=

ولما اجتمعت لألفونسو تلك الجيوش، خرج بها نحو بطليوس، فوصل إلى موضع قريب منها يسمَّى الزلاّقة، وخيَّم على بعد ثلاثة أميال من جيوش المسلمين، وكان يفصل بين الفريقين نهر بطليوس المسمَّى Guerrero[١]. ويروي ابن الأثير أنّ ألفونسو نزل بالزلاقة، وبينه وبين جيش المسلمين ثمانية عشر ميلاً[٢]. ويخبرنا ابن خلكان أن ألفونسو كان ببطحاء الزلاّقة لمَّا تكاملتْ عساكر ابن تاشفين بالجزيرة: «فلمّا تكاملت العساكرُ بالجزيرة قصدت الأذفونش، وكان نازلاً بمكان أفيح من الأرض يسمَّى الزلاقة بالقرب من بطليوس»[٣].

والزلاقة من عمل بطليوس[٤]. وهي مكان أفيح من الأرض[٥]. وتقع على ضفتَيْ نهر Guerrero إلى الشمال من بطليوس، وتبعد عنها حوالى ١٢ كلم[٦]. وهي بين بطليوس وقورية[٧].

وقد أسماها الأمير عبد الله موقعة بطليوس[٨]. ويسميها المؤرخون الإسبان Sacralias، ويسميها المؤرخون المعاصرون منهم Sagrajas[٩].

وفي ذلك السهل نظَّم ابن تاشفين جيوشه، وقسّمها إلى ثلاث مجموعات؛ الجيش الأندلسي بقيادة المعتمد ابن عباد في المقدمة، وجيش المرابطين بقيادة داود ابن عائشة لحماية ظهر الجيش الأندلسي، وجيش ابن تاشفين المختبىء عن

---

(١) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس (ص ٩٣).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ١٥٣).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٧ ص ١١٦).

(٤) المصدر نفسه (ج٥ ص٢٩)؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٤)، الذهبي. العبر في خبر من غبر (ج٣ ص ٢٩٣)؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار المسيرة، بيروت ١٩٧٩ (ج٣ ص ٣٦٢)

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٧ ص ١١٦)

(٦) Turk El Reino de Zaragoza (P 155)

(٧) Lévi - Provençal, Gómez, Asín. Novedades (P. 135)

(٨) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٤٠).

(٩) دائرة المعارف الإسلامية (ج١٠ ص ٣٧٠): ليفي - بروفنسال. وانظر أيضاً:
Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne (T. 3, P 126), Lévi - Provençal, Gómez, Asín: Novedades (P 111 - 135)

عيـون العـدو في عمق الجبـل[1]. وقـد ولّى ابنُ تـاشفين المعتمـدَ قلبَ الجيش الأندلسي، وعيَّن المتوكـلَ ابنَ الأفطس على ميمنتـه، وأهلَ شـرقي الأندلس على ميسرته[2]. وكان معسكر أمراء الأندلس قد ضُرِبَ بإزاء محلات النصارى، وعسكرت قوات يوسف وراءهم على أميال منهم، تفصلها عن قوات الأندلسيين وتحجبها عن أنظار النصارى ربوة عالية بقصد التمويه[3]. وهكذا ظن ألفونسو أن عساكر المسلمين ليست إلَّا التي يراها، وكان قد ضرب خيامه في سفح جبل قبالة سفح الجبل الذي فيه محلة الأندلسيين، وكان الطرفان يتراءيان[4].

وعهد ألفونسو قيادة جناحَيْ جيشه إلى سانشو راميريس ملك أرجوان وبنبلونة، وإلى الكونت برنجار ريموند صاحب برشلونة، وتولَّى هو قيادة القلب بنفسه[5].

وقد اختلف المؤرّخون في تحديد عدد جيش المسلمين؛ فقدّر صاحب الحلل الموشية عدد جيش الأندلسيين بأربعة وعشرين ألف فارس، وعدد جيش المرابطين بما يزيد على ذلك[6]. وقال عبد الواحد المراكشي إن جيش المعتمد كان ضخماً، وإنَّ عدد المسلمين من المتطوِّعة والمرتزقة بلغ زهاء عشرين ألفاً: «واجتمع للمعتمد أيضاً جيش ضخم من أقطار الأندلس، وانتدب الناسُ للجهاد من سائر الجهات، وأَمَدَّ ملوكُ الجزيرة يوسفَ والمعتمدَ بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح، فتكامل عدد المسلمين من المتطوّعة والمرتزقة زهاء عشرين ألفاً»[7]. ومثله قال حتي وسيد أمير علي[8]. وقال دوزي: كان جيش المسلمين من أندلسيين ومرابطين لا يزيـد على العشرين ألف جندي[9].

---

(١) Lévi - Provençal, Gómez, Asin: Novedades (P 134)

(٢) مجهول. الحلل الموشية (ص ٤١).

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤٢ - ٢٤٣).

(٤) ابن الأثير. الكامل في التاريخ (ج١٠ - ١٥٣).

(٥) أشباخ. تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٨٣).

(٦) مجهول: الحلل الموشية (ص ٣٨). وانظر أيضاً: Huici Miranda La invasión (P 57).

(٧) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ١٣٣). وانظر أيضاً. Huici Miranda: La invasión (P. 69).

(٨) حتي وجرجي وجبور. تاريخ العرب، دار غندور، بيروت ١٩٧٤ (ص ٢٦٢)؛ علي: مختصر تاريخ العرب (ص ٤٣٦).

(٩) دوزي: ملوك الطوائف (ص ٣٠١)؛ Dozy. Histoire des Musulmans d'Espagne (T. 3, P 127).

كما اختلفوا في تحديد عدد جيش النصارى؛ فقدّره صاحب الحلل الموشية ثمانين ألف فارس، منهم أربعون ألفاً من ذوي الدروع[1]. وقدّره ابن الكردبوس سبعين ألفاً من أنجاد الأبطال[2]. وقدّره ابن الأثير بخمسين ألفاً[3]. وقال ابن خَلِّكان: خرج ألفونسو من طليطلة في أربعين ألف فارس غير ما انضّم إليه[4]. وقال الحميري: «فالمقلِّلُ يقول: كان هؤلاء المختارون من أجناده (أي أجناد ألفونسو) أربعين ألف دارع، ولا بُدَّ لمن هذه صفته أنْ يتبعه واحد أو اثنان»[5]. واستشهد المقري بقول الحميري وعلّق عليه قائلاً: «وأمّا النصارى، فيعجبون ممن يَزْعَم ذلك، ويَرَوْن أنهم أكثر من ذلك كله»[6]. وقدّره ابن أبي زرع وابن أبي دينار بمائتي ألف راجل وثمانين ألف فارس[7]. واكتفى عبد الواحد المراكشي بوصفه بالضخم، فقال: «ولمّا تراءى الجمعان من المسلمين والنصارى، رأى يوسف وأصحابه أمراً عظيماً هالهم، من كثرة عددٍ، وجُوْدةِ سلاحٍ وخيل، وظهورِ قوةٍ، فقال للمعتمد: ما كنت أظن هذا الخنزير ـ لعنه الله ـ يبلغ هذا الحدّ»[8].

ورأى دوزي أن جيوش النصارى كانت أوفر عدداً من جيوش المسلمين، فكانت تتراوح ما بين خمسين ألفاً إلى ستين ألفاً[9]. وكعادته، يذكر أشباخ، دون أن يشير إلى المصدر الذي اعتمد عليه في معلومته، أن الرواية العربية تبالغ حين تذكر أن عدد جيش النصارى كان يبلغ زهاء مائة ألف من المشاة وثمانين ألفاً من الفرسان، منهم أربعون ألفاً من ذوي العدد الثقيلة، والباقون من ذوي العدد الخفيفة، ومنهم نحو ثلاثين ألف فارس من المسلمين من رعايا ألفونسو. أما الرواية النصرانية، فإنها تلزم الصمت إزاء عدد النصارى أسوة بالرواية العربية إزاء عدد المسلمين، وقد نقترب

---

(١) مجهول: الحلل الموشية (ص ٣٨).

(٢) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس (ص ٩٤).

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص١٥٣).

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٥ ص ٢٩).

(٥) الحميري: الروض المعطار (ص ٢٨٩).

(٦) المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٣٦٣).

(٧) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٦)؛ ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق الأستاذ محمد شمام، المكتبة العتيقة بتونس ١٩٦٧ (ص ١٠٨).

(٨) عبد الواحد المراكشي. المعجب (ص ١٣٣)

(٩) دوزي. ملوك الطوائف (ص ٣٠١)، Dozy Histoire des Musulmans d'Espagne (T 3, P 127)

من الحقيقة إذا قدَّرْنا قوات كل فريق بنحو مائة وثلاثين ألفاً إلى مائة وخمسين ألفاً[١]. ونحن بدورنا، نؤيّد المؤرخين المعتدلين الذين يقدّرون عدد جيش المسلمين ما بين ٢٠ ألفاً إلى ٢٤ ألفاً، وعدد الجيش النصراني ما بين ٥٠ ألفاً إلى ٨٠ ألفاً.

وقبل بدء المعركة، أرسل ابن تاشفين كتاباً إلى ألفونسو يدعوه إلى الإسلام أو ضرب الجزية عليه، أو الحرب، فلمّا قرأ ألفونسو الكتاب امتلأ غيظاً، وداخله الكبر، وأرسل إلى ابن تاشفين ردّاً يعلمه فيه أنه اختار القتال[٢]. ومن جملة ما قاله ألفونسو في كتابه: «بمثل هذا المخاطبة يخاطبني، وأنا وأبي نُغْرِمُ الجزية لأهل مِلّته منذ ثمانين سنة»[٣]. وقال ابن أبي زرع إن ألفونسو قال حينئذ للرسول: «قل للأمير: لا تُتْعِب نفسك، أنا أصل إليك»[٤].

وقد أقام الفريقان بموقع الزلاقة ثلاثة أيام، تفاوضا خلالها على تحديد يوم اللقاء[٥]. وقد اتفق المؤرخون على أنَّ المعركة كانت يوم الجمعة، ولكنهم اختلفوا في تحديد يوم اللقاء، كما اختلفوا في تحديد الشهر والسنة. وسوف نتحدث فيما بعد عن التاريخ الذي كانت فيه تلك المعركة. وكان الفريقان المتنازعان قد تراءيا يوم الخميس، فآختلفت الرسل بينهما في تقرير يوم الزحف ليستعد كل منهما للقتال، فقال صاحب الحلل الموشية وابن الأثير وعبد الواحد المراكشي وابن أبي زرع وابن الخطيب، ونحن نؤيّدهم، إن الطرفين تواعدا القتال يوم الاثنين؛ بحجة أن القتال لا يجوز يوم الجمعة، الذي يلي الخميس، وهو عيد المسلمين، ولا يوم السبت وهو لليهود، ولا الأحد وهو للنصارى[٦].

---

(١) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٨٠)

(٢) مجهول: الحلل الموشية (ص ٣٥)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٤ ص ١٣٦)؛ الحميري: الروض المعطار (ص ٢٩٠)؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٤). وانظر ملخص كتاب ابن تاشفين إلى ألفونسو في الحلل الموشية لمجهول (ص ٣٥) ووفيات الأعيان لابن خلكان (ج٧ ص ١١٦) وأعمال الأعلام لابن الخطيب (القسم الثالث ص ٢٤٠) ونفح الطيب للمقري (ج٤ ص ٣٦١ - ٣٦٢) والاستقصا للناصري (ج٢ ص ٤١)، Lévi - Provençal, Gómez, Asın Novedades (P 132)

(٣) مجهول. الحلل الموشية (ص ٣٥).

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٤).

(٥) المصدر نفسه (ص ٩٧).

(٦) مجهول. الحلل الموشية (ص ٣٩)؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ١٥٣)؛ عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ١٣٤)؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٤ - ٩٧)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤٢).

ورأى ابن الكردبوس وابن خلكان والحميري أنَّ الأمر استقرَّ على يوم السبت[1]. وقال ابن تاشفين في رسالته التي بعث بها إلى صاحب المهدية بعد انتصاره بالزلاقة إنه قرّر لقاء ألفونسو يوم الخميس، فلمّا كان يوم الجمعة بعده، ورد عليه ألفونسو بكتائب ملأت الآفاق، وهو وجمعه ساهون لاهون[2].

ونحن نستغرب كيف لم يحدّد الأمير عبد الله في مذكراته، وقد حضر المعركة بنفسه، يوم اللقاء ولا الشهر والسنة اللذين وقع فيهما القتال، واكتفى بالقول: «وتواعدا اللقاء في يوم سَمَّيَاه، ولم يكن بين المحلتين إلاَّ نحو ثلاثة أميال، فاستاغ المسلمون إلى ذلك الوعد[3].

وعلم المعتمد أن ألفونسو يضمر خلاف ما وعد وأنه صاحب مكر وخديعة، فعرَّف ابنَ تاشفين بذلك، وحَثَّه على عدم الاطمئنان إليه، ودعا الناس على أنْ يكونوا على استعداد للقتال طوال يوم الجمعة[4]. ولمّا جاء الليل من يوم الخميس عبّأ المعتمدُ كتائبه وصفَّ جيوشه واستعدَّ للقتال، وجعل جواسيسه على عسكر العدو[5].

ويروي عبد الواحد المراكشي أن المسلمين تأهّبوا يوم الجمعة للصلاة، ولا أَمَارَة عندهم للقتال، وقد بَنَى ابنُ تاشفين الأمر على أنَّ الملوك لا تَغْدِرُ، فخرج هو وأصحابه في ثياب الزينة للصلاة. أما المعتمد، فإنه أخذ بالحزم، فركب هو وأصحابه شاكِيْنَ السلاحَ، وقال لابن تاشفين. صَلِّ في أصحابك، فهذا يوم ما تطيب نفسي فيه، وما أظن أنَّ ألفونسو إلاَّ وقد أضمر الفتك بالمسلمين، ولما عقد يوسف وأصحابه الركعة الأولى ثارت في وجوههم خيل النصارى[6].

ويروي ابن أبي زرع أنَّ ابن تاشفين أتته الأنباء في سحر يوم الجمعة أنَّ العدوّ

---

(١) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس (ص ٩٣)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٧ ص ١١٧)؛ الحميري. الروص المعطار (ص ٢٩٠)، المقري: نفح الطيب (ح٤ ص ٣٦٥) حيث ينقل عن الحميري

(٢) عنان. دول الطوائف (ص ٤٢٦)؛ .Lévi-Provençal, Gómez, Asın: Novedades (P. 119)

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٥)

(٤) ابن عذاري: البيان المعرب (ج٤ ص ١٣٦)؛ الحميري الروص المعطار (ص ٢٩٠)؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب (ص ٩٤)، المقري: نفح الطيب (ح٤ ص ٣٦٥).

(٥) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٤)

(٦) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ١٣٤)

قصد بجيوشه نحو الأندلسيين [1].

وقيل إن فارسين من طلائع المعتمد أقبلا في سحر يوم الجمعة يخبرانه أنهما أشرفا على محلة ألفونسو وسمعا قعقعة السلاح، وسمعا ألفونسو يأمر جنوده بالهجوم على المعتمد، عندئذ بعث المعتمد رسولاً إلى ابن تاشفين يعلمه بالأمر، وقبل أن يعود الرسول إلى المعتمد كانت جنود ألفونسو قد زحفت عليه [2].

ويروي الأمير عبد الله، وهو حجة، أن ألفونسو فاجأهم، وهم على غير استعداد [3]. وتبعه آخرون في أن ألفونسو غدر بالمسلمين وكادهم بالمعاجلة سحر يوم الجمعة [4].

وهكذا هاجم ألفونسو بجيشه معكسر الأندلسيين الذي يقوده المعتمد، غَدْراً وظَنّاً منه أن ذلك المعسكر هو جميع عسكر المسلمين. فوقع القتال بين الطرفين، ودارت الدائرة على الأندلسيين وأشرفوا على الهزيمة [5].

وروى ابن أبي زرع أن ألفونسو قسّم عساكره فرقتين؛ فرقة بقيادته، وأخرى بقيادة أَلْبَرْهانس وابن ردمير (سانشو راميريس)، فتوجّه ألفونسو وفرقته نحو ابن تاشفين، فوقع في الجيش الذي كان مع داود ابن عائشة، فاقتتلوا قتالاً عظيماً، وكاد ألفونسو أن يستأصلهم، وسارت الفرقة الثانية نحو محلة الأندلسيين، فداسوها واستمرّت الهزيمة على أمراء الأندلس، ولم يثبت منهم غير المعتمد الذي قاتل بجيشه قتالاً شديداً وصبر صبراً جميلاً [6].

وقد أجمع المؤرخون على أن المعتمد تميّز عن أمراء الأندلس، فثبت وحده في المعركة، وأبلى فيها بلاء حسناً وشُهِدَ له بالشجاعة [7]. وقد أصابته عدة جراحات

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٧).

(٢) ابن عذاري. البيان المعرب (ج٤ ص١٣٧)؛ الحميري. الروض المعطار (ص ٢٩٠)؛ المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦).

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٥)

(٤) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس (ص ٩٣)؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٧ ص ١١٧)؛ ابن الخطيب أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤٢)، المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٣٦٧).

(٥) ابن الأثير الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ١٥٤)

(٦) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب (ص ٩٥)

(٧) ابن دحية المطرب (ص ١٢٠)؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٥ ص ٢٩)؛ ابن أبي زرع الأنيس المطرب (ص ٩٧ ـ ٩٨)

في وجهه وبدنه، فضرب على رأسه ضربة فَلَقَتْ هامته حتى وصلت إلى صُدْغه، وجرحت يمنى يديه، وطعن في أحد جانبيه، وعُقِرَ له ثلاثة أفراس[1]. واكتفى الذهبي وابن العماد بالإشارة إلى أن المعتمد جرح عدة جراحات سليمة[2]. وقال ابن أبي زرع: جرح المعتمد بست جراحات[3]. وقال ابن الخطيب: أصابته جراحة في يده[4]. وقد وصف الشاعر أبو بكر محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز جرح كف المعتمد ببضعة أبيات من الشعر[5].

وبعد إصابة المعتمد فَرَّ رؤساء الأندلس، بمن فيهم عبد الله بن بلقين، إلى بطليوس، وأسلموا محلاتهم، ولم يكن لهم في ذلك القتال أثر يشكر[6]. وقد تبعهم جيش النصارى ثمانية عشر ميلاً في تلك البقاع يقتلون منهم ويأسرون وينتهبون ما عندهم من مال وسلاح[7].

وطَيَّرَ المعتمدُ خبر الهزيمة إلى ابن تاشفين، فركب فيمن لديه وقصد محلة ألفونسو واقتحمها، وأضرمها ناراً، وضرب طبوله فاهتزَّتْ لها الأرض، ولمَّا رأى جندُ ألفونسو النارَ مشتعلةً في محلتهم رجعوا إليها، فالتحم الفريقان، ودارت الحرب على العدو، وصارت الهجمات متبادلة بين الفريقين، ثم أمر ابنُ تاشفين العبيدَ، فترجّلوا عن الخيلِ في نحو ألف ودخلوا المعركة بالمزارق، لعجز السلاح عن الخيل الدارعة، فأثَّرت المزارق في خيل العدو وجعلتها ترمح بفرسانها، ولصق بألفونسو عبدٌ، فضربه بخنجره في خدِّه، وقِيْلَ طعنه في فخذه[8].

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٥ ص ٢٩)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٤ ص ١٣٧)؛ الحميري: الروص المعطار (ص ٢٩٠ ـ ٢٩١)؛ المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٣٦٦).

(٢) الذهبي: العبر في خبر من غبر (ج٣ ص ٢٩٣)؛ ابن العماد: شدرات الذهب (ج٣ ص ٣٦٢)

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٨).

(٤) ابن الخطيب أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤٣)

(٥) انظر الأبيات في قلائد العقيان لابن خاقان (ص ١٣) والمغرب لاس سعيد (ج٢ ص ١٣٥) وأعمال الأعلام لابن الخطيب (القسم الثالث ص ٢٤٩) والإحاطة لابن الخطيب (ج٢ ص ١١١).

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٧ ص ١١٨)، المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٣٦٧)

(٧) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس (ص ٩٤).

(٨) مجهول الحلل الموشية (ص ٤٢ ـ ٤٣)، ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤).

ويروي ابن أبي زرع أنه لمَّا اتّصل الخبر بابن تاشفين أنَّ الهزيمة استمرّت على عسكر أمراء الأندلس بقيادة المعتمد، وعسكر المرابطين بقيادة داود ابن عائشة، وأنَّ هذين الرجلين ما يزالان يقاتلان دون هوادة، بعث قائده سير بـن أبي بكر في قبائل زناته ومصمودة وسائر قبائل بربر المغرب، وسار هو في جيش لمتونة وصنهاجة قاصداً محلة ألفونسو، فأضرم فيها النار وأحرقها وقتل من كان بها من الرجال والفرسان الذين تركهم ألفونسو بها للحراسة، وفرَّ الباقون منهزمين نحو ألفونسو. ولما أُخْبِرَ ألفونسو بما حلَّ بمحلته ردَّ وجهه إلى قتال يوسف، فنشبت الحرب بينهما، وكانت سجالاً على صورة كرّ وفرّ [١]. وقال ابن تاشفين في رسالته التي بعث بها إلى صاحب المهدية إثْر انتصاره في الزلاقة، إنه دخل المعركة بعد أنْ أُبْلِغَ بما حلَّ بداود ابن عائشة من هزيمة شنعاء [٢].

وذهب ابن الكردبوس إلى أن ابن تاشفين قال لمّا أُعْلِم بهزيمة رؤساء الأندلس: اتركوهم قليلاً للفناء، فكلا الفريقين، أندلسيين ونصارى، من الأعداء. ولمّا تحقّق أنَّ أكثر الأندلسيين قد قُتل وأسر، رأى أنَّ الوقت قـد حان لافتـراس محلة العدو، فقصدها بجيشه واستأصلها وانتهبها، وقتل فيها نحو عشرة آلاف بين راجل وفارس، ثم مضى نحو ألفونسو، وهزمـه [٣]. وبعد أن أحـرق ابنُ تاشفين محلة النصـارى، عاد الأندلسيون الفارّون إلى قلب المعركة،ونظّموا صفوفهم وأخذوا أمكنتهم لشدِّ أزْر المعتمد [٤].

ودامت المعركة يوماً واحداً منذ أن بزغ فجر يوم الجمعة إلى أنْ غربت الشمس وبسط الظلام حجابه [٥]. وقال عفيف ترك إن المعركة دامت ثلاثة أيام [٦]. والواقع أن المسلمين كانوا في الأيام الثلاثة هذه منشغلين فقط بتجميع رؤوس قتلى النصارى وجمع الغنائم.

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القـرطـاس (ص ٩٥).

(٢) عنان: دول الطوائف (ص ٤٢٧)؛ Lévi - Provençal, Gómez, Asin. Novedades (P 121)

(٣) ابن الكردبوس. تاريخ الأندلس (ص ٩٤).

(٤) دوزي: ملوك الطوائف (ص ٣١١)، Huici Miranda: La invasión (P. 51)

(٥) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٦)؛ ابن الخطيب أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤٤)

(٦) Turk: El Reino de Zaragoza (P 155)

وعند غروب الشمس أيقن ألفونسو بالفناء، ولمّا رأى أن الليل قد أقبل وأن معظم جنده قد قتل، علم أنْ لا طاقة له باستمرار القتال، ففرَّ مهزماً على وجهه، مطعوناً في إحدى ركبتيه طعنةً أفقدتْه إحدى ساقَيْه[١]. وقيل إن ألفونسو طعن في إحدى ركبتيْه طعنةً بقي يَخْمَعُ بها بقية عمره[٢].

ولم يتّفق مؤرخو هذه الموقعة في تحديد عدد الناجين مع ألفونسو من عسكره، وإن كانوا مجمعين على أن جيشه قد أُبِيْدَ كلُّه، قادةً وجنوداً، عدا قِلة، فقال صاحب الحلل الموشية: لم يفلت منهم أكثر من أربعمائة مع ألفونسو[٣]. ووافقه ابن أبي دينار في هذا العدد فقال: فلم يَنْجُ منهم إلَّا ألفونسو ومعه أربعمائة مثقلون بالجراح، ولم يدخل إلى قشتالة إلّا في خمسين فارساً[٤].

وروى ابن أبي زرع أن ألفونسو فرَّ منهزماً على وجهه في نحو خمسمائة فارس مثقلين بالجراح، فمات منهم في الطريق أربعمائة فارس، ودخل طليطلة في مائة فارس[٥]. وقدَّرهم ابن الكردبوس وابن الأثير بثلاثمائة فارس[٦]. وقدَّرهم عبد الواحد المراكشي بتسعة[٧]. وهم عند ابن خلكان دون الثلاثين[٨]. وعند الحميري دون المائة[٩]. واكتفى ابن الخطيب بالقول: أُفْلِتَ ألفونسو في فَلّ قليلٍ من أصحابه[١٠]. وقال ابن تاشفين في رسالته التي بعث بها إلى العدوة إن ألفونسو فرَّ ومعه نحو ألفي رجل أو أقلّ، وقد أثخنوا جراحاً[١١]. وقال المستشرق الإسباني ميراندا إن عدد الناجين مع ألفونسو بلغ ثلاثة عشر فارساً[١٢].

---

(١) ابن أبي زرع الأنيس المطرب (ص ٩٧)

(٢) الناصري: الاستقصا (ج٢ ص ٤٦)، وجدي. دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة، بيروت (م٤ ص ١٨٠) و (م٨ ص ٣٢٥)

(٣) مجهول. الحلل الموشية (ص ٤٣).

(٤) ابن أبي دينار. المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس (ص ١٠٨)

(٥) ابن أبي زرع الأنيس المطرب (ص ٩٦ ـ ٩٨)

(٦) ابن الكردبوس. تاريخ الأندلس (ص ٩٤)، ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ١٥٤).

(٧) عبد الواحد المراكشي. المعجب (ص ١٣٤).

(٨) ابن خلكان. وفيات الأعيان (ج٧ ص ١١٧)

(٩) الحميري الروض المعطار (ص ٢٩١)

(١٠) ابن الخطيب الإحاطة (ج٤ ص ٣٥٢)

(١١) عنان دول الطوائف (ص ٤٢٧)، Lévi - Provençal, Gómez, Asın· Novedades (P 122)

(١٢) Huıcı Mıranda. La ınvasión (P 55)

وقدَّر صاحب الحلل الموشية عدد قتلى النصارى بنحو ثلاثمائة ألف[١]. وقال ابن دحية: قتل من النصارى ثلاثون ألف فارس، ومن الرجال ما لا يُحْصى[٢]. وقال أبو الفداء وابن الوردي إن عدد قتلى الفرنج لا يحصى لكثرتهم[٣]. ورسم الأمير عبد الله، وقد حضر المعركة، صورة انهزام النصارى دون أن يحدّد العدد، فقال: «فاقتفى المسلمون آثارهم، وركبوهم بالسيف، ومات من جيشهم خلائق، وتبدّدوا في الطريق؛ فمن بين قتيلٍ وميْتٍ مُثَقَّلٍ ضريع»[٤]. ويعترف أشباخ بفداحة عدد قتلى النصارى بقوله: «ويبدو من الإيجاز الذي يلزمه الرواة النصارى إزاء هذا النصر العظيم للإسلام على النصرانية في شبه الجزيرة مرة أخرى كيف يتناول المنهزمون سيرهزائمهم في غضاضة وإحجام . . . والظاهر أنَّ عدد القتلى في الزلاقة كان فادحاً جداً، ويعترف النصارى أنفسهم بأنه قد سقطت منهم جموع عظيمة»[٥].

وقضى المسلمون ليلتهم في ساحة القتال، وقد ابتدروا بقطع رؤوس قتلى النصارى، فبنوها كالصوامع، ولما بزغ الفجر أذَّن فوقها المؤذّنون لمدة ثلاثة أيام[٦]. ويقدّر صاحب الحلل الموشية عدد تلك الرؤوس بأربعة وعشرين ألفاً[٧]. ويحصيها ابن الخطيب بتسعة آلاف[٨]. وقال ابن أبي زرع إنها فاقت الثمانين ألفاً؛ فبعث منها ابنُ تاشفين عشرة آلاف رأس إلى إشبيلية، ومثلها إلى قرطبة، ومثلها إلى بلنسية، وعشرة آلاف إلى سرقسطة، وأربعين ألف رأس إلى مدن المغرب ليراها الناس فيشكرون الله على ما منحهم من النصر العظيم[٩]. ونقل أشباخ رواية ابن أبي زرع ورأى أنها مبالغ فيها، وقال: إن عشرين ألف رأس عدد يبدو بعيداً عن المبالغة[١٠].

---

(١) مجهول. الحلل الموشية (ص ٤٣).

(٢) ابن دحية. المطرب (ص ٢٦، ١٢٠).

(٣) أبو الفداء. المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ١٩٨)، ابن الوردي تتمة المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ٨)

(٤) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٦).

(٥) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٨٦ - ٨٧).

(٦) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس (ص ٩٥).

(٧) مجهول: الحلل الموشية (ص ٤٤).

(٨) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤٥).

(٩) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب (ص ٩٦)

(١٠) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٨٧).

وقد استولى المسلمون على ما كان في محلّة الروم، فامتلأت أيديهم بالغنائم الوافرة، والسَّبْي الكثير، والأموال والذهب والفِضّة والأثاث والآنية، والسلاح والدوابّ والخيل[1]. وقد أحصى ابن تاشفين تلك الغنائم بقوله في الرسالة التي بعث بها إلى العُدْوة إثْر انتصاره: «وقد ارتبط كلّ فارس منّا الخمسة أفراس أو أزيد، وأما البغال والحمير، فأكثر من ذلك، وأما الثياب والمتاع فناهيك، والإسِرَّة بأوطية الحرير والثياب والأوبار عددُ لَيْلِهِمْ»[2]. وقد أنفذ ابن تاشفين تلك الغنائم إلى المغرب[3].

وفيما يتعلق بعدد قتلى المسلمين، فقد قَدَّره ابن أبي زرع بنحو ثلاثة آلاف رجل[4] ولِهَوْل تلك المعركة وعظمتها ومجريات أحداثها، نقدِّر نحن أن يفوق قَتْلاَهم هذا العدد بكثير وإن كانوا أقل بكثير من قتلى النصارى. واكتفى الأمير عبد الله بالقول: « ولم يُفْقَدْ من المسلمين إلّا الأقلّ»[5]. وسبق أنْ ذكر أنَّ عمه ماكسن بن باديس استشهد فيها، وأسماها موقعة بطليوس: «عَمُّنا الشهيدُ في وقيعة بَطَلْيوْس»[6]. وقال أشباخ: «من الواضح أن خسارة المسلمين لم تكن أقل بكثير من خسارة النصارى»[7]. وقال ابن تاشفين في رسالته التي بعث بها إلى صاحب المهدية بعد انتصاره بالزلاقة إنَّ النصارى قتلوا من عسكر داود ابن عائشة المرابطي حلقاً كثيراً، فأبادوا فرقة كاملة، وقتلوا من أكابر صنهاجة نحو عشرين رجلاً ممن شهدت نجدته في المغرب[8].

وقد اختلفت الرواية الإسلامية في تحديد تاريخ تلك الموقعة، فاتفق صاحب الحلل الموشية، وابن الأبار، وابن دحية، وابن أبي زرع، وابن أبي دينار، ونحن

---

(١) مجهول: الحلل الموشية (ص ٤٦ - ٤٧)؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ١٥٤)؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٥ ص ٢٩) و(ج٧ ص ١١٧ - ١١٨)، الناصري. الاستقصا (ج٢ ص ٤٨)

(٢) دول الطوائف (ص ٤٢٨)؛ Lévi - Provençal, Gómez, Asín Novedades (P 122)

(٣) ابن خلكان. وفيات الأعيان (ج٧ ص ١٢٢).

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٦) وانظر أيضاً: Huici Miranda· La invasión (P 53)

(٥) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٦)

(٦) المصدر نفسه (ص ٤٠).

(٧) أشباخ· تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٨٧)

(٨) عنان· دول الطوائف (ص ٤٢٧ - ٤٢٨)، Lévi - Provençal, Gómez, Asín Novedades (P 120, 123, 135)

نؤيّدهم، على أنها كانت يوم الجمعة الثاني عشر من رجب سنة ٤٧٩ هـ الموافق ٢٣ تشرين أول ١٠٨٦ م[١]. وأيّدهم في ذلك أشباخ وبروكلمان ودوزي وغيرهم من المستشرقين[٢]. ورأى ابن خلكان وابن الخطيب أنها كانت يوم الجمعة الخامس عشر من رجب من العام المذكور[٣]. وعيَّن الحميري والمقري تاريخها يوم الجمعة المُوْفي العشرين من رجب من السنة المذكورة[٤]. وذهب ابن الأثير والذهبي وابن العماد إلى أنها كانت في أول جمعة من شهر رمضان من العام نفسه[٥]. ويقول المستشرق الإسباني ميراندا إنها كانت نهار الجمعة الثاني عشر من شوال عام ٤٧٩ هـ، والموافق ٢٣ تشرين أول ١٠٨٦ م[٦]. ويعيّنها عبد الواحد المراكشي يوم الجمعة الثالث عشر من رمضان عام ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م[٧]. ويحدّد ابن الكردبوس تاريخها العاشر من رجب سنة ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ م[٨]. ويتّفق ابن خلدون مع ابن الكردبوس في تحديد السنة، ولكن دون أن يحدّد الشهر[٩].

ولما قضى ابن تاشفين من هذه الوقيعة، انصرف إلى إشبيلية وبقي فيها ثلاثة

---

(١) مجهول: الحلل الموشية (ص ٤٠ ـ ٤١)؛ ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة (ج١ ص ٢٣)؛ ابن دحية: المطرب (ص ١١٩)، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٦ ـ ٩٨)؛ ابن أبي دينار: المؤنس (ص ١٠٨).

(٢) عنان: دول الطوائف (ص ٤٢٦)، أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٨٦)؛ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٣٢٠)؛ دائرة المعارف الإسلامية (ج٢ ص ٣٤٩) و(ج١٠ ص ٣٧٠)؛

Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne (T. 3, P 129), Lévi - Provençal,Gómez,Asin: Novedades (P 1П - 1Т9, 134), Miranda: La invasion (P 42)

(٣) ابن خلكان. وفيات الأعيان (ج٣ ص ٣٢٩) و(ج٥ ص ٢٩) و(ج٧ ص ١١٧)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤٢) والإحاطة (ج٤ ص ٣٥١).

(٤) الحميري: الروض المعطار (ص ٢٨٨ ـ ٢٩١)؛ المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٣٦٩)

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ١٥٤)؛ الذهبي: العبر في خبر من غبر (ج٣ ص ٢٩٣)؛ ابن العماد: شذرات الذهب (ج٣ ص ٣٦٢)

(٦) Huici Miranda La invasión (P 65)

(٧) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ١٣٥).

(٨) ابن الكردبوس. تاريخ الأندلس (ص ٩٥)

(٩) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٩١) و(م٦ ص ٣٨٣). وانظر أيضاً: Huici Miranda. La invasión (P. 58)

أيام يدبِّر خلالها في الدخول إلى بلاد النصارى، فوافاه كتاب بوفاة ابنه الكبير أبي بكر، وكان قد تركه مريضاً بسبتة، فحزن لذلـك، وعاد إلى المغـرب، تاركـاً عند المعتمد ابن عباد حوالى ثلاثة آلاف فارس، وقدَّم عليهم القائد أبا عبد الله محمد بن الحاج، وترك أمراء الأندلس في غاية من الاختلاف[١]. وقيل إنه ترك بالأندلس الأمير سير بن أبي بكر بن تـاشفين، أحد قـواده المشاهير، وترك معـه جيشاً بـرسم غزو الإسبان[٢]. وقال ابن الخـطيب إن ابن تاشفين قفـل إلى المغرب عـام ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م، وشيّعه آنذاك المعتمد إلى الجزيرة الخضراء[٣]. وروى الأمير عبد الله أن ابن تاشفين، بعد أن فرغ من معركة الزلاقة، عاد إلى إشبيلية، وعقد فيها اجتماعاً حضره ملوك الطوائف الذين شاركوا في المعركة، وأثناء انعقاد المجلس بدأ الخلاف يظهر بين هؤلاء الملوك، فأمرهم ابن تاشفين بالاتفاق والائتلاف، وانصرف إلى بلاده وقد اطَّلع من اختلاف كلمتهم ما لم يَرَ وَجْهاً لبقائهم في الجزيرة[٤].

ولم يستغلَّ المسلمون نتائج هذا النصر الباهر الذي أحرزوه، وكان حَرِيّاً بهم أن يتابعوا سَيْرهم في الحال إلى بلاد الإسبان، ولو هُمْ فعلوا ذلك لكان تغيُّر الوضعُ إلى اليوم.

وكان لكل طرف من أطراف الحرب هدفه؛ فقد هَدَفَ ألفونسـو إلى استرداد الأنـدلس إلى إسبانيـا النصرانيـة، وهَدَفَ ملوكُ الـطوائف إلى التخلّص من ضغط ألفونسو عليهم كدفع الجِـزَى وغيرها للاحتفاظ بعروشهم، وهَدَفَ ابنُ تاشفين إلى رفع راية الإسلام عالياً، وقد يكون هَدَفَ إلى بسط سلطانه على الأندلس وضَمِّها إلى المغرب.

وكان من نتائج تلك المعركة الحاسمـة أنْ تحطَّمَتْ آمـالُ الإسبان بـاسترداد

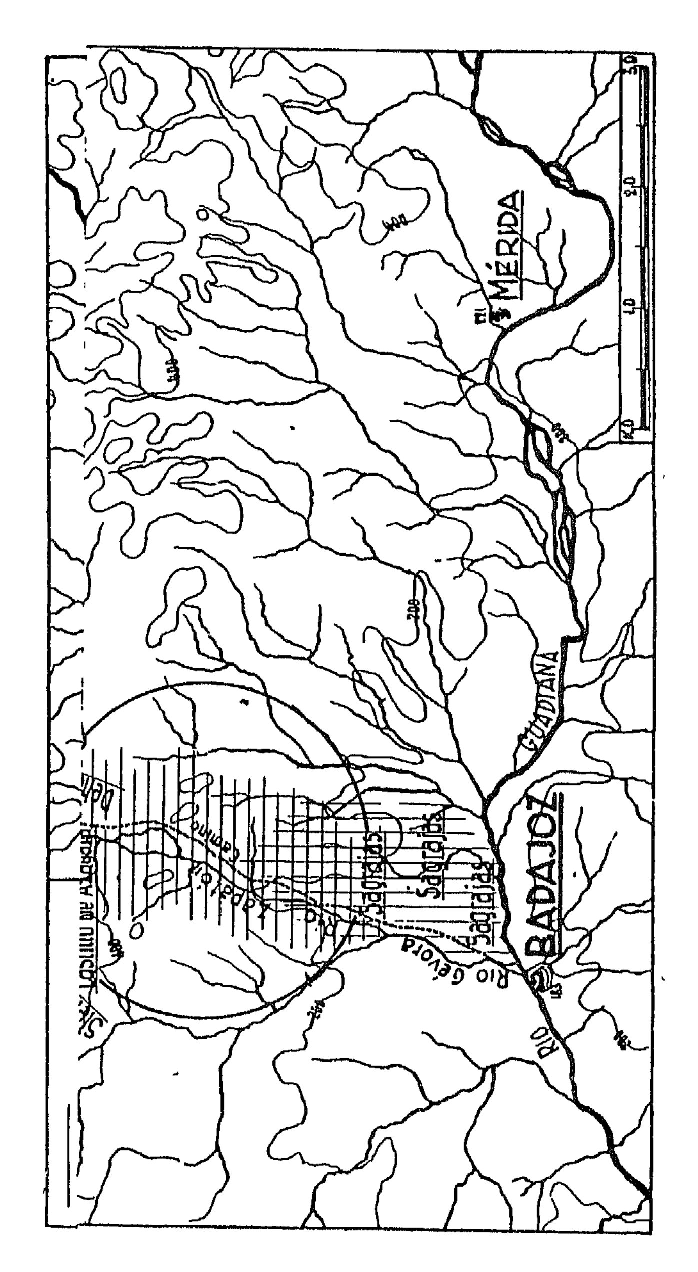
---

(١) ابن الكـردبوس. تـاريخ الأنـدلس (ص ٩٥ ـ ٩٦)؛ مجهول. الحلل المـوشية (ص ٤٧)؛ ابن أبي زرع الأنيس المـطرب (ص ٩٨)؛ ابن خلدون. تاريـخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٨٣)، النـاصـري: الاستقصا (ج٢ ص ٤٩)

(٢) ابن خلكان. وفيات الأعيان (ج٧ ص ١١٩)؛ ابن عذاري. البيان المغرب (ج٤ ص ١١٨)؛ المقري. نفح الطيب (ج٤ ص ٣٧٠)

(٣) ابن الخطيب. أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤٩).

(٤) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٦ ـ ١٠٧) وانـظر أيضاً: Huici Miranda: La invasión (P. 70)



خريطة عن موقع الزلاقة، مأخوذة من مجلة الأندلس، العدد ١٥، سنة ١٩٥٠، صفحة ١٤٤، في مقال لليڤي ـ بروڤنسال وإميليو غرسية غومس وخايمي أوليڤر آسين وعنوانه

Novedades sobre la batalla llamada de Al - Zallaqa (1086)
Mapa de la zone de operaciones de la batalla Zallaqa - Sacralias
(en el círculo, el territorio donde hubo de tener lugar el encuentro)

الأندلس فتأخّر سقوطها في أيديهم أكثر من أربعة قرون، وارتفعت الروح المعنوية عند أمراء الطوائف وتخلّصوا من دفع الجزية لألفونسو، وتمهّدت الطريق لابن تاشفين باتّخاذ قرار بالتخلّص من هؤلاء الأمراء، مستغلاً خلافاتهم الشخصية التي عادت وتفجّرت أثناء حصارهم مع ابن تاشفين لحصن أليبط لاستخلاصه من أيدي ألفونسو عام ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ م، وارتفع شأن المرابطين أمام أهل الأندلس، وهبط بالمقابل قَدْر ملوك الطوائف في نظر رعيّتهم التي تمرّدت عليهم وامتنعت عن دفع الضرائب لهم.

٤ ـ عبد الله يشارك في حصار حصن أليبط عام ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ م لاستخلاصه من أيدي ألفونسو: اختلف المؤرخون الذين تحدّثوا عن حصار هذا الحِصْن في كتابة اسمه، كونه اسماً غير عربي، وقد يعود هذا الاختلاف إلى تصحيح الناسخ أو المحقق. وقد تميّز ابن الأبار البلنسي عن غيره في كتابة الاسم، فرسمه «أليبط»[١]. وهو ما ينطبق إلى حدّ كبير على ما يقابله باللغة الإسبانية Aledo. وجرى مجراه المستشرقون أمثال أشباخ وبروكلمان وغيرهما[٢]. ورسمه الأمير عبد الله وابن بسام وابن الخطيب «لِيِّبط»[٣]. وعاد ابن الخطيب وذكره «أليط»[٤]. ورسمه ابن الأثير «لِيْط»[٥]. وذكره عبدالواحد المراكشي باسم «الليط»[٦]. ورُسِمَ «لَبِّبْط» عند صاحب الحلل الموشية وابن أبي زرع[٧]. وهو عند ابن خاقان «يلبط»[٨]. وعند الأزدي «بلبيط»[٩].

---

(١) ابن الأبار الحلة السيراء (ح٢ ص ٨٦، ١٧٥)

(٢) أشباح تاريح الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٨٩)؛ بروكلمان· تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٣٢١)

(٣) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٨)، ابن بسام. الذخيرة (ق٣ ص ٦٤٨) ابن الخطيب: الإحاطة (ح٤ ص ٣٥٢) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٤٧) وهكذا جاء في البيان المغرب لابن عذاري (ح٤ ص ١٤١) في ملحق لكتاب الحلل الموشية

(٤) ابن الخطيب. الإحاطة (ح١ ص ١٤٨) وأعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤٩).

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ح١٠ ص ١٥٤).

(٦) عبد الواحد المراكشي المعجب (ص ١٣٢).

(٧) مجهول الحلل الموشية (ص ٣٤، ٤٨)؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٨ ـ ٩٩).

(٨) ابن خاقان قلائد العقيان (ص ٢٣١).

(٩) الأزدي بدائع البدائه (ص ١٢٧).

ويقع هذا الحصن في قلب الأندلس، على رأس جبل شاهق[1]. وهو حصن حصين منيع[2]، من أعمال لورقة[3]، وقيل من كورة تدمير[4]. وهو بين لورقة ومرسية[5]. وقدّر صاحب الحلل الموشية المسافة بينه وبين لورقة نصف يوم[6]. وقدّرها ابن الأبار باثني عشر ميلاً[7]. وما تزال أطلال هذا الحصن قائمة حتى اليوم[8].

وقد تغلّب العدو على هذا الحصن، وكان يُغيْرُ منه على مدن الأندلس المجاورة شرقاً وغرباً، ولمّا اشتدَّ ضرره على المسلمين وعَظُمَ أذاه لهم، تردّدوا إلى ابن تاشفين بالشكوى، فوعدهم بالجواز إلى الأندلس؛ لاستعادته إلى حظيرة الإسلام ومعاقبة المعتدي في آن معاً[9]. وقد احتلّه غرسيّة خيمينث Garcia Jiménez أحد قواد ألفونسو، قبل معركة الزلّاقة، وبالتحديد إثر استيلاء ألفونسو على مدينة طليطلة عام ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م، وشحنه بالعدة والعديد، وحصّنه واتّخذه قاعدة للإغارة على الأراضي الأندلسية المجاورة، فكان يُغيْرُ منه بشكل متواصل على مرسية وألمرية ولورقة وبسطة، وعلى أملاك إشبيلية بشكل خاص عقاباً لمليكها المعتمد ابن عباد لدوره الأساسي في معركة الزلاقة، فيخرّب العمران، وينتسف المزارع، ويقتل من يقابله من المسلمين[10].

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٨)؛ مجهول. الحلل الموشية (ص ٤٨)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٤ ص ١٤١).

(٢) مجهول: الحلل الموشية (ص ٤٨)؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ١٥٤)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٤ ص ١٤١).

(٣) مجهول: الحلل الموشية (ص ٣٤)؛ ابن الأبار. الحلة السيراء (ج٢ ص ٨٦).

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٤٧)

(٥) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٣٢١)؛ Dozy. Histoire des Musulmans d'Espagne (T. 3, P 132); Turk: El Reino de Zaragoza (p. 157).

(٦) مجهول: الحلل الموشية (ص ٤٨).

(٧) ابن الأبار: الحلة السيراء (ج٢ ص ١٧٥).

(٨) عنان: دول الطوائف (ص ١٦٨، حاشية ٣)

(٩) مجهول. الحلل الموشية (ص ٤٨)؛ ابن الأبار. الحلة السيراء (ج٢ ص ٨٦، ١٧٥؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٤ ص ١٤١).

(١٠) ابن الخطيب: الإحاطة (ج٤ ص ٣٥٢، حاشية ٣)؛ سالم: المغرب الكبير (ص ٧٢٩) وتاريخ مدينة ألمرية الاسلامية (ص ٨٢، حاشية ١)؛ أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٩٠)؛ Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne (T. 3, P 131 - 132)

ويقول ابن أبي زرع إن ألفونسو عمد إلى هذا الحصن إثر هزيمته في الزلّاقة، فشحنه بالخيل والرجال وأمرهم بالإغارة على أطراف بلاد المعتمد دون سائر بلاد الأندلس، فكانوا يُغِيْرُون منه كل يوم، فيقتلون ويأسرون[1]. ويقترب منه بروكلمان في قوله: اصطنع ألفونسو هذا الحصن قاعدة للهجوم على أراضي المعتمد ابن عباد[2]. ويقول عبد العزيز سالم إن ألفونسو تمكّن من استعادة قواه ولمَّا يَمْضِ عام واحد على هزيمته بالزلاقة، فنقل ميدان نشاطه إلى شرق الأندلس؛ لأن غرب الأندلس كانت تقوم فيه آنذاك مملكتان قويتان هما إشبيلية وبطليوس، وتعضدهما قوة من المرابطين قوامها ثلاثة آلاف رجل كان ابن تاشفين قد تركهم بتصرف المعتمد. أمّا شرق الأندلس، فكان ممزّقاً من الناحية السياسية، ولم يكن المرابطون قد وصلوا إليه بعد[3].

وفي عام ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ م ضيَّق غرسيّة قائدُ الحصن على مدينة ألمرية[4]. وفي السنة المذكورة وفد على ابن تاشفين بالمغرب جملة من أهل مرسية ولورقة وبسطة، فشكوا إليه ما حلَّ بهم من غارات الحصن، وظلوا يتردّدون إليه بالشكوى حتى وعدهم بالجواز إليهم[5]. وفي السنة نفسها مضى المعتمد ابن عباد إلى ابن تاشفين بالمغرب، واستنجده على ما يجاوره من بلاد العدوّ، فأكرمه ابن تاشفين ووعده خيراً وعاد المعتمد إلى إشبيلية واستعدّ للعدو[6].

ويروي الأمير عبد الله أن المعتمد سار بنفسه إلى ابن تاشفين بالمغرب لغرضين اثنين؛ الأول هو استرجاع نفوذه بمرسية بعد أن تمرّد فيها ابن رشيق عليه، فأراد أن يضع بها ابنه الراضي يزيداً عوضاً عن الجزيرة الخضراء التي كان تنازل عنها لابن تاشفين عند دخوله الأندلس لجهاد العدوّ في الزلّاقة، والغرض الثاني هو وضع حدّ لغارات حامية حصن أليط المتواصلة على أراضي إشبيلية وغيرها من مدن الأندلس المتاخمة للحصن، فأعلمه أنه لا راحة للمسلمين إلاّ بتحرير هذا الحصن، فعاقده ابن

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٨).

(٢) بروكلمان. تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٣٢١)

(٣) سالم: المعرب الكبير (ص ٧٢٨)

(٤) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس (ص ٩٨، ١٠٠، ١٠١).

(٥) مجهول الحلل الموشية (ص ٤٧ ـ ٤٨)؛ ابن عذاري. البيان المعرب (ح٤ ص ٤١)

(٦) ابن حلكان: وفيات الأعيان (ح٧ ص ١٢٧)

تاشفين على أن يأتي بنفسه ورجاله[1]. ويُغْفِلُ صاحبُ الحلل الموشية وابن أبي زرع وابن الخطيب ذكر العرض الأول وهو شأن مرسية، واكتفوا بذكر الغرض الثاني المتعلّق بأذى الحصن على المسلمين[2].

ويخبرنا ابن الكردبوس أنه عند جواز ابن تاشفين الثاني إلى الأندلس برسم جهاد النصارى، أغراه المعتمدُ ومعه بعض أمراء الأندلس، باحتلال غرناطة ومالقة وألمرية وشغلوه بها عن مقاتلة النصارى، ليتسنّى لهم تنفيذ مآربهم وتدبير أمرهم على مهل[3].

ونفَّذ ابنُ تاشفين ما وعد به، فعبر إلى الجزيرة الخضراء في ربيع أول عام ٤٨١ هـ/ تموز ١٠٨٨ م، وهو جوازه الثاني إلى الأندلس برسم الجهاد[4]. وقال ابن خلكان إن دخوله الأندلس كان في شهر رجب من العام المذكور[5]. وسبق وذكر أنَّ ابن تاشفين عاد إلى الأندلس في سنة ٤٩٠ هـ/ ١٠٨٧ م، فحاصر والمعتمد ابن عباد بعض حصون الإفرنج، فلم يقدرا عليه، فرحلا عنه[6]. وحدّد صاحب الحلل الموشية وابن الخطيب سنة ٤٨١ هـ تاريخ جواز ابن تاشفين الثاني إلى الجزيرة الخضراء، دون أن يشيرا إلى الشهر من السنة المذكورة[7]. وقال ابن خلدون إنَّ ابن تاشفين أجاز البحر إلى الأندلس الجواز الثاني سنة ٤٨٦ هـ/ ١٠٩٣ م، فتثاقل أمراء الطوائف عن لقائه، فوجد عليهم[8]. وحدَّد ابن الأبار سنة ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م تاريخ دخول ابن تاشفين الأندلس بهدف استخلاص حصن أليبط[9]. ومثله قال بروكلمان[10]. وقال

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٨). وانظر أيضاً. سالم: المغرب الكبير (ص ٧٣٠)؛ Turk El Reino de zaragoza (p 157)

(٢) مجهول: الحلل الموشية (ص ٤٨)؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٨)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤٩).

(٣) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس (ص ١٠٤)

(٤) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب (ص ٩٩).

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج ٧ ص ١٢٧).

(٦) المصدر نفسه (ج٥ ص ٢٩):.

(٧) مجهول: الحلل الموشية (ص ٤٩)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٤٩).

(٨) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٨٣) وانظر أيضاً الاستقصا للناصري (ج٢ ص ٥٥)

(٩) ابن الأبار الحلة السيراء (ج٢ ص ١٧٥).

(١٠) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٣٢١)

منندث بيدال إن حصار أليط بدأ في صيف ٤٨٢ هـ/ ١٠٨٩ م، وانتهى في تشرين أول من العام نفسه[١].

وما أن اتّصل بالمعتمد قدومُ ابن تاشفين إلى الجزيرة الخضراء حتى تلقّاه على عادته بما يقدر عليه من الكرامات والمبرّة[٢]. وقال ابن أبي زرع إن المعتمد تلقّاه بالجزيرة بألف دابّة تحمل المِيْرة والضيافة[٣]. وذهب ابن الأبار إلى أن المعتمد لم يخرج إلى ابن تاشفين عند جوازه الثاني لمحاصرة حصن أليط؛ لِبِطَالَـةٍ كان فيها منغمساً، وكانت أول وحشة وقعت بينهما[٤].

وكتب ابن تاشفين من الجزيرة إلى ملوك الطوائف يستدعيهم للجهاد معه، وحدّد لهم مكان اللقاء عند حصن أليط، وتحرّك بقواته إلى الحصن المذكور، فاجتاز على مالقة واستنفر صاحبها تميم بن بلقين[٥]. ثم مرَّ على غرناطة، فخرج إليه الأمير عبد الله بنفسه، وتلقّاه بالهدايا والتحف، وسار وإياه إلى الحصن بصحبة وزيره أبي جعفر ابن القليعي[٦]. وتلاحق بابن تاشفين، إضافةً إلى المعتمد وعبد الله وتميم، المعتصمُ ابن صمادح صاحب ألمرية، وابن رشيق صاحب مرسية، وأصحاب شقورة وبسطه وجيان[٧]. ويقول ابن الأثير: حضر مع ابن تاشفين المعتمد ابن عباد، وعبد الله بن بلقين، فساروا جميعاً بعساكرهم حتى نزلوا على الحصن[٨]. ويروي ابن أبي زرع أنه لم يلتحق بابن تاشفين من أمراء الأندلس غير المعتمد وابن رشيق، فَنَزَلَا معه الحصن، وشرعوا جميعاً في التضييق عليه[٩]. ويخبرنا ابن بسام أن المعتصم ابن صمادح خرج عن ألمرية إلى حصن أليط يجرُّ جيشاً، فألفى به ابنَ تاشفين قد وضع قَدَمَهُ على صَلْعته وتمكَّن من قياده، فعرض نفسه عليه، فتلقّاه ابنُ تاشفين بجميل

---

(١) Huici Miranda El sitio de Aledo (P 47); Pidal La Espana del Cid (T 1, P. 351)

(٢) مجهول: الحلل الموشية (ص ٤٩)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٤ ص ١٤٢).

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٨).

(٤) ابن الأبار: الحلة السيراء (ج٢ ص ٨٥ ـ ٨٦)

(٥) مجهول: الحلل الموشية (ص ٤٩)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٤ ص ١٤٢)، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٩).

(٦) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٨)؛ ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ١٤٨).

(٧) مجهول: الحلل الموشية (ص ٤٩)، ابن عذاري: البيان المغرب (ج٤ ص ١٤٢).

(٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ١٥٤)

(٩) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب (ص ٩٩).

نظره وبوّأه جانباً من عسكره[١]. ويقول عبد العزيز سالم إن جيوش الأندلس توافت على ابن تاشفين، مُمَثّلَةً لكل دويلات الطوائف[٢]. ويذكر المستشرق الإسباني ميراندا أن أمراء شرق الأندلس لم يشتركوا في الحصار إلى جانب المعتمد وعبد الله وتميم والمعتصم وابن رشيق؛ لاشتغالهم آنذاك بردّ هجمات السِّيْد عليهم[٣].

ولمّا تحقّق عند النصارى أن ابن تاشفين جاز إلى الأندلس، اتّفقوا على تدويخ شرق الأندلس، فشنُّوا الغارات على سرقسطة وجهاتها، وبلنسية، ودانية، وشاطبة، ومرسية، فانتسفوها، وخرّبوا مزارعها، وقتلوا وسَبَوا من كان في طريقهم[٤].

وضرب المسلمون الحصار حول الحصن، واتّصلت الحروب عليه ليلاً ونهاراً، ولم يهاجم أمراء الطوائف الحصن مجتمعين، بل كان كل أمير يقاتل في يومه بخيله ورَجْله مداولةً بينهم، فيهاجم ثم يحل مكانه أمير آخر[٥]. وقد شارك الأمير عبد الله نظراءه ملوك الطوائف في منازلة هذا الحصن على حَدِّ قوله: «فنازلناه على أتمّ ما يمكن من الرجال والعُدَد؛ كل رئيس يقاتله حسب مجهوده وما تبلغ استطاعته وحيلته، وهو قد امتلأ برعيَّة الجهة، وكلُّها من النصارى، وأعدّوا فيه ما يحتاج من كل شيء... والقتال عليهم كل يوم لا يفتر»[٦]. وبعد أن روى ابن أبي زرع، كما مَرَّ معنا، أنه لم ينزل الحصن مع ابن تاشفين غير المعتمد وابن رشيق[٧]، عاد وناقض نفسه فقال: تغيّر ابن تاشفين على أمراء الطوائف؛ لأنه لم يأته أحد منهم إلى نزول الحصن عند استدعائهم للجهاد معه[٨].

وقد استعمل المسلمون في الحصار مختلف آلات الحرب، كالمجانيق والعَرّادات، حتى إنَّ المعتصم ابن صمادح استخدم فِيْلاً من الخشب فأصابته نار العدوّ وأحرقته: «ونَصْب المجانيق والعَرّادات، حتى لم يَبْقَ عمل يُرامُ به افتراضُ المعاقل

(١) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٧٣٣ - ٧٣٤). وانظر أيضاً وفيات الأعيان لابن خلكان (ج٥ ص ٤٤).
(٢) سالم: المغرب الكبير (ص ٧٣٠)
(٣) Turk. El Reino de Zaragoza (p 49)
(٤) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس (ص ٩٦ - ٩٧).
(٥) مجهول: الحلل الموشية (ص ٤٩)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٤ ص ١٤٢).
(٦) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٨).
(٧) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب (ص ٩٩).
(٨) المصدر نفسه.

إلاَّ وصُنِعَ. وأتى ابنُ صمادح بفيْلٍ أقامه، وخرق به العادة، أصابه من الحصن قَبَسُ نارٍ فأحرقه»[1].

وكانت حامية الحِصْن قد لجأت إلى الحيلة بحيث كانت تُنِيره ليلاً، وتهدّد المسلمين بمجيء ألفونسو: «وهم في ذلك يهدّدون بمجيء ألفونش، ويريعون الحيلة بالتنيير كل ليلة، والقتالُ عليهم كل يوم لا يفتر»[2].

ورأى ابن تاشفين أنَّ أَخْذَ الحِصْن لا يتمُّ إلاَّ بالمطاولة وقَطْعِ المؤن عن حاميته، فحاصره أشهراً بلا جدوى[3]. وقيل: حاصره شهراً[4]. وقيل أربعة شهور لم ينقطع فيها القتال ليلاً ولا نهاراً إلى أن دخل الشتاء[5].

وقد استصرخ أهل الحصن سلطانهم ألفونسو، فأخذ في الحشد، ويَمَّمَ الحِصْنَ في أمم لا تُحْصَى، فلمّا قرب منه رأى يوسف الإقلاع عنه، فرفع الحصار عنه، وانصرف إلى ناحية لورقة[6]. ويروي لنا ابن الأبار أنَّ جيش ألفونسو في حركته هذه نَيَّف على ثمانية عشر ألفاً بين فارس وراجل، وأنه لم يصل منهم إلى الحصن إلاَّ خمسة آلاف، إذ أهلك الله تعالى الباقي بالوباء. وعند وصولهم إلى الحصن استراب ابنُ تاشفين، وتراجع إلى لورقة وأقام فيها أياماً[7].

ويعزو ابن الأثير سبب رفع الحصار عن الحصن إلى عدم القدرة على فتحه[8]. ويقول ابن الخطيب إنه لمَّا فسد ما بين ابن تاشفين وأمراء الأندلس، أقلع ابن تاشفين

---

(١) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٩). وانظر أيضاً. Huici Miranda. El Sitio de Aledo (P. 50)

(٢) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٨).

(٣) مجهول. الحلل الموشية (ص ٤٩).

(٤) ابن عذاري. البيان المغرب (ج٤ ص ١٤٢).

(٥) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص٩٩)، وانظر أيضاً: بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٣٢١)؛

Turk El Reino de Zaragoza (p. 156 - 158), Dozy. Histoire des Musulmans d'Espagne (T 3, P. 140).

(٦) مجهول. الحلل الموشية (ص ٥٠)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٤ ص ١٤٢ - ١٤٣)؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٩).

(٧) ابن الأبار. الحلة السيراء (ج٣ ص ١٧٥). وانظر أيضاً:

Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne (T. 3, P 140), Miranda: El Sitio de Aledo (P. 52)

(٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ١٥٤)

عن الحصن وعاد إلى العدوة المغربية[1]. ويضيف: رفع ابن تاشفين الحصار عن حصن أليط بعد أن اتّضح له عدم إخلاص ملوك الطوائف في الجهاد من جهة، ولصعوبة فتحه من جهة ثانية[2]. ويضيف أيضاً أن الرأي اقتضى الإقلاع عن الحصن لمّا شرع ألفونسو في إنجاد أهله[3]. ويقول بروكلمان: لما سار ألفونسو إلى الحصن بجيش قوي، انسحب ابن تاشفين إلى لورقة اجتناباً للالتحام بقوات ألفونسو في معركة لا يدري نتائجها من جهة، ولعدم ثقته بحلفائه أمراء الأندلس من جهة ثانية[4]. ويعزو الأمير عبد الله رفع الحصار إلى أربعة أمور؛ أولها طول مَكْث المسلمين في حصار الحصن وفشلهم في اقتحامه، وثانيها اختلاف كلمة المسلمين، وثالثها ورود الخبر بقدوم ألفونسو إلى الحصن بأعداد هائلة لمساندة حاميته، ورابعها خلاف مرسية على ابن تاشفين وانسحاب جندها من المحلة والتحاقهم بمرسية[5].

وكانت الخلافات بين أمراء الطوائف قد اشتدّت أثناء الحصار حتى بلغت ذروتها، وخاصة بين الأمير عبد الله وأخيه تميم من جهة، وبين المعتمد ابن عباد وابن رشيق من جهة ثانية، وبين المعتمد والمعتصم وابن صمادح من جهة ثالثة. وفيما يتعلّق بخلافات الأخوين عبد الله وتميم، يروي عبد الله نفسه أن أخاه تميماً عرض على ابن تاشفين في ذلك الحصار مشكلة الحدود بين غرناطة ومالقة متّهماً أخاه باغتصاب حقوقه في الميراث، فوقف ابن تاشفين بجانب عبد الله؛ لأن غرناطة كانت في نظره ذات موقع استراتيجي هام يفوق موقع مالقة، ولأنها كانت في الوقت نفسه الطريق التي يجتاز عليها في دخوله الأندلس وعودته إلى العدوة المغربية[6].

وفيما يتعلّق بالخلاف الذي كان قائماً بين المعتمد ابن عباد وعبد الله بن رشيق، فإنَّ مردّه عائد إلى قيام ابن رشيق على المعتمد بمرسية ـ إذ كانت مرسية آنذاك تابعة لمملكة إشبيلية وكان عليها ابن عمار من قبل المعتمد ـ فاستقلّ بها وطَرَدَ

---

(١) ابن الحطيب: الإحاطة (ج٤ ص ٣٥٣).

(٢) نفسه. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧)

(٣) المصدر نفسه (القسم الثالث ص ٢٥٠).

(٤) بروكلمان تاريح الشعوب الإسلاميه (ص ٣٢١)

(٥) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٩ ـ ١١٠، ١١٢ ـ ١١٣).

(٦) ابن بلقين· مذكرات الأمير عبد الله (ص ١١٣) وانظر أيضاً: Huici Miranda El Sitio de Aledo (P 51)

منها ابنَ عمار، ودعا إلى نفسه[1]. فاشتدّ الخلاف بين الرجلين، فبذل ابنُ رشيق الأموال للمرابطين ليقفوا بجانبه، فنال مبتغاه وأُعْطي الأمان، فغـرَّه ذلك وتـاه على المعتمد، وأظهر معصيته وأمر أن تكون الخطبة بمرسية على اسم يوسف بن تاشفين دون المعتمد[2].

وشَكَا المعتمدُ بابن رشيق إلى ابن تاشفين متهماً إياه باغتصاب ولاية مرسيـة منه، وأنه متفاهمٌ مع ألفونسو سرّاً بحيث دفع له جباية مرسية، وأنه تعاون مع حامية الحصن، فاستفتى ابنُ تاشفين الفقهـاءَ في أمر الـرجلين، فوجب الحكمُ على ابن رشيق، فأمر ابنُ تاشفين قائدَ جيشه سِيْرَ بن أبي بكر بالقبض عليه وإسلامه في يد المعتمد، ونَهَاهُ عن قتله، فَثَقَّفه المعتمد[3]. ويخبرنا الأمير عبد الله أنه لمّا وصـل الخلاف إلى أَشُدّه بين المعتمد وابن رشيق، كان على ابن تاشفين أن يحكم بينهما، فأعمل في ذلك عقله، فرأى أنَّ مداراة المعتمد أوجب؛ لأنَّ ابن رشيق لم يكن ذا تأثير كبير على الأرض كالمعتمد من جهة، ولأنه كان من جهة ثانية يُقَدِّم العونَ للروم أثناء حصار الحصن ليبقوه أميراً على مرسية، فصنع لابن رشيق مجلساً أفتى فيه الفقهاءُ بإزاحته عن المسلمين وإسلامه إلى المعتمد، فَقُيِّدَ في الحديد ورأى هَوَاناً عظيماً[4]. وقد أشار ابن الأبار إلى إعانة ابن رشيق لنصارى الحصن بقوله: «والروم يعيثون منه فيما حوله، وابنُ رشيق يُعينُهُم»[5].

وأرسل ابنُ تاشفين إلى أهل مرسية يأمرهم بالـرجوع إلى المعتمـد ابن عباد والطاعة له، فخالفوا وجَفَوْا كلَّ من مَضَى إليهم غير ابن رشيق[6]. وفرَّ عندئذ أصحابُ ابن رشيق وجميع جُنده من محلّة أليط، والتحقوا بمرسية وانْتَزَوْا بها، ومنعوا المِيْرة عن الجيش المرابطي المحاصر وقطعوا المؤن التي كانت ترسل من مرسية وأحوازها

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ١٢٢).

(٢) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١١٠ ـ ١١١).

(٣) مجهول: الحلل الموشية (ص ٤٩ ـ ٥٠)، ابن عذاري: البيان المغرب (ج٤ ص ١٤٢)؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٩).

(٤) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١١١ ـ ١١٢)

(٥) ابن الأبار: الحلة السيراء (ج٢ ص ١٧٥)

(٦) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١١٢).

إليه، فاختلَّت المحلة ووقع الغلاء بها وارتفعت الأسعار فيها[١].

وتحدّث الأمير عبد الله عن مشاجرات وقعت بين المعتمد ابن عباد والمعتصم ابن صمادح بسبب بعض المعاقل، فشكا كلٌّ منهما أمره إلى ابن تاشفين متّهماً كلٌّ منهما الآخر بمختلف التّهَم، وكانت النتيجة أن انفصلا على غير موافقة[٢]. وقال بروكلمان بهذا الصدد: ذَرَّ قَرْنُ الشقاق في معسكر المسلمين خارج حصن أليط، بين ملوك الطوائف، وخاصة بين المعتمد والمعتصم، وبلغت منهما الجهالة مبلغاً جعلهما يحتكمان إلى ابن تاشفين[٣].

وقد عجّلت تلك الخلافات التي اشتدّت بين أمراء الطوائف في تقويض عروشهم، فرأى ابن تاشفين أنَّ ضمَّ الأندلس إلى المغرب بات مسألة وقت ليس إلاَّ. وقد أشار الأمير عبد الله إلى تلك المسألة بقوله: «وطالت تلك المحلة الملعونة... فلم يَزْدَدِ الرؤساءُ إلاَّ توحُّشاً، ولا الرعيَّةُ إلاَّ تسلُّطاً... مع اختلاف كلمة الرؤساء... وكانت مقدمات سِوْءٍ، وزماناً على السلاطين عسيراً، وسَعْداً للمرابطين مُقْتَبِلاً»[٤]. ويعزو ابن خلكان وابن الخطيب سبب الاستيلاء على الأندلس إلى كثرة السعايات بين ابن تاشفين وملوك الطوائف؛ إذ أوهمه خواصُّه أنَّ هؤلاء الملوك فَرُّوا عنه خلال حصار الحصن، وأَخْلَوْا بينه وبين ألفونسو، فأصْغَى إلى كلامهم، وعمل في نفسه قولهم، فعاد إلى بلاده، وقد وَغَرَ صَدْرُهُ عليهم، وأعمل النظرَ في خلعهم بعد أنْ رأى أنَّ الإبقاء عليهم لا يتوصَّلُ معه إلى واجب الجهاد[٥].

ولمّا رحل ابنُ تاشفين عن الحصن، أقبل ألفونسو نحوه ودخله، ووجد فيه قوماً جياعاً لا يقدرون على إمساكه، فأخرج مَنْ فيه، وأحرقه لعقم الدفاع عنه، وكان بداخله ثلاثة

---

(١) مجهول: الحلل الموشية (ص ٥٠)؛ ابن عذاري. البيان المغرب (ج٤ ص ١٤٢)؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب (ص ٩٩)

(٢) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ١١٣). وانظر أيضاً. Huici Miranda: El Sitio de Aledo (P 51).

(٣) بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٣٢١)

(٤) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١١٠).

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٧ ص ١٢٨)، ابن الخطيب. أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٥٠)

عشر ألفاً؛ اثنا عشر ألف راجل وألف فارس[1]. وقال ابن أبي زرع إن حامية الحصن كانوا اثني عشر ألف مقاتل نصراني، فَنُوْا جميعُهُمْ بالقتل والجوع، ولم يبق فيه غير مائة أخرجهم ألفونسو حين أخلاه[2]. ويشكُّ ويسي ميراندا في هذا العدد الذي يحصيه كل من صاحب الحلل الموشية وابن أبي زرع[3]. ويقول عنان: كان في الحصن، إضافة إلى الحامية الضخمة التي تضمّ ثلاثة عشر ألف مقاتل، جماعات كبيرة من نصارى المنطقة المجاورة له، كانوا قد التجأوا إليه[4]. وقال أشباخ: لصعوبة الدفاع عن هذا الحصن، قوّض ألفونسو أسواره وأخلاه ممن بقي فيه، وكانوا مائة فارس وألف راجل من أصل ثلاثة عشر ألف مقاتل، وذلك في سنة ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م[5]. واحتل المعتمد ابن عباد أطلال الحصن بعد أن غادره ألفونسو، وضَمَّه إلى ممتلكاته[6].

وعاد ابن تاشفين إلى غرناطة، وهي طريقه إلى المغرب، ومعه عبد الله بن بلقين[7]. وقال المقري إن ابن تاشفين عرَّج على غرناطة، وهو في طريقه إلى مراكش، فخرج إلى لقائه صاحبها عبد الله وسلَّم عليه[8].

وهكذا كانت تلك الحملة على حصن أليبط قد كشفت لابن تاشفين استحالة بقاء ملوك الطوائف على تلك الحال من الضعف والانقسام والتشرذم، وفتحت الطريق أمامه لضمّ الأندلس إلى المغرب. وكانت غرناطة ومالقة المملكتين اللتين تسقطان في أيدي المرابطين ولمَّا يَمْضِ عامان على تلك الحملة. وبعدهما بسنة بدأت الممالك الأخرى تتساقط تباعاً وكان على رأسها مملكة بني عباد بإشبيلية.

٥ ـ عبد الله يصالح ألفونسو بعد الانتهاء من حصار أليبط ويتّفق معه ضدّ

---

(١) مجهول: الحلل الموشية (ص ٤٩ ـ ٥٠)؛ ابن عذاري. البيان المغرب (ج٤ ص ١٤٢ ـ ١٤٣).

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٩).

(٣) Huici Miranda: El Sitio de Aledo (P 51)

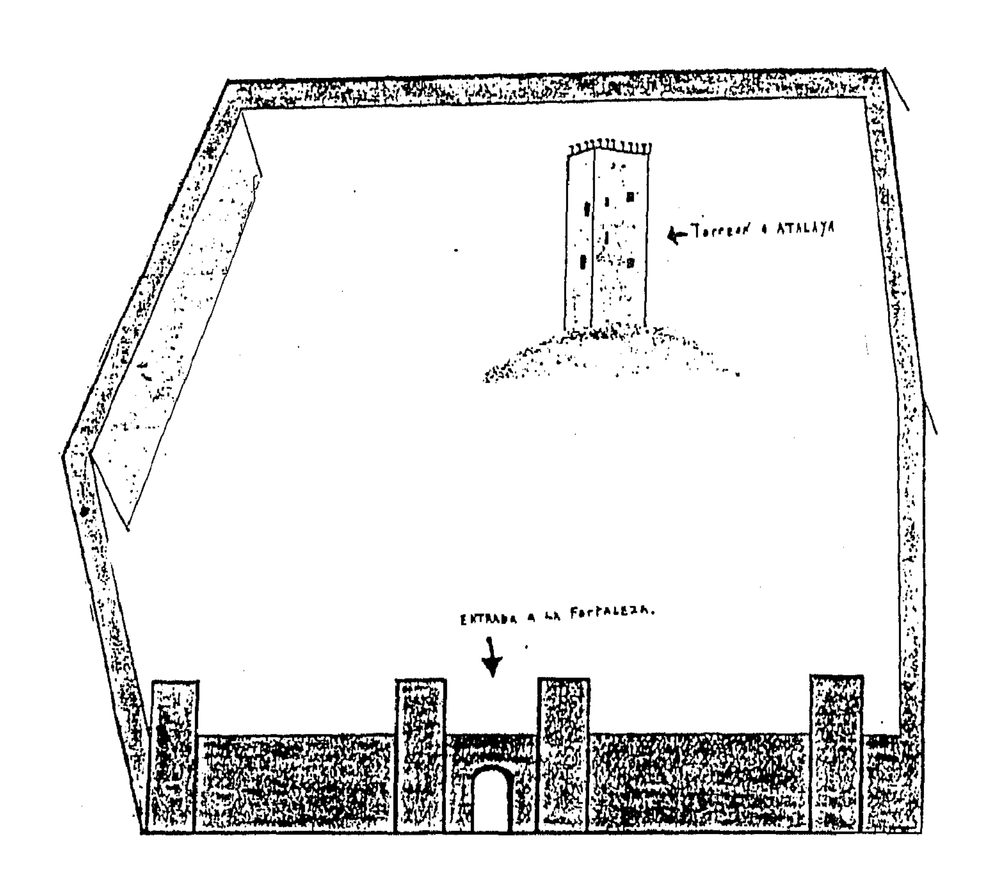
(٤) عنان: دول الطوائف (ص ٣٤٢).

(٥) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٩٢) والصواب سنة ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ م، كما مرَّ سابقاً.

(٦) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٩).

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ١٥٥).

(٨) المقري. نفح الطيب (ج٤ ص ٣٧٣)



خريطة حصن ألبيط، مأخوذة من مجلة:

Miscelánea de estudios árabes: y hebraicos , Año III, N°3, Granada, 1954 (P. 54)

المرابطين: بعد أن عاد ألفونسو من حصن أليط بفترة وجيزة، أخذ يضغط على ملوك الطوائف ويطلب منهم ما يتوجّب عليهم من مال، ويهدّدهم بإفساد بلادهم إنْ امتنعوا عن ذلك، فعاقد ابنَ هود صاحبَ سرقسطة، وسائر أمراء شرق الأندلس، فأعطوه ما سلف له عندهم[١]. وأرسل ألْبَرْهانسَ، وكيْلَه على جهتَيْ غرناطة والمرية، إلى عبد الله يطلب منه مالاً وإلاّ احتلّ وادي آش، فرأى عبد الله أن يرضيه باليسير ويعاقده على ألاّ يعترض بلاده بعد أخذ المبلغ المرقوم، فلمّا حصل على تلك الدفعة عاد وطالب بالمزيد، فاعتذر عبد الله عن تلبية طلبه، محتجّاً بأنَّ المال غير متوفّر لكثرة ما أنفقه على المرابطين في حصار أليط. فأخبر ألْبرهانس سيِّدَه ألفونسو بالأمر، فرضي ألفونسو بذلك، ولكنه طلب من وكيله أن يوجّه رسولاً لعبد الله لأخذ الجزية منه عن الأعوام الثلاثة التي انقضت منذ معركة الزلاقة وحصار أليط (٤٧٩ ـ ٤٨١ هـ/ ١٠٨٦ ـ ١٠٨٨ م)، ومقدارها ثلاثون ألف مِثْقال، أي عشرة آلاف مِثْقال عن كل سنة، فجاء رسوله وهدَّد عبد الله إنْ هو امتنع عن دفعها كاملة، فأعطاه عبد الله كامل الجزية دون أن يكلِّف رعيّته دِرْهماً، وعاقده على عدم تأخّره عن دفع الجزية السنوية في المستقبل مقابل عدم تعرّض ألفونسو لغرناطة وأعمالها. ثم أخبر عبدُ الله ابنَ تاشفين بما أقدم عليه، فجاوبه ابنُ تاشفين بكتاب فيه تهديد ووعيد[٢]. فشكَّ عبد الله عندئذ بنوايا المرابطين تجاهه، ورأى أنهم سيغدرون به عما قريب، خاصة وأن تجربته معهم كانت مريرة أثناء حصار أليط، حيث لاقى منهم الجفاء وسوء المعاملة؛ يروي عبد الله نفسه أنَّ قَرُوْراً أحدَ كبار قادة المرابطين، كان أثناء الحصار يناصبه العداوة، ويأمره بأوامر فيها تعنيف وتعسّف، يريد بها إذلاله، حتى انه كان يبتزّه بالمال، فَيُوْهِمه بأنه يدفع ضرر أخيه تميم عنه ويُصْلح حال ما فسد بينهما، فأخذ منه مقابل ذلك ألفاً وخمسمائة دينار مرابطي، وألف دينار باسم كسوة خيله، عدا المال الكثير الذي أخذه منه أثناء معركة الزلاقة وحملة أليط[٣]. ولذلك عمد عبد الله إلى تشييد الحصون استعداداً لمقاتلة المرابطين إذا حاصروه، فبنى الأبراج والأسوار وأوصلها ببعضها البعض، وأقام عليها الدَّيْدَبَانات[٤]، وملأ بيوت السلاح، وجَدَّ في

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١١٢).

(٢) نفسه (ص ١٢٣ ـ ١٢٧)

(٣) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ١١٤ ـ ١١٥).

(٤) الدَّيْدَبَان: نوع من أنواع السلاح اتّخذه مسلمو إفريقية عن البيزنطيين Huici Miranda. El Sitio de Aledo (P 45).

ضرب السهام، وألحق الرُّماة والرجال، وأقام الأجباب، وأعدَّ المطاحن وأنواع العُدَ من التِّرَاس والنَّبْل، ونَصَبَ الرَّعّادات، وجمع الأقوات، وأعدَّ لكل حصن قوتة لأزيد من عام، وفعل أكثر من ذلك في حاضرته غرناطة. ونقل المال والذخيرة والمتاع والآنية إلى قصبة المُنَكَّب لكونها في غاية المنعة وعلى ضفة البحر المتوسط. وبعث إلى ألفونسو مالاً كثيراً، وثياباً نفيسة، وتُحفاً جليلة، وأعلاقاً رفيعة، وكتب إليه مستجيراً به، وأعلمه أن البلد بلده، فقبل ألفونسو المال والهدايا، وعاهد عبد الله على معاضدته، فقويت نفس عبد الله وارتاح لذلك. وتوقّع عبد الله أن يطول حصار المرابطين له لمناعة حصونه وحصانة معاقله[1]. وكانت ثقة عبد الله بقدرة جنده على الصمود كبيرة على حَدِّ قوله: «إلاَّ أنِّي واثق بكل مَنْ معي مِن رجالي وخَدَمَتي أنهم لا يغدروني، فقويت نفسي لذلك بعض القوة، مع ما كنت أَعْدَدْتُه»[2].

وقد بَرَّرَ عبد الله اتصاله بألفونسو ومواطآته معه، فرأى أنه أقدم على ذلك لعدم تجاوب ابن تاشفين لمطالبه ومطالب امراء الأندلس بإبقاء عسكرٍ مرابطي يحميهم من غارات ألفونسو، إثر رفع الحصار عن أليبط: «ولمَّا حان انصرافنا من لِيِّيْط كَلَّمْنا أميرَ المسلمين في عسكر يتركه عندنا بالأندلس، خوفاً من الروميّ أنْ يَكْلَبَ عليها ويَطْلُبنا بثأر تلك السفرة (أي سفرة ألييط) وغيرها، فلا يكون عندنا بمن ندافع، فقال: أَصْلِحوا نيّاتكم تَكْفُوا عَدُوَّكُمْ، ولم يُعْطِنا عسكراً»[3]. ونحن لا يمكننا أن نقبل مثل هذه الأعذار؛ لأنه كان ينبغي على عبد الله وسائر أمراء الأندلس أن يتّحدوا فيما بينهم، وينظروا إلى مصلحتهم المشتركة، ليصبحوا قوة كبيرة تفرض احترامها على المرابطين وتعاضدهم متى دعت الحاجة من جهة، وتصدُّ بعزمٍ غاراتِ الإسبان وتقف بقوة بوجه أطماعهم من جهة ثانية.

يروي ابن أبي زرع أن عبد الله صالَحَ ألفونسو وظافره على ابن تاشفين، وبعث إليه بمال[4]. ويقول ابن خلدون إن عبد الله وأخاه تميماً صانَعَا ألفونسو وعاهداه على

---

(١) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٢٠ - ١٢١، ٢٠٦ - ٢٠٧).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٢٢)

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٢٢). وانظر أيضاً Huici Miranda El Sitio de Aledo (P 53)

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٩)؛ الناصري: الاستقصا (ج٢ ص ٥٣)

معاداة المرابطين[1]. ويخبرنا ابن خلكان أن بعض أمراء الأندلس راسلوا ألفونسو ليكون عَوْناً لهم خوفاً من ابن تاشفين، وسيّروا له الهدايا، فقبلها منهم وأجابهم بالإعانة والمساعدة، واتّصل ذلك بابن تاشفين، فاستشاط غيظاً[2]. ويذكر ابن الكردبوس أنه لمّا رأى المعتمدُ وغيره من أمراء الأندلس أن قوة المرابطين أخذت في الازدياد من خلال هزائمهم لألْبَرْهانس، خاطبوا ألفونسو سرّاً واتّفقوا معه على أن يقاوم المرابطين سرّاً وجَهْراً، مقابل أن يتركهم في ممالكهم عمّالاً يجبون له الأموال ليس غير[3]. ويروي صاحب الحلل الموشية أنه لمّا تبيّن لملوك الطوائف إعراض ابن تاشفين عنهم وتغيّره عليهم خرجوا عن طاعته وحذروه أشدّ الحذر، وأول من تظاهر بذلك هو عبد الله، ولمّا اتصلت أنباؤه بابن تاشفين اشتدّ غضبه واستزاد حرجه عليه [4].

خامساً ـ وزراؤه وكُتّابه وقضاته:

من وزراء الأمير عبد الله سِمَاجَة الصِّنْهاجي، وقد قلّده عبد الله الوزارة، ثم تخلّص منه بعد أن رأى أنه يطمع في الدولة، فأمره بالخروج عن غرناطة، فقدم إلى ألمرية وعاش في كنف أميرها المعتصم ابن صمادح [5].

ومن وزرائه أيضاً الفقيه ابن القليعي[6]. وهو أبو جعفر أحمد بن خلف بن عبد الملك بن غالب الغساني، ويعرف بأن القليعي، وهو من أهل غرناطة، ومن جُلَّة أعيانها. كان فريد عصره في الخير والعلم، كثير الرواية، ثقة صدوقاً، مُشاراً إليه من كل نازلة، معروف الحق، بعيد الصِّيْت والذِّكْر، مخصوصاً بعلوّ المرتبة إلى حين وفاته في شهر ربيع الآخر سنة ٤٩٨ هـ/ ١١٠٤ م[7]. وتنسب إليه الساقية الكبرى المجاورة لطَوْق غرناطة[8]. استقضاه الأمير عبد الله على غرناطة بعد أن كان مخمولاً

---

(١) ابن خلدون تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٢٨٤)، الناصري. الاستقصا (ج٢ ص ٥٥).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٧ ص ١٢٨)

(٣) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس (ص ١٠٤)

(٤) مجهول: الحلل الموشية (ص ٥١)؛ ابن عذاري: البيان المعرب (ج٤ ص ١٤٣)

(٥) انظر ما فاتنا عنه في بحثنا هذا (ص ١٧٩ ـ ١٨٠)

(٦) ابن الخطيب الإحاطة (ج١ ص ١٤٧ ـ ١٤٨)

(٧) ابن بشكوال. الصلة (ص ١٢٤ ـ ١٢٥)؛ ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٤٧ ـ ١٥٠)

(٨) ابن الخطيب الإحاطة (ج١ ص ١٤٧)

في عهد جدِّه باديس، إذ كان باديس قد أمره بسُكْنَى ضيعته ولم يَـدَعْهُ في مـدينة غرناطة؛ لِمَا كان يراه من شرِّه، على حدِّ قول الأمير عبد الله نفسه[1]. ويخبرنا ابن الخطيب أن باديس كان يتفرّس فيه أنَّ مُلْكَ دولته ينقرض على يديه، فحدّثته نفسه بقتله بسيفه، ولكن الله حماه منه بالعلم[2]. ويروي ابن الآبار أن عبد الله استقضاه على غرناطة في أواخر عهده[3]. وقد تآمر ابن القليعي على عبد الله وسعى في هلاكه سرّاً منذ التقائه بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين، عندما وجَّهه إليه عبد الله رسولاً ضمن بعثة سَفَرَتْ إلى المغرب للاستنجاد به ضِدَّ الملك الإسباني ألفونسو السادس، فَنُقِلَ عندئذ عنه إلى عبد الله قوله الشهير: «والله لأبْلِغَنَّ حفيدَ باديس الطينة السوداء، ولأشَوِّقَهُ إلى دِرْهَمٍ يُنْفِقُه، وذلك على صنيع جَدِّه بي وبغيري»[4].

وعندما دخل يوسف بن تاشفين الأندلس عام ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م لنجدة ملوك الطوائف من براثن ألفونسو السادس، أُبْلِغ عبد الله أنَّ ابن القليعي قال لأبي بكر بن مُسَكَّن إنَّ يوسف بن تاشفين دخل الأندلس رغم أُنُوْف الفَسَقَة سلاطين الأندلس[5]. وأثناء حصار ابن تـاشفين وملوك الطوائف لحِصْن ألْيط عـام ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ م، للقضاء على حاميته القشتالية وإعادته إلى حظيرة الإسلام، شارك ابنُ القليعي أميره عبد الله في ذلك الحصار، لرغبته في الأجر مع شهرة مكانه وعلوِّ منصبه من جهة، ولمشاركة نظرائه من زعماء الأقطار في ذلك الحصار من جهة ثانية، وكان مضربُ خيامه قريباً من مضرب خيام عبد الله[6].

وإكمالاً لمؤامرته على عبد الله، خاطب أهل غرناطة في ذلك الحصار، وحثَّهم على أن يتمرّدوا على أميرهم ويمتنعوا عن إعطائه الأموال التي كان بحاجة ماسّة إليها آنذاك لإنفاقها على الجيش على حَدِّ قول عبد الله نفسه: «ولقد كان القليعي المذكور في تلك المحلة يخاطب إخوانه بحضرتنا ألا يُعْطونا شيئاً، ويَعِدُهُمْ بما كـان، فلمّا كان يأتيهم الحَفَزُ مِنَّا يَقْعُدُونَ بنا، ونحن أحوج ما كنا إليه للإنفاق، لا سيما في تلك

(١) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ١١٧).
(٢) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٢٤٧)
(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء (ج٢ ص ٩٩)
(٤) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ١١٨).
(٥) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ١١٨)
(٦) ابن الخطيب الإحاطة (ج١ ص ١٤٨).

المحلّة التي عُدَّتُنا فيها الأقوات»[1] . كذلك أخذ يتوعّد أميره عبد الله أثناء ذلك الحصار: «وسمعْتُ وَعِيْدَ القليعي لي وجفاءه عليّ»[2] .

ولمّا تمادى ابن القليعي في مناصبته العداوة لعبد الله، قام عليه عبيد الأمير وأجناده، فخاف عبد الله من الغدر به، فأمر بحبسه في بيت بقرب القصر، وكان يُكْرِمه ويعتذر إليه من قيام العامّة، ويَعِدُهُ بإطلاق سراحه متى هدأت ثورة عبيده وجُنْده. ولمّا توطّدت الأحوال أمر بإخراجه من السجن، وطلب منه أن يضبط لسانه[3] . ويروي ابن الخطيب أنَّ حاشية عبد الله هَمُّوا بضرب ابن القليعي، إلاَّ أنَّ أُمَّ عبد الله تطارحت على ولدها، فأمر بتخليصه وسجنه في بعض بيوت القصر، ثم خافت على ولدها فيما بعد، عقاباً من الله بسببه، فلاطَفَتْه حتى أطلقه من سجنه. ولمّا تخلّص اغتنم الفرصة، واتّخذ الليلَ جَمَلاً، فطلع له الصباح بقلعة يَحْصِب التابعة للمعتمد ابن عباد، ومنها حَثَّ السَّيْر إلى قرطبة، فخاطب منها يوسف بن تاشفين وحَثّه على استصفاء ملوك الأندلس والاستيلاء عليها. ولمّا اتّصل الخبر بعبد الله، رَجَعَ باللائمة على أُمِّه[4]. وقال الأمير عبد الله إنَّ جُنْده امتعضوا من إطلاق سراحه وحذّروه من عاقبة ما أقدم عليه[5] .

كذلك استوزر عبد الله أبا حرب مقاتل بن عطية البِرْزالي، وهو من أهل غرناطة، ويلقب بذي الوزارتين، ويعرف بالرُّيُّه[6]؛ لحمرة كانت في وجهه. وكان من الفرسان الشجعان، وكان معه نحو من ثلاثمائة فارس من بني برْزال، وولاه عبد الله أيضاً على مدينة اليُسّانة. وكان قد حضر مع أميره وقيعة النَّيْبَل[7] Nivar في صدر سنة ٤٧٨ هـ/ نيسان ١٠٨٥ م، فأبلى فيها ابن عطية بلاء عظيماً، وجرح وجهه. وعندما

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١١٠)

(٢) المصدر نفسه (ص ١١٤).

(٣) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ١١٩).

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٤٩ ـ ١٥٠) وانظر أيضاً: Dozy Histoire des Musulmans d'Espagne (T 3, P. 141)

(٥) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١١٩)

(٦) مأخوذة من الكلمة الإسبانية («El rojo»، ومعناها الأحمر

(٧) لم نَهْتَدِ في الكتب التي بين أيدينا إلى الطرف الثاني الذي كانت معه هذه المعركة

تحقّق لعبد الله حركة المرابطين إليه، صَرَفه عن جهته، فقلَّ لذلك ناصرُه وأسرع ذهاب أمره[1].

ومن وزرائه أيضاً عبدُ الرحمن بن عبد الرزاق[2]. وقد أورد ابن سعيد اسمه عبد الرحيم بن عبد الرزاق[3]. كما استوزر أبا بكر بن مُسَكَّن، وكان أبو بكر يزعم أنه ينتمي إلى بني زيري ويفخر بذلك، ويرى أنْ لا فضل لأحدٍ عليه، فسعى لدى يوسف بن تاشفين للقضاء على أميره، على غرار ما فعله ابن القليعي، وبلغ من طغيانه على عبد الله وسَبِّهِ له حداً لا يطاق، رجاء أنْ يُسْهِمَه ابنُ تاشفين ما لعبد الله أو أكثر. ولمّا تشدّد عليه عبد الله وأمره بالكفّ عن مساوئه هرب وقصد ابن تاشفين، وأخذ يحضّه على عبد الله ويصوّر له الأمور بغرناطة على غير ما هي[4]. ومن وزرائه مُؤَمّل، وكان من عبيد باديس، وكان عنده دهاء وفطنة، ولمّا بلغه أن يوسف بن تاشفين قادمٌ لخلع أميره عبد الله، أشار على أميره بالخروج إلى يوسف إذا قرب غرناطة؛ لعدم تمكّن عبد الله من مقاومته وعدم قدرته على حربه، فاستشاط عبد الله غَيْظاً على مؤمل، وهَمَّ به، ففرَّ ليلاً إلى لوشة، وكان قائدها آنذاك رجل من أبناء عبيد باديس، فثار فيها مع قائدها على عبد الله ودَعَوَا لابن تاشفين، فبادر عبد الله الأمر، وبعث جيشاً إلى لوشة، وتغلّب عليها، وسِيْقَ مؤمل ومن كان معه في الحديد. وأنفذ إليه ابن تاشفين في حلِّ اعتقالهم، فأطلقهم. ولمّا مَلَكَ يوسف غرناطة قدّم مؤملاً على أملاكها وأموالها الأميرية وجعل بيده مفاتيح قصره. ونسبت إلى مؤمل بغرناطة آثار، منها السقاية بباب الفخارين، والحوز المعروف بحوز مؤمّل. وكانت وفاته بغرناطة في ربيع الأول من عام ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٨ م[5]. ويستحسن بنا أن نستشهد أخيراً بقول ابن الخطيب: كان عبد الله يستوزر الاغمار[6].

ومن كُتّابه ابنُ أضحى، وكان هذا الكاتب قد تآمر على أميره، فوقف إلى جانب

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة (ج٣ ص ٢٩٩ - ٣٠٠).
(٢) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٨٠٧)
(٣) ابن سعيد: المغرب (ج٢ ص ١١٥)
(٤) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٢٨).
(٥) ابن الخطيب: الإحاطة (ج٣ ص ٣٣١ - ٣٣٣).
(٦) المصدر نفسه(ص ٣٨٠)

المعتمد ابن عباد وأخذ يعرّفه على عورات غرناطة ويزيّن له احتلالها[1]. وابنُ البَرّاء[2]. وابن أبي خيثمة[3]، وأغلب الظن أنه هو نفسه أبو بكر أحمد بن زهير بن حرب، المعروف بابن أبي خيثمة، الذي ذكره ابن خير مُصَنِّفاً لكتاب تاريخ هام[4].

ومن قضاته الشيخ الفقيه أبو الأصبغ عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي، وأصله من جيان، وسكن قرطبة، وتولّى الشورى بها مدّة، ثم ولي القضاء بالعُدْوة، ثم اسْتُقْضي بغرناطة. وكان من جلّة الفقهاء، وكبار العلماء، حافظاً للرأي، بصيراً بالأحكام، متقدماً في معرفتها، وقد جمع فيها كتاباً حسناً مفيداً يعوّل الحكام عليه. ولمّا استقرّ يوسف بن تاشفين بسبتة يروم عبور البحر برسم الجهاد في الأندلس، وجه إليه الأمير عبد الله قاضيه ابن سهل رسولاً ليهنئه على سلامته ويتلقّى قدومه إلى الأندلس بالرحب، ويعلمه أن عبد الله سارع إلى ما يذهب إليه في جهاده، غير مخالف له. وحين تحقق لابن سهل، من خلال الكتاب الذي بعثه عبد الله معه إلى يوسف، أنَّ جُنْدَ غرناطة وأهلها قد خرجوا على طاعة عبد الله، قدّم نفسه عند يوسف وتقربّ إليه وأعلمه أنَّ غرناطة تطيع كلها له وليس فيها عليه مخالف. ولمّا عاد ابن سهل إلى غرناطة، صرفه عبد الله عن القضاء لعلمه بتآمره عليه، فالتزم ابن سهل داره إلى أن وافته المنيّة يوم الجمعة، ودفن يوم السبت الخامس من محرم سنة ٤٨٦ هـ/ شباط ١٠٩٣ م، عن عمر يناهز ثلاثاً وسبعين سنة[5].

ومن قضاته أيضاً أبو علي الحسن بن عبيد الله الحَضْرمي، وهو من أهل غرناطة، وقد ولي القضاء بها، ثم عزل عنه. وكونه مقرئاً، فقد أقرأ الناس بالمسجد الجامع بغرناطة إلى أن توفي سنة ٤٨٦ هـ/ ١٠٩٣ م[6]. وأبو علي الحسن بن محمد بن الحسن النباهي، وقد اسْتُقضي بغرناطة، وكان من أهل النباهة والجلالة، وكانت وفاته عام ٤٧٢ هـ/ ١٠٧٩ م[7].

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٧٠).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٣٧).

(٣) المصدر نفسه (ص ١٥٨)؛ ابن الخطيب. الإحاطة (ج٣ ص ٣٣٢).

(٤) ابن خير. فهرسة ابن خير (ص ٢٥١ ـ ٢٥٢).

(٥) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٤٥ ـ ١٤٦)؛ ابن خير. فهرسة ابن خير (ص ٥٦٩)؛ ابن بشكوال. الصلة (ص ٦٣٥)؛ النباهي. المرقبة العليا (ص ٩٦ ـ ٩٧).

(٦) ابن بشكوال: الصلة (ص ٢٢٥).

(٧) المصدر نفسه.

سادساً ـ نهايته:

قبل الحديث عن نهاية عبد الله، نشير إلى أنه رُزق الولد في الخمول، فعاش له ابنان وبنت، جمع لهم مالاً جَمّاً[1]. وكان جباناً، مُغْمِدَ السيف، متكاسلاً عن الخيل، موصوفاً بالضعف، قَلِقاً، مفرط الجزع، زاهداً في النساء، يخلد إلى الراحات. وقد حاز حظاً وافراً من البلاغة والمعرفة، وكان حسن الخط، أديباً شاعراً جيد الشعر والكتابة. ألّف كتاباً وهو في منفاه بأغمات، سَرَدَ فيه تاريخ بني زيري منذ تسلّمهم الحكم حتى الإطاحة بعرشه، وأسماه بكتاب «التبيان»[2]. وقد جعله أشباخ ملكاً ذكيّاً شجاعاً[3]. ويمكننا أن نستشفّ من خلال قراءة كتابه «التبيان» أنه كان يجنح إلى السلم والدَّعة، ويتجنّب الحروب ما أمكنه ذلك، وقد شكر ربَّه في آخر هذا الكتاب على نجاته من المصير الذي حلَّ بالمتوكل ابن الأفطس صاحب بطليوس مع ولديْه[4].

وكانت نهايته على يد يوسف بن تاشفين المرابطي؛ فَضَمُّ الأندلس إلى المغرب بعد خَلْع أمرائها خطةٌ وضعها ابن تاشفين في دائرة تفكيره وسَعَى إلى تنفيذها منذ انتصاره على النصارى في معركة الزلاقة. وقد أثار هذا الانتصار شهوة التسلّط على بلاد الأندلس وضمِّها إلى مملكته؛ يروي عبد الواحد المراكشي أن ابن تاشفين، عقب انتصاره في الزلاقة، أحبَّ أن يجول في مدن الأندلس، بحجّة التفرّج والتنزّه، وهو يريد غير ذلك، فجال فيها ونال ما أحبّ[5]. وقد اعترف بطمعه في تلك البلاد، فأسرَّ لبعض ثقاته من وجوه أصحابه بالقول: «كنت أظن أني قد ملكْتُ شيئاً، فلمّا رأيت البلادَ (أي الأندلس): صَغُرَتْ في عيني مملكتي، فكيف الحيلة في تحصيلها؟»[6]. وهكذا أعجبه حسن الأندلس وبهجتها وما بها من المباني والبساتين والمطاعم وسائر أصناف الأموال التي لا توجد في مراكش، فطابت له تلك البلاد وعمل على ملكها[7].

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة (ح٣ ص ٣٨١).

(٢) المصدر نفسه (ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٥)

(٣) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٣٣).

(٤) راجع مذكرات الأمير عبد الله لابن بلقين (ص ١٧٦).

(٥) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ١٣٥).

(٦) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ١٣٨)

(٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٥ ص ٣٠) و (ج٧ ص ١٢٨)؛ ابن عذاري. البيان المغرب (ح٤ =

وقد عزم ابن تاشفين على خلع أمراء الأندلس، على أن يبدأ بعبد الله، وذلك بعد أن تكاملت لديه معطيات عدّة صَبَّتْ كلُّها في خانة خطّته المرسومة وعملت على إنجاح مشروعه التوسّعي. وأول تلك المعطيات اختلافهم فيما بينهم ومواطآتهم للنصارى، وخير ما يؤكّد ذلك قول الأمير عبد الله نفسه: «فنحن لم يُعِنْ بعضنا بعضاً على الرومي»[1]. وثاني المعطيات فساد الحال ما بينه وبينهم إثر ظهوره على ألفونسو في الزلاقة[2]. وثالثها حقده عليهم لِمَا نُقِلَ عنهم أثناء محاصرة حصن أليبط من كلام أوغر صدره عليهم[3]. ورابعها كثرة المؤامرات التي حاكوها ضده[4]. وخامسها إيثار هؤلاء الأمراء الراحة ـ بحيث كانت هِمّة أحدهم كاس يشربها وقَيْنَةٌ تُسْمِعُه ولَهْوٌ يقطع به أيامه ـ وغفلتهم وتخاذلهم أمام ضربات العدو، وإهمالهم لغزو بلاد النصارى لاستعادة ما فقدوه وخاصة مدينة طليلطة التي سقطت في يد ألفونسو عام ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م[5]. ولا بُدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ القائد المرابطي سِيْر بن أبي بكر، الذي تركه ابن تاشفين بالأندلس مع جيش مرابطي برسم غزو الإفرنج بعد معركة الزلاقة، أرسل إلى ابن تاشفين كتاباً يذكر فيه أن جيشه يقاتل العدوّ بالثغور الأندلسية، وأن ملوك الطوائف مُلْتَهُوْن بأطايب الدنيا وملذّاتها وبأرغد العيش وأطيبه[6].

وسادس هذه المعطيات إرهاق الرعية بالضرائب؛ يروي ابن خلدون أن فقهاء الأندلس طلبوا من ابن تاشفين أثناء وجوده بالأندلس أنْ يضغط على ملوك الطوائف ليرفعوا المكوس عن الرعية، فتقدَّم بذلك إليهم، فأجابوه بالامتثال، ولمَّا رَجَعَ إلى بلده رَجَعُوا إلى حالهم[7]. وسابعها ما كان أهل الأندلس يلاقُوْنه من حكامهم من

= ص ١٢٧)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٦٣)؛ المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٣٧٣)؛ ابن العماد: شذرات الذهب (ج٣ ص ٣٦٢)

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٦٦).

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة (ج٢ ص ١١٦)

(٣) مجهول: الحلل الموشية (ص ٥٠ ـ ٥١)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٤ ص ١٤٣)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثالث ٢٥٠)

(٤) Prieto Y Vives: Los Reyes de Taifas (p 30).

(٥) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ١٦٢ ـ ١٦٣).

(٦) المقري نفح الطيب (ج٤ ص ٣٧٠)

(٧) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤١ ـ ٢٤٢) و(م ٦ ص ٣٨٣). وانظر أيضاً نفح الطيب للمقري (ج١ ص ٤٣٩) والاستقصا للناصري (ج٢ ص ٥٥).

مختلف أنواع القهر والظلم والاستبداد، وقد تزعَّم الفقهاء حركة احتجاج الرعية. يروي الأمير عبد الله أن أهل غرناطة لم يكونوا أثناء حصار أليبط راضين عن سياسته، إذ كان الراضي منهم يلتمس الزيادة، والساخط عليه يرجو الانتقام منه، وأخذوا يَشْكُونَ إلى ابن تاشفين سوء معاملته إياهم، وذلك عن طريق فقهاء بلدهم، وعلى رأسهم ابن القليعي[1]. ويعزو عبد الواحد المراكشي سبب دخول المرابطين الأندلس إلى المعتمد ابن عباد ملك إشبيلية: «لأنَّ ملك إشبيلية هو الذي كان السبب في دخول يوسف بن تاشفين مع المرابطين الأندلس»[2].

إضافة إلى ما ذكرناه، فقد كان لفقهاء الأندلس دور هامٌّ في خلع أمراء الطوائف وضَمِّ الأندلس إلى المغرب. وقد ذهب بروكلمان إلى أنهم مكّنوا ابن تاشفين من تحقيق خطّته للاستيلاء على بلاد الأندلس[3]. وكان هؤلاء الفقهاء قد استغلّوا رابط الدين الذي كان يجمع بينهم وبين المرابطين؛ فما إن قدم المرابطون إلى الأندلس حتى بدأت تتعمّق علاقاتهم بهم، فانتهزوا الفرصة المناسبة ليَشْكُوا إليهم معاملة الحكّام للرعيّة، ويتزعّموا تمرّد أهل الأندلس على حكّامهم ويفْتُوا بوجوب خلع الأمراء وفي مقدمتهم عبد الله وأخوه تميم؛ ليكون لهم فيما بعد باعٌ طويل في تسيير دفّة الحكم. ولكي تتّسع هوّة الخلاف بين أمراء الطوائف والمرابطين، فقد سَعَوْا إلى تحريض العامّة على الامتناع عن دفع ما يتوجّب عليهم لسدِّ نفقات الجند أثناء حصار حصن أليبط[4]. كما شَكَوْا إلى ابن تاشفين عجز حكّام الأندلس وضياع هيبتهم أثناء ذلك الحصار، فأعار ابن تاشفين شكاواهم أذناً صاغية[5]. وأفتوه بخلع أمراء الطوائف وانتزاع الأمر من أيديهم، وشارك في تلك الفتاوى أهل الشورى من الأندلس والمغرب والمشرق[6]. وكان ابن القليعي، فقيه غرناطة، قد اتصل بابن تاشفين وأفتى له بخلع هؤلاء الأمراء واتّصل بفقهاء الأندلس، وحثّهم على الأمر نفسه، على أن يبدأ بعبد الله

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٩).
(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ٩٣ - ٩٤).
(٣) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٣٢١ - ٣٢٢).
(٤) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٠٩ - ١١٠)
(٥) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٣٢١).
(٦) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٨٤).

وأخيه تميم [١]. وقد قدّم هؤلاء الفقهاء تلك الفتاوى لابن تاشفين بناء على طلبه [٢].

ووقف أهل الأندلس بجانب فقهائهم بعد أن قابلوا بين وَرَعَ ابن تاشفين وبين ترف ملوكهم وقلة اعتدادهم بالدين، فسهلوا بذلك الطريق علىٰ ابن تاشفين لاحتلال بلادهم وإخضاعها للمغرب [٣]. وقد زاد تعلّق أهل الأندلس بابن تاشفين منذ أن أظهر لأول أمره الدفاع عنهم وحماية حدود بلادهم [٤]، وأخذوا يـدسّون إليـه السعايـات بملوكهم، إلى أن شرع في خلعهم [٥]. فجاز الجواز الثالث إلى الأندلس في عام ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م برسم الجهاد، فسار حتى نزل على طليطلة وحاصر بها ألفونسو، فهتكهـا وقطع ثمـارها، وخـرَّب أحوازهـا، وقتل وسبى، ولـم يَـأْتِهِ أحـدٌ من ملوك الأندلس، فغاظه ذلك، فلمّا رجع من غزو طليطلة عمد إلى غرناطة ونازلها [٦]. وروى صاحب الحلل الموشية أنه عند وصول ابن تاشفين إلى الجزيرة الخضراء في العام المذكور، وافاه المعتمد ابن عباد كعادته من التضييف والتكريم [٧]. وروى ابن خلّكان أنّ ابن تاشفين قصد في هذا الجواز الثالث قرطبة، فوصلها في جُمادى الأولى من السنة المذكورة، وقد سبقـه إليها المعتمد، فخرج إليـه بالضيـافة على عـادته [٨]. واعتمد ابن الخطيب على نص ابن خلكان دون أن يشير إلى دور المعتمد في استقبال ابن تاشفين [٩]. وروى أيضاً أن ابن تاشفين تحرّك في العام المذكـور لخلع رؤساء الأندلس، فأجاز البحر، ويمّم قرطبة فغرناطة [١٠]. وكان يهدف، بعد القضـاء على دويلات الطوائف، إلى تشكيل جبهة أندلسية مغربية متّحدة تقف بحزم بوجه خطر ألفونسو وتهديداته المتزايدة [١١].

---

(١) Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne (T 3, P 141)

(٢) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٣٢٢)؛ Huici Miranda: El Sitio de Aledo (P. 47)

(٣) دائرة المعارف بإدارة الدكتور فؤاد أفرام البستاني (م ٥ ص ٢٣٩).

(٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب (ص ١٦٢).

(٥) ابن الخطيب أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٤٧)

(٦) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٩)، الناصري. الاستقصا (ج٢ ص ٥٢ ـ ٥٣)

(٧) مجهول: الحلل الموشية (ص ٥٠ ـ ٥١). وانظر أيضاً البيان المغرب لابن عذاري (ج٤ ص ١٤٣)

(٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٧ ص ١٢٨).

(٩) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٥٠).

(١٠) نفسه. الإحاطة (ج٣ ص ٣٨٠)

(١١) سالم: المغرب الكبير (ص ٧٣١).

وهكذا نوى ابن تاشفين هذه المرة أن يقضي على ملوك الطوائف، على أن يبدأ بعبد الله بن بلقين وأخيه تميم. ولمّا علم عبد الله بوصول الأمير المرابطي مع جيوشه إلى سبتة، شعر بأن هبوب رياح التغيير متجهة نحوه، فأرسل إليه رسولين هما القاضي ابن سهل وباديس بن واروي، لتهنئته بقدومه وتقديم ما يلزم في جهاده، فخانا أميرهما، ونَصَحَا ابنَ تاشفين بأن يبدأ باحتلال غرناطة، وعادَا إلى غرناطة وأخبرَا عبد الله بأنَّ ابن تاشفين لا يكلف أحداً إلّا طاقته، وكان ذلك دهاءً ومَكْراً من ابن تاشفين نفسه[1].

ولكي يتجنّب ابن تاشفين تدخّل ملوك الطوائف لصالح عبد الله، فقد وعد كبيْرَهُم المعتمدَ ابن عباد بإعطائه غرناطة بعد احتلالها، وقال له: «أنا رجل مغربيٌّ، وليس قَدَّمني أخذُ مالٍ ولا بلادٍ، وقد ترى ما رُفِعَ على صاحب غرناطة، ونتوقّع عليها من الروميّ. وليس غرضي أكثرَ من تخليصها؛ فإذا صارتْ في يدي ولا يُمْكنني إمساكها؛ لِبَيْنِ بلاد الأندلس من العدْوة، وَضَعْتُها عند ذلك في يدك، فتكونُ أعلمَ بما تصنعُ بها وأَقْعَدَ لِمَا يُصْلِحُ المسلمين»[2].

وقبل أن يتحرّك ابن تاشفين من قرطبة إلى غرناطة، بعث إلى أميرها عبد الله بكتاب يطلب منه فيه أن يُقْبل إليه دونما تأخير، فاعتذر عبد الله من المجيء بنفسه، وأرسل إليه رسولين هما ابن حجّاج وابن ما شاء الله، وساعة وصولهما إليه اعتقلهما وأمر بثقافهما وقال لهما مهدّداً أميرهما بغزو غرناطة: «بالله، إنِّي غَزَوْتُه كما نغزو ألفونش، والذي يَقْدِرُ عليه فَلْيَصْنَعْ»[3].

ولمّا شعر عبد الله بالخطر يتهدّده طلب العون من أقرانه أمراء الأندلس، منطلقاً من مواقفهم السابقة حيث أرسلوا إليه رُسُلَهُمْ يحضُّونه على التجلّد وعدم الاستسلام، فبعث إليهم بكتب يُعْلمهم فيها أنَّ الأمر مُنْجَرٌّ إليهم، واليومَ به وغداً بهم، فلم يأبهوا لكلامه، وعرضوا كتبه على ابن تاشفين، فكُتِبَت الأجوبة بإملائه وأُرْسِلَتْ إلى عبد الله تتضمّن تهديداً له ووعيداً. وكان هؤلاء الأمراء قد تركوا عبد الله وحده يناهض

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٤٦)

(٢) المصدر نفسه (ص ١٦٤ ـ ١٦٥)

(٣) المصدر نفسه (ص ١٤٧).

المرابطين؛ فإذا انتصر سلموا من القتال، وإذا انكسر تجنّبوا إفساد الحال مع ابن تاشفين(١).

ووجّه ابنُ تاشفين إلى غرناطة أربع فرق من جيشه، ثم قصدها بنفسه لمنازلة صاحبها عبد الله، ونزل عسكره بمقربة من الحاضرة غرناطة، وطال الحصار دون أن تمتدَّ أيدي الجنود المحاصرين إلى السرقة، فَسُرَّ الناسُ بذلك واستبشروا خيراً(٢).

وأثناء الحصار أرسل ابنُ تاشفين بعضَ قوّاده إلى عبد الله لأخذ القُوْت والعلف منه، فأجابهم إلى طلبهم وأرسل زيادة على ذلك مالاً لابن تاشفين مع جماعة من فقهاء غرناطة يُعْلمونه بأنه غير مخالف عليه، فبعث إليه ابنُ تاشفين بكتاب مع الفقيه ابن سعدون يخبره فيه أنْ لا طاعة ولا صلح إلاَّ بالخروج إليه، وأنَّ الأمان في النفس وللأهل دون المال. ويقول له في آخر الكتاب: «إنْ كنتَ استوْحَشْتَ من النـزول إلينا، فَتَخَيَّرْ من بلادك موضعاً تصير فيه، ولْتَكُنْ غيرَ غرناطة»(٣). وقال ابن أبي زرع: لما وصل ابن تاشفين إلى غرناطة تحصَّن منه عبد الله وأغلق الأبواب في وجهه(٤).

وقد وصف الأمير عبد الله الحالة داخل العاصمة غرناطة أثناء ضرب الحصار عليها بقوله: «أما الجُنْدُ من البربر، فكانوا مُغْتبطين بهم (أي بالمرابطين)، طامعين في الزيادة على أيديهم للجنسية... ومن كان من التجار، وأهل البلد، فكانوا على نيّة أنهم مع مَنْ سَبَقَ، ولا طاقة لهم بالحرب، ولا هُمْ أهْلُهْ، وأَكْثَرُهُمْ خَرَجَ من البلدة... وأمّا الرعيّة، فَبخٍ بَخٍ (٥)، وذلك ما كانت تبغي، طمعاً منها في الحرية، وأنها لا يُلْزِمُها(أي لا يُلْزِمُها ابنُ تاشفين) غيرَ الزكاة والعُشْر. وأمّا الرَّقّاصة من المغاربة، الذين كانوا عِمَادَ الحضرة وبهم كُنّا نُمْسِكُ الحصون، فهم أول من طاع... وأمّا العبيدُ والصقالبة، فالعبيدُ الأعلاجُ أولُ مَنْ عَصَا... رَجَوْا أنْ يكونوا عنده في أعلى مرتبة... حتى الخدم من النساء والخِصْيان؛ كلٌّ طامعٌ في إقبال الدنيا

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٦٦).

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة (ج٣ ص ٣٨٠) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٥).

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٤٩).

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ٩٩ ـ ١٠٠). وانظر أيضاً الاستقصا للناصري (ج٢ ص ٥٣).

(٥) بَخٍ: اسم فعل مضارع بمعنى: يعظم الأمرُ ويستحسن.

عليه والخروج عن ثِقَاف القصر إلى راحة التسريح والاستهتار بالرجال وما أشبه ذلك»[1].

وأرسل ابنُ تاشفين كتباً إلى اليُسّانة Lucena وجميع حصون غرناطة الغربية يدعوها إلى الطاعة، فلم يَرِدْ كتاب على معقل منها إلا واستسلم وقام أهله على إخراج قائدهم منه، وإذا امتنع حِصْنٌ منها قاتلته الرعيّة إلى جانب المرابطين حتى يستسلم، فتناثرتْ بذلك المعاقلُ كلُّها كانتثار حَبّات العِقْد. ولمّا وصل ابن تاشفين إلى حِصْن بَلِيْلُّش Velillos أدركَ عبد الله أن أهل تلك الحصون خرجوا عن طاعته، وأنْ لا طاقة له على مقاومة المرابطين وأهل تلك الحصون معاً، ورأى أن سقوط غرناطة بات على قابِ قَوْسَيْنِ أو أدنى. وبرغم ذلك، لم يجرؤْ على الاستنجاد بالملك الإسباني ألفونسو السادس خوفاً من ردّة فعل أهل غرناطة من جهة، ولأنَّ في ذلك فساداً في الدين واستعجالاً للمكروه[2].

ولما اقترب المرابطون من الحاضرة غرناطة، تردد عبد الله بين إغلاقها في وجوههم وبين الخروج إلى لقاء سلطانهم يوسف بن تاشفين[3]. وبعد أن رأى نكول أهل بلده عن الدفاع عنه، استشار أُمَّه ومن يثق بهم من وزرائه، فأشاروا عليه بالخروج إلى ابن تاشفين والاستسلام له، فتقدَّمُ نحوه برفقة أمه، وعند وصوله إليه، على بعد فرسخين من مدينة غرناطة، ترجّل عن فرسه وسلَّم عليه وسأله العفو، فعفا عنه، وطلب أن يوضع في مَضْرِبٍ عُيِّنَ له، ثم أمر بثقافه في القصر، فجعلوا كبلاً ثقيلاً في رجله، ودخل ابن تاشفين غرناطة بهذا الغدر، وسُرَّ أهل غرناطة بذلك، وخرجوا، وبايعوا ابن تاشفين وأعلنوا له الطاعة[4]. وروى ابن أبي زرع أنه لمّا رأى عبد الله تمادي الحصار، بعث إلى ابن تاشفين بالأمان، فأمنه، وأسلم إليه غرناطة، فملكها وملك جميع أحوازها وأعمالها[5]. واكتفى الأمير عبد الله بالقول: لمّا رأيْتُ أن الخروج إلى ابن تاشفين أَوْلَى، خرجْتُ إليه كأنني أُسَاقُ إلى الموت، وتوكَّلْتُ على

---

(١) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٥٠ ـ ١٥١).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٤٨ ـ ١٤٩)

(٣) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٩٣).

(٤) ابن الكردبوس. تاريخ الأندلس (ص ١٠٤ ـ ١٠٥)، ابن الخطيب. الإحاطة (ج ٣ ص ٣٨٠) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٥).

(٥) ابن أبي زرع الأنيس المطرب (ص ١٠٠) وانظر أيضاً. الاستقصا للناصري (ج٢ ص ٥٣)

القدر، ولمّا لَقِيَني سُرَّ بذلك وأقسم لي على الأمان في نفسي وأهلي، ثم أمر بمراقبتي إلى أن يقف على أموالي[1]. ويروي صاحب الحلل الموشية أن عبد الله لقي ابن تاشفين خارج الحاضرة، فسلَّم عليه، ثم دخل وإياه غرناطة، وسلّم إليه الأمر[2]. ويخبرنا ابن خلدون أن ابن تاشفين استولى على غرناطة عَنْوَةً، وتَقَبَّض على صاحبها عبد الله، واستصفى أمواله وذخيرته[3]. ويقول ابن الأثير وابن خلكان والمَقَّري إن ابن تاشفين غدر بعبد الله وأخذ منه غرناطة وأخرجه منها، ودخل قصره[4]. وقد تمادى حصار المرابطين لغرناطة مدة شهرين[5].

وقد اختلف المؤرخون في تحديد التاريخ الذي دخل فيه المرابطون غرناطة، وأَكثرهم حجة عبد الله بن بلقين؛ لأنه هو الذي تنازل عن مملكته لابن تاشفين، وهو أعرف من غيره بتحديد اليوم الذي سلَّم فيه غرناطة، فيقول إن المرابطين دخلوها في الثاني والعشرين من شهر رجب سنة ٤٨٣ هـ أيلول ١٠٩٠ م[6] ويقول ابن الخطيب: تملّك ابنُ تاشفين غرناطة يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب عام ٤٨٣ هـ[7]. ويقول أيضاً: «خَلْعُ عبد الله بن بلقين، حفيد باديس، يوم الأحد عشرة ليلة خلت من شهر رجب سنة ٤٨٣ هـ».[8] ثم يقول: تملّك ابن تاشفين مدينة غرناطة في منتصف رجب من عام ٤٨٣ هـ[9]. ثم يناقض نفسه فيقول: استولى ابن تاشفين على ملك عبيد الله بن بلقين بغرناطة وملك أخيه بمالقة في سنة ٤٠٤ هـ/ ١٠٩١ م[10]. ويكتفي ابن خلدون والقلقشندي بالقول: نَزَلَ ابن تاشفين بغرناطة عام

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٥١ ـ ١٥٤)

(٢) مجهول: الحلل الموشية (ص ٥١) وانظر أيضاً البيان المغرب لابن عذاري (ج٤ ص ١٤٣)

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٧٠)

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ١٥٥)؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٥ ص ٢٩)، المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٣٧٣).

(٥) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب (ص ١٠٠)، الناصري. الاستقصا (ج٢ ص ٥٣).

(٦) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٧٠)

(٧) ابن الخطيب الإحاطة (ج٢ ص ١١٨) وانظر أيضاً الإعلام بمن حلَّ مراكش وأغمات من الأعلام لعباس بن إبراهيم المراكشي، المطبعة الجديدة بفاس، الطبعة الأولى، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ (ج٢ ص ٣٢٠)؛ Huici Miranda El Sitio de Aledo (P. 42)

(٨) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ٢٣٦).

(٩) نفسه. الإحاطة (ج٤ ص ٣٥٣)

(١٠) نفسه أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٥٠)

٤٨٣ هـ وقبض على صاحبها عبد الله [(١)]. ويجعل ابن الأثير زوال حكم عبد الله في رجب عام ٤٨٤ هـ [(٢)]. وبدوره يؤرّخ أبو الفداء خروج عبد الله من غرناطة على يد ابن تاشفين سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م [(٣)]. ويؤيّده ابن الوردي في تحديد هذا التاريخ [(٤)] ويضيف أبو الفداء: ذكر صاحب تاريخ القيروان أن ابن تاشفين أخذ غرناطة في سنة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨١ م [(٥)]. ويقول الذهبي: أخذ ابن تاشفين غرناطة من عبد الله سنة بضع وثمانين وأربعمائة [(٦)].

وهكذا تكون غرناطة أول ما ملكه المرابطون من الأندلس، ويكون عبد الله أول ملك يخلع من ملوك الطوائف [(٧)].

ثم أرسل ابن تاشفين الفقيه ابن سعدون إلىٰ عبد الله يطلب منه إحضار الأموال التي بحوزته والتي تركها في داره، فأخرج عبد الله وعاء ذهبٍ فيه عشرة عقود من أَنْفَسِ الجوهر، وذهباً مبلغه ستة عشر ألف دينار مرابطية، وخواتم. ولم يقتنع قُرُوْرٌ المرابطي بهذا القَدْر من المال، فأخذ يشكُّ في أن يكون عبد الله وأمه قد خبّا خيرة الجواهر

---

(١) ابن خلدون تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٦) و (م٦ ص ٣٧٠)، القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٤٨ - ٢٤٩).

(٢) ابن الأثير. الكامل في التاريخ (ج٩ ص ٢٩٢)

(٣) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ١٩٨)

(٤) ابن الوردي. تتمة المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ٨).

(٥) أبو الفداء المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ١٩٨).

(٦) الذهبي. سير أعلام النبلاء (ج١٨ ص ٥٩٢).

(٧) أبو الفداء المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ١٩٨)؛ ابن الوردي. تتمة المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ٨)، Lafuente y Alcántara: Inscripciones árabes de Granada (P 20)

وتجدر الإشارة هنا إلى أن غرناطة ظلت خاضعة للمرابطين حتى عام ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م، وقيل حتى عام ٥٥١ هـ/ ١١٥٦ م حيث انتقلت إلى الموحدين، ثم سقطت في أيدي بني الأحمر في سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م، وقيل سنة ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨ م، إثر مقتل ابن هود سنة ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٧ م على يد محمد ابن الأحمر. وسقطت أخيراً في أيدي ملكَيْ قشتالة وأراغون، فرديناند الثاني وزوجته إيزابيلا، إثر حصار طويل في ٢ ربيع أول عام ٨٩٧ هـ/ ٢ كانون الثاني ١٤٩٢ م. وهي اليوم ولاية ومدينة. راجع في ذلك المغرب لابن سعيد (ج ٢ ص ١٠٨ - ١٠٩) والإحاطة لابن الخطيب (ج١ ص ١٤٠ - ١٤٢) ونفح الطيب للمقري (ج٤ ص ٥٢٥) ونهاية الأندلس لعنان (ص ٤٧٢) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (ص ٣٤٣) وتاريخ العرب لحتي وجرجي وجبور (ص ٥٨٦) و Encyclopédie de l'Islam (T 11, P 1036, 1038)

تحت الأرض أو في ثيابهما، فأمر بحفر الأرض التي عليها الخباء، وأمر بنزع ثياب عبد الله، وجعل يفتّش بمخدات الصوف، وكان كلّما استحسن ثوباً أو حاجةً أخذها لنفسه، وأمر والدة عبد الله بالصعود إلى القصر لاستخراج المال، فأعطته كلَّ ما عندها، وهي سُبَيْبَاتٌ[١] لبعض جواريها كانت قد أَوْدَعَتْها عند خادمة ابن أبي خيثمة كاتبِ عبد الله، وأربعة آلاف مِثْقال ذهباً، وحَلْياً يقدَّر بخمسة عشر عِقْداً كانت مودوعة عند ابن الزيتوني القروي[٢].

ويروي ابن الأثير أنّ ابن تاشفين دخل قصر عبد الله فدهش لِمَا رآه فيه من أموال وذخائر لم يَحْوِها ملك قبله بالأندلس، ومن جملة ما وجده سُبْحَةٌ فيها أربعمائة جوهرة قُوِّمَتْ كَلُّ جوهرةٍ بمائة دينار، وجواهر ذات قيمة جليلة، وثياب وعُدَد، وغير ذلك[٣]. ويكتفي ابن خلكان والمقري بالقول: دخل ابن تاشفين قصر عبد الله فوجد فيه من الأموال والذخائر ما لا يُحَدُّ ولا يُحْصَى[٤].

ويقول ابن الخطيب إن ابن تاشفين أمر بإحضار ما كان نقله عبد الله إلى حِصْن المُنَكَّب، وما كان أبقاه في قصره بغرناطة. فما كان في قصره فهو عبارة عن أعلاق وذخيرة، وحُلي، ونفيس الجوهر، وأحجار الياقوت، وقصب الزُّمُرُّد، وآنية الذهب والفِضّة، وأطباق البَلُّور المُحْكَم، والعراقيّات، والثياب الرفيعة، والكِلَل[٥]، والستائر، وأوطية الديباج، وما كان في المُنَكَّب فهو عبارة عن أحمال السَّبيك والمَسْبُوْك، وقد حملتها إلى غرناطة دوابُّ الظهر[٦].

ويقول دوزي إن ما جمع من القصر عبارة عن جواهر وألماس وأوانٍ بِلَّوْرية وذهب ومال، وسُبحَة من أربعمائة جوهرة[٧].

---

(١) السُّبَيْبَات: تصغير سُبُوْب وهي جمع سِبّ وهو الخِمار والعِمَامَة وشقة كَتّان رقيقة، وقيل: السُّبُوبْ هي الثياب الرقاق.

(٢) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٥٥ ـ ١٥٨).

(٣) ابن الأثير. الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ١٥٥).

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٥ ص ٢٩ ـ ٣٠)؛ المقري. نفح الطيب (ج٤ ص ٣٧٣).

(٥) الكِلَلُ أو الستور المكلّلة هي نوع من المنسوجات الحريرية، وهي خفيفة رقيقة تردان بالزخارف النباتية والأزهار التي تشبه الأكاليل. سالم تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية (ص ١٥٨).

(٦) ابن الخطيب. الإحاطة (ج٣ ص ٣٨١).

(٧) Dozy. Histoire des Musulmans d'Espagne (T. 3, P. 144).

وقَدِمَ المعتمدُ ابن عباد على ابن تاشفين بصحبة المتوكل ابن الأفطس لتهنئته بسقوط غرناطة، فدخل عليه وهنّأه، وطلب منه أن يفي بوعده فيعطيه غرناطة، إذ كان الطمع قد تحكّم في نفسه في إسلام غرناطة إلى ابنه الراضي يزيد عوضاً عن الجزيرة الخضراء التي كان قد تنازل عنها لابن تاشفين عام ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م، فرفض ابن تاشفين طلبه وأعرض عنه، فانصرف والمتوكل، وأدركه الندم على استدعاء المرابطين من قبل، وأخبر المتوكل أن ابن تاشفين سيسقيهما من الكأس التي أسقى منها عبد الله، وأخذ في بناء الأسوار، وعمل القنطرة استعداداً لمقاتلة المرابطين[١]. وقيل إن المعتمد والمتوكل لم يلتقيا ابنَ تاشفين، إذ نـزَلَا بالمشيخة من خارج غرناطة، فرابهما الأمر، فتعجّلا الرجوع إلى بلديهما بحيلة دَبَّراها[٢]. ويقول دوزي إن المعتمد والمتوكل توجّها إلى غرناطة لتهنئة يوسف بن تاشفين، وأرسل المعتصمُ ابن صمادح ابنه عزَّ الدولة أبا مروان عبيد الله للغرض نفسه، فاعتقل يوسفُ عزَّ الدولة، ثم تمكّن عزُّ الدولة من الفرار متنكّراً. وعندما عاد المعتمد والمتوكل إلى بلديهما وَجَّهَا دعوة إلى أمراء الأندلس لعقد حلف لمقاومة ابن تاشفين، ثم أجريا اتصالات مع ألفونسو وتحالَفَا معه ضد المرابطين[٣].

ويروي ابن الأثير والمقري أن ابن اللبّانة الداني كان يوماً عند الرشيد بن المعتمد ابن عباد في مجلس أنسه، فورد الخبر أنَّ ابن تاشفين أخذ غرناطة، فتفجَّع الرشيدُ وتلهّف، واسترجع وتأسّف،واستحالت مسرّته، وتَجَهَّمَتْ أَسِرَّتُه، وذكر قصر غرناطة[٤].

واتفق المؤرّخون على أن عبد الله نُفي إلى المغرب، ولكنهم اختلفوا في تعيين المكان وتحديده؛ فمنهم من قال إنه أغمات، ومنهم من قال إنه مراكش، ومنهم من قال إنه السوس الأقصى. وفي مذكراته، حدّد عبد الله أغمات منفاه الأخير، فروى أن قَرُوْراً المرابطي أمره بالنهوض إلى الجزيرة الخضراء بعد أن أعطاه ثلاثمائة دينار وخمس دواب لنقل الأثاث، وطلب منه أن ينتظر بالجزيرة حتى يَرِدَ عليه ابنُ تاشفين،

---

(١) مجهول: الحلل الموشية (ص ٥١ ـ ٥٢)، ابن خلكان. وفيات الأعيان (ج٧ ص ١٢٨)؛ ابن عذاري: البيان المغرب (ج٤ ص ١٢٧، ١٤٣ ـ ١٤٤)؛ ابن الخطيب: الإحاطة (ج٢ ص ١١٨)

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة (ج٣ ص ٤٦).

(٣) Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne (T. 3, P. 145)

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ١٨٨)؛ المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٩٤ ـ ٩٥).

ثم أُرْسِلَ إلى سبتة وطَلِبَ منه أيضاً أن ينتظر فيها ابنَ تاشفين، ثم نُقِلَ إلى مِكْناسة الزيتون حيث تلقّاه القائدُ المرابطي سِيْرِبن أبي بكر وأخبره أن مُقامه عنده إلى أنْ يَرِدَ ابنُ تاشفين من الأندلس، وأرسل إليه ابنُ تاشفين مائة دينار ثم وافاه بثلاثمائة دينار أخرى مصحوبة بكتاب يَعِدُهُ فيه بكل جميل. وبقي في مكناسة حوالى السنة، ثم سِيْقَ إلى أغمات برفقة المعتمد ابن عباد؛ لأنَّ إشبيلية كان دخلها المرابطون في ٢٢ رجب سنة ٤٨٤ هـ/ أيلول ١٠٩١ م، أي بعد انقضاء عام على سقوط غرناطة[١].

ويروي ابن خلدون أن عبد الله حُمِلَ إلى أغمات ووريكة واستقرَّ فيهما[٢]. ثم يقول إن عبد الله أُنْزِلَ بالسوس الأقصى[٣].

ويكتفي صاحب الحلل الموشية بالقول إن ابن تاشفين نَقَلَ عبد الله إلى العدوة المغربية وأسكنه بأغمات[٤] ويشاطره الرأي ابنُ الخطيب فيقول: أسكن ابنُ تاشفين عبد الله بمدينة أغمات[٥]. ويضيف: نُقِلَ عبدُ الله إلى مراكش، وسِنُّه يوم خُلِعَ خمس وثلاثون سنة وسبعة شهور، فاستقرَّ بها وحُلَّ اعتقالُهُ ورُفِّهَ عنه[٦].

ويُجْمِعُ المستشرقون أشباخ ولافونت وبريتو إي ڤيفس وغيرهم، على أن عبد الله أُرْسِلَ مع أهله سجيناً إلى أغمات بالقرب من مراكش[٧] ويكتفي غونثالث بالنثيا بالقول: خلع المرابطون عبد الله ونفوه إلى المغرب[٨].

ويذهب أبو الفداء وابن أبي زرع وابن الوردي والناصري إلى أن عبد الله حُمِلَ إلى مراكش مع حريمه وأولاده، وأجرى عليه ابنُ تاشفين النفقة إلى أنْ مات بها[٩].

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٦٠ - ١٦١، ١٧٠ - ١٧١)

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٦).

(٣) المصدر نفسه (م٦ ص ٣٧٠) وانظر أيضاً الاستقصا للناصري (ج٢ ص ٥٥)

(٤) مجهول: الحلل الموشية (ص ٥١). وانظر أيضاً البيان المغرب لابن عذاري (ج٤ ص ١٤٣).

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٦).

(٦) نفسه: الإحاطة (ج٣ ص ٣٨١)

(٧) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ص ٩٣)؛ دائرة المعارف الإسلامية (ج١١ ص ٢٦)؛ Lafuente y Alcántara Inscripciones árabes de Granada (P 20). Prieto Y Vives: Los Reyes de Taifas (p 30)

(٨) بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (٢٤٠ - ٢٤١).

(٩) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ١٩٨)، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ١٠٠)؛ ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ٨)؛ الناصري: الاستقصا (ج٢ ص ٥٣)

وقد انقطعت أخباره وهو بالمغرب دون أن نهتدي إلى السنة التي توفي فيها.

وبعد أن استولى ابنُ تاشفين على غرناطة في عام ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م، أرسل عسكراً إلى مالقة لاحتلالها، فأُخِذَ أميرُها تميم بن بلقين في العام نفسه، وأُلْقي في الحديد[١]. ويجعل ابن الخطيب سقوط مالقة في أيدي المرابطين عام ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م[٢]. ويرى صاحب الحلل الموشية أن مالقة هي أول مدينة تسقط في أيدي المرابطين، وتليها مدينة غرناطة، فيقول إنه لمّا توالت الأخبار على ابن تاشفين وهو بالجزيرة الخضراء، من عبد الله بن بلقين بما يغيظه، رحل إلى مالقة واستنزل صاحبها تميم بن بلقين، ثم توجّه إلى غرناطة[٣].

ونُقِل تميم إلى مِكْناسة، فلقي أخاه عبد الله، فوصف له هول ما قاسى، ثم حُمِل إلى السوس[٤]. ومرة يقول ابن خلدون إن تميماً حُمِل إلى أغمات ووريكة سنة ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م واستقرَّ فيها[٥]، ومرة أخرى يقول إن ابن تاشفين أنزله بالسوس الأقصى[٦]. ويقول صاحب الحلل الموشية إن ابن تاشفين أخذ تميماً إلى العُدْوة المغربية وأسكنه بأغمات[٧]. ويُجْمع أبو الفداء وابن أبي زرع وابن الوردي وابن الخطيب والناصري على أنَّ تميماً حُمِلَ إلى مراكش مع حريمه وأولاده، وحَلَّ ابنُ تاشفين اعتقاله وأجرى عليه النفقة إلى أنَّ مات بها[٨]. ويقول ابن الخطيب إنَّ وفاة تميم بمراكش كانت عام ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م[٩].

وعاد ابن تاشفين إلى المغرب في شهر رمضان من العام ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م،

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٦٢ - ١٦٣). وانظر أيضاً تاريخ ابن خلدون لابن خلدون (م٦ ص ٣٧٠) والاستقصا للناصري (ج٢ ص ٥٥).

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثالث ص ٢٥٠).

(٣) مجهول: الحلل الموشية (ص ٥١). وانظر أيضاً البيان المغرب لابن عذاري (ج٤ ص ١٤٣).

(٤) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٦٣).

(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٤ ص ٣٤٦).

(٦) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٣٧٠).

(٧) مجهول: الحلل الموشية (ص ٥١). وانظر أيضاً البيان المغرب لابن عذاري (ج٤ ص ١٤٣).

(٨) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ١٩٨)؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب (ص ١٠٠)؛ ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر (ج٢ ص ٨)؛ ابن الخطيب: الإحاطة (ج٣ ص ٣٨١)؛ الناصري: الاستقصا (ج٢ ص ٥٣)

(٩) ابن الخطيب. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٦).

وقدَّم على رأس الجيش المرابطي قائد جيشه سِيْر بن أبي بكر اللمتوني، وفوَّض إليه جميع الأمور[1]. وبذلك يكون التاريخ قد طوى مرحلة من مراحل بني زيري بغرناطة امتدَّتْ زهاء ثمانين سنة.

وخلاصة هذا الباب أنّ بعض زعماء بني زيري قَدِمُوا من إفريقية وبلاد المغرب إلى الأندلس، فأقاموا بغرناطة مملكة دامت حوالى ثمانين حولاً، وكان مؤسس تلك المملكة زاوي بن زيري. وكان زاوي قد دخل الأندلس عام ٣٩٠ هـ/ ٩٩٩ م، ولعب دوراً كبيراً في الفتنة التي اندلعت بقرطبة عام ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٨ م، والتي عُرفت في التاريخ الأندلسي بالفتنة البربرية. وكان له دور بارز في وصول الخليفة المستعين ثانية إلى سدّة الخلافة بقرطبة سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م، حيث احتل البربر في عهده مناصب عليا في الدولة. ثم انتقل زاوي وجماعته من قرطبة إلى إلبيرة في العام المذكور، وبنى غرناطة واتخذها داراً للملك بدل إلبيرة، وذلك في سنة ٤٠٤ هـ/ ١٠١٣ م. وكان، وهو بغرناطة، يتدخل في شؤون الحكم بقرطبة، فشارك في خلع الخليفة المستعين السابق الذكر وفي تعيين علي بن حمود مكانه عام ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦ م، وحارب خليفة قرطبة عبد الرحمن المرتضى عام ٤٠٩ هـ/ ١٠١٨ م. وفي عام ٤١٠ هـ/ ١٠١٩ م ارتحل إلى القيروان طمعاً بعرشها، وذلك بعد أن أمضى في الأندلس زهاء عشرين عاماً. وإثر رحيله تولّى مقاليدَ السلطة بغرناطة ابنُ أخيه، حبوسُ ابن ماكسن، فاستبدَّ حبوسُ بالمُلْك وصار من أعظم ملوك الطوائف بالأندلس. وكان حبوس عدواً لخليفة قرطبة المعتلي يحيى بن علي بن حمود، وأيّد خلافة إدريس بن علي بن حمود بمالقة، وكان عدواً لصاحب إشبيلية القاضي ابن عباد، وتحالف مع زهير العامري صاحب ألمرية. وقسَّم غرناطة وأعمالها على أقاربه، وأكمل بناء مدينة غرناطة وأقام له فيها بلاطاً فخماً. وأكثر وزرائه وكُتّابه شهرةً هو إسماعيل بن يوسف ابن نغرالة اليهودي، الذي توصّل في عهده وعهد ابنه باديس بن حبوس من بعده إلى منصب وزير أول، وهو منصب لم يتبوأه أحد من اليهود في عهود الإسلام من قبل. وبموته عام ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م، يتولّى ابنه باديس الحكم، وقد لاقى باديسُ مصاعبَ في بداية حكمه، فناوأه على سدّة الحكم بعض أقاربه. وسار على سَنَنِ أبيه حبوس في الطاعة

---

(١) ابن خلكان. وفيات الأعيان (ج٧ ص ١٢٨)؛ ابن عذاري البيان المغرب (ج٤ ص ١٢٧)، ابن أبي زرع. الأنيس المطرب (ص ١٠٠)؛ الناصري. الاستقصا (ج٢ ص ٥٣).

لبني حمود أصحاب مالقة والجزيرة الخضراء وفي إقامة دعوتهم ومؤازرتهم في كل حين. ثم تغلب على مالقة عام ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م وخلع خليفتها المستعلي ابن حمود، وأضافها إلى غرناطة. وهزم زهيراً العامري صاحب ألمرية عام ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥ م بظاهر غرناطة، ففتح أمامه طريق العظمة والمجد. وتحالف مع معن بن صمادح عندما انقلب هذا الأخير على المنصور عبد العزيز العامري عام ٤٣٣ هـ/ ١٠٤١ م واستأثر بحكم ألمرية. ثم تحالف مع المعتصم ابن معن بن صمادح عند تسلمُه حكم ألمرية بعد أبيه معن عام ٤٤٣ هـ/ ١٠٥١ م. ثم توترت العلاقات الوِدّيّة بينه وبين المعتصم، عندما اكتشف باديس أن المعتصم طامع في ضمِّ غرناطة إلى بلده ألمرية. وسار على خطى أبيه في محاربة بني عباد بإشبيلية. وكان كبير أمراء البربر بالأندلس وأقواهم شوكة، وكان هؤلاء البربر يستنجدون به كلما داهمهم خطرٌ آتٍ من أمراء الأندلس المناوئين لهم، وذلك بموجب تحالف سياسي وعسكري فيما بينهم يرمي إلى الحؤول دون عودة الخلافة الأموية إلى الأندلس، وبالتالي عودة الهيمنة العربية على مقدّارت البلاد. وقد أنجد البرزاليَّ البربريَّ صاحبَ قرمونة عندما هاجمه القاضي ابن عباد صاحب إشبيلية سنة ٤٣١ هـ/ ١٠٣٩ م، وغزا إشبيلية وقتل صاحبها القاضي في العام المذكور. وأنجد ابنَ يحيى اليحصبيَّ صاحبَ لبلة عندما غزاه المعتضدُ ابن عباد، وهاجم مع حلفائه البربر مدينة إشبيلية عام ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧ م، وأخفقوا في هجومهم. ولما احتل المعتضد مالقة عام ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ م استعادها باديس منه بعد أيام. ولم تكن علاقته بالمعتمد ابن المعتضد ابن عباد بأفضل مما كانت عليه مع المعتضد. وتحالف مع أبي الوليد محمد بن جَهْور صاحب قرطبة، ومع بني ذي النون أصحاب طليلطة. وقاوم غارات فردلند الأول صاحب قشتالة (وليون)، واستمر الخلاف بينه وبين ألفونسو السادس ابن فردلند الأول. ووطّد الدولة بغرناطة، وأنشأ جيشاً قوياً معظمه من قومه صنهاجة. وكان أعظم ملوك البربر شأناً، فأذعنت له الأعداء وضخم أمره. وزاد في عمارة غرناطة حتى مَصَّرها، وأكمل تشييد قصبتها التي كان قد بناها والده حبوس. وشَيَّدَ حصون غرناطة وحصَّن أسوارها. وأشهر وزرائه إسماعيل بن يوسف ابن نغرالة اليهودي، وابنه يوسف بن إسماعيل ابن نغرالة. وكان باديس داهية، شجاعاً، حازماً، طاغية، جباراً، مستبداً، خشناً، شديد البأس والقوة، لئيماً، سفاكاً، كثير الإساءة والذنوب، جاف الطبع، حاد المزاج، سريع الغضب، عادلاً بجهل، بعيداً عن الحصافة والثقافة، ذا مروءة ونجدة، شديد

الميل إلى اللهو والإدمان على الشراب. وبموته عام ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤ م، يتسلّم حفيده عبد الله بن بلقين بن باديس مقاليد الحكم بغرناطة. وأول ما قام به عبد الله هو تخلُّصه من وزيره سماجة الصنهاجي وعَزْلُ مناوئيه عن بعض الجهات، والقضاءُ على تمرّد ابْنَيْ تاقْنَوْتَ بغرناطة وجريشة وتمرّدِ كَبّاب بن تَمِيْت بأرجذونة وأنتقيرة، والقضاءُ على ثورةِ ابن ميمون اليهودي بمدينة اليُسّانـة، وثورةِ وزيره مؤمَّل بمدينة لوشة. وساءت علاقته بأخيه الأكبر تميم بن بلقين، والي مالقة منذ أيام جدِّه باديس، إذ لم يُـرِدْ تميم أن يعترف بسلطان أخيه عبد الله، وأدّى الخلاف بينهما إلى صراع عسكري، فاستولى عبد الله على بعض حصون مالقة، وهزم أخاه، فخاف تميم على نفسه، فأرسل إلى أخيه يستعطفه، فرفع عبد الله الحصار عن مالقة، وأبقى بيد أخيه مالقة وبعض حصونها. وساءت الحال بينه وبين المعتصم ابن صمادح، صاحب ألمرية، إذ كان المعتصم يطمع في مدينة غرناطة وبعض حصونها، ثم تصالح الرجلان وصارا صديقين إلى وقت قدوم المرابطين كذلك كانت علاقته سيئة بالمعتمد ابن عباد، صاحب إشبيلية، وبموت ابن عمار وزير المعتمد عام ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ م أزيلت الفتن بين عبد الله والمعتمد؛ لأن ابن عمار هو الذي كان يثيرها، فجدّد الرجلان عقد الصلح، وعاد جو الصفاء، وتوطّدت العلاقة بينهما. وعقد عبد الله اتفاقاً مع الملك الإسباني ألفونسو السادس على أداء الضريبة السنوية له، أسوة بنظرائه ملوك الطوائف، وتنازل له عن حصون وقلاع تابعة لغرناطة. ثم شارك في معركة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م إلى جانب ملوك الأندلس والمرابطين، لمقاتلة ألفونسو، عندما شعر بالخطر الإسباني يداهمه. ودامت تلك المعركة بين المسلمين والنصارى يوماً واحداً، وكان النصر فيها حاسماً لصالح المسلمين، مرابطين وأندلسيين. وكان من نتائجها أن تحطّمت آمال الإسبان باسترداد الأندلس، فتأخّر سقوطها في أيديهم أكثر من أربعة قرون، وارتفعت الروح المعنوية عند أمراء الأندلس، وتخلّصوا من دفع الجزية لألفونسو، وتمهّدت الطريق لابن تاشفين المرابطي باتخاذ قرار بالتخلص من هؤلاء الأمراء. كما شارك عبد الله إلى جانب المرابطين والأندلسيين في حصار حصن أليبط عام ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ م؛ لاستخلاصه من أيدي ألفونسو السادس. وكان من نتائج ذلك الحصار أنْ كَشَفَ ابنُ تاشفين استحالة بقاء ملوك الطوائف على تلك الحال من الضعف والانقسام والتشرذم، وفتح لطريق أمامه لضمِّ الأندلس إلى المغرب. وكانت غرناطة أول مملكة من ممالك

الأندلس تسقط في أيدي المرابطين ولَمَّا يَمْضِ عامان على ذلك الحصار، ويكون عبد الله أول ملك يُخْلع من ملوك الطوائف، وذلك في عام ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م. وبعده خُلع أخوه تميم في العام المذكور، وأُلْقي في الحديد كأخيه عبد الله. ونُقل الأخوان إلى المغرب. وبذلك يكون التاريخ قد طوى مرحلة هامة من مراحل بني زيري بغرناطة امتدت زهاء ثمانين سنة. وبعد غرناطة ومالقة بسنة، بدأت الممالك الأندلسية تتساقط تباعاً في أيدي المرابطين وكان على رأسها مملكة بني عباد بإشبيلية.



الباب الثالث

دراسة اجتماعية وثقافية واقتصادية وعمرانية لمملكة غرناطة في عهد بني زيري

مجتمع غرناطة في عهد بني زيري

مبلغ الجهد في هذا الفصل أن ندرس المظاهر الاجتماعية لمملكة غرناطة، بهدف إلقاء أضواء مباشرة على حياة الناس فيها، ولكن الالتزام بما يمكن أن تُيَسِّره المصادرُ يجعل الكلامَ في هذه المظاهر ملاحظاتٍ عامة؛ إذ ليس لدينا من المصادر المتصلة بعصر بني زيري ما نستنتج منها صورة واضحة للحياة الاجتماعية بغرناطة. وإذا كان هناك من ملاحظات، فإنها تكون في الغالب متّصلة بحياة الطبقة الحاكمة، وبرغم ذلك، فقد استطعنا أن نذلّل الكثير من الصعوبات، ونكوِّن بذلك فكرة عامّة عن طبقات مجتمع غرناطة والعناصر التي كان يتكوّن منها.

أولاً: سكان مجتمع غرناطة:

يتكوّن مجتمع غرناطة من عناصر مسلمة وأخرى غير مسلمة؛ فالمسلمة تنحصر في البربر والعرب والمولَّدِيْن، وتنحصر العناصر غير المسلمة في المُسْتَعْرَبِيْنَ Los Mozárabes واليهود. وقبل الحديث عن تلك العناصر، نشير إلى أن المصادر العربية لم تَمُدَّنا بمعلومات عن عدد سكان مدينة غرناطة، ويقدِّره توريس بلباس في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري بأقلّ بكثير من مائة ألف نسمة، وفي عهد بني زيري بستة وعشرين ألفاً، وفي القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن الهجري بأربعمائة ألف[١]. ويقدِّر سيمونيت عدد بيوت غرناطة في عهد أبي الحجاج يوسف النصري بسبعين ألفاً، وعدد سكانها بنصف مليون نسمة، وفي بداية القرن الخامس عشر الميلادي/ القرن التاسع الهجري بمائتي ألف شخص، وفي عام ١٤٧٦ م/ ٨٨١ هـ بثلاثين ألفاً[٢]. ويقدِّر ميغيل لا فونت ألكنترا عدد سكان غرناطة بثلاثة ملايين أو أربعة

---

(١) Torres Balbás: Extensión y Demografía de las ciudades hispanomusulmanas, (P. 53 - 54, 56).

(٢) Simonet· Descripción del reino de Granada (P. 47)

ملايين نسمة[1]. ويقدِّر عنان عدد سكان مدينة غرناطة في ظل بني نصر بأكثر من مائتي ألف نسمة، وأكثر من نصف مليون نسمة في أواخر عهدهم[2]. ونحن نقدّر عدد سكانها عند استيلاء بني زيري عليها بما ينوف على الثلاثين ألفاً، كونها آنذاك بلدة كبيرة، كما أقرْنا بذلك في حديثنا عن تعميرها في الباب الأول. ثم تزايد هذا العدد عندما حوّلها بنو زيري إلى مدينة وعاصمة لملكهم.

١ ـ البربر: أصل كلمة «بربر» هو اسم صوت غير مفهوم كان يُحْدِثُه هؤلاء القومُ حين يتكلّمون، **أي إنهم كانوا يبربرون في كلامهم**[3] وهم، على حَدِّ قول ابن حزم، بقايا وُلد حام بن نوح، أخي سام بن نوح، وقد اختلطوا منذ القِدَم بأصول ساميّة، وأهمُّ بيوتاتهم بالأندلس مِكْناسة، وزَنَاتَة، ومَصْمُوْدة، وصِنْهاجة[4].

ولقد تدفّق البربر من المغرب على جزيرة الأندلس منذ بداية الفتح حتى ازداد عددهم، وانتشروا في كافّة المدن الأندلسية، وبرزوا في جميع حقول العمل والمعرفة. وكان جُلُّهم صُنّاعاً وعُمّالاً وفلّاحين، اتّخذوا المناطق الجبلية الوعرة سكناً لهم؛ لأنَّ العرب كانوا قد اختاروا لأنفسهم الأراضي السهلة الخصبة، فاندمجوا فيها وأخذوا يُصْلحونها ويغرسون فيها كلَّ أنواع الشجر، ويُرَبُّوْن في أدغالها المواشي حتى أصبحوا مَهَرَةً في الزراعة والفلاحة وتربية الحيوانات الداجنة، وانصهروا في المجتمع الأندلسي عن طريق الزواج، وأتقنوا اللغة العربية إتقاناً كاملاً إلى جانب تعلّمهم اللغة الرومنثية، ذلك أن لغتهم البربرية لم تكن مكتوبة عندهم، فزالت مع الوقت ولم تعد تصمد أمام اللغتين العربية والرومنثية[5].

أما البربر الذين قَدِموا إلى الأندلس في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، والذين كان يتزعّمهم زاوي بن زيري، فإنهم لم يندمجوا في مجتمع

---

(١) S'monet:|Descripcıón del reıno de Gramaıla (P. 47).

(٢) عنان· الآثار الأندلسية (ص ١٦٥) ونهاية الأندلس (ص ١٩)

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (م٦ ص ١٧٦) وانظر أيضاً. الكعاك: البربر، مطبعة الترقي، القاهرة ـ تونس سنة ١٩٥٦ (ص ٦٥)

(٤) ابن حزم جمهرة أنساب العرب (ص ٤٩٥ ، ٤٩٩ ، ٥٠١).

(٥) راجع في دلك· الكعاك البربر (ص ٤٦ ـ ٥٢، ٩٢ ـ ٩٤)، Bousquet Les Berbères, Parıs, 1974 (P 13 - 34, 45 - 59, 73 - 80).

الأندلس، وظلّوا محافظين على بربريتهم، واستطاعوا أن يؤسّسوا في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إمارة مستقلّة بغرناطة، وأصبح العنصر البربري في ظلّهم بارزاً في سكان غرناطة. وباتوا، على حَدِّ قول عبد المجيد نعنعي، يشكّلون قسماً كبيراً من سكان تلك المدينة[1].

٢ ـ **العرب**: كان العرب من أبرز العناصر التي تَكَوَّن منها مجتمعُ غرناطة، وكانت لغتهم العربية الفصحى اللغة الرسمية في مملكة غرناطة، بل لغة التفاهم بين أهلها، وقد سيطرت على مجتمع غرناطة وانتشرت بين عناصره برغم أنّها اختصّت بالأرستقراطيين والمثقّفين. فالأرستقراطية احتلَّتْ مركز الصدارة في الحياة الثقافية؛ لأنها أكثر الطبقات تهيّؤاً لتبنّي اللغة العربية وتعلُّمها واستيعاب تاريخ أدبها. وظلت هذه اللغة لغة المملكة ولغة الأدب معاً[2]. كذلك كانت اللغة العربية العامّيّة مجالاً للتفاهم بين عناصر مجتمع غرناطة، ومجالاً للانتشار في كثير من خرجات الموشحات.

وقد أثّر عرب غرناطة في حياة النصارى الإسبان تأثيراً كبيراً، لأنَّ اختلاط العرب بالنصارى من شأنه أنْ يدفع هؤلاء النصارى إلى تقليد الآخرين، وأنْ تشيع الثقافة العربية في أوساطهم[3]. وقد مارس النصارى عادات العرب وتقاليدهم كَخَتْن صغارهم والامتناع عن أكل لحم الخنزير، وتعلّموا لغتهم وأتقنوها[4]. **وما احتواءُ اللغة الإسبانية اليوم على ما يزيدُ على الأربعة آلاف كلمة عربية**، وعلى كثير من تركيبات وتعابير لغوية عربية، إضافة إلى انفرادها بين لغات أوروبا اللاتينية بامتلاكها أداة التعريف العربية وحرفي الخاء (j, ge, gi) والثاء (z, ce, ci) إلّا دليلاً على مدى هذا التأثير[5].

---

(١) نعنعي الإسلام في طليطلة (ص ١٨٢).

(٢) خفاجة قصة الأدب في الأندلس، بيروت، ١٩٦٢، (ج ١ص ٢٢٦ وما بعدها).

(٣) الأوسي. فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٧١ (ص ١٥٢)

(٤) العبادي. في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧١ (ص ٣٧٤)؛ الحجي. أندلسيات، دار الإرشاد، بيروت ١٩٦٩ (ص ١٦٠)؛ مؤنس. فجر الأندلس، القاهرة، ١٩٥٩ (ص ٤٢٥ وما بعدها).

(٥) الأوسي فصول في الأدب الأندلسي (ص ١٤٧ ـ ١٤٩)؛ بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس (ص ٨١ ـ ٨٤).

وهكذا عَرَفَتِ الثقافةُ العربيةُ في الأنـدلس كيف تستقي من حضارة المشـرق وكيف تفرض نفسها فيما بَعْدُ خارج الحدود الإسلامية.

٣ ـ المولَّدون Los Muladies: هم أبناء المُسَالِمَة أو الأسالمة، والمُسَالِمَةُ هم النصارى الإسبان الذين أسلموا وتديّنوا بالإسلام. وقد بدأوا يُقْـدمون على اعتنـاق الدين الإسلامي من لَدُن الفتح العربي للأندلس؛وذلك بدافع تحسين وضعهم المُزْري وحُبِّ الخلاص من البؤس الذي كان يَعُمُّهم في أواخر الحكم القوطي، أو بدافـع الاقتناع بأنَّ الإسلام هو الدين الحقّ وأنّ الإسلام حامي المظلوم ومساعد الجائع، أو بدافع التخلّص من دفع الجزية التي كانوا يؤدّونها كونهم من أهل الكتاب[١]. وذهب أحمد مختار العبادي إلى **أنَّ المولَّدي هو من كانتْ أُمُّه إسبانيةً ووالده مُسلماً**، وأنَّ كلَّ مولَّدي مسلم[٢]. وذهب أحمد أبو زيد مذهبه فقـال: عن طريق زواج العـرب بالإسبانيّات برز عنصـر المولَّـدين الذين أصبحـوا فيما بَعْـدُ يشكّلون معظم سكـان المجتمع الأندلسي، وهؤلاء تعلّموا لغة أمّهـاتهم وعاداتهنَّ، بحيث انتشـرت اللغة الرومانثية إلى جانب العربية[٣]. ونحن لا نؤيدهما فيما ذهبا إليه.

ومنذ بداية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي والمولَّدون يشكّلون نواة هامّة من مجموع أهالي البـلاد، لهم دورهم البارز في الـزراعة والصنـاعة والإدارة والجيش[٤]. **وقد اختلطوا بالعرب عن طريق التزاوج والولاء،واتّخذ بعضهم الأنسابَ العربية ليُثْبِتُوا أنهم قديمو العهد بالإسلام**، ومنهم من نسي أصله، ومنهم من ظلَّ على نسبه القديم مثل بني مرتين Martin، وبني بَشْكُوال Pascual، وبني غرسيّةٰ Garcia، وبني غومس Gómez. . ومنهم من أضاف إلى اسمه العربي المقـطع الاسباني «أون on» فأصبح حزم «حزمون» وزيد «زيدون»، وحفص «حفصون». . وهكذا ظل قسم منهم يتعصّب لأصله العجمي[٥]. كما أتقنوا اللغة العربية وتمكّنوا من الكتابة، فبرز

---

(١) الأوسي: فصول في الأدب الأندلسي (ص ٢٩)

(٢) العبادي: من التراث العربي الإسباني، مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، العدد الأول، سنة ١٩٧٧ (ص ٤٢)

(٣) أبو زيد. مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني عشر (المقدمة ص ٦ ـ ٧).

(٤) بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس (ص ١٣)؛ Gonzalo Palencia: Historia de la literature ará-bigoespanola (p 20)

(٥) العبادي: من التراث العربي الإسباني، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الثاني، سنة ١٩٧٩ (ص ٦٥ ـ ٦٦).

منهم الأدباء والشعراء، حتى كان دورهم في نقل الحضارة العربية إلى إسبانيا المسيحية كبيراً؛ إذ عملوا على تطوّر التداخل الذي حصل بين لغتهم العربية التي اكتسبوها وبين الرومنثية لغة أمهاتهم وأجدادهم.

٤ ـ **المُسْتَعْرَبُوْنَ** Los Mozárabes: هم أولئك النصارى الذين عاشوا في غرناطة وغيرها من مدن الأندلس، وقد أطلق عليهم العرب في بادىء الأمر اسم «عجم الأندلس». وقد سُمُّوا بالمُسْتَعْرَبين، بفتح الراء؛ لأنهم اسْتَعْرَبُوا لغةً وزِيّاً، أي أنهم ارْتَدَوْا بإرادتهم الزيَّ العربيَّ، واتّخذوا بإرادتهم العربيةَ لغةً، فأقبلوا على قراءة شعر العرب وأدبهم[١]. وذهب سعيد عاشور إلى أنهم تعلّموا العربية لمسايرة الوضع الجديد[٢].

وقد أتقن هؤلاء اللغة العربية إلى جانب لغتهم الرومنثية، واتّخذوا أسماء عربيةً إلى جانب أسمائهم المسيحية. وبحكم معرفتهم اللغتين، فإنهم لعبوا دوراً هامّاً في نقل الحضارة الإسلامية إلى الممالك الإسبانية حيث انتشرت ثقافة العرب المسلمين وعاداتهم[٣].

وعاش هؤلاء النصارى في غرناطة بسلام كما في سائر مدن الأندلس، يزاولون شعائرهم الدينية بحريّة تامّة، مقابل دفع الجزية للمسلمين تمشّياً مع الشريعة الإسلامية، كونهم من أهل الكتاب. وهكذا احترمهم حكام غرناطة وعاملوهم معاملة حسنة، فأَبْقَوْا لهم أماكن العبادة، يقرعون فيها نواقيسهم بحرّيّة[٤]. وقد تجلّى ذلك في قول ابن حزم[٥]:

أَتَيْتَني وهِلالُ الجَوِّ مُطَّلِعٌ   قُبَيْلَ قَرْعِ النصارى للنواقيسِ

ولقد لقي هؤلاء النصارى في مختلف دول الطوائف المعاملة الكريمة نفسها

---

(١) مؤنس: فجر الأندلس (ص ٤٢٥ ـ ٤٢٩)؛ الحجي: أندلسيات (ص ١٦٠).

(٢) عاشور: الإسلام والتعريب، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الثاني، سنة ١٩٧٩ (ص ١٨٨)

(٣) العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي (ص ٣٧٤)؛ الجراري: أثر الأندلس على أوروبا في مجال النغم والإيقاع، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني عشر، سنة ١٩٨١ (ص ١٧)

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ١٠٦، حاشية ٢)؛ العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الثاني، سنة ١٩٧٩ (ص ٦٠)

(٥) ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي (ج١ ص ٢٨٢) وطوق الحمامة (ص ٢٨٧)

التي كانوا يَلْقَوْنَها في ظلِّ الحكومة المركزية بقرطبة في عهد بني أمية، وقد تمتّعوا في عهد بني زيري بغرناطة بالحماية والرعاية، فازدهرت أحوالهم، واشتدّ ساعدهم، وخاصّةً بعد قتل الوزير الأول يوسف بن نغرالة اليهودي، حيث جنح أميرُ غرناطة عبدالله بن بلقين إلى اصطناعهم، ووصل به الأمر أن اتّخذ في بِطانته عدة من أكابر النصارى القشتاليين يعاونونه في شؤون الحرب والإدارة، ومنهم عدة من أكابر الفرسان[1].

وهكذا كانت العلاقة بين المسلمين والنصارى طبيعية؛ فشاعت المصاهرة بين الفريقين، ولكن زواج المسلمين من إسبانيات فاق بكثير زواج الإسبان من مُسْلمات. وتلك ظاهرة اجتماعية تبيِّنُ مدى التأثير الإسباني على عقول وعواطف عرب الأندلس ومسلميها[2].

ويجب ألاَّ ننسى أن التأثيرات كانت متبادلة بينهم وبين مسلمي غرناطة؛ فبرغم رجحان كفّة ميزان المسلمين الكبير في التأثير، فإنَّ النصارى استطاعوا إلى حَدّ ما أنْ يؤثّروا في الثقافة الإسلامية والعربية وفي حياة الشعب الغرناطي الاجتماعية. ودليل تأثّر المسلمين بهم التزامهم يوم الأحد من كلِّ أسبوع عطلةً رسميةً، مشاركين في ذلك نصارى بلدهم من جهة، ومخالفين مسلمي الشرق من جهة ثانية. وقد تم ذلك في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ/ ٨٥٢ - ٨٨٦ م)، وظل معمولاً به على الأقل حتى أواخر القرن الخامس الهجري/ أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، استناداً إلى نصّ ابن حيان القرطبي المتوفّى سنة ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦ م: «وكان أولَ مَنْ سَنَّ لِكُتّابِ السلطانِ وأهلِ الخدمةِ تعطيلَ الخدمة في يوم الأحد من الأسبوع والتخلّف عن حضور قصره (أي قصر الأمير محمد) قومسُ بن أنتنيان كاتبُ الرسائل للأمير محمد، وكان نصرانياً، دعا إلى ذلك لنسكه فيه، فتبعه جميعُ الكُتّاب طَلَبَ الاستراحة مِنْ تعبهم والنظر في أمورهم، فانْتَحَوْا ذلك، ومضى إلى اليوم عليه»[3]. وأيّده في ذلك المقري، فقال عند حديثه عن المنصور العامري. «أصبح

---

(١) عنان: دول الطوائف (ص ٣٩٧)؛ Gagigas. Los Mozárabes, Madrid, 1949 (T II, P 493)

(٢) العبادي. الإسلام في أرض الأندلس (ص ٦٢ - ٦٤)

(٣) ابن حيان القرطبي. المقتبس من أبناء أهل الأندلس، تحقيق الدكتور محمود مكي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٣ (ص ١٣٨)

المنصورُ صبيحةَ أحدٍ، وكان يومَ راحةِ الخَدَمَةِ، الذي أُعْفُوْا فيه من قصد الخِدْمة»[1].

كذلك شارك مسلمو غرناطة المُسْتَعْرَبِيْنَ في أعيادهم مثل عيد ميلاد السيد المسيح، وعيد رأس السنة الميلادية، وعيد العنصرة وهو عيد «سان خوان» الواقع في الرابع والعشرين من شهر حزيران، وخميس نيسان أو خميس العهد الذي يسبق عيد الفصح المسيحي بثلاثة أيام. وكانوا في هذه الأعياد يبتاعون الفواكه والحلوى كما كان يفعل النصارى تماماً[2]. وكانت أعياد أهل غرناطة حسنة مائلة إلى الاقتصاد[3].

وإلى جانب ما دكرناه، هناك التأثير الثقافي، حيث انتشرت الرومنثيةُ، لغةُ النصارى، بين مسلمي غرناطة. والرومنثية هي الإسبانية القديمة المتولِّدة من اللاتينية والتي تطوّرت منها الإسبانية المكتوبة والمحكيّة اليوم في إسبانيا ودول أميركا اللاتينية، وقد عُرفت عند المؤلِّفين الأندلسيين باسم العجميّة أو اللطينية، وعاشت بين أوساط المسلمين العرب بحيث أصبحت قبائلُ عربيةٌ كثيرةٌ تُجِيْدُها[4]. وكانت تلك اللغة عامية؛ لأنَّ لغة الإسبان الفصحى والمكتوبة آنذاك كانت اللغة اللاتينية، وبالتالي فإنَّ الخَرَجَات الأعجمية في الموشّحات الأندلسية كان يأخذها الوشّاحون عن أفواه الناس وليس عن الكتب والأساتذة[5]. ودليل انتشار هذه اللغة نَصٌّ لابن حزم المتوفّى سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م يستغرب فيه كيف أنَّ قبيلةً عربيةً هي قبيلة بَلِيّ بن عمرو بن قضاعة، لم تكن تُحْسن التحدّث باللطينيّة: «ودارُ بَلِيّ بالأندلس، الموضعُ المعروفُ باسمهم بشمالي قرطبة، وهم هنالك إلى اليوم على أنسابهم، لا يُحْسِنون الكلامَ باللطينية، ولكن بالعربية فقط، نساؤهم ورجالهم»[6]. ويسْتَدَلُّ من كلامه أنَّ

---

(١) المقري نفح الطيب (ج١ ص ٤١٧).

(٢) العبادي الإسلام في أرض الأندلس (ص ١٠٧)

(٣) ابن الخطيب. الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ١٣٧) واللمحة البدرية (ص ٤٠)

(٤) العبادي. في التاريخ العباسي والأندلسي (ص ٣٧١) ومن التراث العربي الإسباني، مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، العدد الأول (ص ٨٣). والإسلام في أرض الأندلس (ص ٦٦)؛ عبد الحميد. علوم العرب القديمة، مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، العدد الأول، سنة ١٩٧٧ (١٦٩ - ١٧٠).

(٥) الأهواني الزجل في الأندلس. القاهرة، ١٩٥٧ (ص ٤٧).

(٦) ابن حزم. جمهرة أنساب العرب (ص ٤٤٣)

سائر القبائل المسلمة، عربيةً كانت أو غير عربية، كانت تُجِيْدُ اللغة اللطينيـة إلى جانب لغتها العربية، باستثناء هذه القبيلة التي تعرف اللطينية ولكن لم تكن تُجِيْدُها إجادة غيرها.

وهناك نَصّان للخُشَني المتوفَّى سنة ٣٦١ هـ/ ٩٧١ م، يشير في أحدهما إلى أنَّ القاضي يُخَامِرَ بن عثمان الشَّعْباني كان يُجيد العجمية[1]. ويشير في النص الآخر إلى أنَّ القاضي سليمان بن أسود الغافقي تَحَدَّثَ في مجلس حكمه مع امرأة بالعجمية[2].

وإذا نحن لم نَحْظ بنصوصٍ تبيِّن مدى تأثير اللغة اللطينية على أهل غرناطة، فليس معنى ذلك أنَّ هذه اللغة انحصرت في قرطبة وحدها، بل تعدَّتْها إلى مدن أندلسية أخرى، ومنها غرناطة.

٥ ـ **اليهود**: يعود تاريخ دخولهم بلاد الأندلس إلى ما قبل الفتح العربي لها بمئات السنين. وأغلب الظن أنهم قدموا الأندلس في عهد الرومان سنة ٧٠ م بعد هدم أورشليم. وتكاثروا مع مرور الزمن، فأصبحوا في الثلث الأول من القرن الثاني الميلادي حوالى ستة ملايين نسمة، ثم انخفض هذا العدد إلى النصف في القرن الرابع الميلادي، عندما أخذ الرومان يضطهدونهم ويقتلون منهم ما تيسَّر لهم. وقد سكنوا غرناطة منذ قدومهم إلى الأندلس، وتكاثروا فيها في عهد القوط، وأقاموا في حيٍّ من أحيائها يشكِّلُ الآن أحدَ أحياء غرناطة. ثم تعرَّضوا للمضايقات من قبل ملوك القوط، عندما فرضوا عليهم شروط اعتناق الدين المسيحي أو الهجرة، فهيّأوا أنفسهم للثأر من تلك المعاملة السيئة، فاستقبلوا الفاتحين العرب وساعدوهم بكل قدراتهم العسكرية والسياسية، ولا سيما في غرناطة وطليطلة حيث كان عددهم كبيراً، فزاد عددهم وتحسّن وضعهم في عهد العرب الفاتحين، ودخل الأندلس بعيد الفتح عدد كبير من يهود المغرب[3]. وبالمقابل، كانت ثقة العرب بهم كبيرة، فعندما احتلّوا مدينة غرناطة وجدوا فيها طائفة من اليهود، فاعتمدوا عليهم في حمايتها وحماية غيرها

---

(١) الحشني: قضاة قرطبة، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢ (ص ١٢٣).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٦٦ ـ ١٦٧).

(٣) Gonzalo Maeso Garnata al-Yahud (P 18 - 20, 27, 37, 40 - 41)

من مدن الأندلس مثل إشبيلية وقرطبة[1].

وبفضل التسامح العربي، بدأ عدد اليهود يتزايد مع الزمن، وخاصة في مدينة غرناطة التي كانت تعرف بمدينة اليهود[2]. وعندما عاد الخليفة المستعين إلى سدّة الخلافة بقرطبة عام ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م بمعاضدة البربر، لاقى اليهودُ بقرطبة معاملاتٍ سيئة من قبل البربر، مما اضطرّهم إلى الانتقال إلى مدن أندلسية أخرى، وكان إسماعيل بن نغرالة وعائلته بين تلك الوفود التي قدمت إلى غرناطة. وأصبح عدد اليهود في عهد بني زيري خمسة عشر ألف نسمة، ومن الطبيعي أن يرتفع هذا العدد خلال تولّي إسماعيل ابن نغرالة وابنه يوسف من بعده منصب الوزير الأول[3]. ونحن نشكّ في هذا الرقم؛ لأن عدد اليهود في مثل هذه المعادلة يصبح حوالى نصف عدد سكان غرناطة مجتمعين.

وعندما قتل يوسف ابن نغرالة عام ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ م، كان عدد اليهود بغرناطة كبيراً جداً[4]. ويوم سقطت غرناطة في أيدي الإسبان عام ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢ م، كان عدد اليهود فيها حوالى خمسة عشر ألفاً[5]. وقيل كان عددهم في غرناطة في عام ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤ م حوالى عشرين ألف نسمة، بمعدل ١٠٪ من شعب غرناطة[6].

وقد اندمجوا في جميع طبقات مجتمع غرناطة، وكانوا أغنياء، ولكن عملهم كاد ينحصر في التجارة[7]. وامتلكوا بغرناطة في عصر الولاة (٩٢ ـ ١٣٨ هـ/ ٧١٠ ـ ٧٥٥ م) مؤسسات تجارية، وفي فترة الخلافة (٣١٦ هـ/ ٩٢٨ م وما بعدها) أصبحت غرناطة مركزاً هاماً لنشاطهم[8].

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة (ص ٢١ ـ ٢٢)؛ Gonzalo Maeso Garnata al-Yahud (P 40)

(٢) الحميري: الروض المعطار (ص ٤٥)؛ Dozy Histoire des Musulmans d'Espagne (T 3, P 19) Ibidem: Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne (t. I, P 339), Pérès: La poésie Andalouse (P 265)

(٣) Gonzalo Maeso: Garnata al-Yahud (P 52 - 53), Maeso: Manual de historia de la literatura hebrea (P. 469 - 470)

(٤) Prieto Y Vives: Los Reyes de Taifas (p 30).

(٥) Gonzalo Maeso: Garnata al-Yahud (P. 98).

(٦) Ibidem (P 15)

(٧) Pérès. La poésie Andalouse (P 265).

(٨) Gonzalo Maeso Garnata al-Yahud (P. 44, 51 - 52).

وأتقنوا اللغة العربية إلى جانب لغتهم العبرية، واللغتين الرومنثية واللاتينية اللتين تعلموهما منذ أيام الرومان والقوط، فساعدهم ذلك في عملهم الذي انحصر إلى حَدّ كبير في تجارة العبيد والجواري والخِصْيان والحرير والفرو[1].

وترك لهم بنو زيري حرية العقيدة وحقّ مزاولة شعائرهم الدينية وحرية التنظيم الداخلي لجماعتهم، فكان لهم، كالمُسْتَعْرَبِيْنَ، مؤسساتُهم الإدارية والقضائية، وكان لهم مدرسة دينية خاصة بهم. كما اعتنق كثير منهم الدين الإسلامي.

وشاركوا في تقدم غرناطة من النواحي الاجتماعية والسياسة والفكرية والحضارية، وذلك من خلال المناصب العليا التي احتلوها في دولة بني زيري، سواءً في القصر الملكي أو في الإدارات العامة. نذكر على سبيل المثال أن موسى بن يعقوب بن عِزْرا قد تولّى منصب صاحب الشرطة في عهد الأمير عبد الله بن بلقين[2]. وأهمّ تلك المناصب منصب الوزير الأول، وقد توصل إليه كل من إسماعيل ابن نغرالة وابنه يوسف في عَهْدَيْ حبوس بن ماكسن وابنه باديس بن حبوس من بعده. فالأهمية التي بلغتها الجالية اليهودية قديماً بغرناطة، من حيث عددها وغناها ورخاؤها، قد تضاعفت في ظل الوزارة التي تولّاها إسماعيل وابنه[3]. ويعود الفضل الكبير في عظمة غرناطة وتقدّمها وازدهار مرافقها وإداراتها في عهد بني زيري إلى نفوذ الوزير إسماعيل، حيث ظهرت غرناطة على سائر مدن الأندلس، وبلغت أوْجَها، وصارت مدينة آداب اليهود[4].

ومن الممكن أن تكون أخوات إسماعيل ابن نغرالة أو عَمّاته أو بناته قد شَكَّلْنَ جزءاً من حريم زاوي بن زيري وباديس بن حبوس، كزوجات بالاسم[5].

ولما كان اليهود أغنياء ميسورين وكانت في أيديهم معظم الثروة، فقد أخذوا يتدخّلون في شؤون دولة بني زيري حتى طعوا على مقدّرات غرناطة كلّها[6].

---

(١) Pérès La poésie Andalouse (P 266)

(٢) Gonzalo Macaso Manual (P 493 - 494)

(٣) Ibidem (P 469), Ibidem Garnata Al-Yahud (P 58, 74 - 75)

(٤) دائرة المعارف الإسلامية (ح٣ ص ٢٦٧) شمتس، Gonzalo Maeso Garnata al-Yahud (P 8, 15, 57 - 58, 120), Ibidem Manual (P 471)

(٥) Pérès. La poésie Andalouse (P 269)

(٦) دوزي ملوك الطوائف (ص ٤١).

ثانياً ـ أوصاف أهل غرناطة وعوائدهم وسِيَرُهُمْ على اختلاف أصنافهم والحديث عن نسائهم:

١ ـ **أوصاف أهل غرناطة**: تنحصر صفات أهل غرناطة بحسن الصور، ورقّة الأخلاق، والطاعة لأهل الحكم، والصبر في تحمّل الجبايات، وفصاحة الألسن، وكثرة التديّن والبعد عن التعصّب الديني، وكثرة النظافة، والبعد عن الإسراف والتبذير مع كرم النفس والجُوْد، وحبّ الموسيقى والغناء واللهو والجِدّ والهَزْل معاً.

وقد أجمل ابن الخطيب صفات أهل غرناطة بقوله: وجوههم وسيمة، وأنوفهم معتدلة غير حادّة، وألوانهم نضرة بيضاء مُشْرَبَةٌ بحمرة، وشعورهم سُوْدٌ مُرْسَلَةٌ في الغالب، وقُدُوْدُهم متوسطة معتدلة، وأخلاقهم أبيّة في معاني المنازعات، وطاعتهم للأمراء محكمة، وسلوكهم حسن في احتمال الجبايات، وألسنتهم فصيحة، ولغاتهم عربية تغلب عليها الإمالة[١].

كما أجمل المقرّي ما ذكره ابن غالب في كتابه «فرحة الأنفس» من صفات أهل الأندلس، فقال: لأهل الأندلس حُسْنُ الهمّة في الملبس والمطعم، والنظافة والطهارة، والحب للهو والغناء، والحرص على طلب العلم. إنهم عرب في الأنفة وعلوّ الهمم وفصاحة الألْسُن وقلة احتمال الذلّ، هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم، بغداديون في ظرفهم ونظافتهم ورقّة أخلاقهم، يونانيون في استنباطهم للمياه واختيارهم لأجناس الفواكه وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر، صينيون في إتقان الصنائع العملية، تركيون في معاناة الحروب[٢]. وكون أهل غرناطة جزءاً من شعب الأندلس، فإنَّ ما يقال عن الأندلسيين عامة يمكن أن يقال في أهل غرناطة.

وأضاف المقري أن أهل غرناطة كانوا، كغيرهم من شعوب الأندلس، أشدَّ خلق الله اعتناء بنظافة ما يَلْبَسُوْنَ وما يفرشون، فاشتهر عنهم شدّة العناية بها. وكانوا أهل احتياط وتدبيرٍ في المعاش وحفظٍ لما في أيديهم، خَوْفَ ذُلِّ السؤال، فلذلك قد يُنْسَبُوْنَ إلى البخل. وكانوا يبتعدون عن الكِدْيه بحيث لا تكاد تجد سائلاً إلاّ أنْ يكون صاحب عذر[٣]. وأضاف: كان فضلهم ظاهراً في اللهو والحب، فلهم دُعَابَةٌ وحلاوةٌ في

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ١٣٤) واللمحة البدرية (ص ٣٨)
(٢) المقري: نفح الطيب (ج٣ ص ١٥٠ ـ ١٥١).
(٣) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢٣)

محاوراتهم، وحكاياتهم في الجِدّ والهَزْل مشهورة[1].

٢ ـ أحوال أهل غرناطة في الدين: كانت أحوال أهل غرناطة سنيّة، وكانوا يدينون بمذهب الإمام مالك بن أنس[2]. وقد انتقل هذا المذهب إلى الأندلس بسبب رحلة علمائها إلى المدينة وأخذهم الكثير من فضائل مالك، وذلك في دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، المعروف بالحكم الربضي (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ/ ٧٩٦ ـ ٨٢١ م)، إذ كانوا من قَبْلُ على مذهب الأوزاعي الشامي، لتأثّرهم آنذاك بالشاميين الداخلين مع الجُنْد أيام الفتح[3]. ويرى أحمد مختار العبادي ومحمد عبد الله عنان أن هذا المذهب غلب على أهل الأندلس في عصر هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢ ـ ١٨٠ هـ ـ ٧٨٩ ـ ٧٩٦ م)[4]. تجدر الإشارة هنا إلى أن عبد الملك بن حبيب، المتوفَّى سنة ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م، هو الذي درس الفقه على مذهب مالك في المدينة المنورة، وكان من أكبر العاملين على تحويل الأندلس إلى المالكية[5]. وما دُمْنا مقتنعين بأنَّ ما يقال عن الأندلس ينطبق إلى حَدّ بعيد على غرناطة، يستحسن بنا أنْ نذكر ما قاله المقري عن أحوال الأندلس في الدِّيْن: الأغلب عند الأندلسيين إقامة الحدود وإنكار التهاون بتعطيلها؛ فالرجم بالحجر كان يجري كل يوم حتى بات المنفلتون في الأندلس قِلّة. وكان عالم الدين كثير الجلال والتقدير، وكانت قراءة القرآن ورواية الحديث عندهم رفيعة، وكان للفقه رونق ووجاهة، وكانت سمة الفقيه عندهم جليلة، وكانوا يقولون للكاتب والنَّحْوي واللغوي «فقيه»؛ لأنها كانت عندهم أرفع السِّمَات. وكان علم الأصول عندهم متوسّط الحال[6].

وإذا كان أهل غرناطة شديدي التعصّب لمدينتهم، فإنهم ابتعدوا عن التعصّب الديني، وتجلّى ذلك في تسامحهم لأهل الكتاب، مُسْتَعْرَبِيْنَ ويهوداً، في أن يمارسوا شعائرهم الدينية بحرية تامة، كما تجلَّى في السماح لليهود في أن يتبّوأوا مناصب عليا

---

(١) المقري: نفح الطيب (ج٣ ص ٣٨١).

(٢) اس الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ١٣٤) واللمحة البدرية (ص ٣٨).

(٣) المقري. نفح الطيب (ج٣ ص ٢٣٠).

(٤) العبادي. في التاريخ العباسي والأندلسي (ص ٣٢٤)؛ عنان: نهاية الأندلس (ص ٦٥).

(٥) محمد. تأثر الفكر الأندلسي بالحركة العلمية في المشرق الإسلامي، مجلة عالم الفكر، المجلد الثالث عشر، العدد الثاني، سنة ١٩٨٢ (ص ٢٩٢).

(٦) المقري. نفح الطيب (ج١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١).

في الدولة، وعلى رأسهم إسماعيل ابن نغرالة وولده يوسف.

٣ ـ زي أهل غرناطة: كان لباسهم الغالب في الشتاء هو المِلَفُّ المصبوغ وهو ضرب من الجوخ المنسوج من الصوف، وفي الصيف كانوا يرتدون الكَتّان، والحرير، والقطن، والأردية الإفريقية، والمقاطع التونسية، والمآزر، والمِرْعِزَّى وهو كالصوف يخلص من بين شعر العَنْز[١]. وكان معظم عوامّهم يستعملون الطَيْلَسان وهو ثوب أخضر موصول به غطاء الرأس، ولكن دون أن يُغَطُّوا به رؤوسهم، والذين كانوا يضعونه على رؤوسهم هم الأشياخ المعظّمون. وكثيراً ما كانوا يَلْبَسُوْنَ غفائر الصوف الحمر والخضر، والصفر مخصوصةٌ لليهود، والغفيرة لباس يغطِّي العنق والقفا. وكان العالِمُ يُرْخي ذؤابة ويُسْدِلُها من تحت الأذن اليسرى[٢]. وغلب عليهم العمائم على حَدٍّ قول ابن الخطيب: «والعمائم تقلُّ في زي أهل هذه الحَضْرة (أي غرناطة) إلاّ ما شَذَّ في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم والجُنْد الغربي منهم»[٣].

كذلك كان لبس البياض عادتهم في الحزن على موتاهم، مخالفين في ذلك أهل المشرق، الذين كانوا يَلْبَسُوْنَ فيه السواد. وفي ذلك يقول أحد الشعراء[٤]:

أَلاَ يا أهلَ أنْدَلُسٍ فَطِنْتُمْ ... بِلُطْفِكُمُ إلى أَمْرٍ عَجِيْبِ
لَبِسْتُمْ في مآتِمِكُمْ بياضاً ... فجئْتُمْ منه في زِيٍّ غريبِ
صَدَقْتُمْ فالبياضُ لباسُ حُزْنٍ ... ولا حُزْنٌ أَشَدُّ من المَشِيْبِ

وكان زيُّ جُنْدهم شبيهاً بزيّ جيرانهم الإسبان، وهو إسْباغ الدروع أي توسيعها، وتعليق الأتراس، وجَفَاءُ البَيْضات أي استعمال الخُوَذ الغليظة لوقاية الرأس، واتّخاذ الأسِنّة العريضة، والقرابيس البشعة (جمع قَرَبُوْس هو حِنْوُ السَّرْج)، واستركاب حَمَلَة الرايات -حلفهم[٥].

ولا ننسى أثر أبي الحسن علي بن نافع، الملقّب بزرياب[٦] في الزي

(١) ابن الحطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ١٣٤ ـ ١٣٥). واللمحة البدرية (ص ٣٨ ـ ٣٩).

(٢) المقري: نفح الطيب (ج٣ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣).

(٣) ابن الخطيب. اللمحة البدرية (ص ٣٩) والإحاطة (ج١ ص ١٣٦)

(٤) المقري· نفح الطيب (ج٣ ص ٤٤٠ ـ ٤٤١).

(٥) ابن الخطيب· الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١ ص ١٣٦) واللمحة البدرية (ص ٣٩).

(٦) عن شخصية زرياب انظر الحِفْني: زرياب أبو الحسن علي بن نافع موسيقار الأندلس، الدار المصرية =

الأندلسي؛ فقد علّم الأندلسيين كيفية ارتداء الملابس في أوقاتها المناسبة، بحيث جعل لكل فصل من فصول السنة ملابس خاصة به، فرأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وخلعهم للملوّن من يوم مهرجان أهل البلد، المُسَمَّى عندهم بالعنصرة[1]، الواقع في ستٍ بَقِيْنَ من شهر حزيران من شهورهم الرومية، وذلك مدة ثلاثة أشهر متوالية حتى أول شهر تشرين الأول. ورأى أن يلبسوا في فصل الربيع جباب الخز، وأن يلبسوا في آخر الصيف وعند أول الخريف الثياب الملوّنة ذوات البطائن الكثيفة. كما علّمهم طريقة تصفيف الشعر، وضرورة ترتيب الأطعمة، وسنَّ لهم أكل الهِلْيون، ولم يكونوا يعرفونها قبله. كذلك أخذوا عنه تفضيله آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفِضّة، مُحْدِثاً بذلك انقلاباً في حياة الأندلسيين الاجتماعية[2].

٤ ـ **الموسيقى والغناء في غرناطة**: نشطت حركة الموسيقى والغناء في عصر ملوك الطوائف، وكان النَّخّاسون يقومون بتعليم الجواري الروميّات الغناء ليكسبوا في بيعهنَّ الأموال الوفيرة، فاقتنى أمراءُ الطوائف منهنّ المغنّياتِ المشهوراتِ، وأقبل أهل الأندلس من مختلف طبقاتهم على الفنّ الغنائي، حتى إنّ الفقهاء كانوا يستحسنونه، وأصبحت الموسيقى العربية ذات أثر في أذواق غير العرب في شمال إسبانيا وجنوب فرنسا[3].

وكان أهل غرناطة، كغيرهم من شعوب الأندلس، مشغوفين بسماع الموسيقى والغناء.. وكانت غرناطة، كغيرها من مدن الأندلس، تعتمد إلى حدّ كبير على حركة الموسيقى والغناء التي شاعت في الأندلس منذ قدوم زرياب من المشرق إلى قرطبة.

= للتأليف والترجمة، القاهرة؛ الجراري أثر الأندلس على أوروبا في مجال النغم والإيقاع (ص ٢١ وما بعدها)

(١) العنصرة هو عيد سان حوان San Juan عند الإسبان. العبادي: الإسلام في أرض الأندلس (ص ١٠٧)

(٢) ابن دحية المطرب (ص ١٤٧)؛ المقري: نفح الطيب (ج٣ ص ١٢٧ ـ ١٢٨) وانظر أيضاً: هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة الأستاذين فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الآفاق الجديدة، الطبعة السادسة، سنة ١٩٨١ (ص ٤٩٠)؛ بروفنسال حضارة العرب في الأندلس (٥٠ ـ ٥١).

(٣) عباس: أخبار الغناء والمغنين في الأندلس (١٣٨ ـ ٥٣٩ هـ)، مجلة الأبحاث، السنة ١٦، الجزء الأول (ص ١٢ ـ ١٨).

فالأصول التلحينية التي وضعها زرياب ظلّت أساساً للغناء الأندلسي، وربما جَدَّتْ تفريعات في شؤون الألحان، اقتضتها طبيعة الموشحات والأزجال. فالمصادر لم تُشِر بوضوح إلى ما كانت عليه الموسيقى في الأندلس في عهد بني زيري، وظلت الناحية الموسيقية قبل ظهور ابن باجة إمام الأندلس في الألحان في عصر المرابطين غير واضحة المعالم[1].

ولم تقتصر الموسيقى في الأندلس على طبقة خاصة كما في المشرق، وإنما عَمَّت الشعب كله[2]. وهكذا اهتمَّ مجتمع غرناطة بالغناء والموسيقى على حدِّ قول ابن الخطيب: والغناء بمدينة غرناطة فاشٍ حتى في الدكاكين التي تجمع كثيراً من الأحداث[3]. ولم لا؟ والغناء كما يقول ابن عبد ربه: «مراد السمع، ومرتع النفس، وربيع القلب، ومجال الهوى، ومسلاة الكئيب، وأُنْس الوحيد، وزاد الراكب؛ لعظم موقع الصوت الحسن من القلب، وأَخْذِهِ بمجامع النفس[4]. وذهب أحمد مختار العبادي إلى أن الغناء والموسيقى في الأندلس أكثر انتشاراً ممّا كانا عليه في المشرق؛ لأنَّ أهل الأندلس كانوا كثيري التعلّق بهما، بحيث انتشرا في القصور والحقول، وفي الأسواق والحوانيت والبيوت والمتنزّهات[5]. وذكر المستشرق الإسباني إميليو غرسية غومس أنَّ الفيض من الأنغام المشرقية، التي حملها معه زرياب إلى إسبانيا الإسلامية والتي ترجع في مناشئها البعيدة إلى أصول يونانية وفارسية، أصبحَ الأصلَ النغميَّ للموسيقى الإسبانية»[6]. وذكر إحسان عباس أن الغناء كان وسيلة من وسائل نقل التلاحين العربية إلى ما وراء الحدود الإسلامية بالأندلس وطريقاً إلى التأثير العربي عامة[7]. وأشارت المستشرقة الألمانية زِيْغريد هونكة إلى ذلك بقولها: بدأت النظريات الموسيقية العربية تظهر في الموسيقى اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين/ السادس

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب (ج٢ ص ١١٩ ـ ١٢٠). وانظر أيضاً: عباس تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٤ (ص ٥٠ ـ ٥١).

(٢) فارمر: تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة الدكتور حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٦ (ص ٢٢١).

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٣٧) واللمحة البدرية (ص ٤٠).

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد (ج٦ ص ٣).

(٥) العبادي: الإسلام في أرض الأندلس (ص ١١٠)

(٦) Garcia Gómez. Poemas Arábigoandaluces (P 27)

(٧) عباس. تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين (ص ٥٣).

والسابع الهجريين عن طريق المغنين الدائمي الترحال، والسبايا من نساء الأندلس، وظلّتْ أوروبا مدينة لعرب الأندلس بالكثير من الآلات الموسيقية[1].

٥ ـ **نساء غرناطة**: أكثر نساء غرناطة جَوَارٍ، ممّا يدلّ على أنَّ الرقيق كان كثيراً. وكانت الجواري متفاوتاتٍ في المنزلة الاجتماعية؛ فمنهنّ اللواتي يُتَّخَذْنَ للخدمة، ومنهنَّ اللواتي يتخذن للذّة والنسل، والفريق الثاني بطبيعة الحال أرفع منزلة من الأول[2]. وكانت حرية الحركة، يقول إحسان عباس، مقصورة على هؤلاء الجواري، وإن المرأة الحرة كانت مقصورة تعيش خلف حجاب غليظ، ولعلّها تشبه في ذلك أختها في المشرق[3].

والحقيقة أنّ نساء غرناطة كُنَّ، كغيرهن من نساء مدن الأندلس، أكثر تحرّراً من نساء المشرق. يذكر ابن الخطيب أنهنَّ كُنَّ في أيامه يَخْرُجْنَ في المناسبات في جماعات كبيرة ويختلطْنَ بالرجال، وقد وصف ذلك في مناسبة استقبال سلطان **غرناطة** أبي الحجاج يوسف بن نصر بقوله: «واختلط النساء بالرجال، والتفَّ أربابُ الحِجَا بربّات الحِجال، فلم نُفَرِّقْ بين السّلاح، والعيون المِلَاح، ولا بين حُمْرِ البُنُوْد، وحُمْرِ الخدود»[4]. كما وصفهنَّ بقوله: حريم غرناطة حريم جميل، موصوف بالسحر واعتدال السِّمَن، وتنعُّم الأجسام، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطِيْب النَّشْر والشّذَا، وخفّة الحركات، ونُبْل الكلام، وحسن المحاورة. إلاّ أنَّ الطول يندر فيهنَّ، وقد بَلَغْنَ من التفنّن في الزينة والتنافس في الذهبيّات والديباجيّات والتماجن في أشكال الحُلَى إلى غاية بعيدة[5]. وقد علّق عنان على هذا الوصف بقوله: «ويصف نساءهم بالجمال والرشاقة والسحر ونبل الخلال، ولكنه ينعي عليهنّ المبالغة في التفنّن في الزينة والتبهرج في عصره»[6].

وأضاف: إن أوصاف ابن الخطيب لنساء مملكة غرناطة في عصره ما تزال حتى اليوم ماثلة في نساء غرناطة الإسبانية مثولاً قوّياً يستلفت نظرَ كلِّ من تَجَوَّلَ في

---

(١) هونكة. شمس العرب تسطع على الغرب (ص ٤٩٢)

(٢) ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي (ج١ ص ٦٨ ـ ٦٩).

(٣) المصدر نفسه (ص ٧٠).

(٤) ابن الخطيب: مشاهدات لسان الدين (ص ٥٠).

(٥) نفسه: الإحاطة (ج١ ص ١٣٩) واللمحة البدرية (ص ٤١)،

(٦) عنان: نهاية الأندلس (ص ٦٥).

ربوعها[1]. وقد لا ينطبق وصف ابن الخطيب هذا على نساء غرناطة، اللواتي كُنَّ في عهد بني زيري؛ لِمَا عُرف عن هؤلاء من تزمت وتشدد في الناحية الاجتماعية.

وذكر لوبون أنَّ النِّسْوة الأندلسيّات اشْتُهِرْنَ بالمعرفة العلمية والأدبية، وأنهنَّ كُنَّ مُحِبّات للدرس[2]. وذكر ابن حزم أن الفرق بين النساء والرجال هو في العمل وأنواع النشاط؛ فالنساء متفرّغات البال من كل شيء إلّا من الحبِّ، والرجالُ مُقْتَسَمُوْنَ في صحبة السلطان، وطلب العلم، وحياطة العيال، وكسب المال، ومكابدة الأسفار والصَّيْد، وضروب الصناعات، ومباشرة الحروب[3]. وعدَّد وظائف النساء بقوله: منهنّ الطبيبة، والحَجَّامَة، والماشطة، والنائحة، والمغنّية، والكاهنة، والمعلّمة، والمستخدمة، والعاملة في المغزل والنسيج، وما أشبه ذلك[4].

٦ ـ **أعياد أهل غرناطة**: كان لمسلمي غرناطة أعياد ومواسم دينية على نسق ما كان يعرفه المشرق، كعِيدَيْ الفِطْر والأضْحَى، وعيد المولد النبوي الشريف، وموسم عاشوراء. كذلك عَرَفوا أعياداً قومية كعيد العصير الذي كان، على ما نعتقد، مشتركاً لجميع عناصر مجتمع غرناطة. وكانت عادة أهل غرناطة، يقول ابن الخطيب، هي الانتقال إلى حِلَلِ العصير أوان إدراكه بما تشتمل عليه دُوْرُهُمْ، والبروز إلى الفحوص (المروج) بأولادهم وعيالهم، مُعَوِّلِيْنَ على شهامتهم وأسلحتهم للتصدِّي لعدوّهم[5]. وكان هذا العيد، حسبما يذكر أحمد مختار العبادي، يُقام عند جَنْي محصول العنب وعصره وهو المحصول الرئيس هناك، بحيث كانوا ينتقلون إلى حقول الكرم عدة أيام يجمعون خلالها محصولهم في جوّ يسوده الغناء والرقص، وهي عادةٌ ما تزال مستمرة في غرناطة وسائر مدن إسبانيا حتى اليوم[6]. ويضيف العبادي: كذلك كانوا يحتفلون في مناسبات أخرى كالانتصارات والزواج والإعذار (خَتْنُ الأبناء)، وذلك بوسائلَ

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٣٩، حاشية ٥).

(٢) لوبون: حضارة العرب، ترجمة الأستاذ عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩ (ص ٤٨٩).

(٣) ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي (ج١ ص ١٦٥).

(٤) المصدر نفسه (ص ١٤٢)

(٥) ابن الخطيب. الإحاطة (ج ١ ص ١٣٨) واللمحة البدرية (ص ٤٠). والحِلَلُ جمع حِلَّة وهي المحلة. والفحوص: جمع فحص، وقد تقدم الحديث عن فحص غرناطة (ص٤١ ـ ٤٢).

(٦) العبادي: الإسلام في أرض الأندلس (ص١٠٦ ـ ١٠٧).

مختلفةٍ كالغناء، والموسيقى، والرقص، وألعاب الفروسية، وسباق الخيل، وحفلات الصيد والقنص [1].

٧ ـ **بعض عوائد أهل غرناطة وبعض سِيَرِهم**: ينفرد ابن الخطيب بذكر بعض عوائد أهل بلده غرناطة وما جُبِلوا عليه حتى أيامه، فيقول: كان قُوْتُ أهلِ غرناطة الغالب هو البُرُّ الطيّب، وكان الضَّعَفَةُ والفَعَلَةُ والفلاحون يقتاتون أحياناً الذُّرَة العربية العذبة في فصل الشتاء. وكانت فواكههم رَغْدة، وكان العنب بحراً لكثرة كرومه، وكانت فواكههم اليابسة متعدّدة، وكانوا يدّخرون العنب سليماً من الفساد إلى نصف العام أو ثلثيه، كما ادّخروا غيره كالزبيب والتين، والرمان، والتفاح، والقَسْطل، والبَلُّوْط، والجوز، وغيرها من الفواكه [2].

وكانت حُلِيُّ أهل غرناطة من الذهب الخالص والفِضّة، فما كان من الذهب انحصر في القلائد والدَّمالج والشُّنُوف والخلاخيل، وما كان من الفضة انحصر في كثير من آلات الرِّجْلَيْن. أمّا الأحجار النفيسة، فكانت من الياقوت، والزَّبَرْجَدِ، والزُّمُرُّد، ونفيس الجوهر. وكان سلاح جمهورهم العِصِيُّ الطويلة المثناة بعِصِيّ صغار ذوات عُرى في أواسطها، تُدْفَعُ بالأنامل عند قذفها، وتُسمَّى الأمداس [3].

ثالثاً ـ طبقات مجتمع غرناطة:

كان مجتمع غرناطة يعاني من تناقض رهيب؛ فالثروة فيه لم تكن تُوَزَّع توزيعاً عادلاً، ممّا أتاح وجود ثلاث طبقات؛ طبقة أرستقراطية تعيش حياة ترف ونعيم، وأخرى فقيرة تعيش في بؤس دائم، وثالثة تعيش وسطاً بين الاثنتين.

وقبل الشروع في الحديث عن هذه الطبقات الثلاث يستحسن بنا أن نستأنس بالتقسيم الاجتماعي الذي يقدّمه لنا ابن الخطيب، وزير غرناطة وشاعرها وأديبها، والذي ينطبق على المجتمع الأندلسي في جميع مدن الأندلس وفي كل العصور الأندلسية: «وكان الناس يومئذ (أي في عهد هشام المؤيّد آخر خلفاء بني أمية) ـ لا بلْ

---

(١) العبادي الإسلام في أرض الأندلس (ص١٠٨).

(٢) ابن الخطيب الإحاطة (ج ١ ص ١٣٧) واللمحة البدرية (ص ٤٠). والقَسْطل هو ما يقال له بالأندلس الكستنا أرسلان. الحلل السندسية (ج١ ص ٢٩٠)

(٣) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ١٣٦ ـ ١٣٩) واللمحة البدرية (ص ٣٩ ـ ٤٠).

وفي كل زمان ـ أربعة: فَصِنْفٌ[١] هَمُّه الدُّنيا التي ينالُها بسبب الولد، هَبْهُ بالغاً، أو مراهقاً، أو طِفْلاً في المَهْد، أو جَنِيْناً في المَشِيمَة، وهُمْ صنائعُ الحَكَم (أي الحاكم)، وخُدّامُهُ، وعُمّالُه، وفِتْيانُهُ، ورجالُه... وصِنْفٌ[٢] مُرْتَقٍ من الديوان، مشهورُ العنايةِ والمكان، أو مجهول الشّان، راضٍ بحظِّه من الزمان، لا يتشوّق إلى المزيد ولا يَحْذِرُ من النقصان، قد تساوتْ في الدُّول أحوالُهُ، وسكنتْ إلى الرِّزْق والمفروض آمالُهُ... فهو هادِئٌ ساكن، وإلى فئة العافية راكن. وصِنْفٌ[٣] يُؤمِّلُ أمراً، ويشبُّ إنْ قَدَرَ جَمْراً... مُسْتَوْحِشٌ بِبَخْسِ حَقِّه، وجَحْد سَبْقِهِ... وهذا الصنف المُنَازِعُ المُنَافِسُ بَيْنَ أنْ يَصْمُتَ فيموتَ بدائه، أو يَجْهَرَ بالمنازعةِ فينتهي إلى قَدَرِ الله وقضائه. وكان في ذلك الوقت أضعفَ الأصناف... وصِنْفٌ[٤] من أهل الدنيا والآخرة، قلَّدوا أهلَ الحَلِّ والعَقْد، والقَبُوْل والرَّدُّ اجتهادُهُمْ، وسألوا الله توفيقَهُمْ وسَدَادَهُمْ... وهُمْ أشرفُ أوطاناً، وأعظم سلطاناً... وهُمْ جُمْهورُ الناسِ من الفقهاء والعلماء، والخاصّة والدَّهْمَاء.... وصِنْفٌ[٥] غارمٌ، لا هَمَّ له إلاَّ فيمنْ يُخَفِّفُ أَصْرَه[٦]، أو يُدِيْلُ باليسْر عِسْره. وأمّا هؤلاء، فأوباش أسواق. وحَمْقى ما لهمْ من أخلاق... وصِنْفٌ[٧] هَمُّه الآخرة، بعيدٌ من تعريجٍ على شيء من الدنيا... إنما هو مشغولٌ بربِّه خاصّة. وهذا جِيْلٌ قليلٌ، وإنما ذُكِرَ مراعاةً للتقسيم. لا تخلو الأقطار منهم، فهمْ بركَاتُ الله بين عباده، وأولياؤه منهم»[٨].

أ ـ طبقة الخاصة أو الأرستقراطية:

تعتبر هذه الطبقة أغنى طبقات مجتمع غرناطة وأكثرها ثراء، وتتكوّن من أفراد الأسرة الحاكمة، وكبار الملاّكين، وكبار الأغنياء. وقد انفردت باقتسام أرض غرناطة،

---

(١) هذا الصِّنْفُ هو ما أُلحِقَ بالطبقة الحاكمة.

(٢) هذا الصنف هو الطبقة الوسطى الراضية بوصعها الاجتماعي.

(٣) هذا الصىف هو الطبقة الدنيا المهيّأة للثورة أكثر من غيرها، وهو أضعف الأصاف وأتعسها.

(٤) هذا الصىف هو العلماء والفقهاء ورجال الدين.

(٥) هذا الصِّنْفُ هو الذي يؤدّي ما عليه من ديون وضرائب، يقال غَرِمَ الرجلُ الدَّيْنَ وغير ذلك إذا أدّاها، فهو غارم.

(٦) الأَصْرُ، بفتح الهمرة وكسرها وضمّها. هو العبء الثقيل

(٧) هو صنف الزُّهّاد والنُّسّاك

(٨) اس الحطيب· أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٤٤ ـ ٤٨).

وسيطرتْ على معظمها؛ فأمراء بني زيري مثلاً كانوا يمثّلون قمة الثراء والملكية، بحيث لمن يكن يوجد حدود فاصلة بين خزانتهم الخاصة وبين بيت المال العام، أي خزينة الدولة.

وكان معظم أفراد هذه الطبقة يميلون إلى الترف والاسترخاء والعبث، وينغمسون في حياة اللهو والغناء والصَّيْد، ولم يكن أمامهم سوى التمتّع والاستئناس بالحياة الدنيا على حساب السواد الأعظم من شعب غرناطة. وقد عمل أمراء بني زيري على تقوية تلك الطبقة، كونهم منها، وذلك بهدف إشغالها بالأمور المادّية وإبعادها عن المشاركة في شؤون الحكم حتى لا تصبح خطراً على سلطانهم السياسي.

وفيما يتعلّق بالمرأة الأرستقراطية، فإنَّ المؤرّخين لم يُغْفِلوا ذكرها البتّة، فقد تحدّثوا عن قُدُراتها الثقافية والفنّية والاجتماعية، واستعرضوا محاسنها وصفاتها الحسنة ليرفعوا من مكانتهم لدى الحاكم ويحصلوا بالتالي على ما يريدون من صلات. وكانت علاقاتها بزوجها الأرستقراطي بغير المستوى الذي كانت عليه المرأة المنتمية إلى طبقات أخرى؛ فهي غير مضطرّة بشكل عام للقيام بأي عمل داخل البيت أو خارجه؛ لأن أطفالها يقوم بتربيتهم الجواري والأَمَواتَ الحاضنات. ويظلّ هَمُّها محصوراً في أن تَحْظَى بحبِّ زوجها رغم معرفتها بعلاقاته مع غيرها. وإذا كانت عزباء فإنَّ مشاغلها تنحصر غالباً في البحث عن الزوج الذي يملأ قلبها حُبّاً. وسواءٌ كانت متزوجةً أو عزباءَ؛ فإنَّ شغلها الشاغل هو الحب. يذكر ابن حزم أنهنَّ كُنَّ متفرّغات البال من كل شيء، إلاّ من الجِماع ودواعيه، والغزل وأسبابه، ولا شغل لهنَّ غيره، ولا خُلِقْنَ لسواه[1].

وكون الرجل الأرستقراطي مسلماً، فله الحقُّ في أن يتزوّج أربع نساء من الحرائر، وما شاء من الإماء، وأولادُ الإماء شرعيون كأولاد الحرائر، وله أنْ يُطَلِّقَ زوجته، ولكن عليه بالمقابل أن يصنع ما يَكْفَلُ به مصيرها[2]. وهكذا كان له الحرية المطلقة لإشباع رغباته الجنسية مع غير زوجته، مُفَضِّلاً زوجةً على أخرى أو جاريةً على غيرها دون رادع يردعه. لذلك قليلاً ما نجد في الوسط الأرستقراطي الحبَّ

(١) ابن حزم. رسائل ابن حزم الأندلسي (ج١ ص ١٦٥) وطوق الحمامة (ص ١٤٠)
(٢) لوبون: حضارة العرب في الأندلس (ص ٤٩٥).

العميق الذي نراه في أوساط طبقية أخرى. وقد يخلص هذا الرجل لزوجته، ولكن مع عدم الاقتصار على واحدة؛ فحبُّه لها هو الذي يُعَوَّلُ عليه وليس حبّ زوجته له؛ لأنّ المرأة فُرِضَ عليها طاعةُ زوجها وتنفيذُ رغباته الجنسية متى شاء.

وقد أُهْمِلَت المرأة الحرة في المجتمع الغرناطي من قبل الرجل، وفُرِضَتْ عليها القيود، كمراقبتها في القصر، بحيث لم يكن يسمح لها بالخروج إلاَّ في حالات خاصة.

ب ـ طبقة العامة:

تضمُّ هذه الطبقة طبقتين: الوسطى والدنيا.

١ ـ الطبقة الوسطى: تضمُّ هذه الطبقة التُّجّارَ الكبار والمتوسّطين، وأصحابَ الأعمال والمشاريع الصناعية، وموظّفي الدولة التابعين، والملاّكين الصغار بمن فيهم المزارعون الكبار والمتوسّطون، وانضوى إليها كافةُ عناصر المجتمع. وقد عاش معظم أفرادها في غرناطة كونها مقرَّ الحكم وعاصمة المملكة آنذاك، ممّا زاد من سكانها وجعلها مركزاً للتقدّم والتطوّر في جميع الميادين.

اهتمّت هذه الطبقة بالعمل الصناعي والتجاري، فتطوّرت بذلك الحركة الحرفيّة ووصلت إلى مستوى عال. وظلت شديدة الارتباط بالطبقة الأرستقراطية الحاكمة من أجل الحفاظ على مصالحها؛ إذ كان التجار الكبار والمتوسّطون يقفون بجانب طبقة الحاكم حرصاً منهم على جمع المادّة والعمل على ازديادها، وكانوا يطالبون السلطة باستمرار بحماية تجارتهم، وإذا ما تمَّ لهم ذلك أسرعوا إلى تأييدها. يذكر الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري أنَّ التجار كانوا «مع من سبق، لا طاقة لهم بالحرب، ولا هُمْ أَهْلُه»[1].

وهكذا نشطت حركة التجار في مملكة غرناطة في ظل بني زيري، إلاَّ أنهم ظلّوا مقصّرين عن اللحاق بالملاّكين الكبار في مسألة الغنى والنفوذ الاقتصادي.

وكذلك لم يصل أصحاب الأعمال والمشاريع الصناعيّة إلى ما وصل إليه هؤلاء التجار والملاّكون الكبار في شأن امتلاك الثروات الضخمة. أمّا علاقتهم بالطبقة

---

(١) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٥٠).

الحاكمة، فإنها لا تختلف عن علاقة إخوانهم التجار بها؛ فهي علاقة ماديّة تتراوح وفق تنفيذ أغراضهم من قبل الدولة.

أمّا موظّفو الدولة التابعون، فهم الوزير، والقاضي، وصاحب المدينة، وصاحب الشرطة، إضافةً إلى أصحاب الوظائف التي لا تقلّ أهمّيّة عن الوظائف المذكورة. وبمعنى آخر، إنهم ذوو المستوى المعاشي المتوسط. وقد سُمُّوا بالتابعين لارتباطهم بالأرستقراطية الحاكمة ارتباطاً وثيقاً، ولأنّ ولاءهم لها متّجهٌ إلى الهدوء والمسالمة. وغالبية هؤلاء أبناءُ أُسَرٍ كبيرة، يَتَقَاضَوْنَ مرتّبات عالية.

وكان الملاّكون الصغار والمزارعون الكبار والمتوسّطون يلاقون مصاعب من قبل الطبقة الحاكمة، وذلك خلافاً لغيرهم من أفراد تلك الطبقة.

وفيما يتعلّق بالمرأة المنتمية إلى هذه الطبقة، فإنها لم تكن تختلف كثيراً عن المرأة الأرستقراطية.

ويُسْتَخْلَصُ ممّا وَرَدَ معنا أنَّ أفراد الطبقة الوسطى لم تسمح لهم الظروف بالحصول على ثروات ضخمة كما هي حال طبقة الخاصة، وأنهم كانوا يعملون على حماية ما يملكون، ويَسْعَوْن إلى توسيع ثرائهم على حساب غيرهم من العامّة، وذلك من أجل الوصول إلى مستوى الطبقة الأولى.

٢ ـ **الطبقة الدنيا**: اتّجهت غالبية المؤرّخين الأندلسيين إلى كتابة تاريخ الطبقة الحاكمة وعدم الاكتراث بغيرها من الطبقات؛ فحديثهم عن الطبقة الدنيا إنّما يندرج تحت باب الحديث عن طبقة الحكم. ورغم المعلومات القليلة المتعلّقة بالطّبقه الدنيا والمتناثرة في صفحات الكتب هنا وهناك، فقد استطعْنا أن نكوِّن صورة مقبولة عنها؛ فهي تضمُّ كافّة عناصر مجتمع غرناطة، وينضوي إليها العامل، والحرفي، والتاجر الصغير، والأجير، والمزارع الصغير، والقَصّاب، وحتى العاطل عن العمل. ومعنى ذلك هي الأكثرية الساحقة من أهل غرناطة، والسواد الأعظم من السكان الذين كانوا يفتقرون حتى إلى قوْتهم اليومي. ويقدّم لنا ابن عذاري صورة تعكس حياة أُناسٍ كانوا يَلْبَسُوْنَ الجلود والحُصْر، ويأكلون البَقْلَ والحشيش، وذلك في أيام مبارك ومظفر العامريين ببلنسية[1].

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب (ص٣ ص ١٦٢).

وهكذا فإنَّ هذه الطبقة أكثرُ تهيّؤاً للثورة من غيرها، وأكثرها تأثّراً بالأزمات والحروب والقَحْط والجفاف؛ فمستوى حياتها مُتَدَنّ، والبَوْنُ شاسع بين مستوى حياتها ومستوى حياة الارستقراطيين والأغنياء.

وإذا كانت هذه الطبقة راضية بوضعها المُزْري، فقد رضيتْ به، منطلقةً من إيمانها بما كتب الله تعالى عليها وبشرعيّة الحكم ووجوب طاعته. وبرغم إيمانها بالقضاء والقدر، فإنها لم تكن تابعة كلّيّاً للطبقة الحاكمة كما كان شأن الطبقة الوسطى.

وكانت هذه الطبقة أكثر الطبقات استياءً من زيادة الضرائب التي كان أمراء بني زيري يُثْقِلون كواهل أفرادها بها. ولم يكن لها، على حَدِّ قول عنان، إلَّا أنْ تخضع لما يفرض عليها من المغارم التي يستخدمها الأمير لإقامة بلاطه الفخم ولحشد جنده وتنفيذ مشاريعه العسكرية التي قلّما تخرج عن مهاجمة جاره الأضعف منه لانتزاع ما في يده، إلى قضية الدفاع عن الأندلس ضد النصارى الإسبان[1].

وعن وضع المرأة العامّيّة الاجتماعي، فإن مؤرّخي الأندلس لم يقدّموا لنا صورة عنه؛ كونهم أغفلوا طبقة العامّة، وكون المرأة العامية لم تكن تشكل عندهم باب رزق كما كانت الحال عند المرأة الارستقراطية. وبرغم ذلك فإننا نكوِّن فكرة عنها، ويتبادر لنا أنَّ علاقتها بزوجها كانت تقوم على أساس التعاون والتعاضد لتأمين الحاجات المادّية اليوميّة إلى جانب تربية أطفالها وتدبير شؤون منزلها.

وعن الرجل العامّيّ نقول: بسبب ضِيْق وضعه المادّيّ، كان يتعذّر عليه اقتناء النساء المملوكات؛ لأنَّ أسعارهنّ كانت مرتفعة جداً، بحيث لم يكن بمقدوره شراء جارية أو أَمَة، وليس باستطاعته تحمُّل مثل هذا العبء المادي الكبير. وإذا ما حصل على جارية، وهذا نادرٌ جداً، يكون ذلك في فترات الغزو التي فيها ينخفض سعر الجارية

---

(١) عنان. دول الطوائف (ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣).

الحياة الأدبية واللغوية
والعلمية في مملكة غرناطة في عهد بني زيري

لمحة عامة: برغم الانحلال السياسي الذي عرفته الأندلس في عصر ملوك الطوائف، فإن نهضة ثقافية هائلة سادت البلاد؛ وذلك بفضل تنافس هؤلاء الملوك في اجتذات فحول الشعراء والكُتّاب والعلماء إلى حواضرهم التي حوّلوها، على حَدِّ قول المستشرق الإسباني إميليو غرسية غومس، إلى «بغدادات صغيرة»(١). فهؤلاء الملوك كانوا يتنافسون في فخامة الشأن، حتى عُرِف عهدهم بالرخاء، وغدت بَلَاطَاتُهم أماكن لاجتماعات فكرية يتحلّق فيها الشعراء والأدباء والعلماء والفنانون(٢).

ولقد كان شعب غرناطة، كغيره من شعوب الأندلس، كثير الإقبال على العلم، سبّاقاً في ميدان الآداب والعلوم، متوقّد الذهن، مكتسب المعارف. يذكر المقري، نقلاً عن ابن سعيد، أن أهل الأندلس كانوا كثيري الرغبة في العلم، وكان العالِمُ عندهم معظّماً من الخاصة والعامة. ولعدم وجود مدارس تُعِيْنُهم على طلب العلم، فقد كانوا يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة، أي كانوا يطلبون العلم بباعث ذاتي، ويُنْفِقون من عندهم حتى يعلموا، وكلُّ العلوم لها عندهم حظٌّ واعتناء إلاّ الفلسفة والتنجيم؛ فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصّهم، ولا يُتَظاهر بهما خوف العامة، ومن كان يشتغل بهما أَطْلَقَتْ عليه العامة اسم زنديق، وقَيَّدَتْ عليه أنفاسه، فإنْ زَلَّ في شبهة رجموه بالحجارة، أو أحرقوه قبل أن يصل أمره للحاكم، أو قتله الحاكم تقرّباً لقلوب العامة. وكثيراً ما كان ملوكهم يأمرون بإحراق كتب الفلسفة(٣). ويضيف: كان للفقه عندهم رونق ووجاهة، فكانت سِمَةُ الفقيه عندهم جليلة، بل

---

(١) Garcia Gómez: Poemas Arábigoandaluces (P 32).

(٢) الرافعي: تاريخ آداب العرب، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، مصر، ١٩٤٠ (ص ٢٩٢)؛ ليفي - بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس (ص ٣٠).

(٣) المقري: نفح الطيب (ح١ ص ٢٢٠ - ٢٢١).

أرفع السمات. وكان النحو عندهم في نهاية من علوّ الطبقة، فكانوا كثيري البحث فيه، وكلُّ عالِمٍ لا يكون متمكّناً منه فليس عندهم بِمُسْتَحِقّ للتمييز. وعلم الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر أَنْبَلُ علم عندهم. والشعر عندهم له حظ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وَجَاهَةٌ، والمُجِيْدون منهم يُنْشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويُوَقَّع لهم بالصِّلات على أقدارهم[1].

وهكذا حفل عهد ملوك الطوائف بالشعراء والأدباء، وساد البلادَ نهضةٌ أدبية رائعة، وصفها إميليو غرسية غومس بقوله: «كان هذا العصر عظيماً للشعراء... وكان الشعر قد أينع ثمرُه أكثر من غيره من الفنون ولا سيما في إشبيلية عاصمة بني عباد»[2]. وشاركه الرأي ألبير مطلق، فقال: «كانت الصبغة الأدبية أغلب على هذا العصر من سواها؛ لحاجة كلِّ أمير إلى بطانة من الشعراء تُشِيْدُ بمناقبه وتنتحل له مناقب أخرى ليست فيه»[3]. ويقدّم لنا الشُّقُنْدي صورة شبه كاملة عن حال الأدب في عواصم الأندلس فيقول: «ولمّا ثار بعد انتثار هذا النظام ملوكُ الطوائف وتفرّقوا في البلاد، كان في تفرّقهم اجتماعٌ على النِّعَم لِفَضَلاء العِباد، إذ نَفَّقوا سوقَ العلوم، وتَبَارَوْا في المَثُوبَة على المنثور والمنظوم، فما كان أعظم مباهاتهم إلّا قول العالِمُ الفلاني عند الملك الفلاني، والشاعر الفلاني مُخْتَصٌّ بالملك الفلاني... وقد سَمِعْتَ ما كان من الفِتْيان العامرية مجاهد ومنذر وخيران، وسمعْتَ عند الملوك العربية: بنو عباد وبنو صمادح، وبنو الأفطس، وبنو ذي النُّوْن، وبنو هود؛ كلٌّ منهم قد خُلِّدَ فيه من الأمداح ما لو مُدِحَ به الليلُ لصار أضوأ من الصباح، ولم تزل الشعراء تتهادَى بينهم تهاديَ النَّواسم بين الرياض، وتَفْتِكُ في أموالهم فَتْكة البَـرّاض»[4]. ويلاحظ هنا أن الشقندي يستثني بعض ملوك الطوائف ومنهم بنو زيري، وهو على بعض حقّ؛ لأن هؤلاء الزيريين لم يَسْطع الأدب في حاضرتهم ويصل إلى المستوى الذي وصل إليه في سائر العواصم الأندلسية.

---

(١) المقري نفح الطيب (ج١ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢).

(٢) García Gómez: Poemas Arábigoandaluces (P 32)

(٣) مطلق: الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت سنة ١٩٦٧ (ص ٢٥٧).

(٤) المقري: نفح الطيب (ج٣ ص ١٨٩ ـ ١٩٠) والبَرّاض: هو الذي يأكل كلَّ شيء من ماله ويُفْسِده

أولاً ـ النشاط الأدبي :

كان التباين واضحاً في الصبغة الأدبية التي انتحلتها كل إمارة من إمارات الطوائف، ويعود ذلك إلى ميول ملوك دون آخرين. ففي دولة بني زيري لم تزدهر الآداب كما ازدهرت في سائر الإمارات؛ لأن احتفال بني زيري بالأدب كان أقلّ من احتفال نظرائهم به. وبرغم ذلك، فقد عرف بلاطهم كوكبة من الأدباء والشعراء، إذ كان حبوس يُصْغي إلى الأدب[1]. وكان عبد الله أديباً شاعراً جيد الشعر والكتابة، وكان ذا حظ من البلاغة والمعرفة، وقد ألّف كتاباً وهو في منفاه بأغمات، سرد فيه تاريخ أسرته منذ تسلمهم الحكم حتى الإطاحة بعرشه، وأسماه بكتاب التبيان[2].

وقد أحاط بنو زيري أنفسهم بطائفة من الشعراء الأدباء الذين وهبوا ملكهم عِزّاً وَمَجْداً أثيلين. فإسماعيل بن يوسف ابن نغرالة اليهودي، وزير حبوس وباديس بن حبوس من أهل الأدب والشعر[3] وقد عُدَّ من أكبر شعراء اليهود في الأندلس[4]. وله ديوان شعر يحتوي على ما يقرب من ألفي قصيدة ومقطوعة، تتناول الموضوعات الدينية والدنيوية[5].

وكان أبو عمر أحمد بن يحيى بن عيسى الإلبيري أديباً شاعراً، وقد لزم حبوس ابن ماكسن، وتوفي بغرناطة سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م[6].

وكان أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني قد التحق ببلاط باديس بن حبوس، وكان أحد فحول شعراء الأندلس وأدبائها. وله مقامات مشهورة عارض بها مقامات بديع الزمان الهمذاني، وله مصنفات عديدة، منها «أبكار الأفكار»، وقد وسمه باسم باديس، وهو كتاب في الأدب والشعر، ويدور حول

---

(١) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٤٦٠)؛ ابن سعيد: المغرب (ج٢ ص ١٠٧)

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة (ج٣ ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٥).

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب (ج٣ ص ٢٦٤).

(٤) Gonzalo Maeso: Manual (P. 473)

(٥) ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي (ج٣ ص ١٠، من مقدمة المحقق)، Gonzalo Maeso: Manual (P. 472)

(٦) ابن بشكوال. الصلة، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري بالقاهرة، دار الكتاب اللبناني بيروت، سنة ١٩٨٩ (ص ٨٣).

الحكم والأمثال، وكتاب «أعلام الكلام»، وهو عبارة عن رسالة في الشعراء ومراتبهم ونقد شعرهم[1].

والتحق ببلاط باديس الأديب الشاعر أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني المشرقي. وكان قد تلقى ببغداد الأدب والفلسفة والحكمة والمنطق والفلك والنجوم، وصار عالماً أديباً شاعراً. غلب عليه حفظ الغريب والشعر الجاهلي الإسلامي، وكان قوي الحفظ في اللغة. وإلى جانب ذلك، كان فارساً شجاعاً متصرّفاً في حمل السلاح، حاذقاً بأنواع الجندية، نافذاً في ضروب الفروسية، يمتطي الجواد الأصيل، وينتضي السيف الصقيل. قدم الأندلس سنة ٤٠٦ هـ/ ١٠١٥ م، وأقام بقرطبة، ثم التحق بأبي الجيش مجاهد العامري صاحب دانية، فأكرمه وأجزل عليه، ثم رحل إلى سرقسطة مقرِّ منذر بن يحيى التجيبي. ثم طرأ على غرناطة وقام فيها بوظيفة التدريس يُلْقي محاضرات عن الشعر القديم. وقد لقيه ابن زيدون بغرناطة وأخذ عنه أخبار المشارقة. ثم شارك أبو الفتوح في عسكر باديس، وقُتل على يديه لتهمةٍ لحقته عنده في القيام عليه مع ابن عمه، يَدَّيْر بن حباسة بن ماكسن، وذلك ليلة السبت لاثنتين بقيتا من المحرم لعام ٤٣١ هـ/ ١٠٣٩ م. وقد حزنت لمقتله جماعة من الأدباء والعلماء النابهين بغرناطة[2].

وكان أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعد أو سعيد التجيبي الإلبيري أديباً شاعراً، ومعظم شعره في الحِكَم والمواعظ والزهد، وله ديوان صغير مطبوع. وقد عمل كاتباً خاصاً لقاضي غرناطة أبي الحسن علي بن محمد بن توبة، وكان ينكر على باديس استيزاره يوسف ابن نغرالة اليهودي، فسعى به ابن نغرالة إلى باديس، فنفاه هذا الأخير إلى إلبيرة، وكانت وفاته فيها نحو سنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٨ م، وقيل: آخر سنة ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٧ م. وقد اشتهر بقصيدته النونية الشهيرة التي حرَّض فيها المسلمين على اليهود،

---

(١) تقدم الحديث عنه ص ١٦١

(٢) الحميدي حذوة المقتبس (ص ١٨٤، ٣٥٢)؛ ابن بسام: الذخيرة (ق٤ ص ١٢٤ - ١٢٥)، الضبي: بعية الملتمس (ص ٢٥٣)؛ ابن بشكوال: الصلة (ص ٢٠٦)؛ ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٥٤ - ٤٥٨)؛ السيوطي· بعية الوعاة (ص ٢١٠). وانظر أيضاً:

Pérès La poésie Andalouse (P. 42), Pons boigues· Ensayo biobibliograficos sobre los historiadores y geógrafos aràbigoespanoles, Madrid, 1898 (P. 392).

وكانت سبب استئصال شأفتهم، وقد تقدم ذكرها عند الحديث عن ابن نغرالة[1].

وكان عبد الرحمن بن الحاج بن القميي الإلبيري قد التحق ببلاط باديس، وكان شاعراً مُجيداً، وقد هجا أبا الحسن ابن توبة، قاضي غرناطة، فضربه القاضي ضرباً وجيعاً، وطِيْف به على الأسواق بغرناطة، فقال فيه الزاهد أبو إسحاق الإلبيري[2]:

السَّوْطُ أبلغُ من قولٍ ومن قِيْلِ ... ومن نُباح سَفيْهٍ بالأباطيلِ

ومنهم أبو جعفر أحمد بن أيوب اللمائي، وهو من أهل مالقة، ودخل غرناطة غير مرة، وتردّد على أميرها باديس، وكان أديباً ماهراً، وشاعراً جليلاً، وكاتباً نبيلاً، وكانت وفاته بمالقة عام ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢ م[3].

ومنهم أبو علي إدريس بن عبد الله بن اليَمَان العبدري اليابسي، وكان أديباً عالماً، وأحد الشعراء الفحول، ولم يختصّ بباديس، بل كان يتردّد على غيره من ملوك الطوائف، وكانت وفاته سنة ٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧ م. ومن شعره في باديس قوله[4]:

مُتَوَقِّدٌ في الحادثاتِ إذا دَجَتْ ... فكأنَّه فيها شِهابٌ يَسْطَعُ

عَلَمٌ هو القمرُ المباهي طالعاً ... صِنْهاجَةٌ وهُمُ النجومُ الطُّلَّعُ

---

(١) الصبي: بغية الملتمس (ص ٢٢٥)؛ ابن الأبار: التكملة (ج١ ص ١٣٦ - ١٣٧)؛ ابن سعيد: المعرب (ج٢ ص ١٣٢ - ١٣٣)؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣١) والإحاطة (ج٤ ص ٨٢). وانظر أيضاً.

Dozy: Recherches (T I App LXI, LXII, LXVIII, 284 - 285, 290), Pérès: La poésie Andalouse (P. 272 - 273); Garcia Gómez Cinco Poetas Musulmanes (P. 100 - 103)

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة (ج٢ ص ٥١٧).

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس (ص ٣٩٤)؛ ابن بسام. الذخيرة (ق١ ص ٦١٧)؛ الضبي: بغية الملتمس (ص ٥٢٠)؛ ابن سعيد: المغرب (ج١ ص ٤٤٦)؛ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة لكتابَيْ الموصول والصلة، تحقيق الأستاذ محمد شريفة والدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣ (القسم الأول ص ٧٣ - ٧٤)؛ ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٢٣٢ - ٢٣٥). ولم يذكر أحد ممن ترجم له من هؤلاء المذكورين أنه كان يتردّد على غرناطة، إلّا ابن الخطيب.

(٤) الحميدي: جذوة المقتبس (ص ١٧٠)؛ ابن بسام: الذخيرة (ق٣ ص ٣٣٦ - ٣٥٥)؛ الضبي: بغية الملتمس (ص ٢٣٦)؛ الأزدي: بدائع البدائه (ص ٨٤)؛ ابن سعيد: المغرب (ج١ ص ٤٠٠)؛ ابن شاكر الكتبي. فوات الوفيات (ج١ ص ١٦١)؛ المقري: نفح الطيب (ج٤ ص ٧٥، ١٥٦) و(ج٥ ص ٦٠١).

وقد ترجم له ابن الأبار وجعل وفاته نحو ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م[١].

ومنهم أبو محمد غانم بن وليد بن محمد بن عبد الرحمن، وقيل: ابن عمر بن عبد الرحمن، المخزومي المالقي، وهو أديب ماهر، وفقيه مقدَّم، ومحدِّث جليل متفرِّس، وأستاذ في النحو واللغة، وعالم بالطب والكلام. توفي سنة ٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧ م. وعن قوة العلاقة بينه وبين باديس يروى أنه دخل يوماً مجلسه، فوسّع له باديس على ضِيْقٍ كان في المجلس، فقال غانم على البديهة[٢]:

صَيِّـرْ فؤادَكَ للمحبوبِ منزلـةً ... سَمُّ[٣] الخِيَاطِ مجالٌ للحبيبَيْنِ
ولا تسامِحْ بَغِيْضاً في معاشرةٍ ... فقلَّما تَسَعُ الدنيا بغِيْضَيْنِ

ولما قتل سيف الدولة بلقين بن باديس مسموماً على يد الوزير ابن نغرالة قال غانم يرثيه ويمدح أباه باديس[٤]:

فقل لِلِسانِ المَجْدِ أُخْرِسْتَ مَفْحَماً ... لِفَقْدِ بُلُقِّينٍ، فما أنتَ قائلُ؟
وقد كنتُ أغدو نحو قَصْرِكَ مادحاً ... فها أنا أشدو حَوْلَ قبرك ثاكلُ
أَفِقْ أيُّها المَوْلَى الرئيسُ فإنَّما ... بقاؤك عُمْرٌ للنَّدَى مُتَطَاولُ
وإنْ كان سيفُ الدولةِ ٱنْجَابَ ظِلُّهُ ... فأنتَ لهذا المَدِّ كافٍ وكافلُ

ومنهم أبو محمد عبد الله بن خليفة القرطبي، وكان راوية للشعر والمثل السائر، وقد عرف بالمصري لطول إقامته بمصر، وكانت وفاته يوم الجمعة منتصف رجب من

---

(١) ابن الأبار. التكملة (ص ١٩٥).

(٢) الحميدي: جدوة المقتبس (ص ٣٢٥)؛ ابن خاقان: مطمح الأنفس (ص ٢٩٣ - ٢٩٤)؛ ابن بسام. الذخيرة (ق١ ص ٨٥٣ - ٨٦٩)؛ ابن خير: فهرسة ابن خير، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري بالقاهرة، دار الكتاب اللبناني ببيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩ (ج٢ ص ٤٧٤ - ٤٨٥)؛ ابن بشكوال. الصلة (ص ٦٦٩)؛ الضبي. بغية الملتمس (ص ٤٤١)؛ الأزدي. بدائع البدائه (ص ١٥٣، ٣٦٦)؛ ابن دحية: المطرب (ص ٨٤)؛ ابن الأبار. الحلة السيراء (ج٢ ص ٢٧)، ابن سعيد. المغرب (ج١ ص ٣١٧)؛ السيوطي. بغية الوعاة (ص ٣٧١)؛ المقري نفح الطيب (ج٣ ص ٢٦٥، ٣٩٨، ٤٤٧، ٥٩٥ - ٥٩٦، ٦١٥) و (ج٤ ص ٢٨، ٢٢٦، ٣٣٠)

(٣) سَمُّ الخِيَاطِ: ثِقْبُ الإبرة.

(٤) ابن بسام. الذخيرة (ق١ ص ٨٦٩). وقد ورد البيت الثاني في نفح الطيب (ج٣ ص ٣٩٨) بقافية اللام المفتوحة (ثاكلًا).

عام ٤٩٦ هـ/ ١١٠٢ م. ومن شعره في باديس قوله[١]:

إنَّ المَكَـــارِمَ صـــورةٌ معلومـةٌ أنتمْ لهـا الأسمـاءُ والأبصـارُ
ذلَّتْ لكمْ قِمَمُ الخـلائقِ مِثْلما ذَلَّتْ لشعـري فيكمُ الأشعـارُ
فمتى مَدَحْتُ ولا مَدَحْتُ سواكُمُ فمـديحُكُمْ في مَـدْحِـهِ إضمـارُ

ومن الشعراء والأدباء والعلماء الذين التحقوا ببلاط عبد الله أبو القاسم خلف بن فرج الإلبيري، المعروف بالسُّمَيْسِر. وهو شاعر معروف بهجائه المقذع، وله تصرّف مستحسن في مقطوعات الشعر، وخاصة إذا هَجَا وقَدَح. وكان له مذهب استفرغ فيه مجهود شعره من القَدْح في أهل بلده غرناطة، فكان هجوه أكثر من مدحه. وقد ألّف كتاباً سمّاه «شفاء الأمراض في انتهاك الأعراض» تناول فيه ما كان يدّعيه أهل بلده من خصال لم تكن فيهم، ووضعهم موضعهم الصحيح. ولمّا لم يُطِقِ العيشَ في ظل عبد الله غادر غرناطة، ولجأ إلى بلاط المعتصم ابن صمادح بألمرية، ومات بها في حدود سنة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م[٢].

وقبل هروبه إلى ألمرية، كان الأمير عبد الله قد صانع الملك الإسباني ألفونسو السادس وأخذ يحصّن قلعته خوفاً من يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، فتصدّى له السميسر وقال فيه[٣]:

---

(١) ابن خاقان: قلائد العقيان (ص ٧)؛ ابن بسام. الذخيرة (ق ٤ ص ٣٤٢ ـ ٣٥٠)؛ ابن سعيد. المغرب (ح١ ص ١٢٨ ـ ١٣٠)؛ المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٥٢٩) و(ج٣ ص ١١٨، ٤٠٩، ٥٤٣) و(ج٤ ص ٢٨١)

(٢) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص ٨٨٢)؛ السلفي: أخبار وتراجم أندلسية (ص ٢٨، ٨٣)؛ الأصفهاني: خريدة القصر وجريده العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، الجزء الثاني، تحقيق الأستاذين عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٦٩ (ص ١٥)؛ الأزدي. بدائع البدائه، تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الأنحلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠ (ص ٣٧٩ ـ ٣٩٤)؛ ابن دحية: المطرب (ص ٩٣)؛ ابن سعيد: المغرب (ج٢ ص ١٠٠)؛ المقري: نفح الطيب في صفحات متفرقة. وانظر أيضاً:

Gonzales Palencia Historia de la literatura arábigoespañola, Madrid, 1945 (P 23), Gómez. Poemas Arábigoandaluces (P. 35).

(٣) اعراب. الأصوات القتالية والانهزامية في الشعر الأندلسي، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، إبريل ـ مايو ـ يونيو، ١٩٨١ (ص ١٣٥)؛ طويل. مدخل إلى الأدب الأندلسي (ص ١٢٢ ـ ١٢٣) وورد البيتان الأخيران في الأنيس المطرب لابن أبي زرع (ص ٩٩) والاستقصا=

صاحبُ غرناطةٍ سَفِيْهٌ وأَعْلَمُ الناس بالأمورِ
صانعَ أَذْفُنْشَ والنصارى فانْظُرْ إلى رأيه الدَّبيْرِ
وشادَ بُنْيانَهُ خِلافاً لطاعةِ اللهِ والأميرِ[1]
يَبْني على نَفْسه سَفَاهاً كأنه دودةُ الحريرِ
دَعُوْهُ يَبْني، فسوف يَدْري إذا أتتْ قدرةُ القديرِ

وقال فيه أيضاً[2]:

قالوا أَتَسْكُنُ بلدةً نَفْسُ العزيزِ بها تَهُوْنُ؟
فأَجَبْتُهُمْ بتأوُّهٍ كيف الخلاصُ بما يكون؟
غرناطةٌ مَثْوىٰ الجنَيْـ ـنِ يلَذُّ ظُلْمَتَهُ الجَبِيْنُ

ولمّا قال فيه هذه الأبيات[3]:

رأيتُ آدمَ في نَوْمي فقلْتُ له: أبا البريّةِ، إنَّ الناس قد حكموا
أنَّ البرابرَ نسْلٌ منك، قال: إذن حَوّاءُ طالقةٌ إنْ كان ما زعموا

أباح عبد الله دمه فخرج السميسر إلى ألمرية هارباً.

وروى السلفي أنه لمّا استوزر باديسُ بن حبوس نصرانياً بعد مقتل وزيره اليهودي يوسف ابن نغرالة، قال السميسر ثلاثة أبيات وكتب بها نسخاً عدة ورماها في شوارع غرناطة وطرقاتها، وسار من ساعته إلى ألمرية معتصماً بمليكها المعتصم ابن صمادح، وطارت الأبيات في مدن الأندلس، ولمّا وقف باديس عليها أرسل وراءه أصحاب الخيل، ففاتهم ولم يلحقوه، والأبيات هي[4]:

كلَّ يومٍ إلى وَرَا بُدِّلَ البَوْلُ بالخَرَا[5]

= للناصري (ج٢ ص٥٣) وورد البيت ما قبل الأخير في الذخيرة لابن بسام (ق١ ص٨٨٧) وفي نفح الطيب للمقري (ج٣ ص٤١٢).

(١) هو أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطي.

(٢) ابن بسام الذخيرة (ق١ ص٨٨٧).

(٣) المقري: نفح الطيب (ج٣ ص٤١٢).

(٤) السلفي أخبار وتراجم أندلسية (ص ٨٣ ـ ٨٤).

(٥) الخَرَا: كلمة عاميّة، ويقال بالفصحى «الخرء».

فَـزَمَـانـاً تَـهَـوُّداً وزمـانـاً تَـنَـصُّـراً
وسَـيَصْبُـو إلى الـمَـجُـوْ سِ إنِ الـشـيـخُ عَـمَّـراً

ومن الذين التحقوا ببلاط الأمير عبد الله أبو محمد عبد الله بن فرج بن غزلون المشهور بابن العَسّال. وهو من أهل طليلطة، وقد التحق بغرناطة، وسكنها واستوطنها بعد أن سقطت طليلطة في يد الملك الإسباني ألفونسو السادس عام ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م. وكان فقيهاً جليلاً، زاهداً وَرِعاً، يعظ الناس بجامع غرناطة. وقد غلب عليه حفظ الحديث واللغة والنحو والآداب، وكان شاعراً مطبوعاً. وأشعاره في الزهد مشهورة. توفي بغرناطة يوم الاثنين لعشر خَلَوْنَ من رمضان عام ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م، وقد نيّف على الثمانين، ودفن ضحى يوم الثلاثاء بمقبرة باب إلبيرة، ويعرف المكان بمقبرة العسال[1]. ومنهم أبو عبد الله محمد بن مالك المُرِّي الطِّغْنَرِي، نسبة إلى طِغْنَر إحدى قرى غرناطة، وكان أديباً شاعراً، وكان يميل في ريعان شبابه إلى البِطالة والراحات، ثم استيقظ من غفلته وأصبح من أهل الفضل والخير والعلم. من تآليفه كتابه الشهير في الفلاحة واسمه «زهرة البستان ونزهة الأذهان». مات بعد سنة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م[2].

ومنهم أبو بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عطية المحاربي، وهو من أهل غرناطة. كان دَيِّناً فاضلاً، حافظاً للحديث وطرقه، عارفاً بأسماء رجاله ونَقَلَته، ذاكراً لِمُتُوْنه ومعانيه. وكان أديباً شاعراً لغويّاً. ولد بغرناطة سنة ٤٤١ هـ/ ١٠٤٩ م ومات بها لستٍ بَقِيْنَ من جُمادى الآخرة سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م[3].

ومنهم أبو الحسن علي بن أحمد بن خلف بن محمد الأنصاري، المعروف بابن الباذِش، وهو من أهل غرناطة، وإمام الفريضة بجامعها. كان أوحد زمانه معرفةً ومشاركةً في العلوم وانفراداً بعلوم العربية وآدابها، وكان مشاركاً في علم الحديث، عالماً بأسماء رجاله ونَقَلَته، متقدّماً في علم القراءات. ألّف في النحو كتباً كثيرة، منها شرح كتاب الإيضاح. ولد بغرناطة في شوال سنة ٤٤٤ هـ/ ١٠٥٢ م، وتوفي بها ليلة

---

(١) ابن بشكوال: الصلة (ص ٤٣٥)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج٥ ص ٢٧)؛ ابن سعيد: المغرب (ج٢ ص ٢١)؛ المقري. نفح الطيب (ج٤ ص ٣٥٢).
(٢) ابن بسام: الذخيرة (ق١ ص٨٠٥)، ابن الخطيب: الإحاطة (ج ٢ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٤).
(٣) ابن بشكوال: الصلة (ص ٦٦٧ ـ ٦٦٨).

الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ٥٢٨ هـ/ تشرين الثاني ١١٣٣ م، ودفن بمقبرة باب إلبيرة[١].

ثانياً ـ النشاط اللغوي والنَّحْوي:

أ ـ العوامل التي ساعدت الحركة اللغوية والنَّحْوية في غرناطة:

كان حظ غرناطة في عِلْمَيْ اللغة والنحو في عهد بني زيري أقلَّ من حظ غيرها من حواضر الأندلس. وبرغم ذلك، فقد واكبت الحركةُ اللغويةُ والنحويةُ النشاطَ الأدبيَّ آنذاك، وقد ساعدها على ذلك عوامل[٢] عدة، أهمها:

١ ـ الخصب اللغوي الذي أوجده أبو علي القالي (٣٥٦ هـ/ ٩٦٦ م) وتلاميذه، وهو من شأنه أن يؤثّر إيجاباً على لُغَوِيّي الفترة اللاحقة التي أُطلِق عليها عصر ملوك الطوائف.

٢ ـ تعدّد المراكز الثقافية، بحيث أصبحت كل حاضرة من حواضر الأندلس مركزاً من مراكز الأدب والعلم، وهذا من شأنه أن يعمل على تنشيط الحركة اللغوية في البلاط طولاً وعرضاً.

٣ ـ الاهتمام بإنشاء المكتبات، ولا سيما الخاصة منها. وفي هذا الجو الثقافي العام اهتمَّ الأندلسيون باللغة وعلومها اهتماماً كبيراً، وأصبح للغة والكتب اللغوية مقامها الذي لا يُنْكر.

٤ ـ التسامح النِّسْبي الذي ظهر في هذا العصر، حيث كان ملوك الطوائف متسامحين مع الذين اشتغلوا بالعلوم القديمة، ولا سيما الفلسفة والمنطق. وكان أبرزَ العاملين في حقل اللغة، المشتغلون بهذين العِلْمين اللذين منحا الاتجاه اللغوي دقة وشمولاً.

٥ ـ قدوم بعض اللغويين إلى الأندلس من أقطار أخرى ولا سيما القيروان

---

(١) ابن بشكوال: الصلة (ص ٦١٨ ـ ٦١٩)؛ ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، دار المكتاب المصري بالقاهرة، دار الكتاب اللبناني ببيروت، ١٩٨٩ (ص ٢٨٠ ـ ٢٨٤)؛ ابن الخطيب: الإحاطة (ج ٤ ص ١٠٠ ـ ١٠١).

(٢) هذه العوامل تحدّث عنها بإسهاب الأستاذ ألبير مطلق في كتابه «الحركة اللغوية في الأندلس (ص ٢٥٨ ـ ٢٧٢)، فانظره.

وصقلية، فأغْنَوا اللغة وعلومها وأَولوها اهتماماً ملحوظاً.

٦ ـ رحلة الأندلسيين إلى المشرق وإفادتهم من اللغويين المشهورين ثم عودتهم إلى الأندلس مُحَمَّلِيْنَ بالكتب اللغوية وشروحها.

٧ ـ حلقات التدريس المنتشرة في نواحي الأندلس، حيث كَثُرَ عددُ المُدَرِّسين والأساتذة اللغويين.

٨ ـ حركة التأليف اللغوي في هذا العصر الذي لا يقلُّ عن العصر السابق غِنًى في المؤلَّفات. وقد اتجه أهل اللغة اتجاهين؛ اتجاه إلى شرح كتب اللغة، واتجاه إلى التأليف المعجمي.

ب ـ لغويّو ونَحْويّو غرناطة في عهد بني زيري:

لزم بني زيري عددٌ قليل من النحويين واللغويين؛ فقد التحق ببلاط باديس أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيـرواني، وله في علم النحو كتاب البرهان[١]، وأبو محمد غانم المخزومي[٢]. والتحق ببلاط عبد الله ابنُ الباذش، وقد ألَّف في النحو كتباً كثيرة، منها شرح كتاب الإيضاح[٣]

ثالثاً ـ النشاط العلمي:

١ ـ **علوم الدِّيْن**: بلغ علماءُ غرناطة الغايةَ في علوم الدِّيْن، ونبغ منهم كثيرون في علوم الفقه والحديث والقراءات. وقد أشار الأمير عبد الله إلى ذلك بقوله: «ولم تزل الأندلس قديماً وحديثاً عامرةً بالعلماء والفقهاء وأهل الدين، وإليهم كانت الأمور مصروفة»[٤].

ففي **علم الفقـه** ظهر في عهـد حبوس أحمـد بن محمد بن أحمـد بن يزيـد الهمداني اللخمي الغرناطي، وكان فقيهاً جليلاً[٥]. وظهر في عهد باديس أبو الحسن

---

(١) تقدم الحديث عنه (ص ١٦١، ٢٦٩).

(٢) تقدم الحديث عنه (ص ٢٧٢)

(٣) تقدم الحديث عنه (ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦)

(٤) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٧).

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٥٠).

علي بـن محمد بن توبة[1]. وأبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري، فقيـه عرب غرناطة، وكان زاهداً فاضلاً ورعاً[2]. وأبو الحسن حمزة بن سعيد بن عبد الملك، وهو من أهل غرناطة، ومن أهل الفقه والنفوذ في الكلام عليه، وقد توفي يوم الأحد منتصف جمادى الآخرة من سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ م[3]. وأبو العباس أحمد بن بشير الفرضي، وله كتاب في أصول الدين رواه عنه أبو الحسن بـن الباذش وكتبه عنه في عام ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ م[4]. ومن الفقهاء بغرناطـة أيام الأميـر عبد الله أبـو عبد الله محمد بن عبد الله الصقلي، وقد قدم غرناطة، وأخذ عنه أهل غرناطـة علم الفقه، وكانت وفاته بغرناطة عام ٥٠٨ هـ/ ١١١٤ م[5]. وأبو محمد عبد الواحد بـن عيسى الهمذاني، وهو من أهل غرناطة، وكان فقيهاً حافظاً للفقه، دَيِّناً فاضلاً، وكانت وفاته سنة ٥٠٤ هـ/ ١١١٠ م[6]. والشيخ أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام الهلالي، المعروف بابن بَقْوَى، وهو من أهل غرناطة، وقد ولد بهـا في صفر سنـة ٤٤٤ هـ/ ١٠٥٢ م، وسكن ألمرية وسمع من عامة شيوخها. وبعد عام ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م، عاد إلى غرناطة، وولي الأحكام مدة بها وبغيرها من جهاتها، وكان من حفاظ الحديث والمعتنين بمعانيه واستخراج الفقه منه. وكانت وفاته بغرناطة في شهر ربيع الأول سنة ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م[7]. وأبو محمد بن فرج بن غزلون، المشهور بابن العسال، وكان فقيهاً يعظ الناس بجامع غرناطة[8].

وفي **علم الحديث** برز في عهـد باديس أبـو إسحـاق إبـراهيم بن مسعـود الإلبيري[9]. وأبو محمد غانم المخزومي[10]. وفي عهد عبد الله ظهر أبو بكر غالب

(١) ابن الخطيب الإحاطة (ج٤ ص ٨٢).
(٢) تقدم الحديث عنه (٢٧٠ ـ ٢٧١).
(٣) ابن بشكوال: الصلة (ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣)
(٤) ابن الأبار: التكملة (ص ٢٣).
(٥) ابن بشكوال: الصلة (ص ٨٧٤).
(٦) المصدر نفسه (ص ٥٦١)
(٧) ابن خير: فهرسة ابن خير (ص ٥٩٨)؛ ابن بشكوال الصلة (ص ٩٤١)
(٨) تقدم الحديث عنه (ص ٢٧٥)
(٩) تقدم الحديث عنه (ص ٢٧٠ ـ ٢٧١).
(١٠) تقدم الحديث عنه (ص ٢٧٢).

ابن عطية المحاربي[1]. وأبو الحسن علي الأنصاري، المعروف بـابن الباذش[2]. وأبو القاسم عبد العزيز بن عبد الوهاب بن أبي غالب القروي، وكان شيخاً جليلاً، وله روايات عالية. وكانت وفاته بغرناطة في ذي القعدة سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠١ م[3].

وفي **علم القراءات**: برز في عهد عبد الله ابن الباذش[4]. وأبو الحسن علي بن أحمد بن كُرْز الأنصاري، وهو من أهل غرناطة، وكان ثقة فاضلاً، متقدّماً في هذا العلم. وقد توفي بغرناطة في شهر رمضان سنة ٥١١ هـ/ ١١١٧ م[5].

٢ ـ علم التاريخ: نبغ في هذا العلم في عهد حبوس أبـو القاسم أصبـغ بن محمد ابن الشيخ المهدي الغرناطي، وقد ألّف كتاباً كبيراً في التاريخ، ولزم حبوساً، وتوفي بمدينة غرناطة ليلة الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من عام ٤٢٦ هـ/ ١٠٣٤ م، وهو ابن ست وخمسين سنة شمسية[6].

٣ ـ علوم الطب: لمع في هذه العلوم في عهد حبوس أبو القاسم أصبغ المتقدم الذكر. وفي عهد باديس أبو محمد غانم المخزومي[7]، وأبو محمد عبد الله بن خليفة القرطبي[8].

٤ ـ علم العروض: سطع فيه نجم أبي عبد الله محمد بـن شرف القيرواني في عهد باديس، فصنّف فيه كتاباً كشف به عن حقائق لم يسبق إليها العروضيون[9].

٥ ـ علوم العدد والحساب والهندسة: برغم أن أهل الأندلس لم يُقْسَمْ لهم في هذه العلوم نفاذ، بحيث قَلَّ تصرّفهم فيها على حَدِّ قول المقري[10]، فإن غرناطة نَجَمَ فيها فى عهد حبوس أبو القاسم أصبغ الذي تقدم الحديث عنه في علوم الطب، وكان

---

(١) تقدم الحديث عنه (ص ٢٧٥)

(٢) تقدم الحديث عنه (ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦).

(٣) ابن بشكوال: الصلة (ص ٥٤٨ ـ ٥٤٩).

(٤) المصدر نفسه (ص ٦١٨ ـ ٦١٩)؛ ابن الأبار: المعجم (ص ٢٨٠ ـ ٢٨٤).

(٥) ابن بشكوال: الصلة (ص ٦١٦).

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٢٨).

(٧) تقدم الحديث عنه (ص ٢٧٢).

(٨) تقدم الحديث عنه (ص ٢٧٢)

(٩) تقدم الحديث عنه (ص ٢٦١، ٢٦٩).

(١٠) المقري: نفح الطيب (ج٣ ص ١٧٦).

عالماً مشهوراً، محقّقاً في العلوم المـذكورة، ومن مؤلفـاته كتـاب «المدخـل إلى الهندسة» في تفسير كتاب إقليدس، وكتاب ثمار العدد المعـروف «بالمعـاملات»، وكتاب كبير في الهندسة تقصّى فيه أجزاءها[1]. وشهر بعلم الحساب والفرائض في عهد باديس أبو العباس أحمد بن بشير الفرضي، وهو من أهل غرناطة، وقد جمع في الفرائض كتاباً كبيراً[2].

٦ ـ **علوم الهيئة والفلك والنجـوم**: ظهـر في هـذه العلوم في عهـد حبـوس أبوالقاسم أصبغ المتقدم الذكر، وقد صنّف كتاباً في الآلة المعروفة بالأسْطُرلاب[3].

٧ ـ **علم الكلام**: لم يُقْسَمْ لأهل غرناطة ولغيرهم من المدن الأخرى في هذا العلم نفاذ، وقد قلَّ تصرّفهم فيه[4]. وبرغم ذلك، فقد برز فيه فـي عهد حبوس أبو عمر أحمد بن يحيـى بن عيسى الإلبيري الأصولي، وكان متكلّماً دقيق النظر، عارفاً بالاعتقادات على مذاهب أهل السنة[5]. وظهر في عهد باديس غانـم المخزومي[6].

---

(١) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ٤٢٨).
(٢) ابن الأبار: التكملة (ص ٢٣).
(٣) اس الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٤٢٨).
(٤) المقري: نفح الطيب (ج٣ ص ٣٩٥).
(٥) ابن بشكوال: الصلة (ص ٨٣).
(٦) ورد دكره (ص ٢٧٢).

الحياة الاقتصادية في مملكة غرناطة في عهد بني زيري

أ ـ نظام غرناطة الاقتصادي والعملة المعتمدة فيها:

كان نظام غرناطة الاقتصادي في عهد بني زيري يعتمد على الجِزْية والخَرَاج والضريبة، وكانت الجزية تُؤْخذ من أهل الذِّمَّة وهم اليهود والنصارى. وكان الخَرَاج يُضْرَبُ على ما تغلُّه الأرض. أمّا الضريبة، فقد ذهب عنان إلى أنها كانت تُفْرَضُ على رؤوس البقر والغنم والدوابّ، وخلايا النحل، وعلى كل ما كان يُباع في الأسواق[1]. وكان بنو زيري يفرضون أحياناً على الرعيّة ضرائب باهظة لم تكن مرسومة من قبل. يروي الأمير عبد الله أنه عند عودته من حصار أليبط فرض على أهل مدينة اليُسّانة ذهباً كثيراً من أجل تقوية جيش المملكة من جهة، ولتحسين الوضع في مدينة غرناطة من جهة ثانية، ولمّا لم يكن هؤلاء معتادين على دفع مثل تلك الضريبة الباهظة، فقد نفرت أنفسهم لذلك وثاروا على الأمير المذكور[2].

وكان حكام غرناطة يُنْفِقون قسماً كبيراً ممّا يجمعونه من ضرائب على بناء القصور والدُّوْر واقتناء الأثاث وسائر صنوف الترف. وما كثرة الأموال والذخائر والجواهر، التي تركها الأمير عبد الله في داره إثر سيطرة المرابطين على عرشه، إلاّ تجسيداً لبذخه وترف أسلافه، وقد اعترف عبد الله نفسه بتلك الأموال وقال إنها بلغت ستة عشر ألف دينار، وأربعة آلاف مِثْقال من الذهب وخمسة عشر عِقْداً[3]. وكان هؤلاء الحكام يدفعون قسماً آخر كمرتّبات للجُنْد، وقد ترتفع تلك المرتبات عندما تدور بينهم وبين جيرانهم حروب وفتن، ويؤدّون مبلغاً لا بأس به كجزية سنوية إلى الملوك

---

(١) عنان: دول الطوائف (ص ٤٠٦)

(٢) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٣١).

(٣) المصدر نفسه (ص ١٥٥ ـ ١٥٨).

الإسبان. ويحدّد الأمير عبد الله الضريبة التي أدّاها لألفونسو السادس عن ثلاث سنوات بثلاثين ألف دينار[1]. ويقول إحسان عباس إن الضرائب الباهظة التي كان يفرضها ملوك الأندلس على رعاياهم، كانت تؤدّي في بعض الأحايين إلى حرمان عسير لطوائف كثيرة من الناس وإلى انتشار الكِدْية على نطاق واسع[2].

وكان الدينار هو العملة الرئيسية في عهد بني زيري، ثم يليه الدِّرْهم. وقد أشار الأمير عبد الله إلى ذلك عند حديثه عن عبد الله ابن القروي، وزير جدّه باديس بن حبوس، فقال: «وكانت مدينة وادي آش بيده (أي بيد ابن القروي)... وكان يأكلها طعمةً، ولا يُعْطي منها فوق خمسة عشر ألف دينار دراهم، وهي تساوي أزيد من مائة ألف دينار ثلثية...»[3]. وكانت عملة أهل غرناطة في أيام ابن الخطيب، أي في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، فِضّة خالصة، وذهباً إبريزاً، ودِرْهماً مربع الشكل، ونصف الدرهم وهو القِيْراط[4]. وكان الدينار يمثّل وحدة العملة المصكوكة من ذهب، وكان الدرهم يمثّل وحدة العملة المصكوكة من فضة، وكانوا يكتبون على أحد وجْهَيْ الدينار أو الدرهم ما يتعلّق بسيرة الرسول الكريم وتعاليم الإسلام، وعلى الوجه الآخر اسم الحاكم ولقبه واسم دار السكة وتاريخ الصك. وكان بنو زيري، كغيرهم من ملوك الطوائف، يستعملون العملة ذاتها التي كان سائدة من قَبْلُ في فترة الخلافة الأموية، وظل الأمر كذلك حتى عام ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨ م. ومنذ عام ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م أخذ الدينار يكثر، والدرهم يندر، وذلك بسبب غزارة الذهب الذي كان يُحْمل من إفريقيا إلى أوروبا عبر الأندلس، وكان الدينار في فترة الخلافة الأموية يساوي عشرة دراهم[5].

ب ـ الحياة الاقتصادية في مملكة غرناطة:

تتناول الحياة الاقتصادية في دولة بني زيري بمملكة غرناطة ثلاثة جوانب؛ الزراعة، والصناعة، والتجارة.

---

(١) ابن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٢٥).

(٢) عباس: تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين (ص ٤١).

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٨).

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٣٧ ـ ١٣٨) واللمحة البدرية (ص ٤٠).

(٥) Prieto Y Vives Los Reyes de Taifas (P 96 - 99).

أولاً - الزراعة:

١ - **الإنتاج الزراعي في غرناطة**: معظم أراضي غرناطة خصبة صالحة للزراعة، فهي على حَدِّ قول ابن الخطيب ، لا تُعْدَمُ زريعةً ورَعْياً طول العام، وقد خَصَّها الله بجريان الأنهار ودرور الماء، والتفاف الأشجار والأدواح، وتعدَّدَتْ بها الجَنات والبساتين، ورَكِبَتْ ما ارتفع منها من جهاتها الثلاث الكرومُ البديعةُ طَوْقاً مرقوماً[١]. وقد وصف ابن الخطيب مدينة غرناطة، لَمَّا نظر إليها، وقد حَفَّتْ بسورها البَساتينُ العريضةُ والأدواح الملتفّةُ بحيث صار سُوْرُها من خلف ذلك كأنه من دون سياج، فقال[٢]:

بَلَدٌ تَحِفُّ به الرياضُ كأنَّه ... وَجْهٌ جميلٌ والرياضُ عِذَارُهُ

ووصف ابن سعيد صفاء مياهها بقوله: «مياهها تنصبُّ إليها من ذَوْب الثلج دون مخالطة البساتين والفضلات، والأرحاء تدور في داخلها»[٣] وقال أبو الفداء يصفها: «ولها أشجار وثمار ومياه مسيرة يومين تقع تحت مرأى العين، لا يحجبها شيء»[٤]. ووصف القلقشندي كثرة مائها عند حديثه عن قصبتها، فقال: «يجري بها الماء تحت بَلَاطٍ كما يجري في المدينة، فلا يخلو منه مسجد ولا بيت»[٥]. وفي الحقيقة، فإنّ جوّ غرناطة في الصيف، من خلال الفترة التي قضيناها فيها، حارٌّ وخاصة في الأودية، وبارد حيث التلال والمرتفعات.

وفيها سائر ذوات الفواكه الطيّبة التي كانت تَغُصُّ بها دكاكينها، من العنب، والتين، والتفاح، والرمان، والدرّاق، والإجّاص، والكُمَّثْرَى، والقَسْطَل، والبلوط، والجوز، واللوز، والخوخ، والقَرَاصِيَا البعلبكية التي كطعم العسل، وقصب السكر[٦]. ومن محاصيلها أيضاً الزيتون الذي يمتدُّ غاباتٍ على مَدِّ البصر[٧]. يروي

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٨٤، ٩٣، ٩٦، ٩٨، ١١٥، ١٢٠) واللمحة البدرية (ص ٢٢).

(٢) نفسه: الإحاطة (ج١ ص ١١٥)

(٣) ابن سعيد: المغرب (ج٢ ص ١٠٢)

(٤) أبو الفداء: تقويم البلدان (ص ١٧٧) وانظر أيضاً صبح الأعشى للقلقشندي (ج٥ ص ٢٠٧)

(٥) القلقشندي. صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٩).

(٦) العمري: وصف إفريقية والمغرب والأندلس (ص ٣٥)؛ ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ١٠٩، ١١٥، ١٢٠، ١٣٧) واللمحة البدرية (ص ٤٠)؛ القلقشندي. صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٩)؛ Dozy: Recherches (T I, App LXXII);

(٧) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ١٠٩، ١٢٠).

القزويني أنَّ بغرناطة شجرةَ زيتونٍ من عجائب الدنيا، بالقرب من عَيْنِ ماءٍ، وكان الناس يقصدونها في يومٍ معلومٍ من السنة، فإذا طَلَعَتِ الشمسُ ذلك اليومَ أخذت تلك العينُ بإفاضة الماء، وظهر على الشجرة زهرُ الزيتون ثم انعقد زيتوناً وكبر واسودَّ في اليوم نفسه، وكان الناس يأخذون من ذلك الزيتون ما قدروا على أخذه، ويأخذون من ذلك الماء للتداوي[1]. وفي سهول غرناطة وبسائطها الحنطة والشعير والكتان[2].

وهكذا كانت غرناطة في وضع زراعي جيد، ويعود ذلك في الغالب إلى مرجها العظيم الاتساع، والممتدّ على مَدِّ النظر. وهذا المرج عبارة عن حدائق وأشجار زيتون، ولوز، وعنب، وقصب سكر، وغيرها من سائر أنواع النبات، بحيث لم تكن توجد فاكهة تفوق فاكهة هذا المرج من حيث الجودة. كذلك كثر الكَتّان في هذا المرج، حتى بات عند المؤرخين أكثر جودة من كتان النِّيْل[3]. وفيه عقار ثمين عظيم الفائدة، غالي الثمن، وقد وصل ثمنه إلى خمسة وعشرين ديناراً من الذهب العَيْن[4].

وفي جبل شُلَيْر المطلِّ على غرناطة أصنافُ الفواكه العجيبة والمتأخّرة اللحاق، وسائر النبات الهندي والشامي، وأعشاب تستعمل في الأدوية، وفي قراه المتّصلة به يكون أفضل الحرير والكتان.

٢ ـ **محاصيل أعمال غرناطة الزراعيّة**: كان لمدينة غرناطة مدن وضياع متّصلة ببعضها البعض. وقد اشتهرت مدينة إلبيرة بزراعة العُصْفُر والزيتون[5]، وكان يجود فيها الزعفران، ويحسن بها شجر الجوز وقصب السكر[6]. وأكثر أشجارها الحور[7]. وفي ساحلها شجر الموز، ويحسن بها قصب السكر[8] وكان الكَتّان يُزْرع بكثرة في

---

(١) القزويني: آثار البلاد (ص ٥٤٧).

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٩٦، ١٠٩) واللمحة البدرية (ص ٢٢)؛ Dozy Recherches (T I, App LXXII)

(٣) سبق وتحدَّثْنا بإسهاب عن هذا المرج (ص ٤١ ـ ٤٢)

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٢٥).

(٥) ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس (ص ٩٣).

(٦) ابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس (ص ٢٨٣)

(٧) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٩٨).

(٨) القزويني: آثار البلاد (ص ٥٠٢).

جميع نواحيها[1]. وهو كتّان رفيع له الفضل البائن على غيره[2]. وفي مدينة باغه يكثر العنب[3]، ويجود الزعفران[4]. وفي مدينة بسطة جميع أصناف الثمار، وشجر الزيتون والتوت فيها كثير[5].

وكانت مدينة بَيَّاسة طيبة الأرض، كثيرة الزرع والأشجار، وقد اشتهرت بالزعفران حيث كانت مستغلّاتها منه كبيرة[6]. وبمدينة جَيّان غلات القمح والشعير والباقِلى (الفول) وسائر الحبوب، ويكثر فيها العسل واللحوم، ولها ما ينوف على ثلاثة آلاف قرية، كلّها يُرَبّى فيها دود الحرير[7].

ويجود في مدينة شلوبينية الموز وقصب السكر[8]. ويكثر بمدينة قبرة شجر الزيتون[9]. واشتهرت مدينة مالقة برمانها الذي لا نظير له في الدنيا، وبتينها الذي يضرب المثل بحسنه وطيبه وعذوبته، وكثر فيها العنب وشجر اللوز والزيتون[10].

وكان بمدينة المُنَكَّب فواكه جَمَّة، وغصَّتْ أرضُها بقصب السكر، وكثر فيها الموز. وكانت مدينة وادي آش كثيرة الأعناب والتوت والزيتون وغيرها من أصناف الثمار، وكثر فيها أيضاً القطن.

وكانت قرى غرناطة كثيرة الغلال[11]. وقد كثر في قرية فِنْيانة شجر التوت والكروم وضروب الثمار[12].

---

(١) ياقوت: معجم البلدان (ج١ ص ٢٤٤)؛ ابن سعيد: المغرب (ج٢ ص ٩١).

(٢) ابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس (ص ٢٨٤).

(٣) ابن سعيد: المغرب (ج٢ ص ١٥٤)؛ أبو الفداء: تقويم البلدان (ص ١٧٧).

(٤) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٤٩)

(٥) الحميري: الروض المعطار (ص ١١٣).

(٦) الإدريسي: نزهة المشتاق (ص ٥٦٩)؛ ياقوت: معجم البلدان (ج١ ص ٥١٨)، الحميري: الروض المعطار (ص ١٢١)؛ ابن سعيد. المغرب (ج٢ ص ٧١).

(٧) الحميري: الروض المعطار (ص ١٨٣).

(٨) المصدر نفسه (ص ٣٤٣)

(٩) المصدر نفسه (ص ٤٥٣)

(١٠) سبق وتحدَّثْنا بإسهاب عن منتوجات مالقة الزراعية (ص ٦٥).

(١١) القلقشندي: صبح الأعشى (٥ ص ٢٠٨).

(١٢) الحميري: الروض المعطار (ص ٤٤١)

ثانياً ـ الصناعة

شهدت مملكة غرناطة في مجال الصناعة في عهد بني زيري تقدّماً امتازت به على غيرها من ممالك الأندلس، وبلغت شهرة تجاوزت بها الآفاق. وأهمُّ الصناعات التي شهدتْها آنذاك صناعة النسيج، وصناعة الرخام، وصناعة المعادن، وصناعة الزجاج، وصناعة الفخار، وصناعة الزيتون، وصناعة السفن، وصناعة الخمور والأنبذة.

١ ـ **صناعة النسيج**: كانت تُحاك في غرناطة أنسجة من الحرير، والصوف، والقطن، والكَتّان، والمِرْعزّى. ولكن المنسوجات الحريرية كانت تعدُّ أكثر منتجات غرناطة الصناعية شهرة. وكانوا يصبغون ثيابهم بالعُصْفُر والقِرْمِز وغيرهما. وكان القِرْمِز بفحص غرناطة وما يتّصل به[١]. وكان العُصْفُر يكثر بإلبيرة[٢]. وكان لباس أهل غرناطة الغالب في الشتاء هو المِلَفُّ المصبوغُ وهو ضرب من الجوخ المنسوج من الصوف، وكانوا يرتدون في الصيف الحرير، والقطن، والكَتّان، والأردية الإفريقية، والمِرْعزّى وهو كالصوف يخلص من شعر العنز[٣].

وقد نوّه الجغرافيون بكَتّان غرناطة، فقال ابن غالب: لمدينة إلبيرة الكَتّان الرفيع الذي له الفضل البائن[٤]. وقال ياقوت: في جميع نواحي إلبيرة يُعْمل الكتان بكثرة[٥]. وقال الحميري: كتان مرج غرناطة يُرْبي جَيِّدُهُ على كتّان النيل[٦]. واشتهرت مدينة مالقة بصناعة الجلود الغليظة المسمّاة بالسَّفَن، وكانوا يتّخذون منها مقابض للسيوف[٧].

وكان حرير غرناطة كثيراً فائقاً مُقَدَّماً على غيره[٨]. وقد فَضَّله ابنُ الخطيب على

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٩٨) واللمحة البدرية (ص ٢٣).

(٢) ابن الدلائي نصوص عن الأندلس (ص ٩٣).

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٣٤ ـ ١٣٥) واللمحة البدرية (ص ٣٨ ـ ٣٩).

(٤) ابن غالب. قطعة من كتاب فرحة الأنفس (ص ٢٨٤).

(٥) ياقوت: معجم البلدان (ج١ ص ٢٤٤). وانظر أيضاً المغرب لابن سعيد (ج٢ ص ٩١).

(٦) الحميري. الروض المعطار (ص ٤٦).

(٧) الإصطخري. المسالك والممالك (ص ٣٥).

(٨) الإصطخري المسالك والممالك (ص ٣٦)؛ ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس (ص ٩٣) ياقوت: معجم البلدان (ج١ ص ٢٤٤).

حرير البلاد العراقية من حيث الرقة واللدونة[1]. وقد أتقن أهل غرناطة طريقة استخراج الحرير[2]، وراجت هذه الصناعة في مدينتهم. وكان يصنع بها من ثياب اللباس المحرّرة الصِّنْفُ الذي عُرِفَ بالمُلَبَّد المُخَتَّم، وكان ذا ألوان عجيبة[3].

ولم تكن المدن التابعة لغرناطة بمنأى عن تلك الصناعة؛ فقد كان هذا الصنف من الثياب المحرّرة يصنع أيضاً بمدينة بسطة[4]. وفي هذه المدينة كانت تكثر غِلّة الحرير، وكانت تُصْنَعُ طُرُزُ الوِطَاءِ من الديباج الذي لا يُعْلَمُ له نظير[5]. وكانت طُرُز الديباج تصنع أيضاً بقرية فِنْيانة[6]. وكان حرير مدينة جيان يفوق حرير إلبيرة طيْباً[7]. وكان يصنع في مدينة مالقة ثياب الحرير الموشّاة بالذهب ذات الصنائع الغريبة[8]. وقد شهدت تلك المدينة من ضروب الوشي العجائب[9]. وكان أهل المشرق

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٩٩) واللمحة البدرية (ص ٢٣).

(٢) نشير هنا إلى أن أهل الصين هم أول الذين اختصّوا بصناعة الحرير، وظلّوا يحتفظون بها سرّاً إلى أنْ تمكّن الإمبراطور البيزنطي جيستنيان الأول من الاهتداء إلى سرّ صنْعتها عن طريق تهريب بويضات من دود القزّ من المدينة سرندا في الصين إلى بيزنطة. وعندها عَمَّم جستنيان زراعة أشجار التوت التي تعتاش عليها ديدان الحرير، وأمر بتأسيس المصانع لتخليص الحرير من شرانقه ثم نسجه، فانتشرت صناعة الحرير في الإمبراطورية البيزنطية وبسرعة مذهلة. وقيل انتقلت هذه الصناعة من الصين إلى بلاد فارس، ومن بلاد فارس إلى بيزنطة، ومن بيزنطة إلى الأندلس عن طريق جماعات من اللاجئين الإغريق، حيث زهت وتقدّمت تقدّماً كبيراً، وكان رواجها في عصر الدولة الأموية حيث شغلت الحاضرة قرطبة المركز الأول. اليوسف: علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٩٦٩ (ص ٢٦٠)؛ أبو الفضل: تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية (ص ٢١٠ - ٢١١)؛ حتي وجرجي وجبور تاريخ العرب (ص ٦٠٧).

(٣) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٢٠١).

(٤) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٢٠١).

(٥) الحميري: الروض المعطار (ص ١١٣). والوطاء: خلاف الغِطاء. والدِّيْباج نوع من الأقمشة الحريرية السميكة، وكان معروفاً في المشرق قبل الإسلام، ثم استمر نَسْجُهُ بعد ظهور الإسلام، وكان يُصْنَعُ من خيوط الحرير، وتدخل في نسجه خيوط الذهب والفضة، ويعرب بالإسبانية باسم Brocado. مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الثقافة، بيروت (ص ١٢٤)؛ سالم. تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية (ص ١٥٧).

(٦) الحميري: الروض المعطار (ص ٤٤١).

(٧) المصدر نفسه (ص ١٨٣).

(٨) ابن سعيد: كتاب الجغرافيا (ص ١٤٠).

(٩) نفسه. المغرب (ج١ ص ٤٢٤).

يتعجّبون من حُسْن صنعة الوَشيْ المذهّب إذا رأَوْا منه شيئاً[1]. وتأتي مالقة في صناعة الحلل الموشية ـ وهي نوع من المنسوجات الحريرية ـ في المرتبة الثانية بعد مرسية وألمرية، وقد تجاوز أثمان تلك الحلل الآلاف، وكانت ذات صور عجيبة برسم الخلفاء ومَنْ دونهم[2].

٢ ـ **صناعة الرخام**: انتشرت هذه الصناعة في مملكة غرناطة أيام بني زيري؛ وذلك لتوافر مادة الرخام فيها، وكان يصلح لصناعة الأحواض والتوابيت واللوحات المنشوريّة الشكل، والفوّارات، والشواهد اللازمة للمقابر، وغير ذلك. وقد تحدّث ابن غالب عن مقطع رخام بإلبيرة فقال: «وبها مقطعُ رُخامٍ لَيِّنٍ أبيضَ يتصرَّفُ تصرُّفَ الكَذّان[3] للينه ورطوبته، وتُعْمَلُ منه الأقداحُ والأطْباقُ والأكْوابُ والأسْطالُ والحِقافُ، وكلُّ ما يُخْرَطُ من الخشب يُخْرَط منه»[4]. وأشار إلى هذا المقطع أيضاً القزويني، مكتفياً بالقول: في ساحل إلبيرة مقطع الرخام[5]. وبناحية شلوبينية الرخام الأبيض الملكي الناصع[6].

٣ ـ **صناعة المعادن**: تفنّن أهل غرناطة بهذه الصناعة، وكان يُصْنَعُ بمدينتهم ومدن أخرى من صنوف المعادن ما لا يوصف. وقد أجمع الجغرافيون على أنَّ إلبيرة كانت تتوافر فيها معادن الذهب، والفضة، والرصاص، والحديد، والنحاس، والصُّفْر، والتوتياء[7]. واكتفى الإصطخري بذكر معدن واحد بناحية إلبيرة وهو معدن الفضة[8]. وبدوره يشير البكري فقط إلى معدن التوتيا، فيقول: بقرية بَطَرْنَة بساحل إلبيرة معدن التوتيا الجيدة، وهي أزكى توتيا وأجودها وأقواها في صبغ النحاس[9].

---

(١) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٢٠٢)

(٢) المصدر نفسه (ص ٢١٩ ـ ٢٢١)

(٣) الكَذّان: الحجارة الرخوة.

(٤) ابن غالب. قطعة من كتاب فرحة الأنفس (ص ٢٨٣)

(٥) القزويني: آثار البلاد (ص ٥٠٢)

(٦) شيخ الربوة: نخبة الدهر (ص ٢٤٣).

(٧) ابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس (ص ٢٨٣)، ياقوت. معجم البلدان (ج١ ص ٢٤٤)، القزويني: آثار البلاد (ص ٥٠٢)؛ الحميري: الروض المعطار (ص ٤٦)؛ ابن الخطيب. اللمحة البدرية (ص ٢٢) والإحاطة (ج١ ص ٩٨).

(٨) الإصطخري المسالك والممالك (ص ٣٦).

(٩) البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا (ص ١٢٩) وانظر أيضاً الإحاطة لابن الخطيب (ج١ ص ٩٨).

ويشير ابن الخطيب إلى توافر المَرْقَشِيْشا واللاّزورد في عُمَالة غرناطة[1]. وبمدينة بسطة جبل يعرف بجبل الكحل، يبرز منه كحل أسود في أول الشهر، ولا يزال كذلك إلى منتصف الشهر، فإذا زاد على النصف نقص الكحل، ولا يزال يرجع إلى آخر الشهر[2]. وبمعنى آخر، فإن الكحل يزيد بزيادة القمر وينقص بنقصانه[3].

وفي مدينة جيان معدنا الفضة والزئبق[4]. وفي مدينة شلوبينية معدن حجر التوتيا[5]. وفي مدينة لوشة معدن الفضة، وهو معدن جيد[6].

وبقرب مدينة وادي آش حجر الكُحْل الأسود، ويُسَمَّى الإثْمِد، وهو من حجارة الرصاص، ترابيٌّ غلبت عليه الكبريتية[7].

٤ ـ **صناعة الزيوت**: كان أهل غرناطة يعصرون الزيتون ويستخرجون منه الزيوت، وقد أشار ابن غالب إلى تلك الصناعة إشارة عابرة[8].

٥ ـ **صناعة الزجاج**: لم يُشِرْ جغرافيّو الأندلس ومؤرّخوها إلى أنَّ مدينة غرناطة اشتهرت بصناعة الزجاج، بل أشاروا إلى أنَّ مدينة مالقة التابعة لها اشتهرت بتلك الصناعة، فقال ابن سعيد: كان الزجاج يُصْنَعُ بمدينة مالقة[9]. ووصف المقري زجاج مالقة بالغريب العجيب[10]. ولعلَّ المقري أراد أنْ يشير إلى إعجاب الناس بهذا النوع من الزجاج لدقّة صنعه وجمال ألوانه. وكان بعض قطع الزجاج بلون واحد، والبعض الآخر بلونين متداخلين في بعضهما تداخلاً ينتزع الإعجاب من كل من يراه،

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٩٨) واللمحة البدرية (ص ٢٣). وحجر المَرْقَشِيْشَا سبعة أنواع مقسومة على المعادن السبعة، وأجودها الذهبية ثم الفضية ثم النحاسية، وأردأها الحديدية والزيبقية شيخ الربوة: نخبة الدهر (ص ٨٤). واللاّزورد: معدن مشهور وأجوده الصافي الشفاف الأزرق الضارب إلى حمرة وخضرة، يُتَّخذ للحُلَى، وله منافع في الطب.

(٢) القزويني. آثار البلاد (ص ٥١٢)

(٣) الحميري: الروض المعطار (ص ١١٣)

(٤) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان (ص ٨٧)

(٥) ياقوت: معجم البلدان (ج١ ص ٢٤٤)

(٦) المقري. نفح الطيب (ج١ ص ١٤٨).

(٧) شيخ الربوة: نخبة الدهر (ص ٨٤).

(٨) ابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس (ص ٩٣)

(٩) ابن سعيد: المغرب (ج١ ص ٤٢٤)

(١٠) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٢٢٠).

أو بعدة ألوان. وكان تلوين الزجاج، على حَدِّ قول محمد عبد العزيز مرزوق، يقوم على إضافة أكاسيد مختلفة إلى الزجاج الذائب، فتكسبه اللون المطلوب؛ فأكسيد النحاس يعطي الأخضر الفيروزي، وأكسيد الكوبلت يعطي الأزرق الفاتح، وأكسيد المنجنيز يعطي الأرجواني والبنفسجي، وأكسيد القصدير يعطي اللون الأبيض، وأكسيد الحديد يعطي اللون الأحمر، وحجر اللازورد يعطي اللون الأزرق، والأنيمون (وهو حجر يُكْتَحَلُ به، سريعُ التفتّت، وإذا تفتّت كان لِفُتَاتِهِ بريقٌ ولمعان) يعطي اللون الأصفر[1].

٦ ـ **صناعة الفخار**: لم تزدهر هذه الصناعة في غرناطة، بدليل أنَّ المؤرخين لم يشيروا إليها في بطون مؤلّفاتهم. وكان يصنع بمدينة مالقة الفخار المزجّج المُذَهّب[2].

٧ ـ **صناعة السفن**: لم تعرف مدينة غرناطة هذه الصناعة لبعدها عن البحر المتوسط، فكان لمدنها التابعة لها، كمدينتي مالقة والمُنَكَّب دُوْر صناعةٍ لإنشاء السفن والحَرّاقات[3].

٨ ـ **صناعة الخمور والأنبذة**: كانت الخمور تصنع بغرناطة ومدنها؛ فقد كانت خمرة مدينة باغه مشهورة[4]. كذلك اشتهرت مدينة مالقة بخمرتها التي فُضِّلَتْ على غيرها من خمور الأندلس[5] واشتهرت غرناطة بصناعة الزبيب[6].

٩ ـ **صناعة السكر**: من الطبيعي أن تكون مدينة إلبيرة قد عرفت هذه الصناعة؛ لأنه كان يحسن بها قصب السكر[7]. وأخيراً نشير إلى أن مدينة المُنَكَّب كانت كثيرة مصايد السمك، فكان ذلك يدرُّ أموالاً على المملكة[8]

---

(١) مرزوق. الفنون الزخرفية الإسلامية (ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩)

(٢) ابن سعيد. المغرب (ج١ ص ٤٢٤)؛ المقري. نفح الطيب (ج١ ص ٢٠٢).

(٣) سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس (ص ٣٠٤). والحَرّاقات والحراريق. جمع حَرّاقة وهي نوع من السفن الحربية التي كانت تستخدم لحمل الأسلحة الناريّة، وكان بها مَرَامٍ تُلْقَى منها النيرانُ على العدو في البحر. المرجع نفسه (ص ٣٠٢، حاشية ٢).

(٤) ابن سعيد: المعرب (ج٢ ص ١٥٤)؛ أبو الفداء تقويم البلدان (ص ١٧٧)

(٥) ابن سعيد: المغرب (ج١ ص ٤٢٤).

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٣٧) واللمحة البدرية (ص ٤٠).

(٧) القزويني. آثار البلاد (ص ٥٠٢).

(٨) راجع الروض المعطار للحميري (ص ٥٤٨)

ثالثاً ـ التجارة:

١ ـ **العوامل التي ساعدت على ازدهار التجارة:** شهدت مملكة غرناطة في عهد بني زيري نشاطاً تجارياً على المستويين الداخلي والخارجي. وممّا ساعد على قيامها بهذا الدور التجاري الهامّ ثلاثة أمور؛ وجود قَيْساريّة بالحاضرة غرناطة، وانتشار الأسواق والفنادق والمتاجر والحمّامات في كل مدن المملكة، وكثرة الخيرات.

بالنسبة إلى القيسارية، فقد كانت سوقَ غرناطة الممتاز، وكان التجار يقصدونها لخزن المتاجر وبيع السلع[١]. وكانت مدن المملكة تغَصُّ بالحوانيت، والمتاجر، والخانات، والحمّامات، والميادين التي كانت أكثر ما تصلح لإقامة حفلات الفروسية[٢]. وكان لكل مدينة سوق. وعن خيرات المملكة، فقد تقدّم الحديث عنها بإسهاب في فصل الزراعة والصناعة.

٢ ـ **نشاط حركة التصدير والاستيراد:** نشطت غرناطة في ميدان التجارة، فكانت تصدّر الكثير من محاصيلها الزراعية ومنتجاتها الصناعية. وكانت، بالمقابل، تستورد جميع البضائع التي تحتاجها. يذكر القزويني أنّ رخام إلبيرة ومعادنها من الذهب، والفِضّة، والصُّفْر، والحديد، والنحاس، والرصاص، والتوتيا، كانت تُحْمَلُ إلى سائر مدن الأندلس[٣]. ويخبرنا الحميري أن حرير مرج إلبيرة هو الذي كان ينتشر في البلاد ويعمُّ الآفاق، وأنَّ كَتْان هذا المرج كان لكثرته يصل إلى أقاصي بلاد المسلمين[٤]. ويقول ابن الخطيب إنّ فوائد غرناطة من الحرير كثيرة، حيث كانت تمتاره منها البلاد[٥].

وكانت مدينة مالقة مركزاً تجاريّاً هامّاً، فقد كان تينها يُحْمَلُ إلى بلاد المغرب، ومصر والشام والعراق، وربما وصل إلى الهند[٦]. وكان عنبها يُباع في أسواقها، كلُّ

---

(١) سنتحدث عن هذه القَيْساريّة بإسهاب في الفصل القادم.

(٢) سنتحدَّث عن تلك الميادين في الفصل القادم.

(٣) القزويني: آثار البلاد (ص ٥٠٢)

(٤) الحميري: الروض المعطار (ص ٤٦)

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٩٩، ١٠٩) وانظر أيضاً Dozy· Recherches (T. I, App LXXII)

(٦) الحميري: الروض المعطار (ص ٥١٧)؛ شيخ الربوة. نخبة الدهر (ص ٢٤٤)؛ ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (٦٦٩).

ثمانية أرطال بدرهم صغير، وكان يُصَدَّر إلى الخارج[1]. وكان اللوز يُحْمَلُ منها ومن أحوازها إلى بلاد المغرب والمشرق[2]. وكانت تُصَدِّرُ أيضاً الزيتون والزيت إلى خارج الأندلس[3].

وقد تحدّث ليفي ـ بروفنسال عن نشاط مدينة مالقة التجاري، فقال: أمّا من جهة العلاقات الاقتصادية في القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري، فإنها أخذتْ ترتقي ارتقاءً مُدْهِشاً؛ ذلك أنَّ أساطيل الموانىء الأندلسية التجارية في مالقة وبلنسية وألمرية وغيرها من المدن الأندلسية كانت في جميع طرق البحر المتوسط تنقل المنتجات القادمة من مختلف أنحاء إسبانيا أو من المعامل الصناعية في المدن الإسلامية الأندلسية، وكانت تلك العلاقات دائمة على وجه الخصوص مع مصر التي أخذ تأثيرها على إسبانيا يزداد منذ القرن المذكور[4].

كذلك كانت مدينة المُنَكَّب مركزاً تجاريّاً لا يقلُّ أهمّيْة عن مركز مالقة، فقد كان لها مَرْسىً صيفيٌّ تُقْلعُ منه السفنُ وتحطُّ فيه[5]. وكان الزعفران يُسَفّر من مدينة بياسة برّاً وبَحْراً، ويُحْمل إلى الآفاق[6].

---

(١) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (ص ٦٦٩)

(٢) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (ص ٦٦٩)

(٣) شيخ الربوة: نخبة الدهر (ص ٢٤٤).

(٤) بروفنسال. حضارة العرب في الأندلس (ص ٥٣ ـ ٥٤).

(٥) الحميري. الروض المعطار (ص ٥٤٨).

(٦) ابن سعيد: المغرب (٢ ص ٧١)؛ القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٢١)؛ المقري نفح الطيب (ج٣ ص ٢١٧).

منشآت غرناطة المعمارية في عهد بني زيري

أبواب غرناطة: كان لغرناطة في عهد بني زيري أبواب خارجية وداخلية، وهي أبنية حربية، وقد نوّه بها ابن سعيد، دون أن يحدد عددها أو يسمّيها، واكتفى بالقول، عند حديثه عن رجل غَثّ ثَقيل دَخَلَ غرناطة: «فلما عاد إلى غرناطة، وقف على باب من أبوابها»[1]. وذكر القلقشندي ثلاثة عشر باباً منها هي: باب إلبيرة، وباب الكُحْل، وباب الرخاء، وباب المرضى، وباب المَصْرَع، وباب الرملة، وباب الدّبّاغين، وباب الطّوّابين، وباب الفخّارين، وباب الخَنْدق، وباب الدّفاف، وباب البُنُود، وباب الأسْدَر[2]. وقد تكون أبواب غرناطة الخارجية والداخلية التي سنتطرّق إليها، وعددها عشرون، هي نفسها التي كانت قائمة في عهود بني زيري. وقد يكون أقيم بعضها قبل بناء غرناطة كمدينة من قبل الزيريين. وقد يكون زيد عليها البعض الآخر في العهود اللاحقة بدءاً بالمرابطين وانتهاء ببني نصر.

أ ـ أبوابها الخارجية: كان لغرناطة ثمانية أبواب خارجية هي:

١ ـ باب إلبيرة: بالإسبانية La Puerta de Alvira، وهو أحد أبواب سور غرناطة الخارجي، وقد حدّد الحميري موقعه غربيَّ غرناطة: «ومقبرة أغرناطة بغربيِّها عند باب إلبيرة»[3]. وعدّه القلقشندي أضخم أبواب غرناطة[4]. وذكره الذهبي عند حديثه عن

(١) ابن سعيد: المغرب (ج ٢ ص ١٨١).

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٧)

(٣) الحميري: الروض المعطار (ص ٤٥)

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٧).

صفات باديس بن حبوس، دون أن يتحدّث عنه[1]. وورد ذكره في نص بالعربية ألحقه دوزي ببعض كتبه[2].

وكان هذا الباب موجوداً في عصر الدولة الأموية، وبالتحديد في عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ ـ ٩١٢ م). وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك عند حديثه عن الفتنة التي اندلعت بإلبيرة في عهد الأمير المذكور في صدر عام ٢٧٥ هـ/ أيار ٨٨٨ م بين العرب بقيادة سَوّار بن حمدون وبين المولّدين بقيادة عمر ابن حفصون[3]. وقد أسماه العرب بهذا الاسم لأنهم كانوا يدخلون منه إلى مدينة إلبيرة[4].

وما يزال هذا الباب قائماً حتى اليوم بقوسه وجانبَيْه في الميدان المسمَّى باسمه، على مقربة من ساحة الثيران، ويبلغ ارتفاعه نحو اثني عشر متراً، وليست عليه أية نقوش أو كتابة عربية، وإلى جانبه بقية من السور القديم. ومنه يبدأ شارع إلبيرة الذي ما يزال يحمل اسمه Calle de Elvira[5].

٢ ـ **باب البُنَيْدَة**: يقع هذا الباب شرقيَّ باب إلبيرة على مقربة منه، على خط الأسوار الشمالية القديمة[6]. وذكره مورينو هكذا: باب البنيدر وقال: هو باب ضخم ذو عَقْد مزدوج على شكل حذوة الفرس[7].

٣ ـ **باب البُنُوْد**: ذكره عنان مكتفياً بالقول: ما يزال هذا الباب قائماً حتى اليوم[8].

٤ ـ **باب سِيْده**: يقع هذا الباب شرقيَّ باب البُنَيْدَة على خطِّ الأسوار الشمالية القديمة[9]. وقال مورينو: باب قشتر هو نفسه باب سِيْده، وهو صغير الحجم كبير

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (ج١٨ ص ٥٩١)

(٢) Dozy Recherches (T I, App LXX).

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة (ج٤ ص ٢٧١)

(٤) Simonet Descripción del reino de Granada (P 35 - 36, 37)

(٥) عنان. الآثار الأندلسية (ص ١٧٤) ونهاية الأندلس (ص ٢١)

(٦) عنان. الآثار الأندلسية (ص ١٧٥).

(٧) مورينو. الفن الإسلامي في إسبانيا (ص ٣٠٥)

(٨) عنان: نهاية الأندلس (ص ٢١)

(٩) نفسه الآثار الأندلسية (ص ١٧٥)

الأهمية، بحيث يتعذر الدخول منه في حالة الهجوم (١).

٥ ـ **باب الفَخّارين**: ذكره القلقشندي دون أن يتحدّث عنه (٢). كذلك ذكره بلباس دون أن يقول شيئاً عنه (٣). وحدّد عنان محقق كتاب الإحاطة موقعه تجاه القرية المسماة بالفخار Alfacar والواقعة على أطراف غرناطة الشمالية (٤).

٦ ـ **باب الدّفّاف**: يقع هذا الباب شرقيَّ غرناطة. وعليه يمرُّ نهر حَدَرُه عندما يدخل غرناطة (٥). وأغلب الظن أنه هو نفسه «الباب الشرقي» الذي يذكره ابن الخطيب في ترجمة سَوّار بن حمدون، أحد أعلام العرب المناهضين لعمر بن حفصون المولّدي (٦).

٧ ـ **باب مَوْرُوْر**: ذكره ابن الأبّار عندما تحدّث عن ثورة ابن هود على المرابطين ودخوله مدينة غرناطة منه: «ثم قَدِمَ ابنُ هود، ودخل غرناطة من باب مورور» (٧). وقد سُمِّي بهذا الاسم؛ لأنهم كانوا يخرجون منه إلى مدينة مورور.

٨ ـ **باب الرَّمْلة**: هو بالإسبانية Bibrambla، وكان له ميدان يحمل اسمه وهو ميدان باب الرملة، وهو ميدان كبير ما يزال يحمل اسمه حتى اليوم وهو Plaza Bibrambla ، وكان من أشهر ميادين غرناطة (٨). وورد ذكره في الموسوعه الإسلامية دون أي حديث عنه (٩). كذلك ذكره بلباس دون أن يقول شيئاً عنه (١٠).

ب ـ أبوابها الداخلية: كان لغرناطة اثنا عشر باباً داخليّاً هي:

١ ـ **باب الشريعة**: هو أحد أبواب سور قصبة الحمراء، وهو المدخل الرئيسي

---

(١) مورينو: الفن الإسلامي في إسبانيا (ص ٣٠٥).

(٢) القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٧)

(٣) Torres Balbás Contornos de las ciudades hispanomusulmanas, Al- Andalus, (P 475).

(٤) ابن الخطيب· الإحاطة (ج١ ص ١٩٤، حاشية ٢).

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٩).

(٦) ابن الخطيب. الإحاطة (ج٤ ص ٢٧١)

(٧) ابن الأبار· الحلة السيراء (ج٢ ص ٢١٤)

(٨) عنان نهاية الأندلس (ص ٢١) والآثار الأندلسية (ص ١٦٤، ١٧٠).

(٩) Torres Balbás: Contornos (P 475)

(١٠) Encyclopédie de l'Islam (T II, P 1037)

لهذه القصبة، وقد أعاد بناءه أبو الحجاج النصري عام ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م، ويبلغ ارتفاعه نحو خمسة عشر متراً، وما يزال قائماً حتى اليوم[١].

٢ - **باب الفرج**: هو أحد أبواب سور قصبة الحمراء[٢]. ويلي باب الشريعة، وقد اختفى اليوم من الوجود[٣].

٣ - **باب غرناطة**: ذكره المؤرّخون عند روايتهم لهجوم زهير العامري صاحب ألمرية على غرناطة في عهد أميرها باديس بن حبوس[٤]. وقال عنان إنه أحد أبواب الحمراء وأهمها، وقد أسماه الإسبان باب النبيذ أو باب الشراب Puerta del Vino، وما يزال قائماً حتى اليوم[٥].

٤ - **باب يعقوب**: ذكره ابن الخطيب وحدّد موقعه لصق الحمراء[٦].

٥ - **باب البيّازين**: هو بالإسبانية Puerta de Albaicin، ويقع في نهاية حيّ البيّازين داخل السور القديم. وما يزال قائماً حتى اليوم بعَقْدَيه العربيّين في حي البيازين[٧].

٦ - **باب فحص اللوز أو باب فج اللوزة**: هو بالإسبانية Puerta de Fajalauza، ويقع في أعلى حي البيازين، وكانوا يخرجون منه إلى متنزّه عين الدمع. وما يزال قائماً حتى اليوم في حي البيازين بعَقْدَيْه العربيين[٨].

٧ - **باب الزيادة**: هو أحد أبواب حي البيازين الثلاثة، وما يزال قائماً حتى اليوم في حي البيازين[٩].

---

(١) عنان الآثار الأندلسية (ص ١٨٤، ١٨٦، ١٩٢) ونهاية الأندلس (ص ٢١).

Torres Balbás Musalla y Sarı'a en la ciudades hispanomusulmanas, Al-Andalus, Vol XIII, Madrid - Granada 1948 (P 172)

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٣٤٨).

(٣) المصدر نفسه (حاشية ٦).

(٤) ابن بسام· الذخيرة (ق١ ص ٦٥٧)؛ ابن عذاري. البيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٦)؛ ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٥١٩).

(٥) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٨٦، ١٩٢).

(٦) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٣٣٤).

(٧) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٦٨ - ١٧٤) ونهاية الأندلس (ص ٢١).

(٨) نفسه· الآثار الأندلسية (ص ١٦٨، ١٧٤)؛ Torres Balbás Contornos (P 478).

(٩) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٦٨، ١٧٤).

٨ ـ **باب المَوَازِين**: ذكره مورينو، مكتفياً بالقول: اسم هذا الباب بالإسانية Puerta de los Pesos[١]. وقد يكون هو نفسه باب الزيادة الذي مرَّ ذكره[٢].

٩ ـ **باب الغَدُوْر**: ذكره عنان، وعدَّه من أهمّ أبواب الحمراء الباقية إلى اليوم، وقابله بالإسبانية بـ Puerta de las Pozas[٣]. وأغلب الظن أنه باب الغدير؛ لأن كلمة غدير تعني بالإسبانية Poza أو Pozo، ولأن كلمة غدور تعني الناقة التي تتخلّف عن قطيعها.

١٠ ـ **باب السلاح**: هو بالإسبانية Puerta de las Armas، ويقع شماليّ القصبة على مقربة من برج الحراسة، وهو من أهم أبواب الحمراء الباقية إلى اليوم[٤].

١١ ـ **باب الطِّبَاق السَّبْع**: هو بالإسبانية Puerta de los Siete Suelos، وهو من أهم أبواب الحمراء الباقية إلى اليوم[٥].

١٢ ـ **باب العدل**: هو من أبواب الحمراء[٦].

قصبة غرناطة:

قصبة غرناطة من الأبنية الحربية، وتسمّى القلعة بألسنة أهل الأندلس[٧]. وقيل: هي والقلعة والحصن بمعنى واحد[٨]. وقد أسماها ابن الخطيب في أيامه بالقصبة القُدْمى تمييزاً لها عن القصبة الحديثة التي بناها بنو نصر[٩]. وأطلق عليها القَلْقَشَنْدي إسم حمراء غرناطة[١٠]. وقال أحمد شلبي: إنها دعيت بهذا الاسم للون

---

(١) موريبو: الفن الإسلامي في إسبانيا (ص ٢٩٠)

(٢) راجع المرجع نفسه (ص ٣٠٥)

(٣) عنان: الآثار الأندلسية (١٩٢)

(٤) المرجع نفسه.

(٥) المرجع نفسه

(٦) Encyclopédie de l'Islam (t II, P 1040)

(٧) العمري. وصف إفريقية والمغرب والأندلس (ص ٤٦)

(٨) القلقشندي. صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٥١).

(٩) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٣٨٧، ٤٤٢)

(١٠) القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص (٢٠٩، ٢٦١)

التربة التي أنشئت عليها[1]. وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أنها سميت بالحمراء بسبب لون جدارنها الأحمر، وأنه أطلق عليها هذا الاسم في نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي[2]. وقال عنان: «ومن الخطإ أن يقال إن إطلاق اسم «الحمراء» عليها يرجع إلى اسم منشئها ابن الأحمر، أو أنه يرجع إلى لون الآجرّ الأحمر الذي بنيت به الأسوار الخارجية؛ ذلك لأنه ثبت أن هذا اللون الأحمر الذي تبدو به الأسوار يرجع إلى العصر الحديث وأنه من صنع الإسبان»[3]. وأضاف: «ومن المرجّح أن اسم الحمراء يرجع إلى قيام قصر ابن الأحمر فوق أطلال قلعة الحمراء القديمة، وليس إلى تسميته باسمه. وقد ذكر البعض إن إطلاق اسم الحمراء على صرح غرناطة الملكي يرجع إلى احمرار أبراجه الشاهقة، أو إلى لون الآجرّ الأحمر الذي بنيت به الأسوار الخارجية. وقيل إن التسمية ترجع إلى لون المشاعل الحمراء التي كان يجري البناء ليلاً على ضوئها. ولكنا نُؤْثِر الأخذ بالتعليل الأول، فهو أقوى وأرجح»[4].

وتقع هذه القصبة جنوب شرقيّ مدينة غرناطة، وتعلو الطرف الغربيّ لهضبة السَّبِيْكة الواقعة على ضفة نهر حَدَرُّه اليسرى، وتقابل حيَّ البَيازِين الواقع إلى يمين النهر المذكور، وتشرف من الشمال والغرب على مدينة غرناطة وغوطتها ومرجها الشهير وعلى باب إلبيرة، ومن الجنوب والشرق على جبل شُلَيْر[5]. ويبلغ طول تلك الهضبة ٧٣٦ متراً، وعرضها نحو مائتي متر[6]. وحدَّد الحميري موقع القصبة جَوْفيَّ غرناطة[7]. وقال ابن الخطيب: تشرف هذه القصبة على معمور غرناطة بشرفاتها

---

(١) شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (ج٤ ص١٠٣)

(٢) Encyclopédie de l'Islam (t II, P 1936, 1040).

(٣) عنان. الآثار الأندلسية (ص ١٩٠)

(٤) نفسه: نهاية الأندلس (ص ٢٧٤).

(٥) راجع ابن الخطيب: كناسة الدكان (ص ١٧ من مقدمة المحقق، وص ٥٩، حاشية ٢)؛ عنان الآثار الأندلسية (ص ١٦١، ١٦٢، ١٨٩، ١٩٢)؛ سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (ص ٢٦٥ - ٢٦٦)؛ دائرة المعارف الإسلامية (ج١١ ص ٢٥)؛

Encyclopédie de L'Islam (T II, P 1040), Simonet Descripción (P 37)

(٦) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٩٠).

(٧) الحميري: الروض المعطار (ص ٤٥).

البيض وأبراجها السامية، ومعاقلها المنيعة[1]. وأضاف: وتقع تجاه الحمراء[2].

وإذا لم تكن تلك القلعة قائمة أثناء الفتح، فإنَّ العرب الفاتحين قد تنبّهوا لموقعها الحصين وأنشأوا فيه قصبةً أو حِصْناً عرف باسم القلعة الحمراء. وإذا نحن أَقْرَرْنا بأنها كانت قائمة عندما دخل العربُ الأندلسَ فاتحين، مستندين في ذلك إلى ما ذهب إليه ابن الخطيب والمقري من أن العرب عندما افتتحوا غرناطة عام ٩٢ هـ/ ٧١١ م أَلْفَوْا بها يهوداً ضَمُّوْهُمْ إلى قصبتها[3]، يكون العرب قد أخذوا منذ ذلك الوقت يُدْخِلون إصلاحاتٍ على القصبة، بدليل أن والي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري تَحَصَّنَ فيها عام ١٣٨ هـ/ ٧٥٥ م عندما هاجمه عبد الرحمن الداخل وهزمه[4]. ويرى مايسو أن حاكم إلبيرة أسد بن عبد الرحمن الشيباني هو الذي بنى القصبة في أواسط القرن الثامن الميلادي/ الثلث الأول من القرن الثاني الهجري[5]. وعند حديثه عن ثورة سَوّار بن حمدون القيسي المحاربي مع بيوتات العرب من إلبيرة وجيان ورِيُّه وغيرها من مدن الأندلس، على المولَّدين والنصارى في عام ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩م، يقول ابن الأبار إن هذا الرجل «غلظ أمره، فاستبق حينئذ إلى حصن غرناطة بالقرب من مدينة إلبيرة، وصعد إليه، فتبوّأه داراً اجتمعت إليه فيه عرب كورة إلبيرة»[6]. ويقول ابن الخطيب إن سَوّاراً المذكور هو الذي بنى المدينة الحمراء بالليل[7]. وأغلب الظن أنه يريد القصبة الحمراء أو القلعة الحمراء. ويضيف أن هذا الرجل ثار في صدر عام ٢٧٥ هـ/ أيار ٨٨٨ م على المولَّدين وقاتلهم، والتجأ عندئذ إلى حصن غرناطة[8]. واعتمد سيمونيت على ابن الخطيب من حيث بناء القصبة والتجاء سَوّار إليها عند قيام الفتنة بينه وبين المولّدين[9]. وقد أورد ابن سعيد شعراً

---

(١) ابن الخطيب· اللمحة البدرية (ص ٢٣).

(٢) المصدر نفسه (ص ٨٣).

(٣) ابن الخطيب الإحاطة (ج١ ص ١٠١) واللمحة البدرية (ص ٢٦)، المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٢٦٣)

(٤) ابن الخطيب. الإحاطة (ج٤ ص ٣٣٩ - ٣٤٠)

(٥) Gonzalo Macso. Garnata Al-Yahud (P 58).

(٦) ابن الأبار. الحلة السيراء (ج١ ص ١٤٩).

(٧) ابن الخطيب. الإحاطة (ج٤ ص ٢٧٠).

(٨) المصدر نفسه (ص ٢٧٠ - ٢٧١).

(٩) Simonet Descripción (P 30 ,49).

لعبد الله بن أحمد العَبْلي، يفتخر فيه العَبْلي بأهل إلبيرة حين غلبوا أعداءهم في تلك الفتن التي وقعت في القصبة، ومن قوله[1]:

وفي القلعةِ الحمراءِ تبديدُ جَمْعِهِمْ ومنها عليهمْ تستديرُ الوقائعُ

ويذكر مورينو أن العرب شيّدوا تلك القلعة تجنُّباً للتمرّد والعِصْيان ضدَّهم، وصارت هي الحمراء، وأنَّ والي غرناطة كان يمكنه آنذاك أنْ ينعم فيها بالهدوء[2]. ويجعل عنان قيام تلك القصبة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ويقول إنها كانت آنذاك متواضعة[3]. ويقول سيمونيت: كان في تلك القصبة عام ٣٩٧ هـ/ ١٠٠٦ م ما ينوف على الأربعمائة منزل[4]. وقد أخذ أهلها يهجرونها في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[5].

وعندما تولَّى بنو زيري المُلْكَ بغرناطة أدخلوا تعديلاتٍ على قصبتها ووسعوا رقعتها وحسَّنوها، وقيل: أنشأوا قصبة جديدة مكان القصبة القديمة، واتّخذوها مقاماً لهم ومركزاً لحكومتهم، وأقاموا داخلها قصراً ومسجداً.

ولتحصينها بنى المرابطون على حافة الهضبة الغربية الجنوبية الأبراج الحمراء[6]. ولمّا غلب أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر على غرناطة عام ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٧ م، ابتنى قصبة مكان قصبة بني زيري، وجلب لها الماء وسكنها[7]. وقيل إنه أنشأ داخل سور القصبة قصراً وحصَّنه وأطلق عليه الاسم القديم وهو «الحمراء» واتّخذه قاعدة للملك[8]. وأصبحت الحمراء فيما بعد، ولا سيما في القرنين السابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين حيث

---

(١) ابن سعيد. المعرب (ج٢ ص ١٢٥)

(٢) مورينو: الفن الإسلامي في إسبانيا (ص ٢٠٣).

(٣) عنان. الآثار الأندلسية (ص ١٨٩) ونهاية الأندلس (ص ٢٧٣ - ٢٧٤).

(٤) Simonet Descripción (p 43)

(٥) Encyclopédie de l'Islam (T II, P 1040)

(٦) ابن الخطيب: كناسة الدكان (ص ٥٩، حاشية ٢)

(٧) ابن الخطيب: اللمحة البدرية (ص٤٣)؛ القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٥١)، المقري: نفح الطيب (ج١ ص ٤٤٨).

(٨) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٨٩)

تمَّ خلالهما الإنشاء الحقيقي لمبانيها، تضمُّ القصبة والقصر والحدائق[1].

وعند حديثه عن غرناطة يصف الشقندي قصبتها فيُضْفي عليها صفات المنعة والحصانة والشموخ. هاكُمْ قوله: «لها القصبة المنيعة ذات الأسوار الشامخة»[2]. ويردّد قوله كل من جاء بعده كابن سعيد والحميري وأبي الفداء والقلقشندي وغيرهم[3]. وقول القلقشندي: [4]«وهي بديعة متّسعة كثيرة المباني الضخمة والقصور، ظريفة جداً»، أغلب الظن أنه ينطبق على القصبة التي كانت في أيامه، أي في عهد بني نصر.

وإضافةً إلى كونها ثكنة عسكرية، فإنها كانت تشمل قصر الملك ودُوْر الوزراء والحاشية[5]. وكان الماء يجري بها تحت بَلَاط، وبأعلى برج منها عين ماء[6]. وكانت الجداول تنحدر من فضول مياهها وبركها، فتُسْمَعُ على البعد أهزاجُها[7].

وكان لها مسجد صغير يتصل بقصر باديس بن حبوس، وظلَّ قائماً حتى عام ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م[8]، أي ذهب أثره في عهد ابن الخطيب في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي[9]. وقد وصفه القلقشندي بقوله: «وجامعها من أبدع الجوامع حسناً وأحسنها بناءً، وبه الثُرَيّات الفِضّيّة مُعَلَّقَةٌ، وبحائط مِحْرابه أحجَارُ ياقوتٍ مُرَصَّفَةٌ في جملة ما نُمِّقَ به من الذهب والفِضّة، ومنبره من العاج والأَبَنُوْس»[10].

وما تزال هذه القصبة قائمة حتى اليوم، تشرف بأبراجها السامية ومعاقلها الحصينة على مدينة غرناطة الحالية.

---

(١) ابن الخطيب كناسة الدكان (ص ١٧ من مقدمة المحقق، وص ٥٩، حاشية ٢).
(٢) المقري نفح الطيب (ج٣ ص ٢١٧).
(٣) ابن سعيد: المغرب (ج٢ ص ١٠٢)، الحميري الروض المعطار (ص ٤٥)، أبو الفداء تقويم البلدان (ص ١٧٧)، القلقشندي. صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٩)
(٤) القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٩).
(٥) عنان. الآثار الأندلسية (ص ١٨٩)
(٦) القلقشندي. صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٩)
(٧) ابن الخطيب. اللمحة البدرية (ص ٢٣ ـ ٢٤)
(٨) نفسه: الإحاطة (ج٤ ص ٣٤٧).
(٩) المصدر نفسه (ج١ ص ٤٤٢).
(١٠) القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠)

سور غرناطة:

سور غرناطة من الأبنية الحربية الهامّة، وقد أقامه بنو زيري ليحصّنوا به مدينتهم التي شرعوا في بنائها في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وليدافعوا عنها من أي هجوم طارىء من قبل العدو. وقد بنوه بالحجارة، وحصّنوه بالأبراج، وفتحوا فيه عدة أبواب كُنّا قد تحدَّثنا عنها آنفاً. وسبق وذكرنا أنَّ حبوس بن ماكسن أحاط غرناطة بأسوار محصّنة، وأنَّ ابنه باديس بن حبوس حصَّن تلك الأسوار وأنشأ سوراً ضخماً حول الهضبة التي تقع عليها القصبة . وقد أشار مورينو إلى أنّ بني زيري، بعد أنْ اتّخذوا مدينة غرناطة عاصمةً لهم منذ عام ٤٠٤ هـ/ ١٠١٣ م. أعادوا بناء الأسوار المتهدّمة في القصبة القديمة ليحصّنوا بها عاصمتهم[١]. وأصبح هذا السور مع مرور الوقت تَحِفُّ به البساتين العريضة والأدواح الملتفّة، بحيث بات يبدو كأنه من دون سياج[٢]. وكانت دائرته أربعة أميال ونصف الميل، أو أكثر من ذلك بقليل، وقيل: اثنا عشر ألف قدماً، وقيل: ثلاثة فراسخ[٣]. وكانت مساحته عند موت باديس بن حبوس عام ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٥ م خمسة وسبعين هكتاراً[٤]. وكان له في عهد بني نصر اثنا عشر باباً، وكان يعلوه ألف وثلاثون برجاً[٥]. وكانت تلك الأبراج تربض فوق هضبة القصبة[٦]. وقال سيمونيت: في غرناطة أربعة عشر ألف برج، يعلو سورها ألف وثلاثـون برجـاً[٧]. وقال عنان: كان برج الحراسة Torre de la Vela من أعظم أبراج الحمراء، وكان يشرف عالياً على مرج غرناطة كله[٨]. وأضاف: «أمّا أسـوار غرناطة الإسلاميـة، فقد بقيت منهـا أجزاء كبيـرة، وبالأخصّ في الجهـة الشماليـة الغربية. . . وكذلك بقيت أجزاء كبيرة من الأسوار الشرقية، وهي تُرَى على مَدِّ البصر من أعلى ربوة الحمراء. وقد طُفْنا بهذه الأسوار، وهي متينة كثيفة، وهي صنفان:

---

(١) مورينو الفن الإسلامي في إسبانيا (ص ٣٠٣)

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١١٥) واللمحة البدرية (ص ٢٤).

(٣) Simonet Descripcion (P 47)

(٤) Torres Balbás Extensión y Demografía (P 55)

(٥) علي . مختصر تاريخ العرب (ص ٤٦٤)

(٦) عنان: نهاية الأندلس (ص ٢١)

(٧) Simonet: Descripción (p 46 - 47).

(٨) عنان الآثار الأندلسية (ص ١٨٨).

داخلية وخارجية، وتدل بقاياها على متانة التحصينات الغرناطية القديمة»[1]. وأضاف: بقيت من السور الذي يحيط بالقصبة إلى اليوم أجزاء كبيرة[2]. وقال محمد كمال شبانة محقق كتاب كناسة الدكان لابن الخطيب: من المعالم الأثرية الأندلسية الباقية إلى اليوم أجزاء من الأسوار المحيطة بالمدينة[3]. وقال مورينو: وما تزال غرناطة تحتفظ بأطلال سياج عتيق يحيط بقصبتها القديمة، وتَبَقَّى من الحصن القديم للحمراء الجزء الشمالي من السور، ويضمُّ ثلاثة أبراج وتشرف عليه التحصينات الكبرى التي شَيَّدَها بنو الأحمر[4]. وهذه الآثار المتبقِّية من سور غرناطة دُرْنا حولها غير مرة، وسَجَّلْنا بالقلم أنه كان من أمنع أسوار مدن الأندلس.

قصر غرناطة:

كان قصر بني زيري بغرناطة يحتلُّ القسم الأعلى من القصبة[5]. وقد حدَّد مورينو موقعه غربيَّ جُبِّ المَلِك المعروف بالجُبِّ القديم[6]. وحدّد بيريس موقعه غربيَّ نهر حَدَرُّه[7]. وقد بناه باديس بن حبوس[8]. ولم يحدِّد بيريس بانيه فاكتفى بالقول: بنو زيري الذين حكموا مدة طويلة، لا بُدّ أنْ يكون لهم قصر[9]. واكتفى الأمير عبد الله بن بلقين، آخر ملوك بني زيري، بذكره دون كتابة أي شيء عنه[10]. وذكر ابن الأثير قصوراً لعبد الله بن بلقين وليس قصراً واحداً، ولم يقل شيئاً عنها[11].

وكان قصر بني زيري في غاية الجمال والأبَّهة، ليس ببلاد الإسلام والنصارى مثله[12]. وقد استحسنه ابن تاشفين وأُعْجِب به عندما احتلَّ غرناطة، فطاف بكل مكان

(١) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٧٥)

(٢) المرجع نفسه (ص ١٩٠)

(٣) ابن الخطيب: كناسة الدكان (ص ٥٩، حاشية ٢).

(٤) مورينو. الفن الإسلامي في إسبانيا (ص ٢٠٣)

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة (ج٤ ص ٣٥٣)؛ Encyclopédie de l'Islam (T II, P 1038)

(٦) مورينو الفن الإسلامي في إسبانيا (ص ٣٠٦) والجُبُّ هو البِئْر

(٧) Pérès La Poésie Andalouse (P 335).

(٨) عنان. الآثار الأندلسية (ص ١٨٩)

(٩) Pérès La Poésie Andalouse (P 146)

(١٠) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٥٧) وصفحات أخرى متفرقة.

(١١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج١٠ ص ١٥٥).

(١٢) المقري: نفح الطيب (ج١ ص ١٩٦)

منه، وأمر بحفظه [١]. وفي رسالة للوزير الكاتب أبي عبد الله محمد بن مسلم الداني، كتبها بعد أن أرسله إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري في مهمّة رسمية إلى بعض ملوك الطوائف، يصف فيها ما شاهده في قصر ملك غرناطة باديس بن حبوس من حياة ترف ورخاء [٢]. وقد يكون هذا القصر ضخماً كما تدلّ أسس الجدران المشيّدة بالملاط والتي لا يمكن التعرّف عليها لإعطائنا فكرة عن عمارته وزخرفته [٣].

وكان الإسبان يُطْلقون عليه اسم «دار ديك الرِّيْح» [٤]. وقال سيمونيت إنه سُمِّي ببيت الديك Casa del Gallo [٥]. وقال مورينو إن الإسبان أطلقوا عليه اسم بيت الديك في القرن السادس عشر الميلادي/ العاشر الهجري [٦]. والأرجح أنَّ هذا الاسم أُطْلِقَ على دَوّارة الهواء التي كانت في أعلى القصر [٧]. وكانت تلك الدَّوّارة على صورة ديك يمتطيه محاربٌ يحمل رمحه ودرقته ويدور مع الريح، وكان الديك يرمز إلى حاكم البلاد ويشير إلى أنه على الحاكم أن يكون حذراً كالديك وأنْ يُقْبِل على العدوّ بوجهه لا يُوْلِيْهِ ظهره [٨].

ولم يتوصّل مورينو وغيره ممن اهتمّوا بعلم الآثار إلى معرفة متى تهدَّم هذا القصر [٩]. وأغلب الظن أن بني نصر هم الذين هدموه وبنو مكانه قصرهم الشهير المعروف بقصر الحمراء والذي ما يزال قائماً إلى اليوم ويعرف باسم Alhambra.

مساجد غرناطة:

كثرت المساجد بغرناطة حتى باتت لا تحصى [١٠]. وإضافةً إلى المساجد التي

---

(١) ابن الخطيب. الإحاطة (ج٤ ص٣٥٣)

(٢) طويل مدخل إلى الأدبِ الأندلسي (ص٢١٧) وقد وردت هذه الرسالة في الذخيرة لابن بسام (ق٣ ص٤٢٧ - ٤٤٨)، وورد بعض منها في المغرب لابن سعيد (ج٢ ص٤٠٥)

(٣) مورينو الفن الإسلامي في إسبانيا (ص ٣٠٦)

(٤) دائرة المعارف الإسلامية (ج١١ ص ٢٥).

(٥) Simonet Descripción (P 43)

(٦) مورينو الفن الإسلامي في إسبانيا (ص ٣٠٦)

(٧) Pérès La Poésie Andalouse (P 335).

(٨) مورينو: الفن الإسلامي في إسبانيا (ص ٣٠٦).

(٩) المرجع نفسه

(١٠) القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٨).

بنيت بها في عهد بني زيري، فقد كان بها مساجد عتيقة [1]. ففي إلبيرة مسجد جامع بناهُ الأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن الثاني، وتمَّ على يَدَيْ عامله على كورة إلبيرة عبد الله بن عبد الله، وذلك في ذي القِعْدة لعام ٢٥٠/هـ ٨٦٤ م [2]. وفي غرناطة مسجد أبي العاصي حكم بن أحمد بن رجا الأنصاري [3]. وفي حي البيازين مسجد ذكره ابن الخطيب في ترجمة محمد بن أحمد بن شُقْرال اللخمي [4]. وكان به تسعة أروقة [5]. وكان في صحنه حديقة بديعة بها أشجار ليمون [6]. وهو أحد مسجدين كبيرين في الحي المذكور، وقد حُوِّل إلى كنيسة سان سلفادور San Salvador، وما تزال تقوم إلى اليوم إلى جانب هذه الكنيسة بقيّةٌ من أسوار هذا المسجد وجزء من صحنه وعدة من بوائكه [7]. وكان في صحن جامع وادي آش حديقة جميلة ونافورة للوضوء [8].

وكان مسجد غرناطة الجامع الذي بناه بنو زيري أكبر مساجدها وأهمّها على الإطلاق. وقد كان، كسائر جوامع عواصم ممالك الطوائف، يتحكّم بتخطيط المدينة وعمرانها، ومنه تتفرّع طرق المدينة الرئيسية ودروبها وشوارعها التي تفضي إلى الأبواب الخارجية للمدينة. وتقام حول ساحته الأسواق والحمّامات والفنادق، والقَيْسارِيّة، وفيه تُعْقَدُ الاجتماعات السياسية، وتُوَزَّع ألوية الجيش، وتُدَرَّسُ العلوم الدينية والدنيوية [9]. ويعتبر الجامع الأعظم بقرطبة الأساس الذي اعتمدوا عليه في بناء مساجد الأندلس؛ فمنه أُخِذَ نظام القباب ذات الضلوع، ومنه اشْتُقَّ نظام البَلَاطات المتجهة عموديّاً على جدار القبلة، ومن تخطيطه اشْتُقَّتْ تخطيطاتها [10].

---

(١) ابن الخطيب: اللمحة البدرية (ص ٢٣)

(٢) نفسه الإحاطة (ج١ ص ٩٢)

(٣) المصدر نفسه (ج١ ص ٤٨٣).

(٤) المصدر نفسه (ج٣ ص ٢٥).

(٥) بلباس: الأبنية الإسبانية الإسلامية، تعريب الآنسة علية إبراهيم العناني، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الأول، مدريد ١٩٥٣ (ص ١٠٢)

(٦) المرجع نفسه ص ١٠٤

(٧) ابن الخطيب: الإحاطة (ج٣ ص ٢٥، حاشية ٤)

(٨) بلباس: الأبنية الإسبانية الإسلامية (ص ١٠٤).

(٩) سالم. تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (ص ٣٧٥ ـ ٣٧٧).

(١٠) المرجع نفسه (ص ٣٩٩)

وكان مسجد غرناطة الجامع على مقربة من القَيْسارية وميدان باب الرملة[1]. وكان من أبدع الجوامع وأحسنها منظراً، وكان مُحْكَمَ البناء، تَحِفُّ به دكاكين الشهود والعَطّارين، وقد قام سقفه على أعمدة حِسَان، وأوصلوا إليه الماء بواسطة قنوات[2]. وكان به أحد عشر رواقاً على حد قول بَلْباس: «ومسجد غرناطة الأكبر كان به ١١ رواقاً أيضاً، وقد شيّده بنو زيري»[3]. وفي فترة المرابطين أَدْخَلَ عليه الوزيرُ أبـو محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري زياداتٍ، فزاد في سقفه من جهة صحنـه، وعَوَّض أَرْجُلَ قِسِيِّه أعمدة الرخام، وفَرَشَ صحنه بكَذّان الصخر، وبَنَى الحَمَّام بِجَوْفِيِّه[4]. وإضافةً إلى وظيفته الدينية حيث كان المسلمون جميعاً يؤدّون فيه صلاة الجمعة، فقد كان مقرّاً للطلبة، يقرأون فيه علوم العربية والقراءات والفقه والأدب[5]. كما كانت تُعْقَدُ فيه الاجتماعاتُ العامة الكبيرة، ومن فوق منبره كانت تقرأ النشرات الـرسمية والخطابات التي تتضمّن أخباراً هامة كالانتصارات الحربية[6]. وبعد استيلاء الإسبان على غرناطة بقليل، حوّلوا مئذنة مسجدها الجامع إلى بـرج أجراس لكنيسـة سان خوسيه[7]. وفي عام ٩٣٦ هـ/ ١٥٢٩ م بنيت فوق المسجد الكاتدرائية أو الكنيسة العظمى[8].

وكان خارج القصبة في عهد باديس بن حبوس وحفيده عبد الله بن بلقين مُصَلّى قـديم[9]. وقد اعتـاد المسلمون، منـذ ظهور الإسـلام، على اختيار مكـانٍ خارجَ المدينة، في أرضٍ منبسطةٍ، يتّخذونه مُصَلّى لهم في الهواء الطَّلْق، وكانوا يجتمعون فيه ليؤدّوا صلاة الفجر الجماعية خلف إمامهم، وذلك في مناسبات هامة كعِيْدَي الفطر

---

(١) عنان. الآثار الأندلسية (ص ١٧١).

(٢) القلقشندي صبح الأعشى (ج٥ ص ٢٠٨)

(٣) بلباس: الأبنية الإسبانية الإسلامية (ص ١٠٢)

(٤) المقري: نفح الطيب (ج٣ ص ٣٣٢). والكَذّان: الحجارة الرخوة. والقِسِيُّ جمع القَوْس على غير قياس

(٥) المصدر نفسه (ص ٣٧٣) و (ج ٥ ص ٥٠٧).

(٦) بلباس الأبنية الإسبانية الإسلامية (ص ١٠٠)

(٧) المرجع نفسه (ص ١٠٦).

(٨) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٧١).

(٩) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٤).

والأضحى. وكانوا يسمون المُصَلّى الشريعة، ولذلك سمِّي بابُ المُصَلَّى عند سور القصبة بباب الشريعة[1].

قَيْسارِيّة غرناطة:

كانت أسواق غرناطة منتظمة[2]. وأهمُّ أسواقها القَيْسَارِيّة؛ فقد كانت سوق غرناطة الممتاز[3]. وكانت تقع على مقربة من المسجد الجامع قُبالة باب الرملة من الجهة الغربية[4]. وظلت سوقَ غرناطة حتى في عهد بني نصر[5]. وكانت دروبها ضيّقة، وحوانيتها ومتاجرها متلاصقة، وكان لها عدة أبواب كبيرة تُغْلَقُ في المساء لحفظها، ولم يبق منها اليوم سوى بابَيْن أو ثلاثة[6].

والقَيْسَارِيّة بشكل عام عبارة عن مجموعة أبنية عامّة تَتَّخِذُ شكل رواقٍ دَيْرٍ مُسَقَّفٍ، ويتفرَّعُ منها أزقّةٌ على جوانبها حوانيتُ ومشاغلُ عُمّالٍ ومخازنُ وحتى منازل[7] وقد ميّز محمد أبو الفضل بين وظيفتها في المشرق ووظيفتها في الأندلس، فقال: كانت في المشرق مخزناً للمتاجر وإيواءً للنُزَلاءَ من التجار، وكانت في الأندلس سوقاً تجارية لخزن المتاجر وبيع السلع[8]. ويجدر بنا هنا أن نشير إلى وصف ابن جبير لقيسارية مدينة المَوْصل، ففيه إفادة: «وبُني أيضاً داخل البلد (أي المَوْصل) وفي سُوْقِهِ قَيْساريّةٌ للتجارة، كأنّها الخانُ العظيم، تُغْلَقُ عليها أبوابُ حديدٍ، وتُطيف به دكاكينُ وبيوت، بعضها على بعض»[9].

وقد أحرقت قيساريّة غرناطة في عام ١٨٤٣ م/ ١٢٥٩ هـ، ثم أعيد بناؤها على نظام قريب جداً للنظام الأندلسي القديم[10]. وما تزال إلى اليوم من المعالم الأثرية

---

(١) Torres Balbás Musallà y Sarı'a (P 167 - 173)

(٢) ابن الخطيب: اللمحة البدرية (ص ٢٣)

(٣) عنان. الآثار الأندلسية (ص ١٧٠).

(٤) المرجع نفسه (ص ١٧٠- ١٧١)

(٥) المقري: نمح الطيب (ح٢ ص ٦٩٧).

(٦) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٦٤ ، ١٧٠ - ١٧١).

(٧) Encyclopédie de l'Islam (T v, P 875)

(٨) أبو المضل: تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية (ص ٢٢٤).

(٩) ابن جبير: رحلة ابن جبير (ص ٢١٠)

(١٠) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٧٠).

الأندلسية الباقية، وتتصل بشارع كولون Colon بدرب ضيّق [١].

مباني غرناطة:

كانت مدينة غرناطة نموذجاً للعمارة الإسلامية في سائر مدن مملكة بني زيري، وقد امتازت بشوارعها الضيّقة المتعرّجة، ومنازلها المتواضعة المتلاصقة تلاصقاً شديداً والمتداخلة بشكل يستدعي كثرة وجود الممرّات الضيّقة. وبرغم ذلك، فقد كان فيها بعض الشوارع الواسعة التي تكثر فيها نوافير المياه، وكان فيها منازل ضخمة، لكل منزل حديقة خاصة مغروسة بأشجار البرتقال والليمون واللوز وغيرها من الشجر الوارف الظل، وبالنَّوْر الذي يفوح عِطْراً وطِيْباً. وقد رأى الشقندي مباني غرناطة رفيعة [٢]. ورآها ابن الخطيب متوسّطة [٣]. وأشار بلباس إلى أنَّ منازل مسلمي غرناطة كانت متلاصقة تلاصقاً شديداً، وكانت صغيرة ذات غرف ضيّقة جداً، وكان منزل النصراني يشغل حيّزاً أكبر ممّا تشغله أربعة أو خمسة منازل عربية [٤]. وأضاف: كان لكل منزل بغرناطة باب صغير، وكان الصحن جزءاً رئيسيّاً في كل منزل، عدا المنازل المنعزلة خارج المدينة. وكان الطابق العلوي لكل منزل يُصْعَدُ إليه بسلالم ضيّقة، وفيه الغرف المخصّصة للنساء والحياة الخاصة. وكان لكل منها بركة في وسط الصحن لحفظ الماء اللازم للحياة المنزلية من جهة ولتجميل المنظر وإنعاش الجو من جهة ثانية [٥].

وما تزال توجد إلى اليوم في مختلف أحياء غرناطة منازل كثيرة تحتفظ بأصلها الأندلسي، نذكر منها منزلاً فَخْماً كان لأحد كبار القوم، وهو عبارة عن قصر، ويقع في شارع Pavaneras، ويطلق عليه اسم دار الرماية Casa de Los Tiros، وهو في حالة جيدة، ويستعمل متحفاً [٦]. وفي وسط مدينة غرناطة اليوم بقايا منزلين أندلسيين، وفي قصبة غرناطة بقايا اثني عشر منزلاً [٧]. ومن خلال أسس تسعة منازل تابعة لهذه

---

(١) ابن الخطيب: كناسة الدكان (ص ٥٩، حاشية ٢)؛ عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٧٠ - ١٧١)
(٢) ابن حزم وابن سعيد والشقندي: فضائل الأندلس وأهلها (ص٥٦)؛ المقري: نفح الطيب (ج٣ ص ٢١٧).
(٣) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٣٧) واللمحة البدرية (ص ٤٠).
(٤) بلباس: الأبنية الإسبانية الإسلامية (ص ١٢٢ - ١٢٣)
(٥) المرجع نفسه (ص ١٢٧).
(٦) عنان. الآثار الأندلسية (ص ١٧٤).
(٧) Torres Balbás Extensión y Demografía (P 47)

القصبة، يبدو أنَّ الواحد منها لا يشغل أكثر من خمسين متراً مربعاً. وإذا كانت تلك المنازل عارية من الخارج وكان مظهرها غير مقبول، فإنها غاية في النظافة من الداخل[1].

وفيما يتعلّق **بالحمّامات**، فقد أفرد بلباس دراسة ممتازة عن وضعها في كافة مدن الأندلس وفي كل عصورها، فقال: كانت عادة الاستحمام متأصّلة في نفوس أهل الأندلس، وكان لحمّامات العامّة أهمّيّة كبرى في حياتهم الاجتماعية، من حيث اجتماع الناس على اختلاف مشاربهم، ومن حيث الفائدة الصحيّة والانتعاش البدني والروحي للجسد. وكان عدد الحمّامات في كل مدينة رئيسية كبيراً، ففي كل حيّ حمّام على الأقلّ، وكان للقصور والمنازل المهمّة حمّامات خاصّة على طراز الحمّامات العامّة، ولو أنّها أصغر منها بوجه عام. وكان الحمّام العامّ يتألف من مدخل وأربع حجرات أساسية مغطّاة دائماً بأقباء، إضافةً إلى حجرات للوقود لا يدخلها المستحمّ. وكانت أسافل جدران الحمام المترف تُزَيَّن بالخزف، وتُزَخْرَفُ حِيْطانُه بالرسوم. وكان المألوف أن يستعمل الرجال والنساء الحمّامَ الواحدَ في أوقات مختلفة، فالرجال صباحاً والنساء بعد الظهر، أو يُخَصَّصُ للرجال أيام، وللنساء أيام أخرى. وبرغم ذلك، فقد كان هناك حمّامات خاصّة للرجال وأخرى للنساء. وما تزال بقايا كثيرة من الحمّامات، وإنْ كان الكثير منها قد خرب بعد زوال زخارفه الداخلية[2]. وقد أشار مورينو إلى أنه يوجد بغرناطة اليوم حمام صغير، يعود في الغالب إلى عهد بني زيري. وهو من الأبنية الهامّة، ويقع في جادّة نهر حَدَرُه، وكان يُسَمَّى حمام الجوز، وهو سليم لدرجة كبيرة، ويتقدّمه بَهْوٌ تتوسّطه بركة وبعض الممّرات، ومِرْحاضان، وبابان أحدهما للصعود إلى السطوح والآخر يُفْضي إلى غرفة مخصّصة لخلع الملابس[3]. وأشار ابن الخطيب إلى حمّام آخر بغرناطة ينسب إلى أبي العاصي حكم بن أحمد بن رجا الأنصاري، يُدْعى حمّام أبي العاصي، ولم يذكر شيئاً عنه[4]. وذكر بلباس أنه يوجد بمدينة جيان حمّام سُمِّي بحمّام الثور؛ لاشتماله على تمثالٍ رخاميّ لثور[5].

وفيما يتعلّق **بالخانات**، فقد كانت، إلى جانب وظيفتها فى التخزين والبَيْع،

(١) بلباس الأبنية الإسبانية الإسلامية (ص ١٢٣)

(٢) المرجع نفسه (ص ١٠٨ ـ ١١١، ١١٥)

(٣) موريبو الفن الإسلامي في إسبانيا (ص ٣٠٩)

(٤) ابن الخطيب· الإحاطة (ح١ ص ٤٨٣).

(٥) بلباس. الأبنية الإسبانية الإسلامية (ص ١١٢)

مأوىً للتجار الغرباء. وكان الخان يتألف من صحن مستطيل تَحِفُّ به أربعة أروقة تشتمل على حُجُرَاتٍ وتُظِلُّ التجارَ والحيواناتِ والبضائعَ حتى لا يَبْقَوْا في العراء. وكان طابقه الأرضي مخصّصاً للمتاجر والإصطبلات، وطابقه العلوي يشتمل على حُجُرات للضيوف ومخازن تجارية، وكان يُعَيَّنُ خادمٌ خاصٌّ على باب الخان، ويُشْتَرَطُ فيه أنْ يكون متقدّماً في السنّ، وَقُوْراً أميناً، ولم يكن من المرغوب فيه أنْ يشغل هذه الوظيفة شباب أو نساء[1].

وفيما يتعلّق **بالقناطر**، فقد تعذّر علينا إحصاؤها لعدم توفّر المعلومات عنها، وكلُّ ما حَصَلْنا عليه هو أنَّ علي بن محمد بن توبة، قاضي غرناطة في عهد باديس بن حبوس، قد شيَّد قنطرة على نهر حَدَرُّه عام ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م، وما تزال تعرف حتى اليوم بقنطرة القاضي Puente del Cadi[2]. وحدّد مورينو موقعها على الضفّة المقابلة لنهر حَدَرُّه بأدنى الجبل الذي تقوم عليه القصبة، قُبَالَةَ الحَمّام الصغير المعروف بحمام الجوز[3]. وأشار إلى أنَّ قنطرة شنْيِل ما تزال كاملة، وترى بالقرب من التقاء نهر شنيل بنهر حدره، وتتألف من خمسة عقود نصف دائرية، قطر الأوسط منها سبعة أمتار، وهو أكبر من بقية العقود، وقد اختفى نظام بناء هذه القنطرة تحت طبقة من الكسوة[4].

ميادين غرناطة:

لم نَحْظَ إلّا بأربعة ميادين لغرناطة، ولا نستطيع أن نؤكد على أنها كانت في عهود بني زيري؛ وذلك لعدم توفّر مصادر تشير إلى ذلك، مما اضطرّنا للاعتماد على مراجع عربية وإسبانية. وهي:

١ ـ **ميدان باب إلبيرة**: يُسَمَّى بالإسبانية Plaza de la Puerta de Alvira وقد ذكره محمد عبد الله عنان دون أن يتحدث عنه[5].

٢ ـ **ميدان باب الرملة**: يُسَمَّى بالإسبانية Plaza Bibrambla، وكان أعظم

---

(١) ملباس: الأبنية الإسبانية الإسلامية (ص ١١٨ ـ ١١٩).

(٢) انظر ما فاتنا (ص ١٦٢).

(٣) مورينو: الفن الإسلامي في إسبانيا (ص ٣١٠)

(٤) المرجع نفسه (ص ٣١٢)

(٥) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٦٤).

ميادين غرناطة، وكانت تُعقَدُ به الحفلات القومية، ولا سيما حفلات الفروسية[1]. وهو من المعالم الأثرية الأندلسية الباقية إلى اليوم[2]. وقد ذكره بلباس دون الحديث عنه[3].

٣ ـ **ميدان النصر** : يُسَمَّى بالإسبانية Paseo de Triunfo ، وقد ذكره عنان دون أن يقول شيئاً عنه[4].

٤ ـ **ميدان الأجباب**: يُسَمَّى بالإسبانية Plaza de lòs Aljibes، وقد ذكره عنان دون أن يتحدث عنه بشيء[5].

رباطات غرناطة وزواياها:

كانت الرباطات تقام خارج مدينة غرناطة، وكان الأتقياء المؤمنون يتّخذونها مقرّاً لإقامتهم، وكانوا يُدْفَنُوْنَ فيها متى داهمهم الموت[6]. ولم تكن تُحْصَى لكثرتها بغرناطة[7]. وقد هدم الإسبان عدداً كبيراً منها بعد أن سقطت غرناطة في أيديهم[8]. ويتألّف الرباط من صحن، ومن عشرات الغرف المنفردة حوله، ومن الطبقات التي تعلو جوانبه، وينتهي بجامع كبير وصومعة مستديرة للأذان. وبمعنى آخر، هو عبارة عن مدرسة يُعَلَّمُ فيها تفسيرُ القرآن الكريم والحديث الشريف وكتب اللغة وشعر المواعظ، ومكانٍ يُقيم فيه المرابطون احتساباً للمرضى، ودارٍ استنساخٍ للمصاحف ومجامع الحديث وكتب الفقه، ومستشفى للمَرْضَى، ودارٍ المسافرين، وثكنةٍ لحراسة الثغور وحمايتها. وتكون فيه مكتبة جدارية بها النسخُ الأمّهاتُ التي يُرْجَعُ إلى نصوصها الصحيحة وتُقَابَلُ عليها النصوصُ المنتسخة[9].

والزاوية عبارة عن مبنى أو عدة مبانٍ تُقام حول ضريح، وفيها مُصَلّى صغيرٌ مع

---

(١) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٧٠).

(٢) ابن الخطيب: كناسة الدكان (ص ٥٩، حاشية ٢).

(٣) بلباس: الأبنية الإسبانية الإسلامية (ص ١٢٤).

(٤) عنان: الآثار الأندلسية (ص ١٦٤)

(٥) المرجع نفسه (ص ١٨٨).

(٦) Torres Balbás. Rábitas hispanomusulmanes, Al-Andalus, XIII, 1948 (P 476).

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى (ج٥ ص٢٠٨).

(٨) Torres Balbás Rábitas hispanomusulmanes, (P 476)

(٩) كحالة: دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونية بدمشق ١٩٧٣ (ص ٥٨ ـ ٥٩).

محرابه، وقاعةٌ لتدريس الدين، وغرف للضيوف والتلاميذ والغرباء، وبقربها مقبرة لأهل الورع[1]. وقد عرَّف عمر رضا كحالة الزاوية بأنها مدرسة للدراسة المتوسطة، أي هي أعلى درجة من تعليم الكُتّاب (المدرسة الابتدائية) وأقلّ درجة من تعليم المدارس (تختصُّ المدرسة بالتعليم الثانوي؛ لأن الجامع يختصُّ بالتعليم العالي وتتنوّع فيه حلقات الدروس). وقد تكون مدرسة بين نهاية الابتدائي ونهاية الثانوي. وهي عبارة عن مبانٍ يتوسّطها ضريح الشيخ المُؤسِّس[2]. وقد أشار الأمير عبد الله إلى زاوية كانت قائمة بغرناطة عندما شرع زاوي بن زيري ببناء المدينة المذكورة، ولم يذكر اسمها ملمحاً إلى أنَّ زاوي وجماعته شرعوا ببناء غرناطة في مكان تحدّه الزاوية من الشمال أو الجنوب؛ لأن الفحص أمامه لجهة الغرب والجبل وراءه لجهة الشرق[3]. وهناك زوايا أخرى أقيمت خارج غرناطة، ويعود بعضها إلى عصر متأخّر عن بني زيري، ولا ضَيْر من ذكرها وهي:

١ - **زاوية ابن محروق**: تقع هذه الزاوية خارج غرناطة، وقد أسّسها شيخ المتصوّفة الفقيه أبو علي عمر بن المحروق في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي[4]. وذكرها المقري باسم «زاوية المحروق» في ترجمة ابْنَيْ القاضي الشريف أبي القاسم الحسين أحد شيوخ ابن الخطيب، دون أن يتحدّث عنها[5].

٢ - **زاوية العُقَاب**: تقع في جبل العُقَاب المُطِلّ على خارج غرناطة، وتبعد عن غرناطة ثمانية أميال، وهي زاوية شهيرة، وقد زارها ابن بطوطة برفقة الفقيه ابن المحروق[6].

٣ - **زاوية اللجام**: تقع في أعلى هضبة نجد[7].

---

(١) Torres Balbás. Rábitas hispanomusulmanes (P 477)

(٢) كحالة: دراسات احتماعية في العصور الإسلامية (ص ٦٩، ٧٩ - ٨٠)

(٣) ابن بلقين مذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٢).

(٤) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (ص ٦٧٢)

(٥) المقري؛ نفح الطيب ج ٥ ص ١٩٩).

(٦) ابن بطوطة. رحلة ابن بطوطة (ص ٦٧٢).

(٧) Torres Balbás. Contornos (P. 476 - 477).

مقابر غرناطة:

أقيمت مقابر غرناطة خارجها، وبالتحديد عند أبوابها[١]. وقد أَحْصَيْنا عشر مقابر لغرناطة، قد لا تكون كلها من عمل بني زيري، وهي:

١ ـ مقبرة باب إلبيرة: هي إحدى المقابر القديمة بغرناطة، وقد سُمِّيَتْ بمقبرة العسّال، نسبة إلى ابن العسال الذي أُلْحِدَ بها، على حَدِّ قول ابن الخطيب وهو يترجم له: «توفي، رحمه الله، يوم الاثنين لِعَشْرٍ خَلَوْنَ من رمضان عام سبعة وثمانين وأربعمائة، وأُلْحِدَ يوم الثلاثاء بعده بمقبرة باب إلبيرة بين الجَبّانتين، ويعرف المكان إلى الآن بمقبرة العَسّال»[٢]. ولشهرتها وانفرادها عن غيرها من مقابر غرناطة، سَمّاها الحميري مقبرة أغرناطة، وحدَّد موقعها غربيَّ غرناطة: «ومقبرة أغرناطة بِغَرْبِيِّها عند باب إلبيرة»[٣]. وقد دفِنَ بها عدد كبير من رجالات غرناطة المشهورين الذين ورد ذكرهم في مؤلَّفات الأندلسيين[٤]. وفي عام ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤ م أي بعد ثلاث سنوات من سقوط غرناطة النهائي في يد الإسبان، زار الرحّالة الألماني منزر غرناطة، فرأى مقبرتها الكائنة عند باب إلبيرة كبيرة، ووجد القسم القديم منها مزروعاً زيتوناً، ووصف قبور الأغنياء فيها بقوله: كان القبر منها محاطاً بأربعة جدران، حجارتها غالية الثمن، فتخال أنك في إحدى حدائق غرناطة الفيحاء[٥].

٢ ـ مقبرة السَّبِيْكة: سُمِّيَتْ باسم السَّبِيْكة وهي القِمّة التي أقيمت عليها الحمراء، وهي مقبرة كبيرة[٦]. وكانت مدفن بني نصر[٧].

---

(١) Torres Balbás: Musallà y Sarıa's (P 168)

(٢) ابن الخطيب. الإحاطة (ج٣ ص ٤٦٤)

(٣) الحميري· الروض المعطار (ص ٤٥)

(٤) ابن الخطيب. الإحاطة (ج١ ص ١٦٨، ٢٨٦، ٤٤٤، ٥٠٠) و(ج٣ ص ٣١، ٣٧٣، ٤٠٠، ٥٢٦، ٥٤٦، ٥٤٨) و(ج٤ ص ١٠١، ١٠٣، ١٠٧، ١٤٧، ٢٣٧، ٤٠١، ٤٢٢)؛ النباهي المرقبة العليا (ص ١١٠، ١٤٩)؛ المقري· نفح الطيب (ج٦ ص ٨٨، ٢٦٨).

(٥) Munzer Vıaje por Espana y Portugal (1494 - 1495) Traduccíón José López Toro, Madırd, 1951 (P 39 - 40), Balbas Cementeriosˌhispanomusulmanes, Al-Andalus,Vol XXII, fasc, I, Madrid - Gra--nada 1957, (P 135 - 143)

(٦) Torres Balbás Rábitas hıspanomusulmanes, (P. 185)

(٧) ابن الخطيب· الإحاطة (ج١ ص ٥٥٤) و(ج٣ ص ٣٤١) و(ج٤ ص ٢٤٤) واللمحة البدرية (ص ٦٨ - ٧٦).

٣ ـ **مقبرة ربض البيّازِين**: ذكرها ابن الخطيب في خبر وفاة فضل بن محمد ابن فضيلة المعافري، فقال: توفي عام ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م، ودفن بمقبرة ربض البيّازِين[١]. وذكرها الرحّالة الألماني منزر وقال: كانت تحتلّ قسماً كبيراً من انحدار جبل مدينة غرناطة، الذي يقع عليه ربض البيّازِين[٢].

٤ ـ **روضة باديس بن حبوس**: ذكرها ابن الأبار في خبر وفاة أبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن سعيد بن جودي السَّعْدي، فقال: «توفي ودفن بروضة باديس بن حبوس، وذلك بعد الثلاثين وخمسمائة»[٣].

٥ ـ **مقبرة شَقَسْتِر**: وتُسَمَّى بالإسبانية Socaster، وكان موقعها بجانب حائط القصبة القديمة[٤]. وقد ذكرها ابن الخطيب في خبر وفاة سهل بن محمد بن مالك الأزدي، فقال: توفي سهل بن مالك بغرناطة سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م، ودفن بمقبرة شقستر[٥].

٦ ـ **روضة الجنان**: كان موقعها داخل الحمراء، شرقيَّ المسجد الجامع، وكانت تتصل بدار سلاطين بني نصر، وكانت مدفناً لهم[٦]

٧ ـ **مقبرة الغرباء**: كان موقعها عبر الوادي تجاه قصور ربض نجد[٧].

٨ ـ **مقبرة باب الفَخّارِين**: كانت خارج أسوار مدينة غرناطة في أسفل السفح بجانب القصور الملكية[٨].

٩ ـ **مقبرة ابن سهل بن مالك**: ذكرها ابن الخطيب مكتفياً بالقول: كانت مقبرة

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة (ج٤ ص ٢٥٧).

(٢) Munzer. viaje por Espana y Portugal (P. 40)

(٣) ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي الصدفي (ص ٢٨٤).

(٤) Torres Balbás. Rábitas hispanomusulmanes, (P 184).

(٥) ابن الخطيب. الإحاطة (ج٤ ص ٢٨٦).

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٣٧٩، ٥٦٦) واللمحة البدرية (ص ٥٨، ٨٧)

(٧) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ٢٨٤)؛ Torres Balbás. Cementerios hispanomusulmanes, (P. 132, 185).

(٨) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٩٤)؛ Torres Balbás· Cementerios hispanomusulmanes, (P 185 - 186)

شهيرة[1]. وقيل: اسمها مقبرة سهل بن مالك[2]. وهكذا ذكرها بلباس، وقال إنَّ أقدم ما أقيم من هذه المقبرة يقع خارج باب إلبيرة، وكان يزرع زيتوناً[3].

١٠ ـ مقبرة الفقيه سعد بن مالك: كانت أشهر مقابر مدينة غرناطة. وكانت توجد في ضواحي باب إلبيرة، وكان القسم القديم منها في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي قد زرع زيتوناً، والقسم الباقي كان خالياً من الشجر[4].

ونحن بدورنا نرجّح أن تكون هذه المقبرة هي نفسها مقبرة ابن سهل بن مالك، وأن يكون بلباس قد صَحّف اسمها.

وخلاصة ما توصّلْتُ إليه في هذا الباب هي أنّ مجتمع غرناطة كان يتكوّن من عناصر مسلمة تنحصر في البربر والعرب والمولَّدين، وعناصر غير مسلمة تنحصر في المُسْتَعْرَبِيْن واليهود، وأن عدد سكان مدينة غرناطة عند استيلاء بني زيري عليها كان ينوف على الثلاثين ألفاً، كونها آنذاك بلدة كبيرة، ثم تزايد هذا العدد عندما حوّلها بنو زيري إلى مدينة وعاصمة لملكهم. فالبربر الذين تزعمهم زاوي بن زيري، لم يندمجوا في مجتمع الأندلس، وظلوا محافظين على بربريتهم، واستطاعوا أن يؤسسوا في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إمارة مستقلّة بغرناطة، وأصبح العنصر البربري في ظلهم بارزاً في سكان غرناطة. أما العرب، فكانوا من أبرز العناصر التي تَكَوَّنَ منها مجتمع غرناطة، وكانت لغتهم العربيةُ الفصحى اللغةَ الرسمية في مملكة غرناطة، بل لغة التفاهم بين أهلها. أما المولّدون، فإنهم بدأوا يشكّلون نواة هامة من مجموع أهالي البلاد منذ بداية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وكان لهم دور بارز في الزراعة والصناعة والإدارة والجيش، وعملوا على تطور التداخل الذي حصل بين لغتهم العربية التي اكتسبوها وبين الرومنثية لغةِ أمهاتهم وأجدادهم. أما المُسْتَعْرَبُوْنَ، فقد أتقنوا اللغة العربية إلى جانب لغتهم الرومنثية، ولعبوا دوراً هاماً في نقل الحضارة الإسلامية إلى الممالك الإسبانية، وكذلك اليهود، فإنهم اندمجوا في جميع طبقات مجتمع غرناطة، وأتقنوا اللغة العربية إلى جانب

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة (ج١ ص ١٠٨).

(٢) Dozy. Recherches (T. I, App. LXXI)

(٣) Torres Balbás: Contornos (P. 479)

(٤) Torres Balbás Cementerios Hispanomusulmanes (P 183)

لغتهم العبرية، واللغتين الرومنثية واللاتينية، وشاركوا في تقدم غرناطة من النواحي الاجتماعية والسياسية والفكرية والحضارية، وذلك من خلال المناصب العليا التي احتلوها في دولة بني زيري، سواء في القصر الملكي أو في الإدارات العامة. وقد كان مجتمع غرناطة يعاني من تناقض رهيب، بحيث عرف ثلاث طبقات، طبقة أرستقراطية تعيش حياة ترف ونعيم، وطبقة فقيرة تعيش في بؤس دائم، وثالثة تعيش وسطاً بين الاثنتين. ولم تزدهر الآداب في دولة بني زيري كما ازدهرت في سائر الإمارات؛ لأنَّ احتفال بني زيري بالأدب كان أقل من احتفال نظرائهم به. وان حظ غرناطة في عِلْمَيْ اللغة والنحو في عهد بني زيري كان أقل من حظ غيرها من حواضر الأندلس. وفي علوم الدين كالفقه والحديث والقراءات، بلغت غرناطة الغاية، ونبغ فيها علماء كثيرون. وكذلك الأمر بالنسبة إلى علوم التاريخ، والطب، والعروض والعدد والحساب والهندسة، والهيئة والفلك والنجوم. وكان نظام غرناطة الاقتصادي يعتمد على الجزية والخَرَاج والضريبة، وكان الدينار العملة الرئيسية، ثم يليه الدرهم. وكانت معظم أراضي غرناطة خصبة صالحة للزراعة، فيها سائر الفواكه الطيبة، إضافة إلى الزيتون الكثير، ويعود ذلك في الغالب إلى مرجها العظيم الاتساع.

وشهدت غرناطة في مجال الصناعة تقدماً امتازت به على غيرها من ممالك الأندلس، وأهم صناعاتها صناعة النسيج، وصناعة الرخام، وصناعة المعادن، وصناعة الزجاج، وصناعة الفخار، وصناعة الزيوت، وصناعة السفن، وصناعة الخمور والأنبذة. كذلك شهدت نشاطاً تجارياً على المستويين الداخلي والخارجي، وقد ساعد على قيامها بهذا الدور التجاري الهام ثلاثة أمور هي: وجود قيسارية بالحاضرة غرناطة، وانتشار الأسواق والفنادق والمتاجر والحمامات في كل مدن المملكة، وكثرة الخيرات. وكان لها عشرون باباً؛ ثمانية أبواب خارجية وهي: باب إلبيرة، وباب البنيدة، وباب البنود، وباب سيده، وباب الفخارين، وباب الدفاف، وباب مورور، وباب الرملة، واثنا عشر باباً داخلياً هي باب الشريعة، وباب الفرج، وباب غرناطة، وباب يعقوب، وباب البيازين، وباب فحص اللوز أو باب فج اللوزة، وباب الزيادة، وباب الموازين، وباب الغَدُوْر، وباب السلاح، وباب الطِّباق السبع، وباب العدل. وكان لها قصبة هامة، وسُوْرٌ أقامه بنو زيري ليحصّنوا به مدينتهم ويدافعوا عنها من أي هجوم طارىء من قبل العدو، وقد بنوه بالحجارة، وحصّنوه بالأبراج، وفتحوا فيه عدة أبواب. وكان لها قصر يحتل القسم الأعلى من القصبة، وقد بناه

باديس بن حبوس واتخذه مقراً له ولحاشيته، وكان في غاية الجمال والأبهة. كما كثرت المساجد بها حتى باتت لا تحصى. وكانت قيساريتها السوق الممتاز. وكثرت بها الحمامات والخانات، والقناطر. وكان فيها أربعة ميادين هي ميدان باب إلبيرة، وميدان باب الرملة، وميدان باب النصر، وميدان الأجباب. وكذلك أقيمت خارجَها الرباطاتُ، وكان الأتقياء يتّخذونها مقراً لإقامتهم، ولم تكن تحصى لكثرتها. كما تعددت الزوايا بها، والزاوية عبارة عن مبنى أو عدة مبان تقام حول ضريح، وفيها مُصَلّى صغير مع محرابه، وقاعة لتدريس الدين، وغرفة للضيوف والتلاميذ، وبقربها مقبرة لأهل الورع. كما أقيمت مقابرها عند أبوابها، وقد أحصيْنا لها عشر مقابر هي، مقبرة باب إلبيرة، ومقبرة السبيكة، ومقبرة ربض البيازين، وروضة باديس بن حبوس، ومقبرة شُقَشْتَر، وروضة الجنان، ومقبرة الغرباء، ومقبرة باب الفخارين، ومقبرة ابن سهل بن مالك، ومقبرة الفقيه سعد بن مالك.

الخاتمة

هدفي من هذه الأطروحة هو إبراز الصورة الحيّة التي كانت عليها غرناطة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، في ميادين الجغرافيا والتاريخ والحضارة. وقد توصّلْتُ إلى أنها كانت بلدة كبيرة عندما استولى عليها بنو زيري. وغرناطة كمدينة، فقد استحدثها بنو زيري في بداية حكمهم، فبدأ ببنائها زاوي بن زيري، وجعلها عاصمة لملكه. ثم أكملها حبوس بن ماكْسَنْ، وزاد في عمارتها ابنه باديس بن حبوس، وأصبحت مع الوقت مدينة كبيرة مستديرة، واتَّسعتْ بسكانها، وتَكَوَّنَ خارجَها أحد عشر ربضاً. واسمها أعجمي أي Granada باللسان الإسباني، ومعناه «رمانة» بلسان عجم الأندلس. وكانت تسمَّى، عندما فتحها المسلمون، غرناطة اليهود؛ لأن أهلها كانوا من اليهود. ثم سميت شام الأندلس أو دمشق الأندلس؛ لشبهها بدمشق في غوطتها الفيحاء وغزارة أنهارها وكثرة أشجارها. وهي من مَوْسطة الأندلس، وتتبع للإقليم الرابع من أقاليم الدنيا السبعة؛ لأن معظم مدن الأندلس في الإقليم الخامس. وتقع في مكان مرتفع في غاية الحسن، ويحدُّها من الجنوب جبل شُلَيْر، ومن الشرق جبل شُلَيْر وألمرية، ومن الشمال جيان، ومن الغرب لوشة ونهر شنيل. وقد خصَّها الله تعالى بطيب الهواء وغزارة الماء. وقد افتخر المؤرخون والجغرافيون والشعراء والأدباء، قدماءَ ومعاصرين، بجمالها، وأشادوا بذكر محاسنها. وكان بها متنزّهات تزيد من رونقها، وكان أهلها يرتادونها ليريحوا فيها أنفسهم من عناء التعب. وكان لها مرج شهير، شُبِّه بغوطة دمشق لكثرة ما فيه من مياه وأشجار وحدائق. كما وهبتها الطبيعة سبعة جبال وخمسة أنهار. وكان لها سبعة وعشرون عملاً.

وتوصَّلْتُ إلى أن بعض زعماء بني زيري قَدِمُوا من إفريقية وبلاد المغرب إلى

الأندلس، فأقاموا بغرناطة مملكة دامت حوالى ثمانين سنة. وكان مؤسس تلك المملكة زاوي بن زيري (٤٠٣ - ٤١٠ هـ/ ١٠١٢ - ١٠١٩ م)، وقد دخل قرطبة عام ٣٩٠ هـ/ ٩٩٩ م، ولعب دوراً كبيراً في الفتنة التي اندلعت بها عام ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٨ م، والتي عُرفت في التاريخ الأندلسي بالفتنة البربرية. وكان له دور بارز في وصول الخليفة المستعين ثانية إلى سدة الخلافة بقرطبة سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م، حيث حصل في عهده على إلبيرة، فانتقل وجماعته إلى إلبيرة في العام المذكور، وبنى غرناطة واتّخذها داراً للملك بدل إلبيرة، وذلك في سنة ٤٠٤ هـ/ ١٠١٣ م. وكان وهو بغرناطة، يتدخّل في شؤون الحكم بقرطبة، فشارك في خلع الخليفة المستعين السابق الذكر، وفي تعيين علي بن حمود مكانه عام ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦ م، وحارب خليفة قرطبة عبد الرحمن المرتضى عام ٤٠٩ هـ/ ١٠١٨ م. وفي عام ٤١٠ هـ/ ١٠١٩ م ارتحل إلى القيروان طمعاً بعرشها، وذلك بعد أن أمضى في الأندلس حوالى عشرين سنة. وإثر رحيله، تولّى مقاليدَ السلطة ابنُ أخيه، حبوس بن ماكْسَنْ (٤١٠ هـ - ٤٢٩ هـ/ ١٠١٩ - ١٠٣٧ م)، فاستبدَّ حبوسُ بالمُلْك وصار من أعظم ملوك الطوائف بالأندلس. وكان عدّواً لخليفة قرطبة المعتلي يحيى بن علي بن حمود، وأيَّد خلافة إدريس بن علي بن حمود بمالقة، وكان عدوّاً لصاحب إشبيلية القاضي ابن عباد، وتحالف مع زهير العامري صاحب ألمرية. وقَسَّمَ غرناطةَ وأعمالها على أقاربه، وأكمل بناء مدينة غرناطة وأقام له فيها بلاطاً فخماً. وأكثر وزرائه وكُتّابه شهرةً هو إسماعيل ابن نغرالة اليهودي، الذي توصل في عهده وعهد ابنه باديس من بعده إلى منصب وزير أول، وهو منصب لم يتبوأه أحد من اليهود في عهود الإسلام من قبل. وبموته عام ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م يصير الأمر بيد ابنه باديس بن حبوس (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ/ ١٠٣٧ - ١٠٧٤ م). وقد لاقى باديسُ مصاعبَ في بداية حكمه، فناوأه على سدّة الحكم بعضُ أقاربه. وسار على سَنَنِ أبيه حبوس في الطاعة لبني حمود أصحاب مالقة والجزيرة الخضراء. ثم تغلّب على مالقة عام ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م وخلع خليفتها المستعلي ابن حمود، وأضافها إلى غرناطة. وهزم زهيراً العامري صاحبَ ألمرية عام ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥ م بظاهر غرناطة. وتحالف مع معن بن صمادح صاحب ألمرية، ومع ابنه المعتصم ابن معن بن صمادح. ثم توتّرت العلاقات الودّيّة بينه وبين المعتصم، عندما اكتشف أن المعتصم يطمع في ضمِّ غرناطة إلى بلده ألمرية. وسار على خطى أبيه في محاربة بني عباد بإشبيلية. وكان كبير أمراء البربر

بالأندلس وأقواهم شوكة، وكان هؤلاء البربر يستنجدون به كلما داهمهم خطرٌ آتٍ من أمراء الأندلس. وتحالف مع أبي الوليد محمد بن جَهْوَر صاحبِ قرطبة، ومع بني ذي النون أصحاب طليلطة. وقاوم غارات فردلند الأول صاحب قشتالة، واستمرّ الخلاف بينه وبين ألفونسو السادس ابن فردلند الأول. وأنشأ جيشاً قوياً معظمه من قومه صنهاجة، وزاد في عمارة غرناطة، وأكمل تشييد قصبتها التي بناها أبوه حبوس. وشيَّد حصون غرناطة وحصَّن أسوارها. وأشهر وزرائه إسماعيل ابن نغرالة اليهودي، وابنه يوسف بن إسماعيل ابن نغرالة. وبموته عام ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤ م، يتسلّم حفيده عبد الله بن بلقين بن باديس مقاليد الأمور (٤٦٧ ـ ٤٨٣ هـ/ ١٠٧٤ ـ ١٠٩٠ م)، وأول ما قام به عبد الله هو تخلّصه من مناوئيه وتثبيت الوضع الداخلي. وساءت علاقته بأخيه الأكبر تميم بن بلقين، والي مالقة منذ أيام جده باديس؛ لأن تميماً لم يُرِدْ أن يعترف بسلطان أخيه عبد الله. وأدّى الخلاف بينهما إلى صراع عسكري، ثم سُوِّي الأمر بينهما. وساءت الحال بينه وبين المعتصم ابن صمادح، صاحب ألمرية، ثم تصالحا وأصبحا صديقين إلى وقت قدوم المرابطين. كذلك كانت علاقته سيئة بالمعتمد ابن عباد، صاحب إشبيلية، ثم أُزيلت الفتن بينهما، وجَدَّدا عقد الصلح. وعقد عبد الله اتفاقاً مع الملك الإسباني ألفونسو السادس على أداء الضريبة السنوية له، أسوة بنظرائه ملوك الطوائف، وتنازل له عن حصون وقلاع تابعة لغرناطة. ثم شارك في معركة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م، إلى جانب ملوك الأندلس والمرابطين، لمقاتلة ألفونسو، عندما شعر بالخطر الإسباني يداهمه، وكان النصر فيها لصالح المسلمين، أندلسيين ومرابطين. كما شارك في حصار حصن أليط عام ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ م؛ لاستخلاصه من أيدي ألفونسو السادس. وكان من نتائج ذلك الحصار أنْ كشف ابنُ تاشفين المرابطي استحالة بقاء ملوك الطوائف على تلك الحال من الضعف والانقسام، وأقدم على ضمِّ الأندلس إلى المغرب. وكانت غرناطة أول مملكة من ممالك الأندلس تسقط في يديه، ولمّا يَمْضِ عامان على ذلك الحصار. ويكون عبد الله أول ملك يُخْلع من ملوك الطوائف، وذلك في عام ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م. وبعده خُلع أخوه تميم في العام المذكور. وبعدهما بسنة، بدأت الممالك الأندلسية تتساقط تباعاً في أيدي المرابطين، وكان في مقدمتها مملكة بني عباد بإشبيلية.

ورأيت أنَّ مجتمع غرناطة كان يتكوّن من عناصر مسلمة تنحصر في البربر والعرب والمولَّدين، وعناصر غير مسلمة تنحصر في المُسْتَعْرَبِيْنَ واليهود، وأنّ هذا

الخليط لم يُفقِدْه الاندماجَ والعيش المشترك، بحيث كان كل عنصر يتأثّر بالآخـر. وكان عدد سكان مدينة غرناطة، عندما استولى عليها بنو زيري، ينوف على الثلاثين ألفاً، كونها آنذاك بلدة كبيرة، ثم تزايد هذا العدد عندما حوّلها بنو زيري إلى مدينة وعـاصمة لملكهم. وكـان هذا المجتمـع يعاني من تنـاقض رهيب، فَعَرَفَ ثـلاثَ طبقاتٍ؛ طبقة أرستقراطية تعيش حياة ترف ونعيم، وطبقة فقيرة تعيش في بؤس دائم، وثالثة تعيش وسطاً بين الاثنتين.

وتوصَّلْت إلى أن حظّ غرناطة في عهود بني زيري في الأدب واللغة والنحو كان أقلَّ من حظ غيرها من حواضر الأندلس. ولكنها بلغت الغاية في علوم الدين كالفقه والحديث والقراءات، وفي علوم التاريخ، والطب، والعروض، والعـدد والحساب والهندسة، والهيئة والفلك والنجوم.

واستنتجْتُ أنَّ نظام غرناطة الاقتصادي في دولة بني زيري كان يعتمـد على الجزية والخَراج والضريبة، وأنَّ الدينار كان العملة الرئيسية في المملكـة، ثم يليه الدرهم، وأنَّ معظم أراضي غرناطة كان خصباً صالحاً للزراعة، وفيه سائر الفواكـه الطيبة، إضافةً إلى الزيتون الكثير. كذلك شهدت غرناطة في مجال الصناعة تقدماً امتازت به على غيرها من ممالك الأنـدلس، وأهمُّ صناعـاتها النسيـج، والرخـام، والمعادن، والزجاج، والفخار، والزيوت، والسفن، والخمور والأنبذة.

كما شهدت نشاطاً تجارياً على المستويين الداخلي والخارجي، وكانت تصدّر الكثير من محاصيلها الزراعية ومنتجاتها الصناعية، وتستورد بالمقابل جميع البضائع التي كانت تحتاجها.

وفي ميدان العمران، رأيتُ أنَّ بني زيري كان لهم بـاعٌ في إقامـة المنشآت الحربية كالأبواب والقصبة والأسوار، والمنشآت المدنية كالقصر والقَيْسارية والميادين، والمنشآت الدينية كالمساجد والرباطات والمقابر.

هكذا حاولْتُ في صفحات هذا البحث أن أرسم الصورة التي كانت عليها غرناطة في عهود بني زيري، عسى أن أكون وفِّقْتُ في محاولتي هذه.

والله هو الموفِّق والمعين، وهو على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.



الفهارس العامة

١

فهرس قوافي الأبيات

٢

فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

٣

فهـرس الأمـم والقبـائـل والجماعات والطـوائف والبطون والفرق

٤

فهرس الأمكنة والبلدان والبقاع

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف القاف

حرف اللام

حرف الميم

ثبت
بأسماء المصادر والمراجع

أولاً

المصادر

١ ـ ابن الأبّار: (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، المتوفّى سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠): التكملة لكتاب الصلة (١ ـ ٢)، تحقيق الأستاذ عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي بمصر والمثنى ببغداد، ١٩٥٦.

٢ ـ ابن الأبّار: الحُلّة السِّيَرَاء (١ ـ ٢)، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٣.

٣ ـ ابن الأبّار: المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري بالقاهرة، دار الكتاب اللبناني ببيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩.

٤ ـ ابن أبي دينار: (أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المتوفّى نحو سنة ١١١٠ هـ/ ١٦٩٨ م/: المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق الأستاذ محمد شمام، المكتبة العتيقة بتونس، الطبعة الثانية، ١٩٦٧.

٥ ـ ابن أبي زرع: (على بن عبد الله الفارسي، المتوفّى سنة ٧٤١ هـ/ ١٣٤٠ م): الأنيس المطرب بروض القِرْطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، عني بتصحيحه وطبعه الأستاذ كارول تورنبرغ، دار الطباعة المدرسية بمدينة أوبسالة، ١٨٤٣.

٦ ـ ابن الأثير: (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الشيباني، المتوفّى سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م): الكامل في التاريخ (١ ـ ١٣)، دار صادر، بيروت، ١٩٨٢.

٧ ـ الإدريسي: (الشريف أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودي الحسني، المتوفّى

سنة ٥٦٠ هـ: ١١٦٥ م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (١ ـ ٢)، دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩.
٨ ـ (جمال الدين علي بن ظافر، المتوفَّى سنة ٦١٣ هـ/ ١٢١٦ م): بدائع البدائه، تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠.
٩ ـ الإصْطَخْري: (إبراهيم بن محمد الفارسي الكَرْخي، المتوفَّى سنة ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧ م): المسالك والممالك، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي القاهرة، ١٩٦١.
١٠ ـ الأصفهاني: (عماد الدين بن محمد، المتوفَّى سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١ م): خريدة القصر وجريدة القصر - قسم شعراء المغرب والأندلس، الجزء الثاني - تحقيق الأستاذين عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٦٩.
١١ ـ الإلبيري: (أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود، المتوفَّى نحو ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٨ م): ديوان أبي إسحاق الإلبيري، تحقيق الدكتور إميليو غرسية غومس، مدريد، ١٩٤٤.
١٢ ـ ابن بسام: (أبو الحسن علي الشَّنْتَرِيْني، المتوفَّى سنة ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أربعة أقسام في ثمانية مجلدات، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٧ ـ ١٩٧٩.
١٣ ـ ابن بَشْكُوَال: (أبو القاسم خلف بن عبد الملك، المتوفَّى سنة ٥٧٨ هـ/ ١١٨٣ م): الصلة (١ ـ ٣)، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري بالقاهرة، دار الكتاب اللبناني ببيروت، ١٩٨٩.
١٤ ـ ابن بطوطة: (شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطَّنْجي، المتوفَّى سنة ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧ م): رحلة ابن بطوطة وتُسمَّى تُحْفة النُّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠.
١٥ ـ البكري: (أبو عبيد الله بن عبد العزيز، المتوفَّى سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م): جغرافية الأندلس وأوروبا (من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري)، تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٨.

١٦ ـ ابن بُلُقِّيْن: (الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة، المتوفَّى بعد سنة ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م): مذكرات الأمير عبد الله المُسَمّاة بكتاب التبيان، تحقيق الأستاذ إ. ليڤي بروڤنسال، دار المعارف بمصر، ١٩٥٥.

١٧ ـ ابن جُبَيْر: (أبو الحسن محمد بن أحمد، المتوفَّى سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧ م): رحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩.

١٨ ـ ابن حزم: (أبو محمد علي بن أحمد، المتوفَّى سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٣ م): جمهرة أنساب العرب، تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢.

١٩ ـ ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي (١ ـ ٤)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠ ـ ١٩٨٣.

٢٠ ـ ابن حزم: طوق الحمامة في الأُلفة والأُلّاف، تحقيق الأستاذ فاروق سعد، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٢.

٢١ ـ ابن حزم: الفصل في المِلَلِ والأَهْوَاء والنِّحَل، خمسة أجزاء في مجلّدَيْن، المطبعة الأدبية بالقاهرة، ١٣١٧ هـ.

٢٢ ـ ابن حزم: فضائل الأندلس وأهلها (ثلاث رسائل لابن حزم وابن سعيد والشَّقُنْدي)، نشر الدكتور صلاح الدين المنجد، بيروت، ١٩٦٨.

٢٣ ـ الحُمَيْدي: (أبو عبد الله محمد بن فتوح الأزدي، المتوفَّى سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م): جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.

٢٤ ـ الحِمْيري: (محمد بن عبد المنعم، المتوفَّى سنة ٧٢٧ هـ/ ١٣٢٦ م): الروض المِعْطار في خبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، الطبعة الثانية، ١٩٨٠.

٢٥ ـ ابن حيان: (أبو مروان حيان بن خلف القرطبي، المتوفَّى سنة ٤٦٩ هـ/١٠٧٦ م): المقتبس من أنباء أهل الأندلس، الدكتور محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣.

٢٦ ـ ابن حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق الأستاذ عبد الرحمن الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥.

٢٧ ـ ابن خاقان: (أبو نصر الفتح بن محمد الإشبيلي، المتوفَّى سنة ٥٢٨ هـ/ ١١٣٤ م): قلائد العقيان، القاهرة، ١٢٨٤ هـ.

٢٨ ـ ابن خاقان: مطمح الأَنْفُس ومسرح التأنُّس في مِلَح أهل الأندلس، دراسة وتحقيق الأستاذ محمد علي شوابكة، دار عمار، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣.

٢٩ ـ الخُشَني: (أبو عبد الله محمد بن الحارث، المتوفَّى سنة ٣٦١ هـ/ ٩٧١ م): قضاة قرطبة، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢.

٣٠ ـ ابن الخطيب: (لسان الدين محمد بن عبد الله السُّلْماني، المتوفَّى سنة ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤ م): الإحاطة في أخبار غرناطة (١ ـ ٤)، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٧.

٣١ ـ ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بُوْيِع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية، القسم الثاني، تحقيق الأستاذ إ. ليڤي بروڤنسال، دار المكشوف، لبنان، ١٩٥٦.

٣٢ ـ ابن الخطيب: أعمال الأعلام أو تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثالث، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤.

٣٣ ـ ابن الخطيب: الحُلَل المَوْشيَّة في ذكر الأخبار المَرّاكُشِيَّة، مطبعة التقدّم الإسلامية بتونس، سنة ١٣٢٩ هـ. وهناك طبعة الرباط (١٩٣٦) بتحقيق الأستاذ علوش، مصدّرة بعبارة «مجهول المؤلِّف» وهي عبارة صحيحة؛ لأنه لا يَصِحُّ أنْ يُنْسَبَ هذا الكتاب إلى ابن الخطيب لأسباب عدة منها الصياغة والمضمون. ونحن اعتمدنا في أطروحتنا طبعة تونس لعدم توفر الطبعة الثانية.

٣٤ ـ ابن الخطيب: كُنَاسَةُ الدُّكّان بعد انتقال السكان (حول العلاقات السياسية بين مملكتي غرناطة والمغرب في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي)، تحقيق الدكتور محمد كمال شبانة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٦.

٣٥ ـ ابن الخطيب: اللمحة البدرية في الدولة النصرية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠.
٣٦ ـ ابن الخطيب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله)، نشر وتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، مطبعة جامعة الإسكندرية، سنة ١٩٥٨.
٣٧ ـ ابن خلدون: (أبو زيد عبدالرحمن بن محمد المغربي، المتوفَّى سنة ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م): تاريخ ابن خلدون، المُسَمَّى كتاب العِبَر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ثمانية مجلّدات في أربعة عشر جزءاً، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١.
٣٨ ـ ابن خلِّكَان: (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد، المتوفَّى سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م): وَفَيَاتُ الأعيان وأنباء أبناء الزمان (١ ـ ٨)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨.
٣٩ ـ ابن خير: (أبو بكر الإشبيلي المتوفَّى سنة ٥٧٥ هـ/ ١١٧٩ م): فِهْرِسة ابن خير (١ ـ ٢)، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري بالقاهرة، دار الكتاب اللبناني ببيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٩.
٤٠ ـ ابن دِحْية: (أبو الخطاب عمر بن حسن، المتوفَّى سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م): المُطْرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد الحميد والدكتور أحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع، بيروت، ١٩٥٥.
٤١ ـ ابن دَرّاج القَسْطَلِّي: (أحمد بن محمد، المتوفَّى سنة ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠ م): ديوان ابن دراج القَسْطلي، تحقيق الدكتور محمود علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ١٩٦١.
٤٢ ـ ابن الدَّلَائي: (أبو العباس أحمد بن عمر العُذْري، المتوفَّى سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م): نصوص عن الأندلس (من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك لابن الدلائي)، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، ١٩٦٥.

٤٣ ـ الذهبي صاحب كتاب تذكرة الحفاظ: (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، المتوفَّى سنة ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٨ م): سِيَرُ أعلام النُّبَلاء (١ ـ ٢٣)، تحقيق مجموعة من الأساتذة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١ ـ ١٩٨٥.
٤٤ ـ الذهبي: العِبَر في خَبَرِ مَنْ غَبَر (١ ـ ٤)، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، الكويت، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣.
٤٥ ـ ابن زيدون: (أبو الوليد أحمد بن عبد الله، المتوفَّى سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ م): ديوان ابن زيدون، شرح وتحقيق الأستاذ كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩.
٤٦ ـ ابن سعيد: (نور الدين أبو الحسن علي بن موسى، المتوفَّى سنة ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م): كتاب الجغرافيا، تحقيق الأستاذ إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٠.
٤٧ ـ ابن سعيد: المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب (١ ـ ٢)، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤.
٤٨ ـ السِّلَفي: (صدر الدين أحمد بن محمد الأصبهاني، المتوفَّى سنة ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م): أخبار وتراجم أندلسية مُسْتَخْرَجَة من معجم السِّفْر للسلفي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.
٤٩ ـ السُّيُوطي: (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، المتوفَّى سنة ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م): بُغْيَةُ الوُعَاة في طبقات اللغويين والنحاة، دار المعرفة، بيروت.
٥٠ ـ ابن شاكر: (محمد بن شاكر الكُتُبي الدمشقي، المتوفَّى سنة ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢ م): فَوَاتُ الوَفَيَات (١ ـ ٥)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤.
٥١ ـ الشَّرِيْشي: (أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن، المتوفَّى سنة ٦١٩ هـ/١٢٢٣ م): شرح مقامات الحريري (١ ـ ٢)، القاهرة، ١٣٠٦ هـ.
٥٢ ـ شيخ الرَّبْوة: (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي، المتوفَّى سنة ٧٢٧ هـ/ ١٣٢٧ م): نُخْبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع بمدينة بطرسبورغ في مطبعة الأكاديمية الامبراطورية، سنة ١٨٦٥.

٥٣ ـ صاعد الأندلسي: (أبو القاسم صاعد بن أحمد، المتوفَّى سنة ٤٦٤ هـ/ ١٠٧٠ م): طبقات الأمم، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٣٢.
٥٤ ـ الصفدي: (صلاح الدين خليل بن أَيْبَك، المتوفَّى سنة ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٣ م): الوافي بالوَفَيَات (١ ـ ٢٢)، الطبعة الثانية، ڤيسبادن ١٩٦٢ ـ ١٩٨٣.
٥٥ ـ الضَّبِّي: (أبو جعفر بن يحيى، المتوفَّى سنة ٥٩٩ هـ/ ١٢٠٢ م): بغية المُلْتَمِس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٧.
٥٦ ـ ابن ظافر: (جمال الدين أبو الحسن علي بن ظافر الأزدي، المتوفَّى سنة ٦١٣ هـ/ ١٢١٦ م): بدائع البدائه، تحقيق الأستاذ أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠.
٥٧ ـ ابن عبد ربه: (أبو عمر أحمد بن محمد، المتوفى سنة ٣٢٨ هـ/ ٩٤٠ م): العقد الفريد (١ ـ ٧)، شرح الأساتذة أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٩ ـ ١٩٦٥.
٥٨ ـ ابن عبد الحق: (صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، المتوفَّى سنة ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٨ م): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (١ ـ ٣)، وهو مختصر معجم البلدان لياقوت، تحقيق الأستاذ علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥.
٥٩ ـ ابن عِذَاري: (أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي، المتوفَّى نحو سنة ٦٩٥ هـ/ نحو ١٢٩٥ م، وقيل كان حيّاً في سنة ٧١٢ هـ/ ١٣١٢ م): البيان المغْرِب في أخبار الأندلس والمغرب (١ ـ ٤)، تحقيق الأستاذين ج. س. كولان و إ. ليڤي برڤنسال والدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
٦٠ ـ ابن العماد: (أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد، المتوفَّى سنة ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٨ م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١ ـ ٨)، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩.
٦١ ـ أبو الفداء: (عماد الدين إسماعيل بن علي، المتوفَّى سنة ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م): تقويم البلدان، تحقيق الأستاذين رينود وماك كوكين ديسلان، باريس، ١٨٥٠.
٦٢ ـ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ويعرف بتاريخ أبي الفداء (١ ـ ٤)، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى.

٦٣ ـ ابن فضل الله العمري: (شهاب الدين أحمد بن يحيى، المتوفَّى سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩ م): وصف إفريقية والمغرب والأندلس (مقتطف من كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري نفسه)، تحقيق الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، مطبعة النهضة بتونس، ١٣٣٩ هـ.

٦٤ ـ ابن الفقيه: (أبو بكر بن محمد الهمذاني، المتوفَّى نحو سنة ٣٤٠ هـ/ نحو ٩٥١ م): مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢ هـ.

٦٥ ـ القزويني: (زكريا بن محمد، المتوفَّى سنة ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت.

٦٦ ـ القَلْقَشَنْدي: (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي، المتوفَّى سنة ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م): صُبْحُ الأعشى في صناعة الإنشا (١ ـ ١٤)، شرحه وعلّق عليه الأستاذ محمد حسين شمس الدين والدكتور يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.

٦٧ ـ القَلْقَشَنْدي: قلائد الجُمَان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢.

٦٨ ـ ابن الكَرْدَبُوْس: (أبو مروان عبد الملك بن قاسم، المتوفَّى بعد ٥٧٥ هـ/ بعد ١١٧٩ م): تاريخ الأندلس المعروف بكتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، ١٩٧١.

٦٩ ـ مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١.

٧٠ ـ المَرّاكُشي: (محيي الدين عبد الواحد بن علي، المتوفَّى سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٥٠ م): المُعْجب في تلخيص أخبار المغرب من لَدُن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحّدين، ضبطه وصحّحه الأستاذان محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩.

٧١ ـ المراكشي: (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك، المتوفَّى سنة ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٣ م): الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (١ ـ ٦)، تحقيق الأستاذ محمد شريفة والدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣.

٧٢ ـ المَقْدسي: (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، المتوفَّى نحو سنة ٣٨٠ هـ/ نحو ٩٩٠ م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل، سنة ١٩٠٦.

٧٣ ـ المَقَّري: (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التِّلِمْساني، المتوفَّى سنة ١٠٤١ هـ/ ١٦٣١ م): نَفْحُ الطِّيْب من غصن الأندلس الرطيب (١ ـ ٨)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.

٧٤ ـ الناصري: (أبو العباس أحمد بن خالد، المتوفَّى سنة ١٣١٥ هـ/ ١٨٩٧ م): الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى (١ ـ ٩)، تحقيق الأستاذين جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤.

٧٥ ـ النُّبَاهي: (أبو الحسن علي بن عبد الله المالقي، المتوفَّى بعد سنة ٧٩٢ هـ/ بعد ١٣٩٠ م): تأريخ قضاة الأندلس أو المَرْقَبَة العُلْيا فيمن يستحقُّ القضاء والفتْيا، تحقيق الأستاذ إ. ليفي بروفنسال، دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٨.

٧٦ ـ ابن الوَرْدي: (زين الدين أبو حفص عمر بن مظفر، المتوفَّى سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩ م): تتمة المختصر في أخبار البشر، ويعرف بتاريخ ابن الوردي (١ ـ ٢)، تحقيق الأستاذ أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٠.

٧٧ ـ ياقوت: (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، المتوفَّى سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م): معجم البلدان (١ ـ ٥)، دار صادر، دار بيروت، ١٩٨٤.

المراجع

١ ـ أرسلان: (الأمير شكيب بن حمود، المتوفَّى سنة ١٣٦٦ هـ/ ١٩٤٦ م): الحُلَلُ السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية (١ ـ ٣)، دار مكتبة الحياة، بيروت.

٢ ـ أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٣.

٣ ـ الأهواني: (د. عبد العزيز): الزجل في الأندلس، القاهرة، ١٩٥٧.

٤ ـ الأوسي: (د. حكمة علي): فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٧١.

٥ ـ البستاني: (المعلم بطرس): معارك العرب في الأندلس، دار مارون عبود، بيروت، ١٩٨٧.

٦ ـ بيضون: (د. إبراهيم): الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٨.

٧ ـ حتي: (د. فيليب ود. أدورد جرجي ود. جبرائيل جبور): تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ١٩٧٤.

٨ ـ الحجي: (د. عبد الرحمن): أندلسيات، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٩.

٩ ـ الحفني: (د. محمود أحمد): زرياب أبو الحسن علي بن نافع موسيقار الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.

١٠ ـ خفاجة: (الأستاذ محمد عبد المنعم): قصة الأدب في الأندلس (١ ـ ٢)، بيروت، ١٩٦٢.

١١ ـ الرافعي: (الأستاذ مصطفى صادق): تاريخ آداب العرب، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، مصر، ١٩٤٠.

١٢ ـ الزِّركلي: (خير الدين): الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، (١ ـ ٨)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠.

١٣ ـ سالم: (د. السيد عبد العزيز ود. أحمد مختار العبادي): تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩.

١٤ ـ سالم: (د. السيد عبد العزيز): تاريخ مدينة ألمرية الأسلامية قاعدة أسطول الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩.

١٥ ـ سالم: (د. السيد عبد العزيز): تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٨.

١٦ ـ سالم: (د. السيد عبد العزيز): قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (١ ـ ٢)، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧١ ـ ١٩٧٢.

١٧ ـ سالم: (د. السيد عبد العزيز): المغرب الكبير (العصر الإسلامي) الدار القومية للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٦٦.

١٨ ـ ابن سودة: (الأستاذ عبد السلام بن عبد القادر): دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ١٩٦٠.

١٩ ـ الصعفي: (د. خالد): تاريخ العرب في إسبانيا (عصر المنصور الأندلسي)، دار الكاتب العربي.

٢٠ ـ طويل: (د. يوسف علي): مدخل إلى الأدب الأندلسي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩١.

٢١ ـ العبادي: (د. أحمد مختار): في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧١.

٢٢ ـ عباس: (د. إحسان): تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣.

٢٣ ـ عباس: (د. إحسان) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٤.

٢٤ ـ عنان: (الأستاذ محمد عبد الله): الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا

والبرتغال، مؤسسة الخانجي بالقاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦١.

٢٥ ـ عنان: (الأستاذ محمد عبد الله) الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية (وهو الجزء الثالث من كتاب دولة الإسلام في الأندلس)، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٨.

٢٦ ـ عنان: (الأستاذ محمد عبد الله) دولة الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي (وهو الجزء الثاني من كتاب دولة الإسلام في الأندلس)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٠.

٢٧ ـ عنان: (الأستاذ محمد عبد الله) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (وهو الجزء الرابع من كتاب دولة الإسلام في الأندلس)، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٨.

٢٨ ـ أبو الفضل: (د. محمد أحمد): تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية في العصر الأسلامي منذ إنشائها حتى استيلاء المرابطين عليها، تصدير الدكتور السيد عبد العزيز سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨١.

٢٩ ـ كحالة: (الأستاذ عمر رضا): دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونية بدمشق، ١٩٧٣.

٣٠ ـ الكعاك: (الأستاذ عثمان): البربر، مطبعة الترقي، القاهرة ـ تونس، ١٩٥٦.

٣١ ـ مؤنس: (د. حسين): فجر الأندلس (دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية)، القاهرة، ١٩٥٩.

٣٢ ـ المراكشي: (الأستاذ عباس إبراهيم): الإعلام بمن حلَّ بمراكش وأغمات من الأعلام (١ ـ ٥)، المطبعة الجديدة بفاس، الطبعة الأولى، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨.

٣٣ ـ مرزوق: (د. محمد عبد العزيز): الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الثقافة، بيروت.

٣٤ ـ مطلق: (الأستاذ ألبير): الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، سنة ١٩٦٧.

٣٥ ـ نصر الله: (د. سعدون عباس): دولة المرابطين في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥.

٣٦ ـ نعنعي: (د ـ عبد المجيد): الإسلام في طليطلة، دار النهضة العربية، بيروت.
٣٧ ـ =: تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦.
٣٨ ـ اليوسف: (د. عبد القادر أحمد): علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، منشورات المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ١٩٦٩.

المجلات

١ ـ أعراب: (د. الطرايسي أحمد): الأصوات القتالية والانهزامية في الشعر الأندلسي، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، إبريل ـ مايو ـ يونيو، ١٩٨١.

٢ ـ تورِّيس بلباس: (ليوبولدو): الأبنية الإسبانية الإسلامية، تعريب الآنسة علية إبراهيم العناني، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الأول، مدريد، ١٩٥٣.

٣ ـ الجراري: (د. عباس): أثر الأندلس على أوروبا في مجال النغم والإيقاع، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني عشر، نيسان، أيار، حزيران، ١٩٨١.

٤ ـ عاشور: (د. سعيد): الإسلام والتعريب، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الثاني، ١٩٧٩.

٥ ـ العبادي: (د. أحمد مختار): الإسلام في أرض الأندلس، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الثاني، ١٩٧٩.

٦ ـ العبادي: (د. أحمد مختار): من التراث العربي الإسباني، مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، العدد الأول، ١٩٧٧.

٧ ـ العبادي: (د. أحمد مختار) من التراث العربي الإسباني، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الثاني، ١٩٧٩.

٨ ـ عباس: (د. إحسان): أخبار الغناء والمغنين في الأندلس (١٣٨ ـ ٥٣٩ هـ)، مجلة الأبحاث السنة ١٦، الجزء الأول.

٩ ـ عبد الحميد: (د. سعد زغلول): علوم العرب القديمة، دراسة منهجية لبعض

النماذج، مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، العدد الأول، سنة ١٩٧٧.

١٠ ـ ابن غالب: (محمد بن أيوب الغرناطي، من أهل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي): قطعة من كتاب فرحة الأنفس (عن كُوَر الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة)، نشرها الدكتور لطفي عبد البديع في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثاني، مطبعة مصر، ١٩٥٥.

١١ ـ محمد: (د. سوادي عبد): تأثر الفكر الأندلسي بالحركة العلمية في المشرق الإسلامي، مجلة عالم الفكر، المجلد الثالث عشر، العدد الثاني، يوليو، أغسطس، سبتمبر، ١٩٨٢.

الموسوعات

١ ـ البستاني: (المعلم بطرس): دائرة المعارف (١ ـ ١١)، دار المعرفة، بيروت.

٢ ـ دائرة المعارف: (١ ـ ١٤)، بإدارة الدكتور فؤاد أفرام البستاني، بيروت، ١٩٥٦ ـ ١٩٨٣.

٣ ـ شلبي: (د. أحمد): موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (١ ـ ٦) مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، ١٩٧٨.

٤ ـ دائرة المعارف الإسلامية: (١ ـ ١٥)، نقلها إلى العربية الأساتذة أحمد الشنتناوي وإبراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس، دار المعرفة، بيروت.

٥ ـ وجدي: (د. محمد فريد): دائرة معارف القرن العشرين (١ ـ ١٠)، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

المراجع المعرّبة

١ ـ أشباخ: (يوسف المؤرخ الألماني): تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تعريب الأستاذ محمد عبدالله عنان، مؤسسة الخانجي، الطبعة الثانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨.

٢ ـ بروكلمان: (كارل): تاريخ الأدب العربي (١ ـ ٦)، نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار والدكتور رمضان عبد التواب والدكتور السيد يعقوب بكر، دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٧٧.

٣ ـ بروكلمان: (كارل) تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية الأستاذان نبيه فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٥.

٤ ـ جنثالث بالنثيا: (آنخل): تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الإسبانية الدكتور حسين مؤنس، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٥.

٥ ـ دوزي: (ر.) ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، نقله إلى العربية الأستاذ كامل كيلاني، القاهرة، ١٩٣٣.

٦ ـ علي: (الأستاذ سيد أمير): مختصر تاريخ العرب، نقله إلى العربية الأستاذ عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧.

٧ ـ فارمر: (هنري جورج): تأريخ الموسيقى العربية، نقله إلى العربية الدكتور حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٦.

٨ ـ لوبون: (د. غوستاف): حضارة العرب، نقله إلى العربية الأستاذ عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩.

٩ - ليڤي - بروڤنسال: (أ.): حضارة العرب في الأندلس، تعريب الأستاذ ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة ببيروت.

١٠ - مورينو جوميث: (مانويل): الفن الإسلامي في إسبانيا، نقله إلى العربية الدكتور لطفي عبد البديع والدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

١١ - هونكه: (زيغريد): شمس العرب تسطع على الغرب، نقله إلى العربية الأستاذان فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الآفاق الجديدة، الطبعة السادسة، ١٩٨١.

المراجع الأجنبية

1 - Bousquet (G.H): Les Berbères, Paris, 1974.

2 - Cagigas (Isidro de las): Los Mozárabes, Madrid, 1949.

3 - Dozy (R. P. A): Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides (1-3), Leyde, 1932.

4 - Dozy: Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge (1-2) 3 em édition, Amsterdam, Oriental press, 1965.

5 - Encyclopédie de l'Islam (1-5), Nouvelle édition, leiden, 1960-1986.

6 - Garcia Gómez (Emilio): Cinco poetas Musulmanes, Madrid, 1959.

7 - Garcia Gómez: Poemas Arábigoandaluces, cuarta ed. Madrid, 1959.

8 - Gaspar Remiro (Mariano): Historia de Murcia Musulmana, Zaragoza, 1905.

9 - Gonzalo Maeso (David): Garnáta al-Yahud (Granada en la historia del judaismo espanol), Universidad de Granada, 1963.

10 - Gonzalo Maeso: Manual de historia de la literatura hebrea, Madrid 1960.

11 - Gonzáles palencia (Angel) Historia de la literatura arábigo-espanola, Madrid, 1945.

12 - Hernández Jiménez (Félix): Estudios de geografia histórica

espanola (Munturi o Muntawri = Montaire), Al- Andalus. Vol. VI. Madrid- Granada, 1941.

13 - Huici Miranda (Ambrosio): La invasión de los Almorávides y la batalla de Zalaca, Hespéris, T. XL. 1° y 2°. trimestres, 1953.

14 - Huici Miranda: El sitio de Aledo, Miscelánea de estudios árabes y hebraicos, Ano 111, N° 3, Granada, 1954.

15 - Lafuente Y Alcántara (Emilio): Inscripciones árabes de Granada, Madrid, Imprenta Nacional, 1859.

16 - Lévi - Provençal (E.): Histoire de l'Espagne Musulmane (1-3), paris, Leiden, 1950- 1953.

17 - Lévi- Provençal (E.), Garcia Gómez (Emilio), Oliver Asín (Jaime): Novedades sobre la batalla llamada de Al- Zallaqa, Al-Andalus, Vol. XV, fasc. I, Madrid- Granada, 1950.

18 - Menéndez Pidal (Ramón): La Espana del Cid, madrid, 1947.

19 - Múnzer (Jerónimo): Viaje por Espana y portugal (1494-1495), Traduccion José López Toro, Madrid, 1951.

20 - Pérès (Henri): La poésie Andalouse en arabe classique au XI° siècle, paris, 1953.

21 - Pons Boigues (Francisco): Ensayos bio bibliográficos sobre los historiadores y geógrafos arábigo- espanoles, Madrid, 1898.

22 - Prieto Y Vives (A.): Los Reyes de Taifas, Madrid, 1926.

23 - Simonet Javier (Francisco) Descripción del reino de Granada bajo la dominación de los Nazaritas, Granada, 1872.

24 - Torres Balbás (Leopoldo): Cementerios hispanomusulmanas, Al-Andalus, Vol. XXII, fasc.1, Madrid- Granada, 1957.

25 - Torres Balbás; Contornos de las ciudades hispanomusulmanas, Al-Andalus, Vol. XV, fasc. 2, Madrid- Granada, 1950.

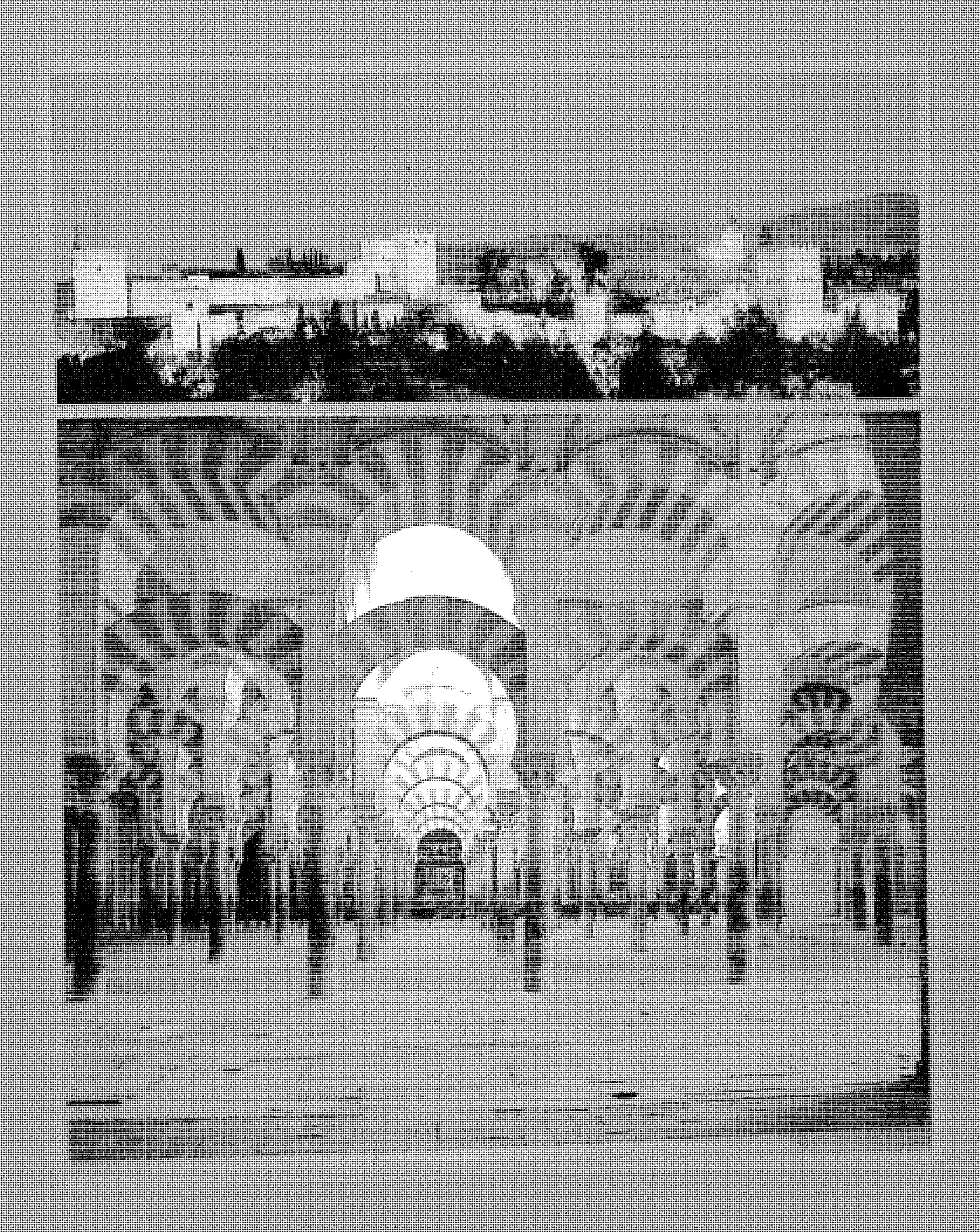
26 - Torres Balbás: Musallá y Šarī'a en las ciudades hispanomusulmanas. Al- Andalus, Vol. XIII, Madrid- Granada, 1948.

27 - Torres Balbás: Rábitas Hispanomusulmanas, Al- Andalus, Vol, XIII, Madrid- Granada, 1948.

28 - Torres Balbás: Extension y demografia de las ciudades hispanomusulmanas, Estudia islámica, Vol. III, Madrid, 1955.

29 - Turk (Dr. Afíf): El Reino de zaragoza en el siglo XI de Cristo (V de la Hégira), Madrid, 1978.

الفهرس



يطلب من : مكتبة الوحدة العربية
الأحباس - الدار البيضاء